Mngool.com

أرنست همنغواي

وداع للسلاح!..

نقلها إلى العربية
منير البعلبكي

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢-٢٧-٢٩١٠

A Farewell to Arms

By

Ernest Hemingway

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٥٩

الطبعة السابعة

تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٦

الكتاب الاول

الفصل الاول

في اواخر الصيف من ذلك العام كنا نقطن بيتا في قرية تطل ، عبر النهر والسهل ، على الجبال . وفي قاع النهر كانت حصى وحجارة جففتها الشمس واحالت لونها الى بياض ، وكانت المياه صافية ، تنطلق رشيقة زرقاء في القنوات . وكانت القوات المسلحة تمر بالمنزل ثم تهبط الطريق ، وكان الغبار الذي تثيره يغطي اوراق الاشجار بطبقة من ذرور . وكانت جذوع الاشجار مغبّرة ايضا ، وقد تساقطت اوراقها باكرا ، ذلك العام ، وكنا نرى القوات المسلحة تجتاز الطريق ، والغبار يتصاعد ، والاوراق تتساقط وقد اثارها النسيم ، والجنود يتقدمون ، لنعود بعد ذلك فنرى الطريق مقفرة ، بيضاء ، الا من أوراق الشجر .

كان السهل غنيا بالمحاصيل . كان ثمة كثير من جنائن الاشجار المثمرة ، ووراء السهل كانت الجبال سمراء عارية . كان القتال دائرا في الجبال ، وخلال الليل كان في استطاعتنا ان نرى وميض المدافع . وكان يخيل للمرء ، في الظلمة ، وكأنه برق الصيف ، ولكن الليالي كانت باردة ، ولم نكن نستشعر ان عاصفة توشك ان تهب .

وفي بعض الاحيان كنا نسمع القوات المسلحة تزحف في الظلام تحت النافذة ، والمدافع تسحبها الجرّارات . كان ثمة في الليل حركة نقل كثيفة . كانت الطرق حافلة ببغال مثقلة الجوانب بصناديق الذخيرة ، وبشاحنات رمادية تحمل رجالا ، وشاحنات اخرى تنقل احمالا مغطاة بالخيش فهي تجري في سرعة ابطأ . وفي النهار كانت تجتاز الطريق ايضا مدافع ضخمة تسحبها

جرّارات ميكانيكية ، وكانت خراطيم تلك المدافع الطويلة مغطاة بأغصان خضراء ، واغصان مورقة خضراء ، واوراق كرمة منثورة فوق الجرّارات . والى الشمال ، كان في ميسورنا ان نتطلع عبر احد الاودية فنرى غابة من اشجار الكستناء ، ونرى وراءها جبلا آخر على هذه الضفة من النهر . ولقد نشب قتال للاستيلاء على ذلك الجبل ايضا ، ولكنه لم يكن ناجحا . وفي الخريف ، عندما يبدأ المطر في الانهمار ، كانت اشجار الكستناء تتعرى من اوراقها جميعا ، فاذا بالاغصان جرداء ، وبالجذوع سوداء من اثر المطر . وكانت حقول الكرمة رقيقة ، عارية الاغصان ايضا ، وكان الريف كله نديا ، اسمر ، ميتا مع الخريف . كان ثمة ضباب فوق النهر ، وسحب فوق الجبل ، وكانت الشاحنات تثير الوحل فيتطاير على جانبي الطريق ، وكان الجنود المتدثرون بمعاطفهم مبلّلين موحلين . كانت بنادقهم ندية ، وتحت معاطفهم كان كل منهم يحمل محفظتي خرطوش جلديتين معلّقتين في مقدمة حزامه ، وكانت هذه المحافظ الجلدية الرمادية المثقلة بمجموعات من الخراطيش الدقيقة الطويلة من عيار ٦،٥ مليمتر تندفع ناتئة الى الامام ، تحت معاطف الجنود ، الى درجة جعلتهم يظهرون ، عند اجتيازهم الطريق ، وكأنهم يحملون في بطونهم اجنّة في الشهر السادس !

وكانت ثمة سيارات رمادية صغيرة تنطلق في سرعة بالغة . وكان يمتطي كلا من هذه السيارات ، عادة ، ضابط جالس الى جانب السائق ، وضباط آخرون في المقعد الخلفي . وكانت تلك السيارات تثير الوحل اكثر مما تثيره الشاحنات نفسها . واذا كان أحد الضباط في المقعد الخلفي ضئيلا جدا ، وجالسا بين جنرالين ، ضئيلا الى حد يجعلك لا ترى وجهه ولكن اعلى قبعته وظهره الضيّق ليس غير ، واذا كانت السيارة تنطلق في سرعة خاطفة غير مألوفة فأغلب الظن ان ذلك الضابط هو الملك . كان يسكن في اودين ، وكان يخرج بسيارته ، على هذا النحو ، كل يوم تقريبا ليطلع على سير الامور ، ولقد كانت الامور تسير من سيء الى أسوأ .

وفي مستهل الشتاء اقبل المطر الموصول ، ومع المطر اقبلت الكوليرا . ولكن القوم استطاعوا أن يكبحوا جماحها ، فلم يمت بسببها آخر الامر غير سبعة آلاف من رجال الجيش .

الفصل الثاني

وفي السنة التالية سُجّلت انتصارات عديدة · فقد تم الاستيلاء على الجبل القائم وراء الوادي · وعلى الكثيب الذي نَمَت فوقه غابة الكستناء ، ووراء السهل حُقّقت انتصارات ايضا ، في الهضبة القائمة الى الجنوب ، واجتزنا النهر في آب (اغسطس) ، ونزلنا في غوريتزيا في بيت فيه عين ماء ، وحديقة مسوّرة حافلة بكثير من الاشجار الكثيفة الظليلة ، وكان يتعرش الى جانب البيت نبات ارجواني من النوع المعروف بالـ « وسطار » · كان القتال دائرا ، الآن ، في الجبال المجاورة ، على مبعدة لا تبلغ ميلا واحدا · كانت المدينة جميلة جدا ، وكان منزلنا حسنا جدا · كان النهر يجري من خلفنا ، وكانت المدينة قد احتُلَّت في براعة فائقة ، ولكن الجبال القائمة وراءها امتنعت على الاحتلال ، ولقد كنت سعيدا جدا برغبة النمساويين ، على ما يبدو ، في العودة الى المدينة ، ذات يوم ، اذا ما وضعت الحرب اوزارها ، لانهم لم يقصفوها بمدافعهم ليدمروها ، مكتفين بقصفها على نطاق محدود ، ووفقا للاغراض الستراتيجية ليس غير · وكان سكان المدينة قد بقوا فيها · وكان ثمة مستشفيات ، ومقاه ، ومدفعية في الشوارع المنعزلة ، وبيتان من بيوت الدعارة ، احدهما للجند والآخر للضباط · وعند نهاية الصيف كانت الليالي الرطبة ، والقتال الدائر في الجبال خلف البلدة ، وفولاذ جسر السكة الحديدية البادية عليه آثار القنابل ، والنَفَق المحطم قرب النهر حيث نشب القتال ، والاشجار المحيطة بالساحة ، والشارع الطويل المزدان بالاشجار والمؤدي الى تلك الساحة ، هذا اذا لم نذكر وجود الفتيات

في المدينة ، ومرور الملك بسيارته وقد اصبح في الامكان الآن ، احيانا ، رؤية وجهه وجسده الضئيل ذي الرقبة الطويلة ولحيته الشائبة مثل لحية تيس ، كل اولئك مضافا اليه الاجزاء الداخلية غير المتوقعة من بيوت فقدت جدارا اثناء القصف المدفعي ، والجصّ وكسارة الحجارة في حدائقها واحيانـــا في الشارع ، وسير العمليات سيراً حسنا في الـ « كارسو » ـ اقول كل اولئك جعل هذا الخريف مختلفا جدا عن الخريف السابق عندما كنا في الريــف . كانت الحرب قد تغيرت ايضا .

كانت غابة السنديان ، على الجبل القائم خلف المدينة ، قد اختفت . وانما كانت تلك الغابة خضراء في الصيف عندما دخلنا المدينة ، أما الآن فلم يبق غير الارومات والجذوع المحطمة والارض الممزقة . وفي اواخر الخريــف قصدت ذات يوم الى حيث كانت غابة السنديان ، فرأيت سحابة تُقبل فوق الجبل . كانت تقبل في سرعة بالغة ، واصطبغت الشمس بصباغ اصفـــر غامق ، ثم امسى كل شيء رماديا ، وامست السماء محجوبة كلها ، وهبطت السحابة فوق الجبل ، فاذا بها تكتنفنا فجأة واذا بها ثلج . لقد انهمر الثلج منحرفا عبر الريح ، فحُجِبتِ الارض الجرداء ، ونتأت ارومات الشجــر . كان ثمة ثلج على المدافع ، وكان ثمة مجازات في الثلج ترتــد الى المراحيض التي خلف الخنادق .

وفي ما بعد ، حين هبطتُ الى المدينة ، راقبت الثلج يتساقط فيما كنــت أطلُ من نافذة بيت البغاء ، البيت المخصص للضباط ، حيث جلست مـــع صديق وكأسين نشرب زجاجة من الـ « آستي » . واذ تطلَّعنا الــى الثلج يتساقط بطيئا ثقيلا ادركنا ان كل شيء قد انتهى بالنسبة الى ذلك العـــام . فالجبال الواقعة في عالية النهر لم يتم الاستيلاء عليها ، كما ان أيا من الجبال الواقعة خلف النهر لم يُحتل . لقد تُرك ذلك كله الى العام القادم . ورأى صديقي كاهن زمرتنا يجوز الشارع ، ماشيا بحذر فوق الثلج نصف الذائب. فخفق النافذة لكي يلفت انتباهه . ورفع الكاهن بصره . فرآنا وابتســـم . وأومأ صديقي اليه بأن يدخل ، فهز الكاهن رأسه ومضى لسبيله . وفي تلك

الليلة ، وكنا نتناول الطعام مع سائر افراد الزمرة ، قدمت الينا السباغيتي*
فأكلناها فيسرعة وفي رصانة ، رافعين المعكرونة على الشوكة حتى تتدلى اطرافها واضحة لنخفضها بعد ذلك ونولجها افواهنا ، او مصطنعين طريقة الرفع والمص على نحو موصول ، ساكبين بأنفسنا الخمر من قارورة بحجم الغالون مغطاة بالعشب • كانت تلك القارورة تتأرجح في مَهدٍ معدني ، فكان كل منا يُميل عنق القارورة بسبّابته الى ادنى فتتدفق الخمر حمراء ، صافية بنيّة ضاربة الى الصفرة ، لذيذة ، في الكأس المحمولة باليد نفسها • وبعد ان التهمنا السباغيتي شرع الكابتن يمازح الكاهن ويتندر عليه •

كان الكاهن غض الشباب ، وكان الدم ينتشر في وجهه بسرعة • كان يرتدي بزة عسكرية مثلنا ، ولكنها تتميز بصليب من مخمل احمر داكن فوق جيب صدرته الرمادية الايسر • وكان الكابتن يتكلم ايطالية عامية ، لفائدتي المشكوك فيها ، لكي افهم فهما كاملا ، فلا يفوتني من الكلام شيء

– « الكاهن كان اليوم مع البنات » كذلك قال الكابتن ، ناظرا الى الكاهن والي ّ • وابتسم الكاهن ، وشاع الدم في وجهه ، وهز رأسه • كان هذا الكابتن كثيرا ما يمازحه •

وسألـه الكابتن :

– « اليس صحيحاً ؟ اليوم رأيت الكاهن مع البنات • »

فقال الكاهن :

– « لا » •

وسرّ الضباط الاخرون بهذا المزاح •

وتابع الكابتن موضحا لي :

– « الكاهن لم يكن مع البنات • الكاهن لا يجتمع مع البنات ابدا • »

وتناول كأسي فملأها ، ناظرا الى عينيّ دائما ، ولكن غير غافل عن الكاهن •

– « كل ليلة يكون الكاهن واحدا مقابل خمسة • » وضحك كل من كان جالسا الى المائدة •« هل فهمت ؟ كل ليلة يكون الكاهن واحدا مقابل خمسة » واومأ ايماءة وضحك بصوت عال • وتقبّل الكاهن ذلك كما يتقبّل المرء

* Spaghetti ضرب من المعكرونة •

نكتة من النكات ٠

وقــال المايجور :

ـ « البابا يريد ان يكسب النمساويون الحرب٠انه يحب فرانسوا جوزيف٠ ولا تعجب فالاموال تأتيه من هناك ٠ انا ملحد ٠ »

فسأله الليفتينانت :

ـ « هل قدّر لك ان تقرأ كتاب « الخنزير الاسود » ؟ سوف آتيك بنسخة منه ٠ لقد كان ذلك الكتاب هو الذي زعزع ايماني ٠ »

فقال الكاهن :

ـ « انه كتاب قذر فاجر ٠ انا لا استطيع ان اعتقد انه يعجبك حقا ٠»

فقال الليفتينانت ، موجها الكلام اليّ :

ـ « انه نفيس جدا ٠ انه يحدثك عن هؤلاء الكهان ٠ ولا ريب فى انــــه سوف يعجبك » ٠

فابتسمتُ للكاهن ، فرد لي الابتسامة عبر ضياء الشمعة ، وقال :

ـ « لا تقرأه » ٠

فقال لي الليفتينانت :

ـ « سوف آتيك به ٠ »

فقال المايجور :

ـ « جميع المفكرين ملحدون ٠ ومع ذلك فأنا لا اؤمن بالماسونية ٠ »

فأجابه الليفتينانتَ :

ـ « انا اؤمن بالماسونية ٠ انها منظمة نبيلة ٠ »

ودخل علينا شخص ما ، وحين فُتح الباب استطعت ان ارى الثلج يتساقط ٠ وقلــــت :

ـ « اما وقد تساقط الثلج فلن يكون ثمة هجوم بعد الان ٠ »

فقـــــال المايجور :

ـ « طبعا لن يكون ثمة هجوم ٠ ينبغي ان تذهب في اجازة ٠ يجب ان تذهب الى روما ، نابولي ، صقلية ٠٠٠ »

فقال الليفتينانت :

ـ « يجب ان يزور آمالفي ٠ سوف ازوّدك ببطاقات الى اسرتي في آمالفي٠

ولسوف تحبك وكأنك ولد من اولادها ٠ »

ـ « يجب ان يذهب الى باليرمو ٠»

ـ « لا ٠ يجب ان يذهب الى كابري ٠ »

فقال الكاهن :

ـ « حبذا لو تقصد الى آبروتزي ، وتزور اسرتي في كابراكوتا ٠ »

ـ « اصغِ اليه يتحدث عن آبروتزي ٠ ان ثمة ثلجا اكثر من هنا ٠ انه لا يريد ان يرى فلاحين ٠ دعه يذهب الى مراكز الثقافة والحضارة ٠ »

ـ « يجب ان ينعم بالصبايا الجميلات ٠ سوف اقدّم اليك عناوين بعض الاماكن في نابولي ٠ صبايا جميلات تصحبهن امهاتهن ٠ ها ! ها ! ها ! »

وبسط الكابتن يده وابهامها مرفوع الى اعلى وسائر اصابعها منتشرة كما تُنشر حين يصنع المرء صورا طيفية ٠ وكان قد ارتسم على الجدار ظل من يدِه ٠ وعاود الكلام في ايطالية عامية ، « اذهب انت هكذا ، » واشار الى ابهامه ، « وارجع هكذا ! » ومسّ البنصر ٠ وضحك القوم اجمعون ٠

وقال الكابتن :

ـ « انظر ! »

وبسط يده من جديد ٠ ومن جديد طبعت الشمعة ظلالها على الجدار ٠ وبدأ بالابهام المرفوع وسمّى ، وفقا للترتيب ، الابهامَ والاصابعَ والاربع الاخرى: « سوتوتينانتي (الابهام) تينانتي (السبابة) ، كابيتانو (الوسطى) ماغيور (الخنصر) ،تينانتي كولونيلو (البنصر) ٠ انت تذهب سوتوتينانتي! انت ترجع سوتو كولونيلو * ! »

وضحكوا جميعا ٠ كان الكابتن يحرز نجاحا كبيرا بالعاب الاصابع ٠ ونظر الى الكاهن وهتف :

ـ « كل ليلة يكون الكاهن واحدا مقابل خمسة ! » وضحكوا جميعا من جديد ٠

وقال المايجور :

ـ « يجب ان تذهب في اجازة ، في الحال » ٠

---

* اي تذهب برتبة ملازم ثان وترجع وقد كدت تصبح كولونيلا ٠ (المعرب)

وقـــال الليفتينانت :

ـ « اتمنى لو استطيع الذهاب معك لاريك الاشياء » ٠

ـ « حين ترجع ايتنا بفونوغراف ٠ »

ـ « ايت ببعض اسطوانات الاوبرا الجيدة ٠ »

ـ « ايتنا ببعض اسطوانات كاروزو ٠ »

ـ « لا ٠ لا تأتِ باسطوانات كاروزو ٠ انه يخور خوارا ٠ »

ـ « الا تتمنى لو كنت قادرا على ان تخور مثله ؟ »

ـ « انه يخور خوارا ٠ اقول انه يخور خوارا ٠ »

فقال الكاهن وسط صياح الاخرين :

ـ « اود لو تذهب الى آبروتزي ٠ ان ثمة مجالات قنص صالحة ٠ ولسوف تعجب بالناس ، وعلى الرغم من البرد فأن الجو صاحٍ وجاف ٠ وفي استطاعتك ان تنزل ضيفا على اسرتي ٠ ان والدي صياد مشهور ٠ »

فقـــال الكابتن :

ـ « هيا ٠ فلنذهب الى الماخور قبل ان يغلق ابوابه ٠ »

فقلت للكاهـــــن :

ـ « طاب مساؤك ٠ »

فقـــــال :

ـ « طاب مساؤك »

الفصل الثالث

حين رجعت الى الجبهة كنا لا نزال نحيا في تلك المدينة . كان في الريف المحيط بنا عدد من المدافع اكثر من ذي قبل بكثير ، وكان الربيع قد اقبل . كانت الحقول خضراء ، وكان ثمة على عرائش الكرمة أماليد صغيرة خضر . كانت الاشجار التي على جانبي الطريق تحمل اوراقا صغيرة ، وكان النسيم يهب من ناحية البحر . لقد رأيت المدينة ، وكثيبها متوّج بالقصب العنبق ، تحيط بها التلال ، وخلفها الجبال ـ جبال سمراء على سفوحها خضرة يسيرة . وفي المدينة ، كان ثمة مدافع اكثر وكان ثمة مستشفيات جديدة ايضا . كنت تلتقي بعض الانكليز ، واحيانا بعض الانكليزيات ، في الشارع ، وكان ثمة عدد اضافي من البيوت اصابته نيران المدافع . كان الجو دافئا ، وشبيها بجو الربيع ، وهبطت الطريق المحاطة بالاشجار التي جعلتها الشمس المنعكسة على البدار حارّة ، فوجدت انا كنا لا نزال نقطن البيت نفسه ، وان كل شيء فيه لم يتغير منذ ان غادرناه . كان الباب مفتوحا ، وكان جندي يجلس على مقعد طويل في الخارج ، تحت اشعة الشمس ، وكانت سيارة اسعاف تنتظر قرب الباب الجانبي، حتى اذا دخلت شمَمْت رائحة الرخام الذي فرشت به ارض البيت ، ورائحة المستشفى . كان كل شيء على الحال التي تركته عليها ، ماخلا اننا كنا ، الان ، في فصل الربيع . ونظرت من خلال باب الحجرة الكبيرة ، فرأيت المايجور جالسا الى مكتبه ، والنافذة مفتوحة واشعة الشمس تملأ الغرفة . انه لم يرني . ولم ادرِ أأدخل ام ارتقى السلم اولا واغتسل . ثم اني قررت آخر الامر ان ارتقي السلم .

كانت الغرفة التي كنت اقتسمها مع الليفتينانت رينالدي تطل على الفناء • وكانت النافذة مفتوحة ، وكان سريرها مغطى ببعض البطانيات ، وكانت حوائجي كلها معلقة على الجدار ، وقناع الغاز في علبة صفيح مستطيلة والخوذة الفولاذية على الوتد نفسه • وعند قدم السرير كان صندوق سفري المسطح•وعلى هذا الصندوق كان حذائي الشتوي العالي الملمع جلده بالدهن• وفوق السريرين علقت بندقيتي النمساوية القناصة بماسورتها المزرقة المثمنة الاضلاع ، وعقبها الخشبي الجميل الداكن المصنوع من خشب الجوز والملائم احسن الملاءمة لشكل الخد • وكان التلسكوب المناسب لها محفوظا ، على ما اذكر في الصندوق المقفل • وكان الليفتينانت رينالدي مستسلما للنوم في السرير الاخر • ولقد افاق حين سمعني امشي في الغرفة ، فجلس في سريره وقال :

ـ « هالو ! كيف كانت اجازتك ؟ »

ـ « رائعة • »

وصافحني ، وطوق عنقي بذراعه ، وقبلني •

فقلت :

ـ « أف ! »

وقال :

ـ « انك وسخ • يجب ان تغتسل• الىاين ذهبت، وما الذي فعلت ؟اخبرني كل شيء في الحال • »

ـ « ذهبت الى كل مكان • ميلانو ، فلورنسة ، روما ، نابولي ، فيلا سان جييوفاني ، مسيناتاورمينا ••• »

ـ « انت تتحدث مثل جدول مواقيت • هل كانت لك مغامرات لطيفة ؟ »

ـ « نعم • »

ـ « ايــن ؟ »

ـ « ميلانو ، فيرينتز ، روما ، نابولي ••• »

ـ « كفى • حدثني من غير مخادعة ، ايها كانت الفضلى • »

ـ « في ميلانو . »

ـ « كان ذلك لانك زرتها اولا . اين اجتمعت بها ؟ في ال « كوفا » ؟ الي اين ذهبت ؟ كيف كان شعورك ؟ اخبرني كل شيء في الحال . هل بقيت طوال الليل ؟ »

ـ « ليس هذا بالامر الخطير . ان عندنا ، الآن هنا ، فتيات جميلات . فتيات جديدات لم يقصدن الى الجبهة قبل اليوم قط . »

ـ « رائع . »

ـ « الا تصدقني ؟ سوف نذهب بعد ظهر اليوم ونرى . وفي المدينة عندنا فتيات انكليزيات جميلات . انا اليوم واقع في حب مس باركلي . سوف اصطحبك لزيارتها . واغلب الظن اني سوف أتزوج من مس باركلي . »

ـ « ان عليّ ان اغتسل ، واقابل المسؤولين . الا يعمل احد في هذه اللحظة ؟ »

ـ « منذ ان ذهبت لم نعرف غير قضمة الصقيع ، وتشقق القدمين واليدين من البرد ، واليرقان ، والسيلان ، والجروح الذاتية ، وذات الرئة ، والقروح الصلبة والطرية . وكل اسبوع يصاب احدهم بجراح من شظايا الصخور . وهناك عدد قليل جدا من المصابين بجراحات خطيرة . وفي الاسبوع القادم ستبدأ الحرب من جديد . ربما تبدأ الحرب من جديد . هذا ما يقولون . هل تعتقد اني احسن صنعا اذا تزوجت من مس باركلي ... بعد الحرب طبعا ؟ »

فقلت وانا املأ الحوض ماء :

ـ « بكل تأكيد . »

فقال رينالدي :

ـ « الليلة سوف تخبرني كل شيء . اما الان فيتعيّن علي ان استسلم الى الرقاد من جديد لكي اكون نضراً وسيماً عند اجتماعي بمس باركلي . »

ونزعت صدرتي وقميصي ، واغتسلت بالماء البارد في الحوض . وفيما انا افرك جسدي بمنشفة أجلت بصري في الغرفة ، وتطلعت الى الخارج ، من خلال النافذة ، والى رينالدي المستلقي ، مغمض العينين ، على سريره . كان فتى وسيماً ، في مثل سني ، وكان من مدينة آمالي . كان يحب عمله كجرّاح ، وكنا صديقين حميمين . وبينا انا انظر اليه ، فتح عينيه وسالني :

ـ « هل تحمل مالا ؟ »

ـ « نعم . »

ـ اقرضني خمسين ليراً . »

فنشّفت يديّ ، واخرجت حافظة نقوديمن داخل صدرتي المعلقة على الجدار وتناول رينالدي الورقة النقدية، وطواها من غير ان ينهض من فراشه ،ودسّها في جيب بنطلونه . وابتسم :

ـ « يجب ان اوقع في نفس مس باركلي اني رجل غني . انت صديقي العظيم الطيب ، وملاذي المالي الذي ارجع اليه عند الحاجة . »

فقلت :

ـ « اذهَب الى الجحيم . »

وفي تلك الليلة ، عندما تناولنا الطعام مع سائر افراد زمرتنا ، جلست الى جانب الكاهن،وكان مغضبا ومستاء على نحو مفاجيء لعدم ذهابي الى آبروتزي . كان قد كتب الى ابيه اني قادم . وكان القوم قد اتخذوا استعدادات كبيرة . واسفت انا ايضا مثل اسفه ، ولم استطع ان افهم لماذا لم اذهب الى هناك . كان ذلك هوماكنتارغب فيه ، ولقد حاولت ان اشرح كيف قادني امر الى امر . واخيرا تقبّل ذلك وادرك اني كنت في الحق راغبا في الذهاب ، وامحى الاثر السيء من نفسه . كنت قد شربت كثيرا من الخمر ، واحتسيت بعد ذلك القهوة وال « ستريغا » ، واوضحت له ـ مخمورا ـ كيف لا نوفق دائما الى صنع الاشياء التي نرغب فيها . لا ، اننا لا نصنع هذه الاشياء دائما .

وكنا نحن الاثنين نتحدث فيما كان الآخرون يتجادلون . اجل ، كنت قد رغبت في الذهاب الى آبروتزي . فانا لم اشهد قط ايا من هذه المواطن ، حيث الطرق متجمدة وقاسية كالحديد ، وحيث البرد شديد وجافّ ، والثلج جافّ وذروري ، وحيث يشهد المرء آثار اقدام الارانب في الثلج ، وحيث يرفع الفلاحون قبعاتهم وينادونك « يا سيدي » ، وحيث القنص موفور.انا لم اذهب الى موطن مثل هذا ، بل ذهبت الى دخان المقاهي ، والليالي التي تدور فيها الغرف والتي تحتاج فيها الى ان تنظر الى الجدار لتحمله على الوقوف ، الليالي المسلوخة في الفراش ، على نحو مخمور ، وانت مدرك ان ليس ثمة غير هذا ، والانطباعة الغريبة التي تغلب عليك حين تفيق من غير ان تعلم مَن الذي الى جانبك ، الليالي التي يكون فيها العالم كله غير واقعي ، من حولك ، ومثيرا الى حد يضطرك الى ان تستأنف من جديد ، غير عارف وغير مبال في الظلام ، واثقا ان هذا كل شيء ، كل شيء ، في لا مبالاة واستهتار . وفجأة

يستيقظ اهتمامك البالغ بالاشياء ، ثم الرقاد واليقظة ، والصباح ، والشعور بأن كل شيء قد انتهى ، وان كل شيء حادّ ، وقاسٍ ، وواضح ، وقد يعقب ذلك احيانا نزاع على السعر . وفي بعض الاحيان تقع استعادة للحبور ، والحب ، والدفء ، ويعقب ذلك فطور وغداء . واحيانا تتلاشى المتعة كلها ويصبح المرء سعيدا بالخروج الى الشارع ، ولكن يوما جديدا يبدأ دائما ، يعقبه ليل جديد . وحاولت ان أتحدث عن الليل ، وعن الفرق بين الليل والنهار ، وكيف ان الليل افضل ، الا اذا كان النهار نظيفا جدا وباردا ، ولكني لم استطع ان اشرح له ذلك ، كما لم استطع ان اشرحه الآن . ولكن كل من اختبر هذه التجربة يعرف ما اريد أن أقول . ولم يكن له مثل هذه الخبرة ، ولكنه فهم اني كنت صادق الرغبة في الذهاب الى آبروتزي ، ولكني لم اذهب ، وبقينا صديقين حميمين ، تجمع ما بيننا اذواق كثيرة مشتركة ، ولكن يمييز ما بيننا فَرق أيضا . كان يعرف دائما ما لا اعرفه ، ويعرف تلك الاشياء التي لا اكاد اتعلمها حتى اظهِر القدرة دائما على نسيانها . بيد اني لم اكن اعرف هذا آنذاك ، على الرغم من اني تعلّمتُه في ما بعد . وفي غضون ذلك ، كنا جميعا هناك ، نتناول طعامنا . وانتهينا من تناول الطعام ، ولكن المناقشة ظلت دائرة . وكفَفْنا نحن الاثنين عن الكلام ، وصاح الكابتن :

ـ « الكاهن غير سعيد . الكاهن غير سعيد بدون بنات . »

فقال الكاهن :

ـ « بل انا سعيد . »

فقال الكابتن :

ـ « الكاهن غير سعيد . الكاهن يريد ان يكسب النمساويون الحرب . »

واصغى الآخرون . وهزّ الكاهن رأسه ، وقال :

ـ « لا » .

ـ « الكاهن لا يريد الهجوم ابداً . الا تريدنا ان لا نهاجم ابدا ؟ »

ـ « لا . اذا كان هناك حرب فأحسب ان علينا ان نهاجم . »

ـ « علينا ان نهاجم . قل اذن : سوف نهاجم . »

وهز الكاهن رأسه .

وقال المايجور :

ـ « دعه وشأنه · انه فتى صالح · »
فقال الكابتن :

ـ « على اية حال ، فليس في استطاعته أن يقوم بشيء في هذا المضمار · »
ونهضنا كلنا ، وغادرنا المائدة·

الفصل الرابع

وفي الصباح ، أيقظتني المدفعية التي في الحديقة المجاورة ، فرأيت الشمس تدخل الغرفة من خلال النافذة · فنهضت من فراشي ، ومضيت الى النافذة وأطللت منها · كانت مجازات الحصباء مبلّلة ، وكان العشب رطبا بالندى · وانما اطلقت المدفعية نيرانها مرتين فكأن الهواء يندفع كل مرة وكأنه عاصفة فيهز النافذة ويموّج مقدمة بيجامتي · لم يكن في ميسوري ان ارى المدافع ، ولكنها كانت من غير ريب تطلق النار فوقنا مباشرة · كان من المزعج وجودها هناك ، ولكن من دواعي سرورنا انها لم تكن اكبر من ذلك · وفيما انا اطل على الحديقة سمعت صوت شاحنة تجري في الشارع · فارتديت ملابسي ، وهبطت السلم ، واحتسيت بعض القهوة في المطبخ ، ومضيت الى المرأب ·

كانت عشر سيارات مصطفة ، بعضها الى جانب بعض ، تحت السقيفة الطويلة · كانت سيارات اسعاف غليظة المقدّمات ، صلبة السطوح ، مدهونة باللون الرمادي ، مصنوعة على غرار السيارات المخصصة لنقل الاثاث وغيره · وكان الميكانيكيون يصلحون واحدة في الفناء · وكانت ثلاث اخرى في الجبال، في مراكز الاسعاف ·

وسألت احد الميكانيكيين :

ـ « هل صوّبت النار ، ذات مرة ، الى هذه المدفعية ؟ »

ـ « لا ، يا سيدي الملازم · انها مصونة بالتلة الصغيرة · »

ـ « وكيف تجري الامور ؟ »

ـ « ليست رديئة جدا • هذه الماكينة ليست جيدة ولكن الماكينات الاخرى لا تزال قادرة على العمل • »

ثم كفّ عن الشغل ، وابتسم :

ـ « هل كنت في اجازة ؟ »

ـ « نعـــم • »

ومسح يديه بصديريته وكشّر مبتسما :

ـ « هل قضيت وقتا طيبا ؟ »

وابتسم الآخرون كلهم ايضا •

فقلـــت :

ـ « قضيت وقتا رائعا • ما علة هذه الماكينة ؟ »

ـ « انها غير صالحة • كلما داويت جرحا سال جرح • »

ـ « وما علتها اليوم ؟ »

ـ « يجب ان نغيّر حلقاتها • »

وتركتهم يشتغلون ، وقد بدت السيارة بائسة فارغة ، مفتوحة المحـــرك ، منثورة القِطَع على مقعد الشغل ، ودخلتُ المرأب ناظرا الى كل من السيارات • كانت نظيفة نسبيا ، فبعضها قد غُسل حديثا ، وبعضها يعلوه الغبار • ونظرت الى الدواليب في عناية ، باحثا عن الجراح وعن رضّات الحجارة • وبدا كل شيء في حالة جيدة • كان واضحا ان وجودي هناك للاهتمام بالاشياء وعـــدم وجودي سيان • وكنت قد تخيّلت ان حالة السيارات ، وامكان الحصول على القطع الضرورية وعدمه ، وحسن انتظام نقل الجرحـــى والمرضى من مراكـــز الاسعاف ثم توزيعهم على المستشفيات المعينة على اوراقهم ـ اقول تخيّلت ان هذا كله مرهون بي انا الى حد بعيد • ولكن كان مـــن الواضح ان وجـــودي وعدمه سيان •

وسالت الميكانيكي الرقيب :

ـ « هل عانيت اية مشقة في الحصول على قطع التغيير ؟ »

ـ « لا ، يا سيدي الملازم • »

ـ « أين مستودع البنزين الآن ؟ »

ـ « في مكانه القديم • »

فقلت :

ـ « حسن · »

ورجعت الى البيت ، وجلست الى مائدة رفاقي في الطعام ، وشربت فنجانا آخر من القهوة · كانت القهوة ذات لون رمادي شاحب ،وكانت محلاة بالحليب المكثف · وفي الخارج ، كان الصباح الربيعي رائعا · كان ثمة طليعة ذلك الشعور بجفاف في الانف ، وهو الشعور الذي يفيد ان النهار سوف يكون حارا في ما بعد · وذلك اليوم ، زرت مراكز الاسعاف في الجبال ، ثم رجعت الى المدينة في ساعة متأخرة من الاصيل ·

لقد بدا كل شيء وكأنه يجري ، اثناء غيابي ، على نحو افضل · وتناهى الى سمعي ان الهجوم يوشك ان يُستأنف · وكانت الفصيلة التي نعمل ملحقين بها تعتزم ان تشن هجوما في مكان ما في المرتفعات ، ولقد كلفني المايجور ان انظم المراكز استعدادا للهجوم · وكانت الخطة تقضي بعبور النهر فوق المضيق الضيق ، وبالانتشار عند سفح الكثيب · وكان على السيارات ان تُحشد اقرب ما يكون الى النهر ، في مراكز مغطّاة · وكان طبيعيا ان يختار سلاح المشاة هذه المراكز ، ولكن كان من المفروض ان نقوم نحن بالتنفيذ · كانت تلك احدى المناسبات التي اوقعت في نفوسنا انطباعا زائفا باننا نشترك حقا في العمل الحربي ·

كنت مغبرّا جدا ، متسخا جدا ، فصعدت الى غرفتي لكي اغتسل · كان رينالدي قاعدا في فراشه وبيده نسخة من كتاب « قواعد اللغة الانكليزية » لهوغو · كان مرتديا ملابسه ، منتعلا حذاءه العالي ، وكان شعره يلمع ·

وقال عندما رآني :

ـ « رائع · سوف تذهب معي لترى مس باركلي · »

ـ « لا · »

ـ « بل ستذهب · ارجوك ان تذهب ، وان تساعدني على ان احدث في نفسها انطباعة جيدة · »

ـ « حسن جدا · انتظر حتى اغيّر ملابسي · »

ـ « اغتسل ، وتعال كما انت · »

واغتسلت ، ورجّلت شعري ، وانطلقنا ·

وقال رينالدي :

ـ « انتظر دقيقة · لعل من الخير ان نحتسي كأسا · »

وفتح صندوق سفره ، واخرج زجاجة ·

فقلت :

ـ « ارجو ان لا تكون زجاجة ستريفا · »

ـ « لا · انها غرابّا · »

ـ « حسن جدا · »

واترع كأسين ، فتناولناهما ، وسبّابتانا مرفوعتان · كانت خمر الغرابّا قوية جدا ·

ـ « كأسا اخرى ؟ »

فقلت :

ـ « لا بأس · »

وشربنا كأسا اخرى ، وابعد رينالدي الزجاجة ، وهبطنا السلم · كانت المدينة قائظة على من يمشي في الشوارع ، ولكن الشمس كانت قد اخذت في الانحدار ، وكان ذلك لطيفا جدا · كان المستشفى البريطاني دارة ضخمة بناها الالمان قبل الحرب · وكانت مس باركلي في الحديقة · كانت معها ممرضة اخرى · ورأينا ملابسهما البيضاء الخاصة بالممرضات من خلال الاشجار ، فتقدمنا نحوهما · والقى رينالدي التحية · وحييت انا ايضا ، ولكن في قدر اكبر من الرصانة ·

وقالت مس باركلي :

ـ « كيف حالك ؟ انت لست ايطاليا ، اليس كذلك ؟ »

ـ « أوه ، لا · »

كان رينالدي يتحدث مع الممرضة الاخرى · كانا يضحكان ·

ـ « انه لمن العجيب حقا ان تكون في الجيش الايطالي · »

ـ « انا لست في الجيش تماما · ان عملي في الاسعاف · »

ـ « ذلك عجيب ايضا · لماذا اقدمت على ذلك ؟ »

فقلت :

ـ « لست ادري · ليس ثمة دائما تفسير لكل شيء · »

ـ « أوه ، الا يوجد ؟ لقد نُشِّئتُ على الاعتقاد بأن ثمة مثل هذا التفسير ٠»

ـ « هذا رائع ٠ »

ـ « قل لي : هل يحسن بنا ان نستمر طويلا في مثل هذا الضرب من الحديث ؟ »

فقلت :

ـ « لا ٠ »

ـ « هذا اعفاء ٠ أليس كذلك ؟ »

فسألتها :

ـ « ما هذه العصا ؟ »

كانت مس باركلي فارعة الطول ٠ وكانت ترتدي ما بدا لي انه بزة الممرضات النظامية، وكانت شقراء ذات بشرة سمراء ضاربة الى الصفرة وعينين رماديتين٠

واعتقدت انها جميلة جدا ٠ كانت تحمل عصا رفيعة من اغصان نخيل الروطان، مثل سوطِ دُمْيةِ من سياط الفرسان الاطفال ، مغلفة بالجلد ٠

ـ « كانت لفتى قُتل في العام الماضي ٠ »

ـ « انا آسف اعظم الاسف ٠ »

ـ « لقد كان فتى لطيفاً جداً ٠ كان يعتزم ان يتزوجني ٠ وقد قُتل في السوم»

ـ « كان ذلك شيئا رهيبا ٠ »

ـ « هل كنتَ هناك ؟ »

ـ « لا ٠ »

فقالــت :

ـ « لقد سمعتُ عن ذلك سماعا ٠ لم يكن ثمة حقا ايما حرب من النوع الذي يدور هنا ٠ ولقد ارسلوا اليّ العصا الصغيرة ٠ ان امه هي التي ارسلتها الي٠ لقد اعادوها مع سائر اشيائه ٠ »

ـ « وهل انقضت مدة طويلة على خطبته اياك ؟ »

ـ « ثماني سنوات ٠ لقد ترعرعنا معا ٠ »

ـ « ولماذا لم تتزوّجا ؟ »

فقالت :

ـ « لست ادري . كان ذلك بلاهة من جانبي . لقد كان في ميسوري ان امنحه ذلك على اية حال . ولكني اعتقدت ان هذا سوف يكون سيئا بالنسبة اليه . »

ـ « فهمت . »

ـ « هل قُدّر لك ان تعشق في يوم من الايام ؟ »

فقلت :

ـ « لا . »

وجلسنا على احد المقاعد . ونظرت اليها .

فقلت :

ـ « ان لكِ شعرا جميلا . »

ـ « هل يعجبك ؟ »

ـ « كثيرا . »

ـ « كنت اعتزم ان اقصه عندما مات . »

ـ « لا . »

ـ « اردت ان افعل شيئا من اجله . انت ترى اني لم ابالِ بالمسألة الاخرى، ولقد كان في ميسوره ان يفوز مني بكل شيء . كان في ميسوره ان يفوز بكل ما يريد لو كنت اعرف . كان في استطاعتي ان اتزوج منه ، او ان افعل اي شيء آخر . انا اعرف الآن كل شيء . ولكنه اراد ، آنذاك ، ان يذهب الى الحرب ، ولم اكن ادري . »

ولم اقل شيئا .

ـ « كنت لا اعرف شيئا آنذاك . لقد حسبت ان ذلك سوف يكون اسوأ بالنسبة اليه . ولقد خُيل اليّ انه قد لا يقوى على احتمال هذا الضرب من الحياة ، ثم انه قُتل بعد ذلك طبعا ، وكان هذا نهاية القصة . »

ـ « لست ادري . »

فقالت :

ـ « أوه ، نعم . كان هذا نهاية القصة . »

ونظرنا الى رينالدي يتحدث الى الممرضة الاخرى .

ـ « ما اسمها ؟ »

ـ « فيرغوسون · هيلين فيرغوسون · ان صديقك طبيب ، أليس كذلك ؟»

ـ « نعم · انه بارع جدا · »

ـ « هذا رائع · انك نادرا ما تجد اطباء بارعين على مثل هذا القرب من الجبهة · ان هذا المكان يقع على مقربة دانية من الجبهة ، اليس كذلك ؟ »

ـ « من غير شك · »

فقالت :

ـ « انها جبهة بلهاء · ولكنها جميلة جدا · هل يعتزمون القيام بهجوم ؟ »

ـ « نعـم · »

ـ « واذن فسوف يكون لدينا عمل · ليس هناك عمل الآن · »

ـ « هل مارست التمريض منذ زمن بعيد ؟ »

ـ « منذ نهاية عام ١٩١٥ · لقد بدأت حين بدأ هو · واذكر انه استبدت بي فكرة بلهاء تقول انه قد يجيء الى المستشفى الذى اعمل فيه ··· وقد اصيب، في ما خيل اليّ ، بضربة سيف ، وطوّقت رأسه ضمادة ، او اصيب برصاصة في الكتف · شيء باهر ! »

فقلت :

ـ « ان هذه الجبهة هي الجبهة الباهرة · »

فقالت :

ـ « نعم · ان الناس لا يستطيعون ان يدركوا كيف كانت الحرب في فرنسا · ولو قد فعلوا اذن لما كان في ميسورها ان تستمر · انه لم يتلق ضربة سيف · لقد قذفوه بقنبلة مزقته اربا اربا · »

ولم اقل شيئا ·

ـ « هل تعتقد ان الحرب سوف تستمر الى ما لا نهاية ؟ »

ـ « لا · »

ـ « وما الذى سيوقفها ؟ »

ـ « انها سوف تتصدع في مكان ما · »

ـ « اننا نحن الذين سنتصدع · نحن الذين سنتصدع في فرنسا ، انهم لا يستطيعون الاستمرار في القيام بعمليات كالتي قاموا بها في الـ « سوم » من غير ان ينهاروا · »

فقلت :

ـ « انها لن تنهار هنا · »

ـ « هل تؤمن بذلك ؟ »

ـ « اجل · لقد ابلوا بلاء حسنا في الصيف الماضي · »

فقالت :

ـ « انهم قد ينهارون · ان كل امرىء قد ينهار · »

ـ « والالمان ايضا · »

فقالت :

ـ « لا · لا اظن ذلك · »

ومضينا الى حيث كان رينالدي ومس فيرغوسون ·

وسأل رينالدي مس فيرغوسون بالانكليزية :

ـ « هل تحبين ايطاليا ؟ »

ـ « حبا كثيرا · »

فهز رينالدي رأسه وقال :

ـ « لا افهم · »

فترجمتُ له العبارة قائلا : Abbastanza Bene

فهز رأسه وقال :

ـ هذا غير جيد ، هل تحبين انكلترة ؟ »

ـ « انا لا احبها كثيرا · اني اسكتلندية ، وهذا ما يفسر لك ذلك · »

فتطلع رينالدي اليّ مندهشا ·

فقلت بالايطالية :

ـ « انها اسكتلندية ، وهكذا فهي تحب اسكلندا اكثر مما تحب انكلترة · »

ـ ولكن اسكتلندة هي انكلترة · »

وترجمتُ هذا لمس فيرغوسون ·

فقالت :

– « انها لم تصبح بعد . »

– « حقا ؟ »

– « ولن تصبح ابدا . اننا لا نحب الانكليز . »

– « لا تحبين الانكليز ؟ لا تحبين مس باركلي ؟ »

– « أوه ، هذه مسألة اخرى . يجب ان لا تفهم كل شيء فهماً حرفيا الى هذا الحد . »

وبعد فترة تمنّينا لهما ليلة سعيدة وودعناهما ، وفيما نحن نسير نحو البيت قال رينالدي :

– « مس باركلي تفضلك عليَّ . هذا واضح جدا . ولكن الاسكتلندية الصغيرة لطيفة جدا . »

فقلت ، ولم اكن قد لاحظتها :

– « جدا . هل تحبّها ؟ »

فقال رينالدي :

– « لا . »

الفصل الخامس

وفي اصيل اليوم التالي ذهبت لازور مس باركلي كرة اخرى · انها لم تكن في الحديقة ، فشخصت الى باب الدارة الجانبي الذي تقف امامه سيـــارات الاسعاف · وفي داخل الدارة وجدت كبيرة الممرضات التي قالت لي ان مس باركلي منصرفة الى اداء وظيفتها · واضافت :

ــ « نحن في حرب كما تعرف · »

فقلت اني اعرف ذلك ·

فقالت :

ــ « أأنت الاميركي الذي يعمل في الجيش الايطالي ؟ »

ــ « نعم يا سيدتي · »

ــ « كيف اتفق لك ان اقدمت على ذلك ؟ لماذا لم تلتحق بقواتنا ؟ »

فقلت :

ــ « لست ادري · هل استطيع الالتحاق الان ؟ »

ــ « اخشى ان لا يكون ذلك ممكنا الآن· قل لي : لماذا التحقت بالايطاليين ؟»

فقلت :

ــ « لقد كنت في ايطاليا · وانا اتكلم الايطالية · »

فقالت :

ــ « أوه · انا اتعلّمها · انها لغة جميلة · »

ــ « يقول بعضهم ان في استطاعة المرء ان يتعلمها في اسبوعين · »

ــ « أوه ، انا لن استطيع ان اتعلمها في اسبوعين · لقد سلخت في دراستها

اشهرا حتى الآن · في استطاعتك ان تجيء وترى مس باركلي بعد الساعة السابعة اذا شئت · سوف تكون حرة عندئذ · ولكن لا تصحب معك كثيرا من الايطاليين · »

ـ « حتى ولو من اجل لغتهم الجميلة ؟ »

ـ « لا · ولا من اجل بزّاتهم العسكرية الجميلة · »

فقلت :

ـ « طاب مساؤك · »

ـ « A rivederci ، ايها الملازم · »

ـ « A rivederci »

وحيّيت ، ومضيت لسبيلي · ان من المستحيل ان تحيي الاجانب على الطريقة الايطالية من غير ارتباك · لقد اعتقدت دائما ان التحية الايطالية لم تُصنَع للتصدير ·

كان النهار حارا · وكنت قد صعَّدت الى النهر حتى رأس الجسر عند « بلافا » · وكانت الخطة تقضي بأن يبدأ الهجوم من هناك · وكان من المتعذر التقدم في الضفة المقابلة في السنة المنصرمة لانه لم يكن ثمة غير طريق واحدة تهبط من الشّعب الى جسر الزوارق، وكانت خاضعة لنيران المدفعية والرشاشات على مبعدة ميل واحد تقريبا · وهذه الطريق نفسها لم تكن عريضة الى حد يساعد على نقل كل ما هو ضروري للقيام بهجوم ، ولقد كان في استطاعة النمساويين ان يجعلوا منها مَجْزرا · ★ ومع ذلك فالايطاليون كانوا قد عبروا النهر وانتشروا بعض الشيء على الضفة الاخرى لكي يسيطروا على نحو ميل ونصف ميل من الجانب النمساوي من النهر · كانت منطقة قذرة ، وما كان ينبغي للنمساويين ان يسمحوا لهم بالاستيلاء عليها · واحسب ان ذلك كان بفضل ضرب من التسامح المتبادل ، لان النمساويين ظلوا يحتفظون برأس جسر في الجانب الادنى من النهر · وكانت الخنادق النمساوية منتشرة في مكان اكثر ارتفاعا ، عند سفح الكثيب ، وليس يفصل ما بينها وبين الخطوط الايطالية غير بضع ياردات · كان ثمة ، في سالف الايام ، مدينة صغيرة ،

★ المجزر او المسلخ ، حيث تذبح الخراف والابقار

ولكنها قد امست ركاما من كسارة الحجارة . كان هناك بقية محطة سكة حديدية ، وجسر ثابت محطم لا سبيل الى اصلاحه او الى استعماله لانه كان على مرأى البصر .

وهبطت الطريق الضيقة نحو النهر ، وتركت السيارة عند مركز الاسعاف، في ادنى الكثيب ، وعبرت جسر الزوارق الذي كان مصونا بكتف من الجبل ، ومضيت في محاذاة الخنادق في المدينة الخربة وعلى طول حافة السفح . كان كل امرىء في الملاجيء . وكانت ثمة صفوف من الصواريخ المعدة لطلب النجدة من المدفعية ، او لتوجيه الاشارات اذا ما قطعت الاسلاك التلفونية . لم يكن ثمة غير الهدوء ، والحرارة ، والقذارة . ونظرت عبر السلك فرأيت الخطوط النمساوية . ولكن العين ما كانت لترى احدا . وشربت كاسا مع كابتن عرفته في احد الملاجيء ، ثم عبرت الجسر راجعا .

كان القوم على وشك اتمام طريق عريضة تصعد في الجبل ثم تتكسر يمنة ويسرة هابطة نحو الجسر . وكانت الخطة تقضي بالبدء بالهجوم عندما يتم شق هذه الطريق . كانت تهبط خلال الغابة الجديدة للنزول ، على ان تسلك الشاحنات الفارغة ، والعربات ، وسيارات الاسعاف المثقلة ، وجميع وسائل النقل الراجعة ، الطريق القديمة الضيقة . كان مركز الاسعاف على الجانب النمساوي من النهر تحت حافة الكثيب ، وكان على حملة النقالات ان يعيدوا الجرحى عبر جسر الزوارق . ولسوف يكون الوضع على هذه الحال ايضا عندما يبدأ الهجوم . وكان يخيل الي ان الميل ، او نحو الميل ، الاخير من الطريق الجديدة - حيث تأخذ في الاستواء - معرض على نحو موصول لقذائف النمساويين . لقد بدا وكانها سوف تكون ورطة . ولكني وجدت مكانا تستطيع السيارات ان تأوي اليه بعد ان تجتاز تلك البقعة البشعة ، وان تنتظر فيه الجرحى الذين يحملون عبر جسر الزوارق .وكنت اتمنى لو اقود السيارة على الطريق الجديدة ولكنها لم تكن قد انجزت بعد . لقد بدت عريضة حسنة الصنع ذات انحدار معقول ، ومنعطفات تتراءى رائعة جدا حين تنظر اليها من خلال فجوات في الغابة على سفح الجبل . ولن يكون ثمة ايما خطر على سياراتنا المزودة بمكابح فولاذية جيدة ، وعلى اية حال فانها لن تكون ، في حال هبوطها الطريق ، مثقلة . حتى اذا عدت قدت السيارة مصعداً في الطريق الضيقة .

واوقف سيارتي اثنان من الجنود القر بينيين ✱ · كانت قنبلة قد سقطت ، وفيما نحن ننتظر سقطت ثلاث اخرى على الطريق · كانت تلك القنابل من النوع المعروف «بذوات السبعة والسبعين ،وقد احدثت اندفاعا ازيزيا في الهواء: انفجار قاس مشرق ، ووميض ، ثم دخان رمادي يجرف الطريق · واشار الينا الجنديان القربينيان بمتابعة السير · واذ مررنا حيث سقطت القنابل فقد اجتنبت المواطن الصغيرة المحطمة وشممت المادة المتفجرة القوية ، ورائحة الطين والحجارة المنسوفة ، والصوان المكسر حديثاً · واتجهت بسيارتي عائدا الى غوريتزيا ، الى دارتنا ، ومضيت ـ كما سبق مني القول ـ لزيارة مس باركلي التي كانت منهمكة في مهام العمل ·

وتناولت طعام العشاء في سرعة بالغة ، ومضيت الى الدارة حيث اقام البريطانيون مستشفاهم · كانت في الواقع دارة كبيرة جدا وجميلة ، وكانت حديقتها مزدانة باشجار رائعة · كانت مس باركلي جالسة على مقعد في الحديقة ، وكانت مس فيرغوسون معها · لقد بدتا سعيدتين برؤيتي ، وما هي الا لحظات حتى استأذنت مس فيرغوسون ومضت لسبيلها قائلة :

ـ « سوف اترككما معا ، انكما تنسجمان احسن الانسجام حين لا اكون بينكما · »

فقالت مس باركلي :

ـ « لا تذهبي ، يا هيلين · »

ـ « بل اني اؤثر الذهاب · هناك بضع رسائل يتعيّن عليّ ان اكتبها · »

ـ فقلت :

ـ « طاب مساؤك · »

ـ « طاب مساؤك ، يا مستر هنري · »

ـ « لا تكتبي اي شيء مما يزعج الرقيب · »

ـ « لا تقلقي · انا لن اكتب الا عن المكان الجميل الذى نعيش فيه ، وعن شجاعة الايطاليين البالغة · »

✱ Carabinieri وهم الجند المسلحون بالقربينات ، والقربينة Carbine ضرب من القدارات

ـ « واذن فسوف تفوزين بوسام • »

ـ « سوف يكون ذلك رائعا • طاب مساؤك ، يا كاثرين • »

فقالت مس باركلي :

ـ « سوف اراك بعد قليل • »

وتوارت مس فيرغوسون في الظلام •

ـ فقلت :

ـ « انها لطيفة • »

ـ « اوه ، نعم ، انها لطيفة • هي ممرضة • »

ـ « الست انت ممرضة ايضا ؟ »

ـ « اوه ، لا • اناشنيء يدعونه V. A. D ✱ نحن نعمل كثيرا • ولكن احدا لا يثق بنا • »

ـ « ولمَ لا ؟ »

ـ « انهم لا يثقون بنا حين لا يكون ثمة حوادث • ولكنهم يمنحوننا ثقتهم حين يتكاثر العمل • »

ـ « وما الفرق ؟ »

ـ « الممرضة اشبه بالطبيب • ان الفتاة تحتاج الى وقت طويل لكي تفوز بهذا اللقب • اما الـ V. A. D فتسلك طريقا مختصرة • »

ـ « فهمت • »

ـ « الايطاليون لا يحبون ان يروا النساءعلى مقربة دانية من الجبهة • وهكذا فاننا نسلك كلنا مسلكا خاصا جدا • اننا لا نغادر المستشفى ابدا • »

ـ « ولكن ، انا ، هل استطيع ان اجيء الى هنا ؟ »

ـ « اوه ، نعم • نحن لسنا معزولات عن العالم • »

ـ « ما رأيك فى اطّراح حديث الحرب هذا ؟ »

ـ « ذلك امر عسير • وليس ثمة مكان نستطيع ان نطّرحه فيه • »

ـ « فلنطرحه على اية حال • »

✱ وهي مختصر Voluntany Aid Detachment اي فرقة المتطوعات للمساعدة في المستشفيات •

ـ « حسن • »

وتبادلنا النظرات في الظلام • لقد وجدتها رائعة الجمال ، ولقد امسكت بيدها • ولم تعترض على ذلك ، فضغطت بيدي عليها ، ثم طوّقتها واضعا ذراعي تحت ذراعها •

فقالت :

ـ « لا • »

ولكني ابقيت ذراعي حيث كانت ، وقلت :

ـ « ولمَ لا ؟ »

ـ « لا • »

ـ فقلت :

ـ « بل نعم • ارجوكِ • »

وملْتُ عليها ، في الظلام ، لكي اقبلها • واحسست بوميض حاد لاسع • كانت قد لطمتني في قوة على وجهي • وكانت يدها قد اصابت انفي وعينيَّ ، واغرورقت عيناي من اثر ذلك بالدمع •

وقالت :

ـ « آسفة جدا ، لقد شعرتُ بأن لي افضلية ما • »

ـ « لقد كنتِ على صواب • »

فقالت :

ـ « انا آسفة الى حد فظيع • ولكن هذا الوجه من المسألة ، وجه « اجازة الممرضة في منتصف الليل » ، هو الذي لم استطع احتماله • انا لم اقصد الى ايذائك • بل انا لم اؤذك • أليس كذلك ؟ »

كانت تنظر اليَّ في الظلام • وكنت غاضبا ، ولكني مع ذلك هادىء جدا ، اذ توقّعت كل ما قد حدث كما يتوقع المرء حركة حجارة الشطرنج •

فقلت :

ـ « لقد احسنتِ صنعا • انا لا اجد اي بأس في ذلك البتة • »

ـ « يا للفتى المسكين ! »

فقلت ناظرا اليها :

ـ « انت ترين اني كنت احيا حياة مضحكة · واني اقطع الايام من غير ان اتكلم الانكليزية · والى هذا فأنت بارعة الجمال · »

ـ « لستَ في حاجة الى التلفظ بكثير من الهراء · لقد قلت اني آسفة · اننا منسجمان انسجاما حسنا · »

ـ فقلت :

ـ « اجل ، ولقد بَعُدنا بنفسنا عن الحرب · »

وضحكت · وكانت تلك اول مرة قُدِّر لي فيها ان اسمعها تضحك · لقد راقبت وجهها ·

وقالت :

ـ « انك حلو · »

ـ « لا ، لستُ كذلك · »

ـ « بلى، انت لطيف جدا ·واني لأتمنى لو اقبّلك اذا لم يكن لديك مانع · »

ونظرتُ في عينيها ، وطوّقتها بذراعي كما فعلت من قبل ، وقبلتها · لقد قبلتها في عنف ، وضممتها الى صدري بقوة ، وحاولت ان افتح شفتيها · كانتا مغلقتين في احكام · وكنت لا ازال مغضبا ، ولقد ارتعَشَت حين هصرتُها فجاءة · لقد ضممتُها اليّ ضماً شديداً ، وكان في ميسوري ان اسمع قلبها يخفق · وانفرجت شفتاها ،وارتدّ رأسها مستندا الى يدي ، ثم انخرطت في البكاء فوق منكبي ·

وقالت :

ـ اوه ، يا حبيبي · سوف تكون لطيفا معي ، أليس كذلك ؟ »

فقلت في ذات نفسي : ولكنماذا تعنى ، بحق الجحيم ؟ وداعبت شعرها ، واخذتُ اربّت على كتفيها · كانت مسترسلة في البكاء ·

ورفعت بصرها اليّ وقالت :

ـ « سوف تكون لطيفا معي ، اليس كذلك ؟ لاننا سوف نحيا حياة عجيبة · »

وبعدبرهة قصيرة مضيت معها الى باب الدارة · واجتازت هي البـاب ، ورجعت انا الى البيت · حتى اذا بلغتُ دارتنا ، صعدتُ الى الغرفـة · كـان رينالدي مستلقيا في فراشه · ولقد نظر اليّ قائلا :

ـ « وهكذا تحرز كل يوم تقدما مع مس باركلي ؟ »

ـ « نحن صديقان • »

ـ « انك لتبدو عليك تلك السيما العذبة التي تكون للكلاب عند النزُو ّ • »

ولم افهم الكلمة •

ـ « السيما التي تبدو على ماذا ؟ »

وشرح لي ما قصد اليه •

فقلت :

ـ « انك لتبدو عليك تلك السيما العذبة التى تكون للكلاب حين ••• »

ـ « اقلع عن ذلك • فلن تنقضي بضع دقائق حتى نتبادل الاهانات • »

وضحـــك •

ـ « طاب ليلك • »

ـ « طاب ليلك ، ايها الجرو الصغير • »

وصرعتُ شمعتَه ، وانسللت الى الفراش في الظلام •

ورفع وينالدي الشمعة ، واضاءها ، واستأنف مطالعته •

الفصل السادس

وغبتُ فى مراكز الاسعاف يومين . ثم انني رجعت في ساعة متأخرة فلم ار مس باركلي الا في مساء اليوم التالي . انها لم تكن في الحديقة ، فكان عليَّ ان انتظرها في مكتب المستشفى . كان ثمة كثير من التماثيل الرخامية النصفية المرفوعة على قوائم من خشب مدهون على طول جدران الغرفة التي اتخذوا منها مكتبا ، وكان الرواق الذي يؤدي اليه المكتب هو الآخر مزدان الجانبين بتماثيل مشابهة . كانت لها ميزة الرخام الكاملة التي تجعلها تبدو متماثلة . والواقع اني كنت دائما اجد فنّ النحت مُضجِراً الى ابعد الحدود ، ولكن التماثيل البرونزية تبدو أشبه بشيء ما . اما التماثيل الرخامية النصفية فتتراءى لي دائما وكأنها مقبرة . ومع هذا ، فقد كان ثمة مقبرة رائعة ، هي مقبرة بيزا . وكانت جنوى هي المكان الذي ينبغي ان تذهب اليه لترى التماثيل الرخامية الرديئة . وكانت الدارة مِلْكا لرجل الماني بالغ الثراء ، ولا ريب في ان تماثيلها النصفية قدكلفته اموالا طائلة . وتساءلت مَن الذي نحتها ، وما مقدار الاجر الذي تقاضاه . وحاولت ان ادرك هل كان اصحاب تلك التماثيل من افراد الاسرة ام لا . ولكنها كانت كلها تماثيل كلاسيكية على نحو متماثل . فليس في استطاعتها ان توقع في نفسك انطباعة ما .

وجلست على كرسي ، وقبعتي في يدي . وكان مفروضا فينا ان نعتمر بالخوذ الفولاذية حتى في غوريتزيا ، ولكنها كانت مزعجة ، ومسرحية الى حد مضحك في مدينة لم يُدعَ سكانها المدنيون الى اخلائها . وكنت كلما صعدت الى مراكز الأسعاف اعتمر باحدى تلك الخوذ واحمل قناعا انكليزيا من اقنعة

الغازات · كنا قدبدأنانحصل على بعض تلك الاقنعة · ولقد كانت اقنعة حقيقية · ليس هذا فحسب ، بل لقد امِرنا بأن نحمل غدارة اوتوماتيكية · حتى الاطباء ورجال الهيئات الصحية · وكانت غدارتي تصطدم دائما بظهر الكرسي فأحس بوجودها·وكان الواحد منا عرضة للاعتقال اذا لم يحمل غدارته علانية · وكان رينالدي يحمل جراب غدارة جلديا محشوا بالورق الصحي · اما انا فكنت احمل غدارة حقيقية واستشعر اني اشبه برجل بارع في استعمال الغدارات ، وبقيتُ على ذلك حتى تمرَّنت على اطلاق النار منها · كانت من نوع آسترا ، عيار ٧،٦٥ ، وكانت ماسورتها قصيرة ، وكان اندفاعها الى الوراء عنيفا الى درجة تجعلك لاتتصور ان في ميسورك ان تصيب بها هدفا ما · ولقد تمرنت على استعمالها مسدّدا اياها تحت الهدف ، محاولا السيطرة على ارتجاج الماسورة القصيرة المضحكة حتى امسى في ميسوري ان اصيب ضمن نطاق ياردة من الهدف الذي سدَّدت اليه النار على مبعدة عشرين خطوة ، وعندئذ خطرت لي سخافة حمل الغدارة · وما هي الا برهة يسيرة حتى نسيتُها ، وحملتُها مصفّقة على حِقْوي من غير ان استشعر شيئا على الاطلاق ما خلا ضربا غامضا من الخجل كلما لقيت بعض الناطقين بالانكليزية· لقد كنت جالسا ، هناك على كرسي ، وكان ضابط من ضرب ما ، ينظر اليَّ شَزَرْا من وراء مكتبه ، بينما كنت اتأمل ارض الغرفة الرخامية ، والاعمدة ذات التماثيل الرخامية ، واللوحات الجصيَّة (فريسكو) على الجدران ، وانتظر مس باركلي · ولم تكن اللوحات الجصية رديئة · ان ايما لوحة جصية تكون جيدة حين تأخذ في التقشر والتناثر ·

ورأيت كاثرين باركلي مقبلة في الرواق · فنهضت · انها لم تبدُ فارعة الطول وهي تتقدم نحوي ، ولكنها كانت رائعة جدا ·

وقالت :

ـ « مساء الخير ، مستر هنري · »

فقلت :

ـ « كيف حالكِ ؟ »

كان الضابط يصغي خلف مكتبه ·

ـ « هل نجلس هنا ام نخرج الى الحديقة ؟ »

ـ « فلنخرج الى الحديقة . انها ابرد بكثير . »

ومشيت خلفها الى الحديقة ، والضابط يُتبعنا نظراته . حتى اذا انتهينا الى المجاز المفروش بالحصباء ، قالت :

ـ « اين كنت ؟ »

ـ كنت اقوم بتفتيش مراكزنا . »

ـ « الم يكن في ميسورك ان تبعث اليَّ بكلمة ؟ »

فقلت :

ـ « لا . ليس في سهولة . لقد حسبتُ اني سأرجع . »

ـ « كان عليك ان تخبرني ، ايها الحبيب . »

كناقدبعدنا عن المجاز الممهّد ، وشرعنا نمشي تحت الاشجار . وامسكت بيديها الاثنتين ، ثم وقفتُ وقبَّلتُها .

ـ « اليس هناك ايما مكان نستطيع ان نذهب اليه ؟ »

فقالت :

ـ « لا . ينبغي ان نكتفي بالسير هنا . لقد غبتَ عنا فترة طويلة . »

ـ « هذا هو اليوم الثالث . ولكن ها انا ذا قد عدت . »

ونظرت اليَّ :

ـ « اتحبني حقا ؟ »

ـ « نعــــم . »

ـ « لقد قلتَ انك تحبني ، اليس كذلك ؟ »

فقلت كاذبا :

ـ « اجل . احبكِ . » ولم اكن قد قلتُها من قبل .

ـ « وانت تناديني كاثرين ؟ »

ـ « كاثرين . »

ومشينا بضع خطوات ، ثم وقفنا تحت شجرة .

ـ « قُلْ : لقد رجعتُ لأرى كاثرين في الليل . »

ـ « لقد رجعتُ لأرى كاثرين في الليل . »

ـ « اوه ، يا حبيبي ، لقد رجعتَ ، أليس كذلك ؟ »

ـ « نعـــم • »

ـ « انا احبك حبا عظيما • اتوسل اليك ، ضع يدك هناك مرة اخرى • »

ـ « انها لم تفارق مكانها قط • »

وادرتها نحوي بحيث استطيع ان ارى وجهها حين اقبّلها ، فرأيت ان عينيها مغمضتان • وقبلت عينيها المغمضتين كلتيهما • وخيّل اليّ انها معتوهة بعض الشيء • وما كنت لاجد أي بأس في هذا اذا كانت كذلك حقا • فذلك أفضل من الذهاب كل يوم الى الماخور الخاص بالضباط حيث تتسلق البنات ركبتيك ، ويلبسنك قبعتك على نحو معكوس كدليل على حبهن بين رحلتين من رحلاتهن الى الدور العلوي مع اخوانك في السلاح • كنت اعرف اني لم احب كاثريـن باركلي ، ولم اكن افكر في ان احبها قط • كان ذلك كله لعبة ، مثل البريدج ، يقول فيها المرء كلمات بدلا من ان يلعب بالورق • وكالبريدج يتعين عليك ان تتظاهر بانك تلعب من اجل المال ، او من اجل رهان ما ، ولم يكن احد قد حدد طبيعة الرهان • وقد لاءمني ذلك كل الملاءمة •

وقلت :

ـ « اتمنى لو كان ثمة مكان نستطيع ان نذهب اليه • »

كنت قد بدأت اختبر ، في الواقع ، تلك الصعوبة الخاصة بالرجال والتـي تتمثل في مغازلة المرأة ، وقوفا على القدمين ، فترة طويلة •

وقالت :

ـ « ليس ثمة مكان ما • »

وخرجتْ من احلام يقظتها واضافت :

ـ « فلنجلس هنا لحظة قصيرة • »

وجلسنا على المقعد الحجري المسطح ، وامسكتُ بيد كاثرين باركلي • انها لم تسمح لي بأن اطوقها بذراعي •

وسألتني :

ـ « هل انت متعب جدا ؟ »

ـ « لا • »

وخفضت بصرها الى العشب •

ـ « إنها لعبة سمجة هذه التي نلعبها . أليس كذلك ؟ »

ـ « اية لعبة ؟ »

ـ « لا تتظاهر بقلة الفهم . »

ـ « اؤكد لك اني لا اقول ذلك عمدا . »

فقالت :

ـ « انت فتى لطيف . وانت تبذل غاية جهدك لكي تلعب اللعبة جيـــدا . ولكنها لعبة سمجة . »

ـ « هل تعرفين دائما ما الذى يفكر فيه الناس ؟ »

ـ « ليس دائما .أما ما تفكر فيه انت فأعرفه . من العبث ان تقول لي انك تحبني . لقد انتهى كل شيء لهذا المساء . أعِندكَ موضوع تحب ان نتحدث فيه ؟ »

ـ « ولكني أحبك ! »

ـ « ارجوك ، لماذا نكذب حين لا نكون مضطرين الى ذلك ؟ لقد اجدت تمثيل مهزلتك الصغيرة اجادة عظيمة ، وانا في حال حسنة الان . انت ترى اني لست بلهاء . الا قليلا فيبعض الاحيان . »

وضغطتُ على يدها قائلا :

ـ « عزيزتي كاثرين . »

ـ « انها تبدو مضحكةجدا الان ـ كاثرين . انتَ لا تلفظها بالطريقة نفسها. ولكنك لطيف جدا . انت فتى ممتاز . »

ـ « ذلك ما قاله الكاهن .»

ـ « اجل ، انت فتى ممتاز . ولسوف تجيء وتراني ؟ »

ـ « طبعا .»

ـ « ولن تضطر الى القول انك تحبني . لقد انتهى ذلك كله موقتا . »

ونهضت وبسطت يدها ، قائلة :

ـ « طاب مساؤك . »

لقد اردت ان اقبّلها . وقالت :

ـ « . لا . انا متعبة الى حد رهيب . »

فقلت :

ـ « قبّليني ، برغم ذلك • »

ـ « أنا متعبة الى حد رهيب ، يا حبيبي • »

ـ قبّليني • »

ـ « هل أنت شديد الرغبة في ذلك ؟ »

ـ « نعم • »

وقبلتها ، وأفلتت مني فجأة ، وهي تقول :

ـ « لا • طاب مساؤك • ارجوك ، يا حبيبي • »

ومضينا نحو الباب ، ورأيتها تدخل وتبتعد في الرواق • واحببت ان اراقبها وهي تمشي • وتابعت سيرها في الرواق • ورجعتُ الى البيت • كان الليل قائظا جدا ، وكان ثمة حركة ناشطة في الجبال • وراقبت وميض البرق على جبل سان غبرييل •

ووقفت تجاه فيلا روسّا • كانت مصاريع النوافذ موصدة ،ولكن كان لا يزال ثمة ناس في الداخل • كان بعضهم ينشد • ودخلت الى غرفتي • واقبل رينالدي فيما كنت انزع ملابسي •

وقال :

ـ « آه ، ها ! الامور لا تجري على ما يرام • الطفل مرتبك • »

ـ « من اين اقبلت ؟ »

ـ « من فيلا روسّا • لقد كان اجتماعنا مثقفا جدا ، ايها الطفل • لقد انشدنا كلنا ، وانت ، أين كنت ؟ »

ـ « كنت في زيارة للانكليز • »

ـ « أحمد الله على اني لم اتورط مع الانكليز • »

الفصل السابع

وفي أصيل اليوم التالي رجعت من مركزنا الجبلي الاول ، واوقفت السيارة عند الـ « سميستيمنتو » حيث كان الجرحى والمرضى يصنّفون وفقا لاوراقهم التي كانت تدوّن عليها اسماء مختلف المستشفيات · وكنت أقوم بقيادة السيارة ، ولقد بقيت فيها ، ومضى السائق بالاوراق · لقد كان نهارا قائظا ، وكانت السماء لامعة جدا ، زرقاء جدا ، وكانت الطريق بيضاء مكسوّة بالغبار · كنت جالسا في مقعد الـ « فيات » العالي ، وكنت لا افكر بشيء · واجتازتْ الطريق سريّة من سرايا الجيش ، وراقبتها وهي تمر · كانت وطأة الحر شديدة على أفراد السرية ، وكان العرق يتصبب منهم · كان بعضهم يعتمر الخوذ الفولاذية ، ولكن كثرتهم كانت تحملها معلّقة بالجراب · وكانت كثرة الخوذ أكبر مما ينبغي ، فهي تكاد تنتهي الى آذان المعتمرين بها · أما الضباط فقد اعتمروا كلهم بالخوذ ، وكانت أكثر ملاءمة لرؤوسهم · كانت السرية هي نصف الـ « بريغاتا بازيليكاتا » Brigata Basilicata ، ولقد عرفت أفرادها من الخطوط الحمراء والبيضاء التي تقلّم أطواق قمصانها · وكان ثمة متخلفون من الجند برزوا على الطريق بعد فترة طويلة من مرور السرية ــ رجال لم يستطيعوا أن يلحقوا بشراذم الجند التي ينتسبون اليها · كان العرق يتصبب منهم ، وكانوا مغبّرين متعبين · ولقد بدا بعضهم في حال رديئة جدا · وبرز جندي بعد مرور آخر المتخلفين · كان يعرج في سيره · وقد كفّ عن المشي ، وجلس على حافة الطريق · فترجلت من سيارتي وتوجهت نحوه ·

ـ « ماذا دهاك ؟ »

فرفع بصره الي ، ثم نهض ٠

ـ « سوف اتابع السير » ٠

ـ « ما المسألة ؟ »

ـ « ٠٠٠٠٠٠ الحرب ٠ »

ـ « وما بال رجلك ؟ »

ـ « لست أشكو من رجلي ٠ أنا مصاب بفتق ٠ »

فسألته :

ـ « ولم لم تركب سيارة الاسعاف ؟ لم لم تذهب الى المستشفى ؟ »

ـ «انهم لا يسمحون لي بذلك ٠ لقد قال الليفتنانت اني نزعت حزام الفتق عمدا ٠ »

ـ « دعني أجسه ٠ »

ـ « أنه بارز كل البروز ٠ »

ـ في أي ناحية هو ؟ »

ـ « هنا ٠ »

ولمسته ٠ وقلت :

ـ « أسعل ! »

ـ « أخشى أن يزيده ذلك ضخامة ٠ لقد أصبح حجمه الان ضعف ما كان عليه هذا الصباح ٠ »

فقلت :

ـ « أجلس ٠ ما ان أنجز اوراق هؤلاء الجرحى حتى أنقلك معي وأسلمك الى أيدي أطبائكم ٠ »

ـ « سوف يقولون أني فعلت ذلك عن عمد ٠ »

فقلت :

ـ « انهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا ٠ انه ليس جرحا ٠ لقد أصيبت به قبل الحرب ، أليس كذلك ؟ »

ـ « ولكني فقدت الحزام ٠ »

ـ « سوف يرسلونك الى أحد المستشفيات ٠ »

ـ « ألا أستطيع أن أبقى هنا ، أيها الملازم ؟ »
ـ « لا • ان أوراقك ليست لدي • »
ووصل السائق حاملا أوراق الجرحى الذين في السيارة • وقال :
ـ « أربعة الى رقم ١٠٥ ، واثنان الى رقم ١٣٢ • »
وكان هذان مستشفيين واقعين وراء النهر •
فقلت :
ـ « تولَّ انت قيادة السيارة • »
وساعدت الجندي ذا الفتق على الصعود والجلوس معنا على مقعد السيارة الامامي • وسألني :
ـ « هل تتكلم الانكليزية ؟ »
ـ « من غير ريب • »
ـ « ما رأيك في هذه الحرب اللعينة ؟ »
ـ « شيء عفن • »
ـ « آه ، أنا أعتقد انها شيء عفن • وحق يسوع المسيح انها شيء عفن • »
ـ « هل كنت في الولايات المتحدة ؟ »
ـ « طبعا ، في بيتزبورغ • لقد قدَّرت انك أميركي • »
ـ « ألا أتكلم الايطالية جيدا؟ »
ـ « لقد عرفت جيدا انك أميركي • »
فقال السائق ، بالايطالية ، ناظرا الى الرجل ذي الفتق :
ـ « أميركي آخر • »
ـ « اسمع ايها الملازم ، هل يتعين عليك فعلا ان تقودني الى سريَّتي ؟ »
ـ « نعم • »
ـ « لان الكابتن الطبيب يعرف اني مصاب بفتق • لقد طرحت الحزام اللعين لكي يزداد الفتق سوءا فأعفى من الذهاب الى خط النار من جديد • »
ـ « فهمت • »
ـ « ألا تستطيع أن تقودني الى مكان آخر ؟ »
ـ « لو كنا في مكان أقرب الى الجبهة اذن لكان في ميسوري أن انقلك الى اول مركز من مراكز الاسعاف • أما في مثل هذا المكان في مؤخرة الجبهة

فيجب أن تكون لديك اوراق • »

ـ « اذا رجعت فسوف يجرون لي عملية جراحية ، ومن ثم يرسلونني الى خط النار ويبقونني هناك • »

وفكرت في الامر •

وسألني :

ـ « وأنت ايضا لا تريد ان تذهب الى خط النار وتبقى هناك ، أليس كذلك ؟ »

ـ « طبعا • »

ـ « آه ، بحق المسيح ، أليست هذه حربا لعينة ؟ »

فقلت :

ـ « اسمع • انزل ، ودع نفسك تقع في الطريق ، فيسيل الدم من رأسك ، ولسوف التقطك وانا عائد وآخذك الى المستشفى • سوف نقف هنا ، يا آلدو • »

ووقفنا عند جانب الطريق • وساعدته على النزول •

وقال :

ـ « سوف تجدني هنا ، أيها الملازم • »

فقلت :

ـ « الى اللقاء • »

ومضينا لسبيلنا ، وبعد ميل واحد تقريبا اجتزنا السرية ، ثم عبرنا النهر الذي عكّره ذوبان الثلج وانشأ يجري مسرعا بين دعائم الجسر ، وسلكنا الطريق الممتدة عبر السهل لنُسلم الجرحى الى المستشفيين • وفي طريق العودة قدتُ انا السيارة الفارغة ، على جناح السرعة ، التماسا للرجل ذي الفتق • فاجتزنا السرية ، ثم اجتزنا بالمتخلفين من الجند • وبعد ذلك رأينا عربة خيل من عربات الاسعاف واقفة في قارعة الطريق • وكان رجلان اثنان يرفعان الرجل ذا الفتق لنقله في العربة • كانا قد عادا بحثا عنه • واومأ الرجل برأسه اليّ • كانت خوذته قد سقطت ، وكان الدم يجري من جبهته عند منبت الشعر • كان أنفه مخدوشا ، وكان الغبار

يعلو الرقعة الدامية ، ويعلو شعره أيضا •
وصاح :
ـ « أنظر الى الجرح ، أيها الملازم • ليس في اليد حيلة • لقد رجعوا ليأخذوني • »

***

وحين رجعت الى الدارة ، كانت الساعة الخامسة • ومضيتُ الى المكان الذي نغسل فيه السيارات لابترد بالماء • ثم اني شرعت أكتب تقريري في غرفتي ، جالسا ببنطلون وقميص داخلي تجاه النافذة المفتوحة • كان الهجوم على وشك أن يقع خلال يومين اثنين ، وكان عليّ ان أذهب مع سيارات الى بلافا • كان قد انقضى زمن طويل على آخر رسالة بعثت بها الى الولايات المتحدة ، وكنت اعرف ان عليّ ان أكتب ، ولكنني كنت قد أرجأت الكتابة الى درجة جعلت من المستحيل علي ، تقريبا ، أن أقوم بهذه المهمة الان • والى هذا، فلم يكن لدي ما أقوله • لقد أرسلت بطاقتَين أو ثلاثا من البطاقات العسكرية المعروفة بـ Zona di guerra (المنطقة الحربية) ضاربا خطا على ما فيها باستثناء : أنا في صحة جيدة • ان أمثال هذه البطاقات سوف تغريهم بالصبر • ولا ريب في انها سوف تلقى نجاحا كبيرا في اميركا ، فهي غريبة غامضة • والواقع ان هذه المنطقة الحربية كانت منطقة غريبة وغامضة ، ولكنني اعتقدت انها خطرة جدا وموجهة توجيها صالحا ، بالقياس الى الحروب الاخرى مع النمساويين • فقد انشىء الجيش النمساوي ليمنح نابوليون انتصارات ـ ليمنح اي نابوليون انتصارات ـ وقد تمنيت لو ان عندنا نابوليون ، ولكن كان عندنا بدلا من ذلك الجنرال كادورنا ، البدين المترف ، وفيكتور عمانوئيل ، الرجل الضئيل الجسم ذو العنق الطويلة الدقيقة ، واللحية الشبيهة بلحية التيس • وفي القطاع الايمن ، كان عندنا دوق آووستا • ولعله كان وسيم الطلعة الى درجة تجعل من المتعذر عليه أن يكون جنرالا عظيما ، ولكنه كان يبدو وكأنه انسان • وكان كثير من الايطاليين يودون لو يكون هو الملك • ولقد كانت تبدو عليه سيما الملوك حقا • كان هو عم الملك ، وكان يقود الجيش الثالث • وكنا نحن في الجيش الثاني • وكانت بعض بطاريات المدفعية البريطانية تعمل مع

الجيش الثالث . وكنت قد اجتمعت بمدفعيّين من تلك الزمرة ، في ميلانو . كانا لطيفين جدا ، ولقد قضينا معهما سهرة رائعة . كانا ضخمي الجسم ، حييّيْنِ مرتبكين ، شديدي التقدير لكل ما يحدث . ولقد كنت أتمنى لو عملت مع البريطانيين . فقد كان ذلك خليقا به ان يجعل مهمتي أيسر بكثير. ومع ذلك فقد كان من الجائز جدا ان أقتـل ، لو عملت معهم . لا ، ليس في حقل الاسعاف هذا . بل حتى في حقل الاسعاف نفسه . فقد قُتل بعض سائقي سيارات الاسعاف الانكليز ، أحيانا . حسنا ، فقد كنت أعرف انـي لن أقتـل . في هذه الحُرب على الاقل . فلم تكن لهمـا ايما اهتمـام بي شخصيا . وهي لم تبد في نظري أشد خطرا علي من حرب تدور رحاها في السينما . ومع ذلك فقد تضرعت الى الله ان يضع حدا لها . ولعلها ان تنتهي هذا الصيف . ولعل النمساويين ينهارون . فقد طالما انهـاروا في حـروب اخرى . ما الذي أصاب هذه الحرب ؟ فقد قال كل امرىء ان الفرنسيين قد أوشكوا على الاستسلام . وقال رينالدي ان الفرنسيين قد ثاروا وان جيوشهم زحفت على باريس . وسألته ما الذي حدث ، فأجابني قائلا : « أوه ، لقـد اوقفوا زحفها . » كنت اريد ان اذهب الى النمسا من غير حرب ، كنت اريد ان اذهب الى « الغابة السوداء » . وكنت اريد ان اذهب الى جبال هارتـز . ولكن اين تقع جبال هارتز على اية حـال ؟ كانوا يتحاربـون في جبـال الكاربات . وما كنت راغبا في الذهاب الى هناك . ومع ذلك فمـن الجائـز أن تكون الرحلة الى الكاربات جميلة . ولقد كان في امكاني – لولا الحرب – ان اذهب الى اسبانية . كانت الشمس قد اخذت في الانحدار ، وكان النهار قد بدأ يبرد . وان نفسي لتغريني بأن اذهب بعد العشاء وارى كاثرين باركلي . اني لاتمنى لو كانت هنا الآن . بل اني لاتمنى لو كنت انا واياها في ميلانو . فأنا شديد التوق الى ان اتناول الطعام فى ال « كوفا » وان اسير هابطـا الـ « فيا مانزوني » في المساء القائظ ، واجتاز الشارع ، وانعطف فيمحاذاة القنال ، وامضي الى الفندق مع كاثرين باركلي . ومن يدري فلعلها ان تقبل ذلك . لعلها ان تتظاهر بانني فتاها الذي قُتل ، وندخل من الباب الرئيسي، ويرفع البواب قبعته احتراما ، وأقف عند منضدة البواب وأطلب المفتـاح ، وتنتظرني هي واقفة أمام المصعد الكهربائي ، وندخل معا الى المصعد فيرتقـي

بنا ادوار البناء في بطء بالغ ، محدثا تكتكـــة خفيفة عند كل دور الـــى دورنا ، ويفتح الغلام البـــاب ويقف هنـــاك ، وتغادر هـــي المصعـــد ، وأغادره انا من بعدها ، ونتقدم في الرواق ، وأضـــع المفتاح في البـــاب ، وافتحه ، وأدخل ، ثم اتلفن ، وأسألهم ان يرسلوا الي زجاجة من الـ « كابري بيانكا » في دلو فضي مليء بالثلج ، وتسمع ارتطام الثلج بجدران الدلو ، من أول الرواق الى آخره ، ويقرع الغلام الباب ، فتقول له : « اتركه في الخارج ، من فضلك • » لاننا نكون متجردَين من ملابسنا كلها بسبب مـن الحـــر الشديد • وتكون النوافذ مشرعة ، ويطير السنونو فوق سطوح المنـــازل ، حتى اذا هبطت العتمة بعد ذلك واقتربنا من النافذة رأينـــا خفافيش صغيرة جدا تتصيد فوق البيوت وعلى قمم الاشجـــار ، وشربنـــا الـ « كابري » ، والباب مقفل بالمفتاح ، والحر لاهب ، وليس ثمة غير غطاء سرير ، والليـــل كله ، ونتساقى كؤوس الهوى ، طوال الليل ، في ليالي ميلانو القائظـــة • على هذا النحو ينبغي ان تجري الاشياء • ان علي ان اسرع في تناول الطعـــام وانطلق لارى كاثرين باركلي •

لقد تحدثت زمرتنا كثيرا على المائدة • وشربت انا بعض الخمر لاني مـــا كنت لاستشعر في تلك الليلة اننا كلنا اخوة ما لم أشرب قليلا ، وتحدثـت مع الكاهن عن رئيس الاساقفة ، آيرلند ، الذي كان ، في ما يبدو ، رجـــلا نبيلا والذي تظاهرت بأني على علم بالاذى الذي تحمّله ، والذي شاركت انا في انزاله به بوصفي اميركيا • فالواقع اني لم أسمع بذلـــك الاذى قط ، ولكن كان من عدم اللياقة ان لا اعرف شئنا عنه بعد ان سمعت الـــى تفسير رائع لاسبابه التي كانت على أية حال ـ في ما يبدو ـ راجعة الى سوء الفهم • كنت أرى ان اسمه جميل ، وكان هو من ابناء مينيزوتا ، مما شكّل اسمـــا ساحرا ، آيرلند مينيزوتا ، آيرلند ويسكونسن ، آيرلند ميتشيغان • والذي جعل ذلك الاسم رائعا هو الشبه بينه وبين لفظة island (جزيرة) • لا ، لم يكن ذلك هو السبب • كان ثمة الى جانب هذا شيء اضافي • اجل أيهـــا الاب • هذا صحيح ، أيها الاب • ربما ، أيها الاب • لا ، أيها الاب • حسنا ، ربما نعم، أيها الاب • أنت تعرف عن هذه المسألـــة اكثر ممـــا أعرف ، أيهـــا الاب • كان الكاهن طيبا ، ولكنه مضجر • وكان الضباط غير طيبين ، ولكنهم

مضجرون · وكان الملك طيبا ، ولكنه مضجر · وكانت الخمر رديئة ولكنها غير مضجرة · انها تنزع المينا عن أسنانك وتلصقها بحلقك ·

وقال روكا :

ـ « واعتقل الكاهن لانهم وجدوا معه سندات الثلاثة في المئة · كان ذلك في فرنسة طبعا · ولو حدث ذلك هنا لما اعتقلوه ابدا · لقد انكر ان تكون له أية معرفة بوجود هذه السندات معه · وانما حدث ذلك في بيزييه · وكنت عندئذ هناك ، وكنت اتابع المسألة في الصحف ، فقصدت الى السجن وطلبت الاجتماع بالكاهن · كان واضحا انه سرق السندات · »

فقال رينالدي :

ـ « انا لا اصدق كلمة من هذا · »

فقال روكا :

ـ « كما تريد · ولكني اروي هذه الحكاية لكاهننا · انها حافلة بالمعلومات · وهو ، بوصفه كاهنا ، سوف يقدرها حق قدرها · »

وابتسم الكاهن ، وقال :

ـ « أكمِل · اني مصغ اليك · »

ـ « كان هناك ، طبعا ، بعض السندات التي لم يُتهم بها أحد ، ولكنهم وجدوا مع الكاهن جميع سندات الثلاثة في المئة وكثيرا من السندات المحلية · لقد نسيت ماهيتها على وجه الضبط · وهكذا قصدت الى السجن · وتلك هي النقطة الرئيسية في القصة · ووقفت خارج زنزانته وقلت وكأنني ذاهب الى الاعتراف : « باركني ، أيها الاب ، لانك ارتكبت خطيئة ! »

وانفجر القوم كلهم بالضحك ·

وتساءل الكاهن :

ـ « وبماذا أجاب ؟ »

وتظاهر روكا بأنه لم يسمع ، وراح يشرح النكتة لي :

ـ « لقد أدركت النقطة ، أليس كذلك ؟ »

لقد بدا لى انها نكتة مضحكة جدا ، اذا فهمت كما ينبغى · وصبّوا لى مقدارا اضافيا من الخمر ، فرويت لهم قصة الجندى الانجليزى الذى وُضع

تحت مياه « الدش » . ثم روى المايجور قصـــة التشيكوسلوفاكيين الاحد عشر والعريف الهنغارى . وبعد ان احتسيت مقدارا من الخمر جديدا رويـت قصة الفارس الذى وجد بنسا . وقال المايجور ان ثمة قصة ايطالية مماثلـة تدور على الدوقة التي لم تستطع النوم في الليل . وعند هذه النقطـة غـادر الكاهن المكان ، فرويت قصة موظف المبيعات المترحل الذي وصل في الساعة الخامسة صباحا الى مرسيليا عندما كانت الريح الشمالية تهب . وقال المايجور ان المعروف عني اني بلمكير كبير . وأنكرت ذلك . فقال انه صحيح ، واننـا وحق جثة باخوس سوف نختبر ما اذا كان هذا صحيحا ام لا . فقلت دعنا من باخوس ، دعنا من باخوس . فقال : أجل ، لا بد من باخوس . كان علي أن أشرب كوبا مقابل كوب وكأسا مقابل كأس مع باسي فيليبو فينزنزا . وقال باسي : لا ، هذا ليس اختبارا لانه شرب حتى هذه اللحظة ضعف ما شربته انا . وقلت ان هذه كذبـة نجسـة ، وان فيليبو فينزنزا باسي ، او باسي فيليبو فينزنزا ــ قسما بباخوس او غير قسم بباخوس ــ لم يمس قطرة مـن الخمر طول الليل ، والى هـذا فما اسمـه تماما ؟ وسألنـي عن اسمي اهو فيديريكو آنريكو أم آندريكو فيديريكو ؟ وقلت دع الرجل الافضل يغلب ، وبدأ المايجور يصب لنا خمرا حمراء في قدحين كبيرين . حتى اذا احتسيت نصف ما صب لي رفضت ان اشرب قطرة اضافية . لقـد ذكرت الـى اين كنت ذاهبا .

وقلت :

ــ « باسي هو الذي غلب . انه أحسن مني . يجب ان اذهب . »

فقال رينالدي :

ــ « ان عليه ان يذهب فعلا . انه على موعـد . انـا اعرف كـل شيء عن ذلك . »

ــ « يجب ان اذهب . »

فقال باسي :

ــ « في ليلة اخرى ، في ليلة اخرى عندما تكون أقوى . »

وضربني على كتفي . كان ثمة ، على المائـدة ، شمـوع مضاءة . وكـان

الضباط كلهم سعداء جدا · وقلت :

ـ « طاب مساؤكم ، أيها السادة · »

وخرج رينالدي معي · ووقفنا خارج الباب على الارض الخضرة ، وقال :

ـ « من الافضل ان لا تصعد الى هناك وانت مخمور · »

ـ « أنا لست مخمورا ، يا رينين · صدّقني · »

ـ « من الخير لك ان تمضغ قليلا من البن · »

ـ « هراء · »

ـ « سوف آتيك بقليل منه · ابق هنا واذرع المكان جيئة وذهوبا · »

ورجع حاملا حفنة من حبات البن المحمص ، وقال :

ـ « امضغ هذه ، أيها الطفل ، وليكن الرب معك ! »

فقلت :

ـ « باخوس · »

ـ « سوف ارافقك · »

ـ « انا في أحسن حال · »

وهبطنا الى المدينة معا ، ومضغت حبات البن · وعند مدخل المجاز الممهد الذي يؤدي الى الدارة البريطانية ودّعني رينالدي ·

وقلت :

ـ « طاب مساؤك · لماذا لا تدخل ؟ »

وهز رأسه وقال :

ـ « لا · انا افضل الملذات الاكثر بساطة · »

ـ « اشكرك على حبات البن · »

ـ « لا تذكر ذلك ، أيها الطفل ، لا تذكر ذلك · »

وأخذت أهبط المجاز الممهد · كانت حدود شجرات السرو التي تحيط به من جانبيه حادة وواضحة · والتفت الى الوراء ، فرأيت رينالدى واقفا يراقبني ، ولوّحت له بيدي ·

وجلست في صالون الدارة منتظرا مجيء كاثرين باركلي · ومشى شخص

ما في الرواق . ونهضت ، ولكنهـــا لـــم تكـــن كاثريـــن . لقـــد كانت مسس فيرغوسون .

وقالت :

ــ « هالو ! كلفتني كاثرين ان اقول لك انهـــا آسفـــة لعدم تمكنهـــا من رؤيتك هذا المساء . »

ــ « أنا آسف جدا . أرجو ان لا تكون مريضة . »

ــ « انها ليست في حالة جيدة جدا . »

ــ « هل لك ان تبليغها عظيم أسفي لذلك ؟ »

ــ « طبعا ، من غير شك . »

ــ « هل تعتقدين ان من الخير ان احاول رؤيتها غدا ؟ »

ــ « اجل ، أعتقد ذلك . »

فقلت :

ــ « اشكرك كثيرا . طاب مساؤك . »

وخرجـــت ، وفجأة استشعرت الوحشـــة والفراغ . كنـــت قد استخففت بالاجتماع بكاثرين استخفافا بالغا ، وكنت قد أجزت للسكر ان يستبد بـــي بعض الشيء ، وكنت قد نسيت تقريبا ان اجيء ، ولكني حين تعذر علي ان اراها ، استشعرت الوحشة والفراغ .

الفصل الثامن

وفى اصيل اليوم التالى سمعنا ان هجوما سوف يشن عند عالية النهر ، تلك الليلة ، وان علينا ان نرسل الى هناك اربع سيارات • ان احدا لم يعرف شيئا عن ذلك الهجوم على الرغم من ان كل امرىء كان يتحدث في موضوعه بتوكيد بالغ وفهم ستراتيجي • وكنت انا راكبا في السيارة الاولى ، حتى اذا مررنا بالمستشفى البريطاني سألت السائق ان يتوقف • وتوقّفت السيارات الاخرى خلفنا • وترجلت وقلت لسائقيها ان يواصلوا السير وينتظروا عند مفرق الطريق المؤدي الى كورمون اذا لم تدركهم هناك ••

وانطلقت مسرعا في المجاز الممهد ، حتى اذا انتهيت الى قاعة الاستقبال ، سألت عن مس باركلي •

— « انها منهمكة في اداء وظيفتها • »

— « هل استطيع ان اراها لحظة واحدة ؟ »

وارسِل آذن للاستعلام ، فرجعت هي معه •

— « لقد عرّجت لاطمئن على صحتك • ولقد قالوا لي انك تقومين باعباء الوظيفة ، وهكذا طلبت ان اراك • »

فقالت :

— « انا في حال جيدة • احسب ان الحرارة هي التي صرعتني أمس • »

— « لقد آن لي ان اذهب • »

— « سوف امضي معك خارج الباب دقيقة واحدة • »

وسألتها في الخارج :

ـ « و . . . هل أنت في حال جيدة ؟ »

ـ « أجل ، يا حبيبي . هل ستأتي الليلة ؟ »

ـ « لا سوف اذهب في الحال لاشهد عرضا صغيرا هناك ، فوق نهر البلافا . »

ـ « عرضا صغيرا ؟ »

ـ « انه لن يكون شيئا ذا خطر في ما اظن . »

ـ « وسوف ترجع ؟ »

ـ « غدا . »

وفكّت شيئا كان معقودا حول عنقها ، ووضعته في يدي ، وقالت :

ـ « انها ايقونة القديس انطوني . ولا تنس ان ترجع مساء غد . »

ـ « بالمناسبة ، هل انت كاثوليكية ؟ »

فقالت :

ـ « لا . ولكنهم يقولون ان أيقونة القديس انطوني مفيدة جدا . »

ـ « سوف اعني بأمره اكراما لك . وداعا . »

فقالت :

ـ « لا . لا تقل وداعا . »

ـ « حسن . »

ـ « كن فتى صالحا وخذ حذرك . لا . ليس فى استطاعتك ان تقبلني هنا . مستحيل . »

ـ « حسن جدا . »

والتفت الى الوراء ، فرأيتها واقفة على السلم ولوّحت لي ، فقبّلت يدي وبسطتها نحوها . ولوّحت كرة ثانية ، ثم اني ابتعدت عن المجاز المهد وامتطيت سيارة الاسعاف وانطلقنا . كانت الايقونة ضمن عُليبة معدنية بيضاء . وفتحت العليبة وأخرجت القديس منها .

وسألني السائق :

ـ « القديس انطونى ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « ان عندي واحدة . »

وتركت يده اليمنى المقود ، وفتح زرا فى صدرته واخرجهـــا مـــن تحت قميصه .

ـ « هل تراها ؟ »

واعدت ايقونتى الى العلبة ، وكوّرت السلسلة الذهبية الدقيقـــة ، ووضعت ذلك كله في جيب صدرتي .

ـ « الا تعلّقها في عنقك ؟ »

ـ « لا . »

ـ « من الافضل ان تعلقها . لقد جُعلت لهذا الغرض . »

فقلت :

ـ « حسن جدا . »

وفككت مشبك السلسلة الذهبية ، وطوقت عنقى بها ، وعاودت اغلاقهـا . لقد تدلى القديس على ثوبي العسكري . ففتحت مقدم صدرتي وفككت طوق قميصي وادخلته تحت القميص . لقد أحسست به في علبته المعدنيـــة فوق صدري فيما كنت أقود السيارة . وما هي الا لحظات حتى كففت عن التفكير فيه . ولقد فقدت كل اثر للايقونة بعد ان جُرحت . ولعل امرءا قد استولى عليها في أحد مراكز الاسعاف . وحين بلغنا الجسر اجتزناه في سرعة . وما لبثنا ان رأينا امامنا على الطريق ، غبار السيارات الاخـرى . وانحرفـــت الطريق ، ورأينا السيارات الثلاث وقد بدت صغيرة جدا ، والغبار يرتفع من الدواليب ويلتف بين الشجر . لقد ادركنا تلك السيارات وتجاوزناهـا ، وانعطفنا على طريق تصعّد في الكثبان . ان قيادة السيارات على شكـــل قافلة ليست بغيضة الى النفس اذا كنت تقود السيارة الاولى . وقد استرخيت في مقعدي وانشأت اتأمل الريف . كنا قد انتهينا الى التلال السفحية علـى الجانب الادنى من النهر . وفيما أخذنا نصعّد بدت في ناحيـــة الشمـــال جبال شامخة لا تزال مكللة بالثلج . والتفت الى وراء فرأيت السيارات الثلاث تتسلق الطريق ، وقد فصلت ما بينها سحابة من غبارها . واجتزنا خطـــا طويلا من البغال المثقلة بالاحمال ، وقد سار سائقوهـا الى جانـب البغال ،

مرتدين طرابيش حمراء . كانوا من الـ « برساغليرى » ✱

وخلف قطار البغال كانت الطريق فارغة ، وصعّدنا في الكثبان ثم هبطنا فوق كتف كثيب طويل الى أحد الاوديــة . كانت الاشجـــار تحيط بجانبي الطريق ، ومن خلال الخط الايمن من الاشجار رأيـــت النهر صافي المـاء ، سريعا ، ضحلا . كان النهر منخفضا ، وكانت ثمة رُقع متطاولة من الرمل والحصى وقناة ماء ضيقة . وفي بعض الاحيان كانت المياه تنتشر مثل غطاء لامع فوق سرير من حصى . وعلى مقربة دانية من الضفة رأيت بركا عميقــة مياهها زرقاء مثل السماء . لقد رأيت فوق النهر جسورا حجرية مقنطرة حيث انعطفت السُّبل المختصرة من الطريق ، واجتزنا بيوتا ريفية حجرية تزدان بشجر الاجاص المنتصب ، وكأنه الشمعدانات ، عند جدرانها الجنوبيـــة ، وأسوارا حجرية منخفضة في الحقول . وصعّدت الطريق في الوادي تصعيدا متطاولا ، ثم انعطفت بنا فبدأنــا نصعّد في الكثبـــان ، كرة اخرى . كانت الطريق تصعّد تصعيدا عموديا وتتخلل غابات الكستناء لتستوي آخر الامـر على ربوة عالية . كان في ميسوري ان اخفض البصر من خلال الغابة فأرى ، بعيدا في المنخفض ، خط النهر الذي يفصل بين الجيشين .وقد توهّج تحـت اشعة الشمس . وسلكنا الطريق العسكرية ، الجديدة ، الرديئـــة ، التي امتدت فوق قمة الرابية ، وتطلعت الى الشمال فرأيت سلسلتي الجبـــال . كان لونهما أخضر داكنا حتى الحد الذي انتهى اليه الثلج ، وأبيض رائعـــا على القمم الساطعة تحت أشعة الشمس . وفيما صعّدت الطريق بعد ذلك على طول الرابية رأيت سلسلة ثالثة من الجبال ، سلسلـة مكللة بالثلـوج ذات ارتفاع أعلى . كانت هذه السلسلة بيضاء كالطباشير ، كثيرة الصدوع والشقوق ، ذات سطوح عجيبة مستوية . وخلف هذه الجبال كلهـا كانت جبال اخرى هي من البعد بحيث كان يخامرك الريب في انك تراهـا حقـا . كانت هذه كلها جبالا نمساوية ، ولم يكن لدينـا نظير لهـــا في ايطاليا . وامامنا انعطفت الطريـــق الى اليمين ، واذ خفضت بصري استطعت ان ارى الطريق تهبط خلال الاشجار . كانت على هذه الطريـــق قوات عسكريـة ،

★ حملة البنادق في الجيش الايطالي (المعرب)

وشاحنات وبغال عليها مدافع جبلية . وفيما نحن نهبط الطريق ، ملتزمين جانبها ، استطعت ان ارى النهر ، في مكان منخفض جدا ، وروافد الرُّبط الخشبية والخطوط الحديدية التي تمتد على طوله والجسر العتيق الذي تعبره السكة الحديدية الى الجانب الاخر ، كما رأيت ، في مكان أبعد ، عند سفح تلة وراء النهر ، بيوت البلدة الصغيرة المهدمة التي كان يتعين علينا الاستيلاء عليها .

كانت العتمة قد بدأت تخيِّم عندما بلغنا المنخفض وانعطفنا نحو الطريق الرئيسية الممتدة في محاذاة النهر .

الفصل التاسع

كانت الطريق مزدحمة ، وكان ثمة حُصر من تبن وسُتر مصنوعة من سُوَيقات الذرة • وكان ذلك كله مغطى بالحصر حتى ليخيَّل للمرء انه امام مدخل سيرك أو قرية زنجية • واجتزنا ، ببطء ، هذا النفق المغطى بالتبن ، وانتهينا الى رقعة من الارض جرداء كانت تقوم عليها،في ما مضى ، محطة السكة الحديدية • كانت الطريق هنا ادنى من مستوى النهر ، وعلى طول الطريق الغائرة احتلَّت كتائب المشاة خنادق حفرت في المنحدر • كانت الشمس قد أخذت في المغيب ، وفيما كنت أنظر الى الضفة ونحن نتقدم بالسيارة رأيت مناظيد المراقبة النمساوية على التلال القائمة فوق الضفة الاخرى وقد بدت داكنة تجاه غروب الشمس • واوقفنا السيارات خلف مصنع للقرميد • كانت الافران وبعض الحفر العميقة قد زوِّدت بما يجعلها مراكز للاسعاف • وكان ثمة ثلاثة أطباء أعرفهم • وتحدَّثت الى المايجور فعلمت منه ان علينا حالما يبدأ لهجوم وتُحمل سياراتنا ، ان نقودها عائدين على الطريق الرئيسية الممتدة على طول الرابية حيث نجد مركزا للاسعاف وسيارات اخرى تتولى نقل من حملناهم من المصابين • كان يرجو ان لا تُسد الطريق من الازدحام • فقد كانت هذه العملية تجري في طريق موحدة • وانما حجبت الطريق لانها كانت على مرأى من النمساويين عبر النهر • وهنا ، في مصنع القرميد ، كنا في نجوة من نيران بنادق العدو ومدافعه المنطلقة من ضفة النهر • وكان يخترق النهر جسر مهدَّم • وكانوا يعتزمون انشاء جسر آخر عندما بدأ القصف ، وكان على بعض الجنود ان يجتازوا المناطق الضحلة العليا ، عند منعطف النهر •

وكان المايجور رجلا ضئيل الجسم مفتول الشاربين · وكان قد شهد الحرب في ليبيا ، فهو يحمل على كمه شريطتين من شرائط جرحى الحرب · ولقد قال لي انه اذا سارت الامور على ما يرام فسوف يسعى لحمل المسؤولين على منحي وساما · فقلت اني ارجو ان تسير الامور أحسن السير ، ولكني اعتقد انه لطيف اكثر مما ينبغي · وسألته هل يوجد ملجأ كبير يستطيع سائقو السيارات ان يبقوا فيه ، فاستدعى جنديا ليُريني ذلك الملجأ · ولقد ذهبت مع الجندي فرأيت الملجأ ، فاذا به حسن جداً · لقد سر السائقون به ، فغادرتهم هناك · ودعاني المايجور الى كأس اشربها معه ومع ضابطين آخرين · فشربنا الـ « روم » ، وكان الجو وديا الى حد بعيد · وفي الخارج كان الليل يهبط · وسألت متى يبدأ الهجوم فقالوا : حالما يشتد الظلام · ورجعت عائدا الى السائقين · كانوا قاعدين في الملجأ يتحدثون ، وحين دخلت عليهم كفّوا عن الكلام · واعطيت كلا منهم علبة من السكاير – المعروفة باسم ماسيدونياس – وهي سكاير ملفوفة لفاً رخوا يجعل التبغ يتناثر منها ، فأنت مضطر الى ان تثني طرفيها قبل ان تدخنها · وأشعل مانيرا قدّاحته ، وادارها على رفاقه · وكانت القداحة على شكل مشعاع (رادياتور) سيارة فيات · ورويت لهم ما قد سمعته ·

وسألني باسيني :

– « لمَ لم نر المركز عندما نزلنا ؟ »

– « كان يقع وراء المنعطف الذي استدرنا عنده · »

فقال مانيرا :

– « هذه الطريق سوف تكون بلاء علينا · »

– « انهم سوف ينسفوننا نسفا · »

– « ربما · »

– « الا ترى ان من الخير لنا أن نأكل ، أيها الملازم ؟ اننا لن نجد فرصة نأكل خلالها بعد أن يبدأ الهجوم · »

فقلت :

– « سوف اذهب الان وارى · »

ـ أنستطيع ان نخرج فنقوم بجولة ، أم يتعيَّن علينا أن نبقى هنا ؟
ـ « من الافضل ان تبقوا هنا · »

وانقلبتُ الى ملجأ المايجور ، فقال لي ان الطهاة سوف يصلـون وشيكـا ، وان في استطاعة السائقين ان يجيئوا ويأخذوا طعامهم · واعلن عن استعداده لاعارتهم قصاعا صفيحية اذا لم يكن لديهم قصاع · فقلـت اني اعتقـد انهـم مزوَّدون بذلك · فرجعت الى السائقين واخبرتهم اني سأعود وادعوهم لحظة يصل الطعام · فقال مانيرا انه يرجو ان اعود قبل أن يبدأ القصف · واعتصموا بالصمت حتى خرجتُ · كانوا كلهم ميكانيكيين ، وكانوا يكرهون الحرب ·

وخرجت لالقي نظرة على السيارات وأرى ما الذي كان يجري ، ثم رجعت وقعدت في الملجأ مع السائقين الاربعة· لقد جلسنا على الارض مسندين ظهورنا الى الجدار ، وشرعنا ندخن · وفي الخارج ، كان الظلام قد خيَّم تقريبا · كانت ارض الملجأ حارة وجافة · واسندت كتفيَّ الى الجدار ، وقعدت على الارض ، واسترخيت ·

وتساءل غافوتزي :
ـ « من الذى سيقوم بالهجوم ؟ »
ـ « البرساغليري · »
ـ « جميع البرساغليري ؟ »
ـ « اظن ذلك · »
ـ « ليس ههنا جند كاف لشن هجوم حقيقي · »
ـ « لعـل المقصود هو صرف النظر عن المكـان الـذي سيقـع فيه الهجوم الحقيقي · »
ـ « وهل يعرف المهاجمون ذلك ؟ »
ـ « لا اعتقد · »
فقال مانيرا :
ـ « طبعا لا يعرفون · انهم لن يهاجموا اذا عرفوا · »
فقال باسيني :
ـ « بل انهم يهاجمون · البرساغليري مجانين · »

فقلت :

ـ « انهم شجعان ، يتمتعون بانضباط حسن · »

ـ « انهم ضخام ، عراض الصدور ، اصحاء · ولكنهم مع ذلك مجانين · »

فقال مانيرا :

ـ « ان رماة القنابل طوال · »

كانت هذه نكتة · وضحك القوم جميعا ·

ـ « هل كنت هناك ، ايها الملازم ، يوم رفضوا الهجوم ، فعوقبوا باطلاق الرصاص على الرجل العاشر من كل عشرة منهم ؟ »

ـ « لا · »

ـ « هذا صحيح · لقد جعلوهم يقفون ، بعد ذلك صفا ، واخذوا منهم كل عاشر · ان القربينيين هم الذين أعدموهم رميا بالرصاص · »

فقال باسيني وبصق على الارض :

ـ « القر بينيون ! ولكن رماة القنابل هؤلاء ··· وكلهم يزيد طوله على ستة اقدام · لقد رفضوا ان يهاجموا · »

فقال مانيرا :

ـ « لو رفض كل امرىء ان يهاجم لانتهت الحرب · »

ـ « لم يكن الامر كذلك مع رماة القنابل · كانوا خائفين · ان جميع ضباطهم ينتسبون الى اسر راقية جدا ! »

ـ « لقد انطلق بعض ضباطهم الى الهجوم بمفردهم · »

ـ « وقد قتل رقيب ضابطين رفضا الزحف · »

ـ « ولكن بعض الجنود زحفوا · »

ـ « ان اولئك الذين زحفوا لم يوقفوهم صفا عندما اطلقوا النار على كل رجل عاشر · »

فقال باسيني :

ـ « ان واحدا من اولئك الذين صرعهم القربينيون هو من بلدتي · كان فتى اضخم واذكى واطول من ان ينتسب الى رماة القنابل! كان دائما في رومة ·

دائما مع البنات · ودائما مع القربينيين · »

وضحك ثم اضاف :

ــ « واليوم يقيم خارج منزله حرس يحمل حربة ، وليس في استطاعة احد ان يذهب ويزور امه واباه واخواته · وقد خسر ابوه حقوقه المدنية · لقد حرموه حق التصويت فيالانتخابات · ولقد فقدوا جميعا حماية القانون · ان اى امرىء يستطيع ان يستولي على ممتلكاتهم · »

ــ « لو لم يكن ذلك هو مصير عائلاتهم لما اندفع احد الى الهجوم · »

ــ « بلى · ان الجنود الالبيين يندفعون · وجنود الـ V. E ايضا · وكذلك بعض البرساغليري · »

ــ « لقد فرّ البرساغليري من الميدان ايضا · انهم الآن يحاولون ان ينْسوا ذلك · »

فقال باسيني متهكما :

ــ ينبغي ان لا تتركنا نتحدث على هذا النحو ، ايها الملازم · مرحى للجيش ! »

فقلت :

ــ « انا اعرف طريقتكم في الكلام · ولكن ما دمتم تسوقون السيارات وتسلكون ··· »

وختم مانيرا العبارة بقوله :

ــ « ··· وتفعلون ذلك من غير ان يسمعكم الضباط الآخرون · »

فقلت :

ــ « اعتقد ان علينا ان نضع حدا لهذا الحرب · انها لن تنتهي اذا ما كف جانب واحد عن القتال · ان الحال لن تزداد الا سوءاً اذا اوقفنا القتال · »

فقال باسيني في احترام :

ــ « انها لا يمكن ان تزداد سوءا · فليس ثمة شيء اسوأ من الحرب · »

ــ « الهزيمة اسوأ · »

فقال باسيني في احترام ايضا :

ــ « لست اعتقد ذلك · ما هي الهزيمة ؟ كل امرىء يرجع الى بيته · »

— « انهم يتعقبونك · انهم يأخذون بيتك · انهم يأخذون اخواتك · »

فقال باسيني :

— « لا اصدق ذلك · انهم لا يستطيعون ان يفعلوا هذا لكـــل انسان · فليدافع كل امرىء عن بيته · فليبقوا اخواتهم في البيت · »

— « انهم يشنقونك · انهم يجيئون ويكرهونك على الدخول في الجندية من جديد · ليس في سيارة الاسعاف ، ولكن في فرقة المشاة · »

—« انهم لا يستطيعون ان يشنقوا جميع الناس · »

فقـــــال مانيرا :

— « الدولة الاجنبية لا تستطيع اكراهك على القتال · لان الجنود سوف يفرون جميعا منذ المعركة الاولى · »

— « كما فعل التشيكيون · »

— « أعتقد انك لا تعرف شيئا عن حقيقة الانهزام ، ومن اجل ذلك تحسبه شيئا غير رديء · »

فقال باسيني :

— « ايها الملازم ، نحن نعرف جيدا انك تجيز لنا ان نتكلـــم · اسمع · ليس ثمة شيء اسوأ من الحرب · ونحن ، في سيارات الاسعاف ، لا نستطيع ابدا ان ندرك مبلغ سوئها · وحين يدرك الناس مبلغ سوئها يعجزون عـــن صنع ايما شيء لوقفها لانهم يصبحون مجانين · ان هنـــاك بعض النـــاس الذين لا يدركون ابدا · وهناك بعض الناس الذين يخافون من ضباطهم · وهؤلاء هم الذين تصنع بهم الحرب · »

— « انا ادري انها سيئة ، ولكن علينا ان ننهيها · »

— « انها لا تنتهي ، ليس ثمة نهاية للحرب ·

— « بلى ، هناك نهاية · »

وهز باسيني رأسه ·

— « الحرب لا تكسب بالنصر · اذ اى فائدة نجنيها اذا استولينا علـــى سان غابرييل ؟ واى فائدة نجنيها اذا استولينا على الكارسو ، ومونفالكوني وتريستا ؟ ان ذلك لن يفيدنا شيئا · هل رأيت جميع الجبال القصية اليوم ؟ هل تعتقد ان في ميسورنا ان نستولي عليها جميعا ايضا ؟ ان ذلك لن يتـــم لنا الا اذا كف النمساويون عن القتال · ينبغي ان يكف جانب عن القتال ·

لماذا لا نوقف نحن القتال ؟ انهم اذا نزلوا الى ايطاليا استبد بهم التعب ورجعوا من حيث اتوا • ان عندهم وطنا خاصا بهم • ولكن لا ، اننا بــــدلا من ذلك نتسلى بخوض الحرب ! »

ــ « انت تتكلم وكأنك خطيب • »

ــ « نحن نفكر • نحن نقرأ • اننا لسنا فلاحين • نحن ميكانيكيون •ولكن حتى الفلاحون اذكى من أن يؤمنوا بالحرب • ان كل انسان يكره هذه الحرب•»

ــ « ان ثمة طبقة بلهاء تسيطر على البلاد ، طبقة لا تفهم شيئا ولا تستطيع ان تفهم شيئا ابدا • وهذا هو السبب الذى من اجله نخوض هذه الحرب • »

ــ « وهم يكسبون الثروات من ورائها ايضا • »

فقال باسيني :

ــ « معظمهم لا يكسب ثروة • انهم بلهاء اكثر مما ينبغى • انهم يفعلون ذلك للاشيء • من اجل البلاهة • »

فقال مانيرا :

ــ « يجب ان نخرس • اننا نتحدث اكثر مما ينبغي حتى بالنسبة الــــى المــــلازم • »

فقال باسيني :

ــ « انه يحب ذلك • سوف نقنعه • »

فقال مانيرا :

ــ « ولكن علينا ، مؤقتا ، ان نخرس • »

فتساءل غافوتزي :

ــ « ولكن متى سوف نأكل ، ايها الملازم ؟ »

فقلــت :

ــ « سأذهب وارى • »

ونهض غورديني وخرج معي قائلا :

ــ « هل ثمة شيء استطيع ان افعله ، ايها الملازم ؟ هــــل استطيع ان اساعدك بطريقة ما ؟

كان هذا اهدأ الاربعة • فقلت :

ــ « تعال معي اذا شئت ، وسوف نرى •»

كان الظلام قد خيم في الخارج ، وكان النور الطويل المنبعث من الاضواء الكشافة يتحرك فوق الجبال · كان ثمة اضواء كشافة ضخمة في تلك الجبهة محمولة على شاحنات · وكنت تجتاز بها ليلا ، في بعض الاحيان ، على الطرق ، غير بعيد عن خطوط القتال · وقد وقفت الشاحنة في ناحية من الطريق ، وشرع أحد الضباط يوجه الضوء وسط رجاله المذعورين · واجتزنا مصنع القرميد ، ووقفنا عند مركز الاسعاف الرئيسي · كان ثمة ، في الخارج ،ملاذ صغير من اغصان خضراء فوق المدخل ، وفي الظلام حركت ريح الليل اوراق الاشجار .التي جففتها الشمس فسُمع لها حفيف · وكان في الداخل ضوء · وكان المايجور يتحدث بالتلفون ، قاعدا على صندوق وقال لي طبيب من الضباط ان موعد الهجوم قد قُدّم ساعة واحدة · وقدم اليّ كأسا من الكونياك · وعلى الالواح الخشبية التي جُعلت طاولات ، رأيت الادوات تلمع في النور ، والطسوت والزجاجات المسدودة · ووقف غورديني خلفي · ونهض المايجور وقال :

— « سوف يبدأ الهجوم الآن · لقد أعيد الى موعده السابق · »

ونظرت الى الخارج · كان الظلام مخيما ، وكانت اضواء النمساويين الكشافة تتحرك ، خلفنا ، فوق الجبال · ودام الهدوء لحظات اخرى ، وبعد ذلك انطلقت النيران من جميع المدافع وراءنا ·

وقال المايجور :

— « سافوى · »

فقلت :

— « احب ان اسألك عن الحساء ، ايها المايجور · »

ولم يسمعني · فكررت كلامي فأجاب :

— « انهم لم يأتوا به بعد · »

وسقطت قنبلة ضخمة وانفجرت خارج مصنع القرميد · وعقب ذلك انفجار قنبلة اخرى ، وفي غمرة من الدوي كان في استطاعتك أن تسمع جلبة القرميد والتراب الصغرى وهما يتساقطان كالمطر المنهمر ·

— « وهل عندكم طعام اخر ؟ »

فقال المايجور :

ـ « عندنا قليل من الباستا آسييوتا · » *

ـ « سوف آخذ ما تستطيع ان تعطيني اياه · »

وتحدث المايجور الى احد الجند ، فما كان من هذا الا ان توارى عن البصر لحظة ثم رجع حاملا وعاء معدنيا مليئا بالمكرونة المطبوخة الباردة · ودفعت الوعاء الى غورديني ·

ـ « هل عندكم شيء من الجبن ؟ »

فتكلم المايجور ، في تبرم ، مع الجندي ، الذي غار في الخندق كرة اخرى ثم عاد حاملا اوقية من الجبن الابيض ·

فقلـــت :

ـ « شكرا جزيلا · »

ـ « من الخير لك الا تخرج · »

كان رجلان قد وضعا شيئا امام المدخل · ونظر احدهما الى الداخل · وقال المايجور :

ـ « ادخِله · ماذا دهاك ؟ اتعتقد ان علينا ان نخرج بأنفسنا ونجيء به ؟ »

وامسك حاملا النقالة الرجلَ من ذراعيه وقدميه ، وادخلاه ·

فقال المايجور :

ـ « امزِق الصدرة · »

وامسك بكلاّب في طرفه قطعة من شاش · ونـزع الضابطان سترتيهما ·

وقال المايجور لحامليَ النقالة :

ـ « اخرجا من هنا · »

وقلت لغورديني :

ـ « تعـــال · »

وقال المايجور من فوق كتفه :

---

* طعام يصنع من المكرونة · (المعرب)

ـ « من الافضل ان تنتظر حتى ينتهي القصف • »

فقلت :

ـ « انهم يريدون ان يأكلوا • »

ـ « كما تريد • »

وما ان خرجنا حتى ركضنا عبر مصنع القرميد • وانفجرت قنبلة على مقربة دانية من ضفة النهر • ثم انفجرت اخرى قربنا انفجارا مفاجئا الى حد جعلنا لا نكاد نجد متسعا من الوقت للشعور باقترابها • وانبطحنا كلانا على الارض مدركين ، في وقت واحد ، الوميض وزلزلة الانفجار والرائحة سامعين صفير الاجزاء المتناثرة . وزفير القرميد الهاطل كوابل من المطر • ونهض غورديني ووثب نحو الملجأ • وتبعته انا ، حاملا قطعة الجبن ، وقد غطي سطحها الاملس بمسحوق الآجر • وفي داخل الملجأ كان السائقون الثلاثة يدخنون وقد جلسوا مسندين ظهورهم الى الجدار •

ـ « هيا . ايها الوطنيون • »

وسألني مانيرا :

ـ « كيف وجدت السيارات ؟ »

ـ « في حال جيدة • »

ـ « هل اصابك ذعر ، ايها الملازم ؟ »

فقلت :

ـ « انت مصيب الى حد لعين • »

واخرجت مديتي ، وفتحتها ، ومسحت شفرتها ، وكشطت سطح الجبن الخارجي القذر • وقدّم غافوتزي وعاء المعكرونة اليّ وقال :

ـ « ابدأ بالاكل ايها الملازم • »

فقلت :

ـ لا • ضعه على الارض • سوف نأكل جميعا • »

ـ « ليس هناك شوكات • »

فقلت بالانكليزية :

ـ « وأي بأس في ذلك ؟ »

وقطعت الجبن اجزاء ، ونشرتها على المكرونة ٠
وقلت :

ـ « اجلسوا وكلوا ٠ »

وجلسوا وانتظروا ٠ ووضعت ابهامي وسائر اصابعي في المكرونة ، وانتزعت بعضها ، فخرجت بكتلة كاملة ٠

ـ « ارفعها عاليا ، ايها الملازم ٠ »

ورفعتها اقصى ما استطيع رفعها ، فتدلّت جدائلها ٠ وخفضتها الى فمي ، ومصصت اطرافها عاضًا عليها بالنواجد ، ومضغت ، ثم قضمت قطعة من الجبن ، ومضغت ، ثم اخذت جرعة من خمر ٠ كان بها مثل طعم المعدن الصدىء ٠ وقدمت ابريق الخمر الكبير الى باسيني ، فقال :

ـ « انها عفنة ٠ لقد بقيَت زمنا طويلا في الابريق ٠ كنت احتفظ بها في السيارة ٠ »

كانوا كلهم يأكلون ، وذقونهم فوق الوعاء مباشرة ، رادّين رؤوسهم الى وراء ، ماصّين اطراف المكرونة ٠ واخذت لقمة اخرى ، وشيئا من الجبن ، وجرعة كبيرة من الخمر ٠ وفي الخارج سقط شيء ما ، فزلزل الارض ٠
فقال غافوتزي :

ـ « قذيفة من عيار اربعمئة وعشرين ٠ »
فقلت :

ـ « ليس هناك اية قنابل من عيار اربعمئة وعشرين في هذه الجبال ٠ »

ـ « ان عندهم مدافع سكودا كبيرة ٠ لقد رأيت الفجوات ٠ »

ـ « لديهم قنابل من عيار ثلاثمئة وخمسة ٠ »

وتابعنا الاكل ٠ وسُمع سُعال ، وضجة اشبه بضجة قاطرة حديدية تنطلق بعد وقوف ، ثم انفجار هز الارض كرة اخرى ٠

واتيت على حصتي من الجبن ، واخذت جرعة من الخمر ٠ ومن خلال الضجة الاخرى سمعت سعالا جديدا ، ثم تشو ـ تشو ـ تشو ـ تشو ، ثم اومض بريق كالذي يومض حين يُفتح باب فرن عال ، فجأة ، واخيرا

سمعت قصف رعد كان ابيض باديء الامر ثـــم استحال الى احمر تصحبه ريح عاصفة . وحاولت ان اتنفس . ولكن التنفس امتنع علي ، واحسست اني اكاد اخرج من جلدي واخرج واخرج وأن الريح تحملني طـــوال الوقت على جناحيها . ومن غير وعي انطلقت الى الخارج في خفة ورشاقة ، وادركت اني قد متّ ، وان من الخطأ ان يحسب المرء نفسه قد مات وانتهى . ثم اني طفوت ، وبدلا من ان امضي الى الامام شعرت وكأني انزلق الى وراء . وتنفست وعدت الى وعيي . كانت الارض ممزقة ، وامام رأسي كانت عارضة خشبية استحالت الى شظايا . وفي التشوش الذي غلب على رأسي سمعت شخصا يصيح . لقد حسبت ان ثمة شخصا يُعْوِل . وحاولـت ان اتحرك ولكنني لم استطع ان اتحرك . وسمعت الرشاشات والبنادق تطلق نيرانهـا عبر النهر ، وعلى طول النهر . وتطاير رشاش ماء هائل ، ورأيت طائفة من القنابل النجمية * ترتفع وتنفجر وتطفو في الهواء ، بيضاء ناصعة ، ورأيت الصواريخ تعلو وسمعت القنابل ، كل ذلك في لحظة . وبعد هذا سمعت على مقربة دانية مني شخصا يقول : « آه يا امي ! آه يا امي ! » وجذبْتُ ، ولويت وحرَّرت رجلي آخر الامر ، واستدرت ، ولمسْتُه . كان هو باسيني ، وحين لمسته صرخ . كانت رجلاه ممددتين نحوي ، وفي الظلام والضياء المتعاقبين رأيت انهما كلتيهما مسحوقتان فوق الركبة . كانت احدى الرجلين مبتورة ، ولم يكن يمسك الاخرى غيرُ بعض الاوتار العضلية وجــزء من البنطلون ، وكانت ارومة الرجل تختلج وتهتز وكأنها غير متصلة البتة . وعضَّ ذراعه وانتحب : « آه يا امي ، آه يا امي » ثم اضاف : « ايه يا يسوع ، اجهز علي ايها المسيح ،اجهزيعليَّ يا مريم ،يامريم العذراء القديسة اجهزي علي .ضعا حدا لهذا . ضعا حدا له . ضعا حدا له . اوه يا يسوع ، يا مريم القديسة ، ضعا حدا له . اوه ، اوه ، اوه . » واخيرا قال في صوت مختنق : « ماما ميا ! ماما ميا ! » ثم رانت عليه السكينة ،وقد عض على ذراعه ، واختلجت ارومة رجلــه .

---

* sta — ells ضرب من القابل ينطلق منه ، عند انفجاره ، وابل من النجوم اللامعة . (المعرب)

وصحت جاعلا من كفي شبه قمع :

ـ « يا حاملي الجرحى ! يا حاملي الجرحى ! »

وحاولت ان ادنو من باسيني لكي اضع على رجليه ضمادا يوقف نزف الدم ، ولكني لم استطع ان اتحرك • وحاولت من جديد ، فتحركت رجلاي قليلا • واستطعت ان اتراجع الى الوراء مستعينا بذراعيَّ ومرفقيَّ • كان باسيني ساكنا الآن • وقعدت الى جانبه ، وفككت ازرار صدرتي ، وحاولت ان امزق ذيل قميصي • ولكنه امتنع على المزق ، فعضضت على طرف القماش تيسيرا لمزقه • ثم اني فكرت في العصابة التي تغطي رَبْلة ساقه • كنت انا ارتدي جوربا صوفيا ، ولكن باسيني كان يرتدي عصابَتَيْ ساق • وكان جميع سائقي السيارات يرتدون مثل هذه العصائب ، ولكن باسيني كان ذا رجل واحدة • وحللت العصابة ، وفيما انا اقوم بذلك رأيت انه ليس ثمة حاجة الى تضميد رجله لانه كان قد مات • واستيقنت انه مات فعلا • وكان عليَّ الآن ان ابحث عن الثلاثة الاخرين • فجلست متصدرا ، وفيما انا افعل ذلك تحرك شيء في داخل رأسي مثل الاثقال التي تُشَد الى عيني الدمية ، وضربني على مؤخرة حدقتي عينيَّ • واستشعرت ان قدميَّ ساخنتان رطبتان ، وكان حذائي رطبا وساخنا من الداخل • وعرفت اني قد جُرحت ، فانحنيت الى الامام ووضعت يدي على ركبتي ، ولكن ركبتي لم تكن هناك • ان يدي لم تقع الا على فراغ ، ولقد كانت ركبتي قد انحدرت فوق عظم ساقي الاكبر • ومسحتُ يدي بجانب قميصي • وسقط ضياء اخرُ عائمٌ سقوطا بطيئا ، ونظرت الى رجلي ، فاستبد بي ذعر شديد • وقلت : « اوه ، يا الهي اخرجني من هنا • » لقد عرفت ، مع ذلك ، انه كان ثمة ثلاثة اخرون • كان هناك أربعة سائقين • ولقد مات باسيني ، فبقي ثلاثة • وامسك بي شخص ما ، من تحت ذراعي ، ورفع شخص اخر رجليَّ •

وقلت :

ـ « هناك ثلاثة اخرون • لقد مات واحد • »

ـ « هذا انا ، انا مانيرا • لقد حاولنا ان نبحث عن نقالة ولكنا لم نجد كيف انت ، ايها الملازم ؟ »

ـ « اين غورديني وغافوتزي ؟ »

ـ « غورديني في مركز الاسعاف حيث تضمد جراحه • اما غافوتزي فهـو الذي يمسك برجليك الان • تشبث بعنقي ايها الملازم • هل اصبت بجرح خطير ؟ »

ـ « في رجلي • كيف حال غورديني ؟ »

ـ « في خير • لقد كانت قنبلة كبيرة من قنابل مدافع الخنادق • »

ـ « لقد مات باسيني • »

ـ « اجل • لقد مات • »

وسقطت قنبلة على مقربة منا • فأفلتاني وانبطحا على الارض • وقال مانيرا :

ـ « انا آسف ، ايها الملازم ، تشبث جيدا برقبتي • »

ـ « اذا افلتتني مرة ثانية • • • »

ـ « كان ذلك لان الرعب غلب علينا • »

ـ « الم تصابا بجراح ؟ »

ـ « لقد اصيب كل منا بجراح بسيطة • »

ـ « هل يستطيع غورديني ان يسوق ؟ »

ـ « لست اظن ذلك • »

وطرحاني على الارض كرة ثانية ، قبل ان نصل الى مركز الاسعاف • وقلت :

ـ « يا لكما من ابني زنا ! »

فقال مانيرا :

ـ « انا آسف ايها الملازم • اننا لن نطرحك على الارض مرة ثانية • »

وامام مركز الاسعاف وُضع عدد كبير منا على الارض ، تحت جنح الظلام• لقد ادخلوا الجرحى الى المركز واخرجوهم منه • وكان في ميسوري ان ارى الضوء ينبثق من مركز الاسعاف كلما ازيحت الستارة وادخلوا جريحـــا او

اخرجوا جريحا • كان الاطباء يعملون وادرانهم مرفوعة حتى اكتافهم ، وكانوا حمرا كالجزارين • لم يكن ثمة قدْر كاف من النقالات • وكان بعض الجرحى كثيري الصخب ، ولكن معظمهم كانوا هادئين • وفوق باب المركز ، اثارت الريح اوراق الشجر التي تظلل المدخل • كان الليل قد اخذ يبرد ، وكان حملة النقالات يفدون على المركز على غير انقطاع ، فيضعون نقالاتهم على الارض ، ويفرغونها ثم يمضون لسبيلهم • وما ان وصلت الى مركز الاسعاف حتى اصطحب مانيرا رقيبا ممرضا فلفَّ كلتا رجليَّ بالعصائب • لقد قال لي ان مقدارا كبيرا من التراب قد تسرب الى الجرح ، وان هذا التراب هو الذي وفّر عليَّ كثيرا من النزف • انهم سوف يُعنون بأمري في اسرع وقت ممكن • وانه يعرف كيف يسوق السيارة • كان البريطانيون قد اقبلوا بثلاث من سيارات الاسعاف ، وكانوا يحملون على كل منها رجلين • كان جالسا الى جانب احد الجدْران الآجرية • وخرج كل من مانيرا وغافوتزي مثقلا بحمل من الجرحى • ثم عادا فدخلا المركز من جديد • وقال لي مانيرا ان غورديني لا يستطيع ان يقود السيارة • كانت كتفه قد سُحقت ، وكان رأسه قد جرح • ان ذلك لم يكن يؤلمه في بادىء الامر ، ولكن كتفه كانت الآن قد تصلّبت • واقترب نحوي احد السائقين البريطانيين ، يقوده غورديني الذي بدا شديد الشحوب ، مريضا • وانحنى البريطاني فوقي وسألني :

ـ « هل اصبت بجرح خطير ؟ »

كان رجلا فارع الطول ، وكان يضع على عينيه نظارة ذات حاشية فولاذية •

واجبته قائلا :

ـ « في ساقيَّ • »

ـ « ارجو ان لا تكون اصابتك خطيرة • تفضل وخذ سيكارة • »

ـ « شكرا • »

ـ « يقولون لي انكم خسرتم سائقين • »

ـ « نعم • احدهما قتل • وثانيهما هو الذي قادك الي • »

ـ « يا للحظ السيء ! هل ترغب في ان تأخذ السيارتين ؟ »

ـ « ذلك هو ما رغبت ان اكلفكم القيام به ٠ »

ـ « سوف نعني بهما عناية حسنة ، ونعيدهما الى الدارة ٠ انت تحيا في رقم ٢٠٦ اليس كذلك ؟ »

ـ « نعم ٠ »

ـ « انه مكان ساحر ٠ لقد رأيتك هناك ٠ يقولون لي انك اميركي ٠ »

ـ « نعم ٠ »

ـ « انا انكليزي ٠ »

ـ « لا ؟ »

ـ « اجل ، انكليزي ٠ هل ظننت اني ايطالي ؟ لقد كـــان هناك بعض الايطاليين مع احدى وحداتنا ٠ »

فقلت :

ـ « يسرّني جدا ان تتمكنوا من اخذ السيارتين ٠ »

فتصدَّر وقــال :

ـ « سوف نعني بهما اعظم العناية ٠ ان فتاك هذا كان شديد الحرص على ان يجمعني بك ٠ »

وربت على كتف غورديني ٠ وارتد غورديني مجفلا وابتسم ٠ وشرع الرجل الانكليزي يتحدث في ذرابة ، بلسان ايطالي مبين :

ـ « كل شيء قد رتّب الان ٠ لقد رأيت ضابطك ٠ سوف نقود السيارتين لا داعي بعـــــد للقلق ٠ »

ـ « يتعيّن علي ان اعمل شيئا من اجل اخراجك من هنا ٠ سوف ارى السلطات الطبية ٠ سوف نرجعك معنا ٠ »

ومضى نحو مركز الاسعاف ، ماشيا في احتراس بين الجرحى ٠ ورأيت الستارة تُزاح ٠ وانبجس النور ، ودخل الرجل الانكليزي المركز ٠

وقال غورديني :

ـ « سوف يعنى بأمرك ايها الملازم ٠ »

ـ « كيف انت يا فرانكو ؟ »

ـ « في خير ٠ »

وقعد الى جانبي ٠ ومــا هي الا لحظة حتـــى ازيحت ستارة المركز ،

وخرج اثنان من حملة النقالات يتبعهما الانكليزي الفارع الطول . لقد قادهما نحوي .

وقال بالايطالية :

ـ « ها هو الملازم الاميركي . »

فقلت :

ـ « اني افضّل ان انتظر . ان جراحات الآخرين اخطر من جرحي بكثير . انا في حال جيدة . »

فقال :

ـ « هيا ، هيا . لا تكن بطلا لعينا . »

ثم اضاف بالايطالية :

ـ « ارفعاه من قدميه في عناية بالغة . ان رجليه تؤلمانه كثيرا . انه ابن الرئيس ولسون الشرعي . »

ورفعاني وأدخلاني الى مركز الاسعاف . وفي الداخل كان الاطباء يجرون العمليات الجراحية على الموائد كلها . ونظر الي المايجور الضئيل الجسم نظرة هائجة . وعرفني . فلوّح لي بالكلاّب .

ـ « هل انت بخير ؟ »

ـ « اجل ، بخير . »

وقال الرجل الانكليزي الفارع الطول باللغة الايطالية :

ـ « اني انا الذي ادخلته الى هنا . انه الابن الوحيد لسفير الولايات المتحدة . في استطاعته ان ينتظر ريثما تفرغون للاهتمام به . وعندئذ انقله في اول سيارة من سياراتنا التي تنقل الجرحى من هنا . »

وانحنى فوقي واضاف :

ـ « سوف اذهب وابحث عن سكرتيرهم لانجاز اوراقك . ذلك ادعى الى السرعة . »

ـ « وطأطأ رأسه لكي لا يصطدم بأعلى الباب ، ومضى لسبيله . كان المايجور يفك كلابته ، الآن ، ليضعها فوق حوض . وتابعتُ حركاته بناظريّ كان يعصب العصائب ، الآن . ثم ان حملة النقالات رفعوا الرجل عن المائدة . وقال احد الاطباء العسكريين :

ـ « سوف اعنى بالملازم الاميركي الآن ٠ »

وحملوني الى المائدة ٠ كانت قاسية وزلقة ٠ وكان ثمة كثير من الروائح القوية : روائح كيميائية ، ورائحة الدم الزكية ٠ ونزعوا بنطلوني ، وشرع الكابتن الطبيب يملي على مساعده فيما هو يتابع العمل : « جراح متعدّدة وسطحية في الفخذين اليسرى واليمنى ٠ وفي الركبتين اليسرى واليمنى والقدم اليمنى ٠ جراح عميقة في الركبة اليمنى والقدم اليمنى ٠ تمزّق في جلدة الرأس (وجسّ ـ هل تشعر بألم ؟ يا الهي ، نعم !) مع امكانية كسر في الجمجمة ٠ ولقد اصبت بهذا كله فيما كنت تؤدي واجبك ٠ وهذا ما ينقذك من المثول امام المجلس العرفي بتهمة تعريض نفسك للأذى على نحو اراديّ ٠ ما رأيك في كأس من البراندي ؟ وكيف اقحمت نفسك في هذا البلاء ، على اية حال ؟ ما الذي كنت تحاول ان تفعله ؟ ان تنتحر ؟ قليلا من مضاد الكزاز (آنتيتيتانوس) من فضلك ، وارسم صليبا على كلتا الرجلين ٠ اشكرك ، سوف انظف هذا كله قليلا ، واغسله ، واضمّده ٠ ان دمك يتخثّر على نحو رائع ٠ »

ورفع المساعد رأسه عن الورق ، وسأل :

ـ « ما الذي سبّب الجراح ؟ »

فقال الطبيب :

ـ « ما الذي جرحك ؟ »

فقلت وانا اغمض العينين :

ـ « قنبلة من أحد مدافع الخنادق ٠ »

فقال الطبيب ، وهو يقوم بأشياء آلمتني ايلاما شديدا ويقصّ انسجة جسدي :

ـ « هل أنت واثق من ذلك ؟ »

فأجبت ، محاولا أن احتفظ بسكينتي ، ومستشعرا ان معدتي ترفرف كلما شرط اللحم :

ـ « أظن ذلك ٠ »

فقال الطبيب وقد اثار اهتمامه شيء اكتشفه :

ـ « شظايا قنبلة من قنابل مدافع العدو الخاصة بالخنادق ٠ سوف ابحث

الآن عن بعض هذه ، اذا شئت · ولكن هذا غير ضروري · ولسوف اطلي ذلك كله و ـ هل يؤلمك هذا ؟ حسن ، ذلك ليس شيئا بالقياس الى ما ستشعر به في ما بعد · أن الالم لم يبدأ بعد · ايتوه بكأس من البراندي · أن الصدمة تخدّر الألم · ولكن لا بأس ، وليس ثمة ما يدعوك الى القلق أذا لم يتطرق الفساد الى الجرح ، وامكان ذلك ضئيل الآن · كيف رأسك ؟ »
فقلت :

ـ « أوه ، يا الهي ! »

ـ « من الافضل أن لا تسرف في شرب البراندي أذن · فاذا كنت مصابا بكسر في الجمجمة فيجب ان تحذر الالتهاب · هل تحسّ بألم في الرأس ؟ »
وسال العرق فوق جسدي كله ، وقلت :

ـ « يا الهي ! »

ـ « أحسب أنك مصاب بكسر في الجمجمة · سوف أعصبك ، فلا تحرك رأسك » ·
وعصب رأسي · كانت يداه تتحركان في سرعة بالغة ، فاذا بالعصابة مُحكمة مكينة ·
وقال :

ـ « حسن · أتمنى لك حظا سعيدا ، ولتحيَ فرنسة ! »
فقال احد الضباط الآخرين :

ـ « انه اميركي · »
فقال الطبيب :

ـ « حسبت انك قلت انه فرنسي · انه يتكلم الفرنسية · لقد عرفته من قبل · ولقد كنت دائما أظنه فرنسيا · »
وتجرع نصف كأس من الكونياك ، وأضاف :

ـ « أيتوني بمقدار اضافي من مضاد الكزاز (آنتيتيتانوس) ·
وأومأ الكابتن الطبيب بيده : فرفعوني ، فمسّت ستارة المدخل وجهي ونحن نغادر المكان · وفي الخارج ، ركع المساعد على مقربة مني ، وسألني في رقة :

ـ « اسمك ؟ اسمك الاوسط ؟ اسمك الاول ؟ رتبتك ؟ مكان ولادتك ؟ السنة التي جُنّدت فيها ؟ في أية فرقة ؟ » الخ ... « أنا متأسف لما اصاب رأسك ، ايها الملازم . ارجو ان تكون حالك قد تحسّنت . سوف اطلب الى سيارة الاسعاف الانكليزية ان تنقلك من هنا . »

فقلت :

ـ « أنا بخير . أشكرك كثيرا . »

كان الالم الذي تحدث عنه الكابتن الطبيب قد بدأ ، وكان كل ما يجري لا يلفت اهتمامي البتة . وبعد برهة ، أقبلت سيارة الاسعاف الانكليزية ، فوضعوني على نقالة ، ورفعوا النقالة الى مستوى السيارة ودفعوا بها الى الداخل . كانت الى جانبي نقالة اخرى عليها رجل استطعت ان أرى أنفه الشمعيّ اللون من خلال العصائب والضمادات . كان يتنفس في عسر بالغ . وكانت ثمة نقالات تُرفع وتدفع في الحمائل المعلّقة فوقي . وأقبل السائق الانكليزي الفارع الطول وألقى نظرة على الداخل ، وقال :

ـ « سوف اقود السيارة في هدوء كثير ، ارجو ان يريحك ذلك . »

وأحسست بالمحرك يدور ، وأحسست بالسائق يمتطي متن العربة ليحتل المقعد الامامي ، وأحسست بالمكبح يُرخى ، وبالدوبريياج يُداس ، ثم انطلقنا . والتزمت الهدوء ، واستسلمت للالم .

وبسبب من نشاط حركة المواصلات صعّدت السيارة في بطء . كانت تتوقف عن المسير حينا . وترتد على عقبها عند احد المنعطفات . واخيرا استطاعت ان تصعّد في سرعة بالغة . واستشعرتُ شيئا يقطر . لقد قطر بادىء الامر في بطء وفي انتظام ، ثم تحوّل الى جدول . وناديت السائق . فأوقفت السيارة ، ونظر الى الداخل من خلال الثقب الذي وراء مقعده .

ـ « ما المسالة ؟ »

ـ « الرجل الممدّد فوقي على النقالة مصاب بنزف . »

ـ « عمّا قليل نصل الى القمة . انا لا استطيع اخراج النقالة وحدي . »

وأدار المحرّك · واستمر الجدول في جريانه · وفي الظلام ، لم استطع ان أتبيّن من أية ناحية من القماش الذي فوق رأسي تفجّر ذلك الجـــدول · وحاولت ان ابتعد الى جانب ، لكي لا يسقط علي · وكان المكان الذي سال فيه ، تحت قميصي ، حارا ودبقا · وكنت انا اشعر بالبرد ، وكانت رجلــي تؤلمني الى درجة خشيت معها من الاغماء · وما هي الا لحظة حتى تضاءل السيل المتحدّر من النقالة التي فوقي ، وتحوّل الى قطرات ضئيلة ، وسمعت القماش يتحرك فوقي بينما كان الرجل الممدد على النقالة يخلد الى السكينة ·

وسألني الرجل الانكليزي :

ـ « كيف حاله ؟ لقد كدنا نبلغ القمة · »

فقلت :

ـ « لقد مات ، على ما اظن · »

وتساقطت القطرات في بطء شديد ، كما تسقط من دلدول جليديّ بعد غياب الشمس · كان الجو في السيارة باردا ، في الليل ، فوق تلك الطريق الآخذة في الارتفاع · وفي مركز الاسعاف ، عند القمة ، اخرجوا النقالــة ، ووضعوا غيرها مكانها ، وتابعنا سيرنا ·

الفصل العاشر

وفي القاعة التي انزلت بها في مستشفى الميدان اخبروني ان شخصا سوف يزورني بعد الظهر • كان يوما قائظا ، وكان في الغرفة عدد كبير من الذباب • كان ممرّضي قد أعد قصاصات طويلة من الورق ، وشد هذه القصاصات الى عصا لكي يتخذ منها منفضة لاقصاء الذباب • وراقبتُ الذباب وهو يستقر على السقف • وحين كفّ عن تحريك منفضته واستسلم للرقاد هبط الذباب فنفخت عليه اذوده عني ، واخيرا غطيت وجهي بيديّ واستسلمت للرقـــاد ايضا • كان الجو قائظا جـــدا ، وحين افقت حكّتني رجـــلاي • وايقظتُ الممرض ، فصبّ بعض الماء المعدني على الضمادات • وهذا ما جعل السرير رطبا وباردا • وكان الايقاظ من زملائي الجرحى يتبادلون الحديث من اقصى القاعة الى اقصاها • وكان الاصيل وقتا هادئا • وفي الصباح كان ثـلاثـــة ممرضين وطبيب يفدون علينا فيعودون كلا من الجرحى بدوره ويخرجونه من سريره وينقلونه الى حجرة التضميد بحيث يكون في الامكان تسويـة السُرر فيما هم يضمدون جراحاتنا • ولم يكن الانتقال الى حجرة التضميد رحلـة لطيفة ، ولم اعرف الا في ما بعد ان في الامكان تسوية السرر من غير ان يغادرها المرضى • وكان ممرضى قـــد انهى صبّ الماء فاذا بالفراش بارد محبّب • وكنت ادله على المواضع التي ينبغي له ان يحكّها من اخمص قدميّ عندما دخل علي أحد الاطباء مصطحبا رينالدي • وهرع رينالدي نحوي ، وانحنى فوق السرير ، وقبّلني • لقد لاحظت انه كان يلبس قفازين •

ـ « كيف انت ، أيها الطفل ؟ كيف تشعر الآن ؟ لقد جئتك بهذه •••• »

كانت زجاجة كونياك . وجاءه الممرض بكرسي ، فجلس عليه واضاف :
« ... وبأنباء سارة . سوف ينعم عليك بوسام . انهم يريدون ان يمنحوك المدالية الفضية ، ولكن من الجائز أن لا يوفقوا الى اكثر من الحصول على المدالية البرونزية . »

ـ « وعلام هذا التكريم ؟ »

ـ « لانك اصبت بجراح بليغة . وهم يقولون انك اذا استطعت ان تثبت انك قمت بعمل بطولي فعندئذ يكون بامكانك الفوز بالمدالية الفضية . والا منحت البرونزية ليس غير . قل لي ما الذي حدث تماما . هل قمت بأيما عمل بطولي ؟ »

فقلت :

ـ « لا . لقد نسفت ونحن نأكل الجبن . »

ـ « كن جادا . لا بد انك قمت بعمل بطولي ما ، سواء قبل ، أو بعد . تذكر جيدا . »

ـ « لم أقم بشيء من ذلك . »

ـ « الم تحمل احدا على ظهرك ؟ غورديني يقول انك حملت كثيرا من الناس على ظهرك ، ولكن المايجور الطبيب في مركز الاسعاف الاول يصرح بأن هذا مستحيل . ان عليه ان يوقع اقتراح الانعام . »

ـ « انا لم احمل احدا . لقد كنت عاجزا عن الحركة . »

فقال رينالدي :

ـ « هذا لا يقدم ولا يؤخر . »

ونزع قفازيه . وأضاف :

ـ « أنا اعتقد ان في استطاعتك ان تفوز بالمدالية الفضية . ألم ترفض ان تنعم بالمساعدة الطبية قبل الآخرين ؟ »

ـ « في غير كثير من الاصرار . »

ـ « هذا لا يقدم ولا يؤخر . تذكر الجرح البليغ الذي اصبت به . تذكر اصرارك الجريء على أن تكون في الخط الاول دائما . والى هذا فالهجوم كان ناجحا . »

ـ « أوه ، هل وفّقوا الى عبور النهر ؟ »

ـ « على نحو مدهش • وقد أسروا نحوا من الف رجل • كل هذا مذكور في البلاغ الرسمي • الم تطّلع عليه ؟ »

ـ « لا • »

ـ « سوف آتيك به • لقد كان هجوما موفقا • »

ـ « وكيف تجري الامور ؟ »

ـ « على نحو رائع • نحن كلنا رائعون • وكلّنا فخورون بك • قل لي على وجه الضبط كيف حدث ذلك • انا واثق انك سوف تفوز بالمدالية الفضية • هيّا ، اخبرني • أخبرني كل شيء عن ذلك • »

وتمهّل قليلا وانشأ يفكر ثم اردف :

ـ « لعلك ان تنال مدالية انكليزية ايضا • لقد كان هناك رجل انكليزي • سوف اذهب وأراه واسأله ان يقترح الانعام عليك • لا بد ان يكون قادرا على عمل شيء • هل تتوجع كثيرا ؟ خذ كأسا • ايها الممرض ، اذهب وائت بفتّاحة • أوه ، يجب ان ترى ماذا فعلت في انتزاع ثلاثة امتار من المعي الدقيق ، وخير البر عاجله • انها شيء جدير بأن ينشر في مجلة « لانسيت » Lancet • انت تقوم بالترجمة وعندئذ ابعثُ بها الى مجلة « لانسيت » أنا احرز كل يوم تقدما • كيف تشعر الآن ، ايها الطفل العزيز المسكين ؟ اين تلك الفتّاحة اللعينة ؟ انت شجاع جدا ، وهادىء جدا ، واني لأنسى انك تتوجع • »

وضرب حافة السرير بقفازيه •

وقال الممرض :

ـ « ها هي الفتاحة ، يا سيدي الملازم • »

ـ « افتح الزجاجة • هات كأسا • أشرب هذا ، أيها الطفل • كيف رأسك المسكين ؟ أنت غير مصاب بأي كسر في الجمجمة • لقد كان المايجور الذي في مركز الاسعاف الاول ، ذاك ، جزارا من جزاري الخنازير • ولو كنت مكانه لما انزلت بك أي اذى • انا لا اوجعُ احدا البتة • أنا اعرف كيف اقوم بهذه المهمة • وكل يوم أتعلّم كيف أحسن صنع الاشياء في رشاقة

واتقان متزايدين • يجب ان تعذرني على هذا الهذر كله ، ايها الطفل • فقد أثّر في نفسي كثيراً ان اراك جريحا على هذه الشاكلة الخطرة • خذ ، اشرب هذا • انها خمر جيدة • ان ثمنها خمسة عشر ليرا • وكيف لا تكون جيدة وهذا ثمنها ؟ ! خمسة نجوم • اني بعد ذهابي من هنا سأقصد لرؤية ذلك الانكليزي ، ولسوف يساعدك على الفوز بمدالية انكليزية • »

ـ « انهم لا ينعمون بالمداليات على هذا النحو • »

ـ « انت متواضع اكثر مما ينبغي • سوف أبعث ضابط الارتباط • ان في استطاعته ان يقنع الانكليزي • »

ـ « هل رأيت مس باركلي ؟ »

ـ « سوف اجيء بها الى هنا • سوف اذهب الآن واصطحبها الى هنا • »

فقلت :

ـ « لا تذهب • حدّثني عن غوريتزيا • كيف حال البنات ؟ »

ـ « ليس هناك بنات • انهم لم يغيّروهنّ منذ اسبوعين • أنا ما عدت اذهب الى هناك • شيء معيب • انهن لسن بنات • انهن رفاق سلاح قدماء • »

ـ « أنت لا تذهب الى هناك البتة ؟ »

ـ « أنا اذهب لأرى هل من جديد ، ليس غير • انا ألمّ بالمكان مجرد المام • أنهن جميعا يسألنني عن انبائك • من المعيب ان يمكثْن هذه المدة كلها حتى يصبحن صديقات • »

ـ « لعل البنات ما عدن يرغبن في الذهاب الى الجبهة • »

ـ « بل انهن يرغبن من غير شك • ان ثمة عددا كبيرا من البنات • انها مسألة ادارة رديئة ليس غير • انهم يحتفظون بهنّ لمتعة المختبئين في الملاجىء وراء الخطوط • »

ـ « مسكين انت يا رينالدي • تخوض غمار الحرب وحيدا من غير بنات جديدات • »

وصبّ رينالدي لنفسه كأسا اخرى من الكونياك •

ـ « لا اظن انها ستؤذيك ، أيها الطفل · اشربها · »

وشربت الكونياك ، واستشعرت الدفء حتى اعماق معدتـــي · وصبَّ رينالدي كأسا اخرى · كان اكثر هدوءا الآن · ورفع الكأس وقال :

ـ « الى جراحك الباسلة · الى المدالية الفضية · قل لي ، ايها الطفل ، حين تستلقي هنا ، طوال الوقت ، في الجو الحار ، الا تثور ثائرتك ؟ »

ـ « بعض الاحيان · »

ـ « لست استطيع ان اتخيل كيف يقدر المرء على الاستلقاء هكذا · ان ذلك خليق بأن يفقدني صوابي · »

ـ « أنت معتوه · »

ـ « اتمنى لو تعود · فلم اعد اجد من يرجع ليلا من مغامرات قام بهـا · ولم أعد أجد من أمازحه · ولا من يقرضني مالا · لم أعد أجد أخا شقيقا ، ورفيق غرفة · لماذا عرَّضت نفسك للجراح ؟ »

ـ « في استطاعتك ان تمازح الكاهن · »

ـ « الكاهن ! لست أنا الذي يسخر منه · انه الكابتن · انا احبه · اذا كنت تريد كاهنا فليس امامك غير ذلك الكاهن · سوف يجيء لزيارتك · انه يقوم باستعدادات كبيرة · »

ـ « انا احبه · »

ـ « أوه ، لقد عرفتُ ذلك · يخيَّل اليَّ في بعض الاحيان انـــك وهـو على هذه الشاكلة الى حد ما · انت تدري · »

ـ « لا · ليس هذا صحيحا · »

ـ « اجل ، اني افعل في بعض الاحيان · على هذه الشاكلة قليلا ··· مثل رقم الكتيبة الاولى من البريغاتا آنكونا · »

ـ « اوه ، اذهبْ الى الجحيم · »

ونهض ، ولبس قفازيه ، وقال :

ـ « أوه ، أنا احب ان اناكدك ، أيها الطفل · فعلى الرغم من كاهنك ، ومن فتاتك الانكليزية ، فأنك في اعماقك مثلي تماما · »

ـ « لا · لست مثلك · »

ـ « بل نحن متماثلان • انت ايطالي حقا • كُلّك نار ودخـــان ولا شيء في الداخل • أنت تتظاهر مجرد تظاهر بأنك اميركي • نحـــن اخَوان وان أحدنا ليحبّ الآخر • »

فقلت :

ـ « كن عاقلا اثناء غيابي • »

ـ « سوف ابعث اليك بمس باركلي • ان سلوكك معها يكون افضل حين لا اكون أنا موجودا • أنت اطهر وألطف • »

ـ « أوه ، آذهبْ الى الجحيم ! »

ـ « سوف ابعث بها • الاهتك الرائعة الباردة • الاهتك الانكليزيـة • يا الٰهي ، ما الذي يفعله الانسان مع امرأة كهـذه غير تقديسها وعبادتها ؟ لأي شيء غير هذا تصلح المرأة الانكليزية ؟ »

ـ « انت ايطالي جاهل بذيء • »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « ايطالي جاهل • »

ـ « وانت ؟ انت ايطالي ذو وجه جليديّ • • • »

ـ « انت جاهل • معتوه • »

لقد رأيت ان تلك الكلمة وخزتْه • فواصلت حملتي :

ـ « عديم الثقافة • عديم التجربة • معتوه بسبب من عدم الخبرة • »

ـ « حقا ؟ سوف اخبرك شيئا عن نسائك الطيبات • عن الاهاتك • هناك فرق واحد بين ان تمتلك فتاة كانت دائما طيبة وبين ان تمتلك امرأة • وهو أن المسألة تكون مؤلمة مع الفتاة • هذا كل ما اعرفه • »

وصفع الفراش بقفازيه ، ثم اردف :

ـ « وليس في استطاعتك ابدا أن تعلم هل ستحبّ الفتاة ذلك حقا • »

ـ « لا تغضب ! »

ـ « لست غاضبا • انا اقول لك هذا ، أيها الطفل ، لمصلحتك ليس غير • لكي اوفـّر عليك المتاعب • »

ـ « أهذا هو الفرق الوحيد ؟ »

ـ « نعم ، ولكن ملايين من البلهاء مثلك لا يعرفونه . »

ـ « ان اخبارك اياي بهذا كله ينطوي على كثير من اللطف . »

ـ « اننا لن نتشاجر ، ايها الطفل . أنا احبك اكثر مما ينبغي . ولكن لا تكن معتوها . »

ـ « لا . سوف أكون حكيما مثلك . »

ـ « لا تغضب ، أيها الطفل . اضحك . خذ كأسا . لقد آن لي ان اذهب .»

ـ « أنت غلام طيب . »

ـ « الآن اصبتَ . اننا ، في اعماقنا ، متماثلان . نحن رفيقا سلاح . قبّلني قبلة الوداع . »

ـ « أنت دَبق . »

ـ « لا . أنا شديد المودّة . هذا كل ما في الامر . »

واستشعرتُ انفاسه تقترب مني :

ـ « الى اللقاء . سأعود لزيارتك في وقت قريب . »

وابتعدت انفاسه ، وهو يقول :

ـ « لن اقبّلك اذا كنت غير راغب في ذلك . سوف ابعث اليك بفتاتك الانكليزية . الى اللقاء ، ايها الطفل . الكونياك تحت السرير . عجّل في الشفاء . »

ومضى لسبيله .

الفصل الحادي عشر

وعند الغسق وصل الكاهن · كانوا قد جاءوا بالحساء ثم عادوا فأخذوا الآنية ، وكنت مستلقيا انظر الى صفوف السُرر ، واتطلّع من خلال النافذة الى قمة الشجرة التي تمايلت بعض الشيء مع نسيم المساء · واقبل النسيم علينا من خلال النافذة ، وهبطت الحرارة مع هبوط الليل · كان الذباب على السقف الآن وعلى المصابيح الكهربائية المتدلية على اسلاك · وكانت الاضواء لا تُنار الا عندما يُدخل امرؤ ما في الظلام او عندما يقام بعمل ما · والواقع أن هبوط الظلام بعد الغسق ثم بقاءه بعدُ جعلاني اشعر اني رجعت فتى غضّ الاهاب · كان ذلك اشبه بالايواء الى الفراش بعد عشاء مبكر · ودلف المرض بين السرر ، وتوقف · كان يرافقه شخص ما · وكان هذا الشخص هو الكاهن · لقد وقف هناك ضئيل الجسم ، أسمر البشرة ، مرتبكا ·

وسألني :

ـ « كيف حالك ؟ »

ووضع بعض الرزم على الارض ، غير بعيد عن السرير ·

ـ « بخير ، أيها ألاب · »

وجلس على الكرسي التي جيء بها لرينالدي ، ونظر من خلال النافذة في ارتباك · لقد لاحظت آثار التعب الشديد بادية على وجهه ·

وقـال :

ـ « لن استطيع البقاء غير دقيقة واحدة · لقد تأخرت · »

ـ « لا يزال امامك متسع من الوقت • كيف حال رفاقنا الضباط ؟ »

فابتسم وامارات التعب بادية على صوته ايضا :

ـ « انا لا ازال سخريتهم الكبيرة • أحمد الله على انهم جميعا بخير • »

ثم اضاف :

ـ يسرني ان تكون انت بخير • وارجو ان تكون في نجوة من الالم • »

لقد بدا مُتعبا جدا ، وما كنتُ متعوّدا ان اراه متعبا •

ـ « لم يبق ثمة أيما ألم • »

ـ « لقد اوحشني غيابك عن قاعة طعام الضباط • »

ـ « أتمنى لو اكون هناك • لقد كنت دائما اجد متعة بالغة في الاستماع الى حديثك • »

فقال وهو يتناول الرزم :

ـ « لقد جئتك ببعض الاشياء الصغيرة • هذه ناموسية • وهذه زجاجة فيرموت • أنت تحب الفيرموت ؟ وهذه بعض الصحف الانكليزية • »

ـ « افتح هذا كله من فضلك • »

وسرّه ذلك وفتح الرزم • وتناولت الناموسية بيديّ • ورفع زجاجة الفيرموت حتى اتمكن من رؤيتها ثم وضعها على الارض بجانب السرير • وأخذت واحدة من الصحف الانكليزية • واستطعت ان اقرأ عناوينها الرئيسية بأن ادرتها على نحو يجعل الضياء النصفي المتسرّب من النافذة يقع عليها • كانت صحيفة « اخبار العالم » News of the World

وقال :

ـ « الصحف الاخرى مصورة • »

ـ « سوف يسعدني كثيرا ان اطالعها • من أين جئت بها ؟ »

ـ « لقد ارسلت من جاء بها من ميستر • ولسوف احصل على صحف اخرى • »

ـ « أنه لطف بالغ منك ان تجيء ، أيها الاب • هل تشرب كأسا مـــن الفيرموت ؟ »

ـ « شكرا • احتفظ بها • انها لك • »

ـ لا • اشرب كأسا • »

ـ « حسن • سوف آتيك بغيرها أذن • »

وجاء الممرض بكأسين ، وفتح الزجاجة ، ثم انه كسر الفلينة ، فكان عنيه أن يدفع بجزئها السفلي الى الزجاجة • كان في ميسوري أن اقرأ الاستياء على وجه الكاهن ، ولكنه قال :

ـ « لا بأس • ليس لهذا اية اهمية • »

ـ « اسمح لي أن اشرب نخب صحتك ، ايها ألاب • »

ـ « واسمح لي ان اشرب نخب شفائك • »

وبعد ذلك امسك بالكأس في يده ، وتبادلنا النظرات • كنا في بعـض الاحيان نستشعر اننا صديقان حميمان حين نتحدث معا • اما في تلك الليلة فكان ذلك عسيرا •

ـ « ما المسألة ، ايها الاب ؟ انت تبدو متعبا جدا • » .

ـ « انا متعب ، ولكن ليس لي حق في ان اكون كذلك • »

ـ « انها الحرارة • »

ـ « لا ، انه الربيع ليس غير • انا اشعر بانحطاط شديد • »

ـ « انت مصاب بالتقزز من الحرب • »

ـ « لا • ولكني اكره الحرب • »

فقلت :

ـ « وانا لا اجد فيها متعة ايضا • »

فهزّ برأسه ، وسرّح بصره من خلال النافذة •

ـ « انت لا تبالي بها • انت لا تراها • يجب ان تغفر لي • أنا اعلـــم انك جريح • »

ـ « هذه مصادفة • »

ـ « وعلى الرغم من جراحك فأنك لا تراها • وفي استطاعتي أن أقول اني انا ايضا لا اراها، ولكني احس بها قليلا • »

ـ « حين جُرحت كنا نتحدث عن ذلك · لقد كان باسيني يتحدث · »

ووضع الكاهن كأسه · كان يفكر في شيء اخر ·

وقال :

ـ « انا اعرفهم لاني مثلهم · »

ـ « ومع ذلك فأنت مختلف عنهم · »

ـ « نعم ، ولكنني في اعماقي مثلهم · »

ـ « الضباط لا يرون أي شيء · »

ـ « بعضهم يرى · بعضهم حسّاسون جدا وهم يستشعرون الاشياء على نحو اسوأ مما يستشعرها أي امرىء منا · »

ـ « أن معظمهم مختلفون عنك · »

ـ « ليست المسألة مسألة ثقافة او مال · انها شيء اخر · وحتى لـــو كانوا على ثقافة او مال فأن رجالا مثل باسيني لايرغبون في أن يكونوا ضباطا· وانا ايضا لا ارغب في أن اكون ضابطا · »

ـ « انت معتبر في عداد الضباط · وانا ايضا ضابط · »

ـ « انا لست ضابطا حقا · وانت لست حتى ايطاليا · انت اجنبي ، ولكنك اقرب الى الضباط منك الى الرجال · »

ـ « ما الفرق ؟ »

ـ « لست استطيع توضيحه في يسر · ان ثمة اناسا يحبّون أن يخوضوا غمار الحرب · وفي هذه البلاد كثير مثل هؤلاء · وهناك اناس آخرون لا يحبون ان يخوضوا غمارها · »

ـ « ولكن الاولين يحملونهم على ذلك · »

ـ « نعم · »

ـ « وانا اساعدهم · »

ـ « أنت اجنبي · أنت رجل وطني · »

ـ « والذين لا يريدون الحرب ، هل يستطيعون وضع حد لها ؟ »

ـ « لست ادري · »

ونظر من خلال النافذة كرة اخرى · وراقبتُ وجهه ·

ـ « هل استطاعوا في يوم من الايام ان يضعوا حدا لها ؟ »

ـ « انهم غير منظَّمين لكي يستطيعوا وضع حد للاشياء • وكلما وُفِّقوا الى تنظيم انفسهم باعهم زعماؤهم • »

ـ « وأذن فليس ثمة امل ؟ »

ـ « أن ثمة ، دائما ، أملا • ولكنني لا استطيع أن آمل في بعض الاحيان • أنا احاول دائما أن اعتصم بالامل ولكنني لا اقوى في بعض الاحيان • »

ـ « لعل الحرب أن تنتهي قريبا • »

ـ « ارجو ذلك • »

ـ « ما الذي ستعمله عندئذ ؟ »

ـ « سوف اعود الى آبروتزي اذا كان ذلك ممكنا • »

وأشرق وجهه ، فُجاءة ، بالسعادة البالغة •

ـ « انت تحب آبروتزي ؟ »

ـ « اجل ، انا احبها اعظم الحب • »

ـ « واذن فينبغي ان تذهب الى هناك • »

ـ « اذااستطعت ذلك بلغتُ من السعادة اقصاها • أوه ! هل أوفق الى ان اذهب الى هناك وانْ احب الله واخدمه ! »

فقلت :

ـ « وان أحظى بالاحترام • »

ـ « اجل ، وان احظى بالاحترام • ولمَ لا ؟ »

ـ « ليس هناك أيّ سبب يدعو الى عكس ذلك • ان امن حقك ان تكون موضع الاحترام • »

ـ « ليس هذا بالامر المهم • ولكن ، هنـــاك في موطني ، يسلمّ الناس بأن في امكان المرء أن يحب الله • انهم لا يرون في ذلك نكتة قذرة • »

ـ « فهمتُ • »

ونظر الي ، وابتسم :

ـ « انت تفهم ، ولكنك لا تحب الله • »

« لا • »

وسألني :

ـ انت لا تحبه البتة ؟ »

ـ « انا اخافه في الليل بعض الاحيان . »

ـ « يتعيَّن عليك أن تحبه . »

ـ « ليس من طبعي أن احب كثيرا . »

فقال :

ـ « بلى . انت تحب . ان ما ترويه لي عن لياليك ليس حبا . هـذا ليس الا هوى وشهوة . فالمرء حين يحب يرغب في ان يعمل شيئا في سبيل من يحبه . انه يرغب في ان يضحي من اجل من يحبه . ويرغب في خدمته .»

ـ « انا لا احب . . »

ـ « انك سوف تحب . انا اعلم انك ستحب . وعندئذ تنعم بالسعادة . »

ـ « انا سعيد . لقد كنت سعيدا دائما . »

ـ « انها شيء اخر . أنت لن تعرفها الا حين تذوقها . »

فقلت :

ـ « حسن . اذا قـُدّر لي يوما أن اتمتع بها اعلمتك بذلك . »

لقد مكثت اكثر مما ينبغي ، وتكلمت اكثر مما ينبغي . »

كان بادي القلق بسبب من ذلك .

ـ « لا . لا تذهب . ما رأيك في حبنا للنساء ؟ فلو أني أحببتُ أمرأة ما حبا حقيقيا فهل يكون ذلك الحب من الضرب الذي تصفه ؟ »

ـ « لست ادري شيئا عن ذلك . انا لم أحب أي أمرأة في حياتي . »

ـ « وأمك ؟ »

ـ « أجل ، لا ريب أني قد احببت أمي . »

ـ « هل احببتُ الله دائما ؟ »

ـ « منذ أن كنت غلاما صغيرا . »

فقلت :

ـ « حسن . »

ولم اعرف ما ينبغي أن اقول . فأردفت :

ـ « أنت غلام رائع ٠ »

فقال :

ـ « اذا كنتُ غلاما ، فلماذا تخاطبني بقولك : أيها الاب ؟ »

ـ « هذه لياقة ٠ »

فابتسم ٠ وقال :

ـ « يجب علي أن اذهب ٠ »

ثم سألني وفي صوته مسحة من أمل :

ـ « هل تستبقيني من اجل شيء ؟ »

ـ « لا ٠ لمجرد التحدث ٠ »

ـ « سوف احمل تمنياتك الى رفاقك في حجرة الطعام ٠ »

ـ « اشكرك على هداياك الكثيرة الرائعة ٠ »

ـ « لا تذكر ذلك ٠ »

ـ « ارجو أن تجيء لزيارتي مرة اخرى ٠

ـ « ان شاء الله ٠ الى اللقاء ٠ »

وربَّت على يدي ٠

فقلت في اللهجة العامية :

ـ « الى اللقاء ٠ »

فكرَّر :

ـ « سيياوو ٠ »

كان الظلام مخيما على الغرفة ، فلم يكن من الممرض الذي كان قد جلس عند قدم السرير الا ان نهض وخرج معه ٠ لقد أحببته كثيرا وتمنيت لو يستطيع ان يعود الى آبروتزي في يوم من الايام ٠ ولقد كانت حياته مع زمرة الضباط حياة بائسة ولكنه عرف كيف يحتملها في رحابة صدر ، بيد أني تساءلت كيف يمكن أن تكون حاله في بلده ٠ كان قد اخبرني أن في كابراكوتا ، في النهر الذي يجري تحت المدينة ، كثيرا من الاطروط ✱ ٠ وكان محظَّرا على الناس ان يعزفوا على الفلوت في الليل ٠ فحين كان

✱ الاطروط او التروتة ضرب من سمك الانهار ٠

الشبان يُسرندون ✱ كان الفلوت هو وحده الممنوع • وكنت قد سألته : لماذا ؟ لانههناك ينادونك« ايها الدون » Don ، وهم يرفعون قبعاتهم عن رؤوسهم كلما التقوا بك • وكان قد اخبرني ان والده يخرج للصيد كل يوم ، ويعرج ليتناول الطعام في بيوت الفلاحين • كانوا يعتبرون ذلك شرفا لهم دائما • ولم يكونوا يسمحون للرجل الاجنبي بأن يتصيد الا اذا ابرز شهادة تثبت انه لـــم يسجن قط • وكـــان ثمة دببة في الـ « غران ساسو ديتاليا » ولكن هذه كانت نائية • وكانت (آكيلا) مدينة جميلة • وفي الصيف ، كانت الليالي باردة ، وكان الربيع في آبروتزي أجمل ربيع في ايطاليا كلها • اما الخريف فكان اروع من هذا كله • ففي هذا الفصل كان في ميسورك ان تنطلق للصيد في غابات الكستناء • وكانت الطير كلها جيدة لانها تغتذي بالعنب ، ولم يكن المرء ليحمل غداءه الى هناك لأن الفلاحين كانوا يعتبرون تناولك الطعام في بيوتهم شرفا لهم دائما • وبعد فترة قصيرة استسلمت للرقـــاد •

✱ ينشدون السرنادة Serenade وهي انشودة خلوية يناجي بها المحب محبوبته في الليل •

الفصل الثاني عشر

كانت القاعة طويلة ، ذات نوافذ من ناحية اليمين . وكان في اقصاها باب يؤدي الى حجرة التضميد . وكان صف الاسرّة الذي ينهض فيه سريري يواجه النوافذ ، وكان ثمة صف آخر ، تحت النوافذ ، يواجه الجدار . فأذا استلقيت على جنبك الايسر كان في ميسورك أن ترى باب غرفة التضميد . وكان في طرف القاعة الاقصى باب آخر يدخل منه الناس في بعض الاحيان . فاذا ما اشرف امرؤ على الموت طوّقوا سريره بحجاب حاجز لكي لا تراه يموت ، ولكن احذية الاطباء والممرضين والعصائب الجلدية التي تغطي ربلات سيقانهم كانت وحدها تبدو عند اسفل الحجاب الحاجز ، وفي بعض الاحيان كان يدور في اقصى الغرفة همس . وبعد ذلك كان كاهن يخرج من وراء الحجاب ، ثم يعود الممرضون الى ما وراء ذلك الحجاب ليخرجوا ثانية حاملين الميت وقد غطّوه ببطانية ، ويجتازوا به الممر القائم بين صفي الاسرّة . وعندئذ كان شخص من الاشخاص يطوي الحجاب ويذهب به .

وذلك الصباح سألني المايجور المسؤول عن القاعة هل اشعر اني استطيع السفر في اليوم التالي . فقلت اني استطيع . فقال انهم ، أذن ، سوف يرحّلونني في الصباح الباكر . وقال أن من الخير لي أن ابدأ الرحلة الان قبل أن تشتد الحرارة اكثر مما ينبغي .

كان في ميسورك ، حين يرفعونك عن السرير ليحملوك الى حجرة التضميد أن تطل من النافذة فترى القبور الجديدة في الحديقة .

وكان يجلس خارج الباب المؤدي الى الحديقة جندي يصنع الصلبان ويدهن عليها اسماء الرجال الذين دفنوا في الجنينة ورُتبهم والفرق التي كانـــوا ينتسبون اليها . وكان ذلك الجندي يقصد الى قاعتنا في بعض المهام ، وكان في اوقات فراغه يصنع قداحة من خرطوشة بندقية نمساوية . كان الاطباء لطفاء جدا ، وكان يبدو انهم بارعون جدا . كانوا راغبين في نقلي الى ميلانو حيث اجهزة اشعة أكس أفضل ، وحيث كان في امكاني أن افيد ، بعد اجراء الجراحة ، من اسباب الاستشفاء الآلي ❊ وكنت انا راغبا في الذهاب الــى ميلانو ايضا . كانوا يريدون ان يرحّلونا كلنا ، والى ابعد مكان ممكن ، لانهم كانوا يتوقعون ان يحتاجوا ، حالما يبدأ الهجوم ، الى جميع الاسرة .

وفي الليلة التي سبقت مغادرتي مستشفى الميدان وفَد رينالدي لزيارتـــي مع مايجور الزمرة التي كنت آكل معها في غرفة واحدة . لقد قالا أني سوف انقل الى مستشفى اميركـــي انشيء حديثا في ميلانـــو . ان بعض وحدات الاسعاف الاميركية سوف تُرسل الى هناك ، ولسوف يعنى هذا المستشفى بهم وبجميع الاميركيين العاملين في ايطاليا . كان كثير منهم يعملون مـــع الصليب الاحمر . فقد كانت الولايات المتحدة قد اعلنت الحرب على المانيا ، ولكن ليس على النمسا .

كان الايطاليون واثقين أن اميركا سوف تعلن الحرب على النمسا ايضا ، وكانوا شديدي الاهتمام بجميع الاميركيين الوافدين الى بلادهم ، حتى ولو كان هؤلاء الاميركيون عاملين مع الصليب الاحمر . لقد سألوني : هل اعتقد ان الرئيس ولسون سوف يعلن الحرب على النمسا ؟ فأجبت أن هذه مسألة ايام ليس غير . انا ما كنت أعرف ما الذي نأخذه على النمسا ولكن بدا لي أن من المنطق ان يُعلن الاميركيون الحرب عليها ما داموا قد اعلنوها علــى المانيا . وسألوني هل سنعلن الحرب على تركيا . فأجبت بأن ذلك موضع شك . لقد قلت أن تركيا ❊❊ هي طائرنا الوطني ، ولكن النكتة اخفقت عند ترجمتها ، فاستبد بهم الدهش والارتياب الى درجة دفعتني ان اقول نعم ،

❊ او رد العافية بالطرق الالية .

❊❊ ان كلمة Turkey في الانكليزية تعني الديك الرومي ايضا (المعرب)

اغلب الظن اننا سنعلن الحرب على تركيا • وعلى بلغاريا ؟ كنا قد شربنا عدة كؤوس من البراندي ، فقلت نعم ، وحق الاله ، على بلغاريا ايضا وعلـــى اليابان ايضا • ولكن اليابان ، كذلك قالــوا ، هي حليفة لانكلترة • انت لا تستطيع أن تثق بالانكليز الملعونين • فقلت : اليابانيون طامعون بهاوايي • اين تقع هاوايي ؟ انها في المحيط الهادي • لماذا يطمع بها اليابانيون ؟ فقلت : انهم لا يطمعون بها حقا • هذه اقاويل ليس غير • اليابانيون شعب صغير رائع مولع بالرقص والخمور الخفيفة • فقال المايجور : مثـل الفرنسيين • سوف نسترد نيس وسافواي من الفرنسيين • فقـــال رينالدي : سوف نسترد كورسيكا وساحل الادرياتي كله • وقال المايجور : أن ايطاليا سوف تعيد امجاد روما • فقلت أني لا احب روما • انها حارّة وملأى بالبراغيث • فقال المايجور : انت لا تحب روما ؟ انا احب روما • روما هي أمّ الدول • انا لن انسى ما حييت رومولوس وهو يرضع ثدي التيبر • ماذا ؟ لا شيء • فلنذهب الى روما • فلنذهب الى روما الليلة من غير ان نرجع ابدا • ان روما مدينة جميلة • فقلت : روما أمّ الدول وابوها • فقال رينالدي : روما مؤنثة • انها لا يمكن ان تكون أبا • من هو الاب ، اذن ، الروح القدس ؟ لا تجدّف • انا لم اكن اجدّف • كنت استعلم • انت ثمل ، ايها الطفل • من الذي جعلني ثملا ؟ فقال المايجور : انا الذي جعلتك ثملا • أنا جعلتك ثملا لاني احبك ، ولان اميركا قد خاضت الحرب • فقلت : حتى مقبَضِ السيف • فقـــال رينالدي : اذهبْ في الصباح ، ايها الطفل • • فقلت : الى روما • فقال المايجور : لا ، بل الى ميلانو • الى ميلانو • الى الكريستال بالاس ، الى الكوفا ، الى كامباريز ، الى بيفيز ، الى الغاليريا • ايها الغلام المحظوظ • فقلت : الـــى الغران ايتاليا ، حيث ساستعير المال من جورج • فقال رينالدي : الى السكالا • انكسوف تذهب الى السكالا • فقلت : كل ليلة • فقال المايجور : لن يكون في طاقتك ان تذهب كل ليلة • •

فقلت : ان التذاكر غالية جدا • سوف اسحب حوالة على جدّي • حوالة من تلك الحوالات التي تدفع عند الاطّلاع • ماذا ؟ حوالة تدفع عند الاطلاع • ان عليه ان يدفع والا دخلتُ السجن • ان مستر كاننغهام يتولى القيام بذلك

في البنك · انا احيا على الحوالات التي تُدفع عند الاطلاع · هل يستطيع جَدّ ان يسجن حفيدا وطنيا يموت لكي تحيا ايطاليا ؟ فقال رينالـــدي : فليعش غاريبالدي الاميركي · فقلت : فلتعش الحوالات التي تدفع عند الاطلاع · فقال المايجور : ينبغي ان نهدأ · لقد طُلب الينا عدة مرات ، حتى الان ، أن نهدأ · هل ستسافر غدا حقا ، يا فيديريكو ؟ فقال رينالدي : سوف يذهب الى المستشفى الاميركي ، اقول لـك · الى الممرضات الجميلات · لا الـــى « ممرضات » مستشفى الميدان ذوي اللحى ! فقال المايجور : نعم ، نعم ، انا اعلم انه سيذهب الى المستشفى الاميركي · فقلت : لا اعتراض عندي علـى لحاهم · اذا اراد ايُّ امرىء ان يربي لحيته فليفعل · لماذا لا تربي لحية ، أيها السيد المايجور ؟ ان من المتعذر ادخالها في قناع الوقاية مـــن الغارات السامة · بل ان هذا ممكن · كل شيء يمكن ادخاله في هذا القناع · لقـــد تقيأت في قناع من اقنعة الغازات السامة · فقال رينالدي : لا ترفع صوتك الى هذه الدرجة ، ايها الطفل · نحن كلنا نعلم انك كنت في الجبهة · اوه ، ايها الطفل الرائع، ما الذي سوف اصنعه اثناء غيابك ؟ فقال المايجور : يجب ان نذهب · ولقد اصبحت المسألة عاطفية · اسمع · لديّ مفاجأة لك · ان فتاتك الانكليزية ، هل تعرف ؟ فتاتك الانكليزية التي تذهب لرؤيتها كـل ليلة في المستشفى ؟ انها سوف تذهب الى ميلانو ايضا · سوف تذهب مـع فتاة اخرى الى المستشفى الاميركي · فالممرضات لم يصلن من اميركا بعد · ولقد تحدثت اليوم مع رئيس الدائرة · ان لديهم عددا كبيرا جدا من النساء هنا في الجبهة · ولسوف يعيدون بعضهن الى ما وراء الخطوط · ما رأيك في ذلك ، ايها الطفل ؟ هذا لطيف ، أليس كذلك ؟ سوف تذهب لتحيا فـي مدينة كبيرة ، ولسوف تكون فتاتك الانكليزية هناك لكي تعانقك · لماذا لا اصاب أنا بجرح ؟ فقلت : لعلـك أن تصاب في المستقبل · فقال المايجور : يجب أن نذهب · اننا نشرب ونُحدث ضجة ، ونزعج فيديريكو · لا تذهب · اجل ، يجب أن نذهب · الى اللقاء · حظا سعيدا · الى اللقاء · سيياوو · سيياوو · عُد الينا في سرعة ، ايها الطفل · وقبّلني رينالدي · ان رائحـة الليزول تفوح منك · الى اللقاء ، ايها الطفل · الى اللقاء · وربّت المايجور

على كتفي . وخرجنا ماشيين على رؤوس اصابعهما . لقد ادركت اني ثمل جدا ، ولكنني استسلمت للنوم .

** **

وفي صباح اليوم التالي رحلنا الى ميلانو ، فبلغناها بعد ثمان واربعين ساعة . كانت رحلة شاقة . فقد توقفنا فترة طويلة في جانب الطريق قرب ميستر ، واقبل الغلمان ينظرون الينا نظرات فاحصة . وكلفت غلاما صغيرا ان يشتري لي زجاجة كونياك ، ولكنه رجع فقال انه لم يجد من اصناف الخمر غير الـ « غرابّا » . فسألته ان يأتيني بزجاجة من هذا الصنف ، وحين رجع منحته ما تبقى من الورقة النقدية . فسكرت انا والرجل الذي في جواري ، ونمت حتى اجتزنا فيسينتزا حيث استيقظت وتقيأت كثيرا على ارض الحافلة . ولم يكن في ذلك بأس لان جاري كان قد تقيأ قبل ذلك مرات عديدة . وبعد ذلك بدا لي اني لن استطيع الصبر على الظمأ ، وحين توقف القطار على ابواب فيرونا ناديت جنديا كان يذرع المكان ، الى جانب القطار ، جيئة وذهابا ، فحمل اليّ شربة ماء . وايقظت جورجيتي ، وهو الثمل الآخر ، وقدمت اليه قليلا من الماء . فسألني ان اصبه على كتفه واستسلم للرقاد من جديد . ورفض الجندي أن يأخذ البنس الذي قدّمته اليه ، وجاءني ببرتقالة كثيرة اللب . فمصمصتها ، باصقا لبها ، وراقبت الجندي وهو يذرع الارض جيئة وذهابا امام قطار من قطر البضائع . وبعد فترة احدث القطار نخعة وانطلق .

الكتاب الثاني

الفصل الثالث عشر

وصلنا الى ميلانو في الصباح الباكر فأنزلنا في فناء البضائع · ونقلتني سيارة اسعاف الى المستشفى الاميركي · وفيما انا ممدّد في السيارة على نقالة ، لم يكن في ميسوري أن أحزر أي اجزاء المدينة كنا نجتاز. ، ولكنــي شاهدت حين انزلا النقالة سوقا وخمّارة مفتوحة وفتاة تكنسها · كانـــوا ينضحون الشارع بالماء · وكانت تفوح منه رائحة الصباح الباكر · ووضعا النقالة امام الباب ودخلا· ثم ان البواب خرج معهما · كان له شاربان اشيبان ، وكان يعتمر بقبعة بواب ، ويرتدي رُدْنين واقيين · وتعذّر ادخال النقّالة الى المصعد الكهربائي فتذاكروا في الامر : أيرفعونني عن النقالة ويصعدون بالمصعد ام يحملون النقالة ويرتقون بها درجات السلّم ؟ واصغيت اليهم وهم يتناقشون · واخيرا آثروا المصعد · فرفعوني عن النقالة ، فقلت لهـــم : « ترفقوا ! لا تقسوا عليّ · »

وحُشرنا في المصعد الكهربائي ، واذ التوت رجلاي فقد اصابني الم شديد · وقلت لهم :

— « مدّدوا رجليّ · »

— « لا نستطيع ، ايها السيد الملازم · ليس هناك متسع · »

كان الرجل الذي قال هذا الكلام يطوقني بذراعه ، وكانت ذراعي تطوّق عنقه · كانت انفاسه تصفع وجهي معدنيةً بالثوم والخمر الحمراء ·

وقال الرجل الآخر :

ـ « ترفّق وكن لطيفا ! »

ـ « ابنُ زانية مَن لا يترفق ولا يكون لطيفا ! »

وكرّر الرجل الممسك برجليّ :

ـ « ترفّق وكن لطيفا ، اقول لك ٠ »

ورأيت باب المصعد الكهربائي يُغلق ، ثم الباب الـداخلي ذا القضبان المشبّكة ، ورأيت البواب يضغط على زر الدور الرابع ٠ كانت امارات القلق تبدو على وجه البواب ٠ وارتفع المصعد بطيئا بطيئا ٠

وسألت الرجل العابقَ نفَسُهُ برائحة الثوم :

ـ « ثقيل ؟ »

فقال :

ـ « على الاطلاق ٠ »

كان العَرق يتصبب من وجهه ٠ ونخرَ ٠ وارتفع المصعد الكهربائي في سلاسة ثم وقف ٠ وفتح الرجل الممسك برجليّ باب المصعد ، وخرج ٠ ووجدنا انفسنا في رواق ٠ كان ثمة عدة ابواب ذات مقابض نحاسية ٠ وضغط الرجل الذي كان يحمل قدميّ على زر احد الاجراس ٠ وسمعنا رنين الجرس مـن وراء الباب ٠ ولكن احدا لم يأتِ ٠ ثم ان البواب برز في اعلى السلّم ٠

وسأله حاملا النقّالة :

ـ « أين هم ؟ »

فقال البواب :

ـ « لست ادري ٠ انهم ينامون في الدور السفلي ٠ »

ـ « نادِ شخصا ما ٠ »

ورنّ البواب الجرس ، ثم خفق على الباب ، ثم فتح الباب ودخل ٠ حتى اذا رجع كانت معه امرأة عجوز تلبس نظارتين ٠ كـان شعرها غير مثبّت بالدبابيس فهو يكاد يتهاوى ٠ وكانت ترتدي ثوب ممرضة ٠

وقالت :

ـ « انا لا استطيع ان افهم ٠ انا لا استطيع ان افهم الايطالية ٠ »

فقلت :

ـ « في استطاعتي ان اتكلم الانكليزية · انهم يريدون ان يضعوني في مكان ما · »

« ليس ثمة اية غرفة مهيأة لهذا الغرض · نحن لم نكن نتوقع مجيء أي مريض · »

وحاولت ان تثبت شعرها ، وحدقت الي بعينيها المصابتين بقصر البصر ·

ـ « دليهم على اية غرفة يستطيعون ان يضعوني فيها · »

فقالت :

ـ « لست ادري · نحن ما كنا نتوقع مجيء اي مريض · ليس في استطاعتي ان اضعك في ايما غرفة من الغرف · »

فقلت :

ـ « لا مانع لدي من ان أوضع في اية غرفة من الغرف · »

ثم التفت الى البواب وقلت له بالايطالية :

ـ « ابحث لي عن غرفة فارغة · »

فقال البواب :

ـ « جميع الغرف شاغرة · انت اول مريض يفد علينا · »

لقد أمسك بقبعته في يده ، ونظر الى الممرضة العجوز ·

ـ « اكراما للمسيح ، خذيني الى غرفة ما · »

كان الالم قد اشتد واشتد بعد ان طويت رجلاي ، وكان في استطاعتي ان احس به يسري في العظام ويغادرها · واجتاز البواب العتبة ، تتبعه المرأة الشائبة ، ثم ارتد نحونا مسرعا ، وقال :

ـ « اتبعوني · »

وحملوني مجتازين بي رواقا طويلا حتى انتهوا بي الى غرفة اغلقت مصاريع نوافذها الخارجية · كانت تفوح من هذه الغرفة رائحة الاثاث الجديد · وكان فيها سرير وخزانة كبيرة ذات مرآة · ووضعوني على السرير ·

وقالت المرأة :

ـ « انا لا استطيع ان اضع عليه غطاء · جميع الاغطية مغلق عليها · »

ولم اتكلم معها . وقلت للبواب :

ــ « في جيبي دراهم . في جيبي المزرَّر . »

وأخرج البواب الدراهم . ووقف حاملا النقالة الى جانب السرير ممسكين بقبعتيهما . فقلت :

ــ « أعط كلا منهما خمسة ليرات ٭ ، وخذ انت خمسة ليرات ، ان اوراقي هي في الجيب الاخرى . في استطاعتك ان تقدمها الى الممرضة . »

وأدى حاملا النقالة التحية ، وشكراني . فقلت :

ــ « الى اللقاء . اشكركما شكرا كثيرا . »

وأديا التحية مرة ثانية ، وانصرفا .

وقلت للممرضة :

ــ « هذه الاوراق تصف حالي والمعالجة التي اخضِعتُ لها . »

فتناولت المرأة الاوراق ، وأنعمت النظر اليها من خلال نظارتيها .

كان ثمة ثلاث اوراق ، وكانت مطويّة .

وقالت :

ــ « لست ادري ما ينبغي ان افعل . انا لا استطيع ان اقرأ الايطالية . انا لا استطيع ان افعل شيئا من غير امر الطبيب . »

وشرعت تبكي ، ووضعت الاوراق في جيب مئزرها .

وسألتني من خلال عبراتها :

ــ « هل انت اميركي ؟ »

ــ « نعم . ارجوكِ ان تضعي الاوراق على الطاولة المجاورة للسرير . »

كانت الغرفة مظلمة باردة بعض الشيء . وفيما كنت مستلقيا في الفراش كان في استطاعتي ان ارى المرآة الكبيرة في الجانب الاخر من الغرفة ، ولكني لم استطع ان ارى ما الذي عكستْهُ . لقد وقف البواب على مقربة من السرير . كان ذا وجه وسيم ، وكان لطيفا جدا .

وقلت له :

٭ جمع لير ، وهو وحدة النقد الايطالية .

ـ« في استطاعتك ان تنصرف • »
وقلت للممرضة :
ـ « وفي استطاعتكِ أن تنصرفي أيضا • ما اسمكِ ؟ »

ـ « مسز ووكر • »
ـ « في استطاعتكِ ان تذهبي ، يا مسز ووكر • احسب اني سأنام • »

كنت وحدي في الغرفة • وكانت الغرفة باردة في اعتدال ، ولم يكن المرء يستروح فيها رائحة المستشفيات • كانت الحشيَّة راسخة مريحة ، وكنت أستلقي من غير حراك ، وأتنفس في عُسر بالغ ، سعيدا بأن الالم بدأ يخف • وبعد برهة قصيرة اردت أن اشرب ، ووجدت الجرس المتصل بحبل قريب من السرير ، فقرعته ، ولكن احدا لم يأت • واستسلمت للرقاد •

وحين استيقظتُ اجلت البصر في ما حولي • كانت اشعة الشمس تتسرَّب من خلال المصاريع الخارجية • ورأيت الخزانة الكبيرة ، والجدران العارية ، وكرسيَّين • كانت رجلاي المعصوبتان بضمادات قذرة خارجتين من السرير على نحو مستقيم • وكنت احاذر ان احرّكهما • واشتد بي الظمأ ، فمددت يدي الى الجرس ، وضغطت على الزر • ثم اني سمعت الباب يُفتح ، وتطلَّعت ، فأذا بي ارى ممرضة • لقد بدت غضة الشباب وسيمة المحيا •

ـ « صباح الخير • »

فقالت وتقدمت نحو السرير :

ـ « صباح الخير • اننا لم نستطع ان نجد الطبيب • لقد ذهب الى بحيرة كومو • ان أحداً ما كان يعرف ان مريضا سوف يأتي ممَّ تشكو على ايـة حـال ؟ »
ـ « انا جريح • في الرجلين والقدمين • وهناك جرح في رأسي أيضا • »
وقلـت :
ـ « ما اسمك ؟ »
ـ « هنري • فريدريك هنري • »

ـ « سوف اغسل جسدك · ولكننا لا نستطيع ان نفعل شيئا بالضمادات الا بعد ان يجيء الطبيب · »

ـ « هل المس باركلي هنا ؟ »

ـ « لا · ليس عندنا احد بهذا الاسم هنا · »

ـ « من هي المرأة التي انخرطت في البكاء عندما وصلتُ الى هنا ؟ »

وضحكت الممرضة وقالت :

ـ « هذه مسز ووكر · كانت هي المسؤولة عن الخدمة تلك الليلة ، ولقد كانت مستسلمة للنوم · انها لم تكن تتوقع أن يفيد احد الى المستشفى · »

وفيما كنا نتحدث كانت هي تنزع ملابسي عن جسدي · حتى اذا أصبحت عاريا الا من الضمادات ، غسلتني في كثير من الرفق والتلطف · ولقد كانت عملية الغسل هذه موفقة جدا · كانت ثمة ضمادة على رأسي ، ولكنها غسلت كل ما حولها في براعة ·

ـ « أين جُرحت ؟ »

ـ « على ضفة الايزونزو ، شمالي بلافا · »

ـ « وأين تقع هذه ؟ »

ـ « شمالي غوريتزيا · »

كان في ميسوري ان ارى ان أيا من هذه المواطن لم يَعْنِ شيئا عندها ·

ـ « هل يوجعك جرحك كثيرا ؟ »

ـ « لا · انه لا يوجعني كثيرا الان · »

ووضعتْ ميزان حرارة في فمي ·

فقلت :

ـ « الايطاليون يضعونه تحت الابط · »

ـ « لا تتكلم · »

وحين اخرجتْ ميزان الحرارة ، قرأته ثم نفضتْه ·

ـ « كم بلغت الحرارة ؟ »

ـ « ليس مفروضا فيك ان تعرف هذا · »

ـ « قولي لي كم بلغت ؟ »
ـ « انها تكاد تكون سوية ٠ »
ـ « أنا لم أعرف الحمى في حياتي قط ٠ ورجلاي مليئتان بالحديد العتيق ايضا ٠ »
ـ « ماذا تعني ؟ »
ـ « انهما مليئتان بشظايا القنابل ، بالبراغـــي العتيقة ، وبنوابض السرر واشياء اخرى ٠ »
وهزت رأسها وابتسمت ٠
ـ « لو كان في رجليك اجسام غريبة اذن لأحدثتْ التهابا ، واذُن لاصابتك الحمى ٠ »
فقلت :
ـ « حسن ٠ سوف نرى ما الذي سيخرج منهما ٠ »
وغادرت الغرفة ثم رجعت تصحبها الممرضة العجوز التي رأيتها في الصباح الباكر ٠ وسوّتا السرير معا وانا مستلق عليه ٠ كان ذلك شيئا جديدا بالنسبة الي ، ولقد وجدته رائعا ٠
ـ « مَن المسؤولة هنا ؟ »
ـ « مس فان كامبن ٠ »
ـ « كم ممرضة هنا ؟ »
ـ « اثنتان ليس غير ٠ »
ـ « الن تلتحق بالمستشفى ممرضات اخريات ؟ »
ـ « ان بعض الممرضات الاخريات سوف يجئن قريبا ٠ »
ـ « ومتى سوف يجئن ؟ »
ـ « لست ادري ٠ انت تطرح من الاسئلة اكثر مما ينبغي لغلام مريـــض ان يطرحه ٠ »
فقلت :
ـ « انا لست مريضا ٠ انا جريح ٠ »
كانتا قد انتهتا من تسوية السرير ، وكنت أستلقي وغطاء نظيف ناعم من تحتي وغطاء نظيف ناعم من فوقي ٠ وخرجت مسز ووكر ورجعت بسترة بيجاما ٠

والبستاني تلك السترة ، واستشعرت اني حسن البزة ، نظيف الى حد بالغ ·
فقلت :
ـ « لقد غمرتماني بلطفكما · »
وقهقهت الممرضة المدعوة مسز غايج ·

وتساءلت :
ـ « هل استطيع ان أفوز بكأس ماء ؟ »
ـ « طبعا · وبعد ذلك تستطيع ان تتناول طعام الصباح · »
ـ « لست اريد ان اتناول طعام الصباح · هل استطيع ان اطلب فتح المصاريع الخارجية ؟ »

كان الضوء باهتا في الغرفة ، حتى اذا فُتحت المصاريع الخارجية ملأ الغرفة ضياء الشمس الساطع · وسرَّحت طرفي من خلال النافذة فتراءات لي خلفها المداخن وسطوح البيوت القرميدية · ومن فوق السطوح القرميدية رأيت سُحبا بيضاء ، ورأيت السماء شديدة الزرقة ·
ـ « الا تعرفين متى ستجيء الممرضات الاخريات ؟ »
ـ « لماذا ؟ ألا نُعنى نحن بك عناية كافية ؟ »
ـ « أنتما لطيفتان جدا · »
ـ « هل تحب ان تستعمل حوض الماء الصغير ؟ »
ـ « سوف احاول · »
وساعدتاني على الارتفاع بعض الشيء عن السرير ، ولكن على غير طائل · وبعد ذلك استلقيت ، ونظرت من خلال الابواب المفتوحة الى الرواق ·
ـ « متى يجيء الطبيب ؟ »
ـ « حين يرجع · لقد حاولنا أن نتلفن له الى بحيرة كومو · »·
ـ « أليس ثمة اطباء آخرون ؟ »
ـ « انه هو طبيب المستشفى · »

وجاءت مس غايج بابريق ماء وكوب · فشربت ثلاث كؤوس ثم فارقتاني ، فسرَّحت طرفي من خلال النافذة فترة قصيرة ، ثم استسلمت للرقاد كرة اخرى · وتناولت طعام الغداء ، وعند الاصيل أقبلت مس فان كامبن ، مديرة

المستشفى ، لتراني . ولم تحبّني مس فان كامبن . ولم أحبها . كانت ضئيلة الجسم ، كثيرة الشكوك ، واكثر طيبة من ان تحتل منصبا كهذا . لقد طرحت علي اسئلة كثيرة ، وبدت وكأنها تعتقد ان من المعيب بعض الشيء أن اخدم في الجيش الايطالي .

وسألتها :

ـ « هل استطيع ان احتسي الخمر مع الطعام ؟ »

ـ « شرط ان يشير الطبيب بذلك . »

ـ « هل يعني هذا اني لا استطيع احتساءها الا بعد ان يجيء ؟ »

ـ « تماما . »

ـ « هل تعتزمين استدعاءه في النهاية ؟ »

ـ « لقد تلفنّا له الى بحيرة كومو . »

وغادرت الغرفة . وبعد ذلك مباشرة رجعت مس غايج وسألتني بعد ان اسمدت الي خدمة ما في كثير من البراعة :

ـ « لماذا كنت فظاً مع مس فان كامبن ؟ »

ـ « لم اقصد ان اكون كذلك . ولكنها كانت متعجرفة في احتقار . »

ـ « لقد قالت انك كنت متعاظما وفظاً . »

ـ « لا ، لم اكن . ولكن ما رأيك في مستشفى من غير طبيب ؟ »

ـ « انه آت . لقد تلفنوا له الى بحيرة كومو . »

ـ « ما الذي يفعله هناك ؟ يسبح ؟ »

ـ « لا . ان له عيادة هناك . »

ـ « لماذا لا يعهدون بشؤون المستشفى الى طبيب آخر ؟ »

ـ « هش . هش . كن ولدا عاقلا ، ولسوف يجيء . »

واستدعيت البواب ، حتى اذا جاء قلت له بالايطالية ان يشتري لي من الخمارة زجاجة سينزانو ، وقنينة شيبانتي ، وأن يشتري لي ايضا صحف المساء . فمضى البواب ، واتاني بهما ملفوفتين بصحيفة من الصحف . ثم انه اخرجهما من الصحيفة ، وحين سألته ان يفتحهما نزع فلينتيهما ووضع الخمرة والفيرموت تحت السرير . وتركت وشأني ، فطالعت الصحف ، وانا مستلق على الفراش ، فترة قصيرة ، وقرأت انباء الجبهة ، ولائحة القتلى من الضباط ، والاوسمة التي منحوها . ثم مددت يدي تحت السرير ، فأخرجت

زجاجة السينزانو ، وامسكت' بها مستقيمة فوق معدتي ، والكأس الباردة مسندة الى بطني ، وشربت جرعات صغيرة ، مُحدثا فوق معدتي حلقات ودوائر بسبب من امساكي الزجاجة هناك ، بين الجرعة والجرعة ، وتأملت الليل وهو يهبط في الخارج فوق سطوح المدينة • وطوّفت السنونـو في السماء ، وراقبتها هي وبعض الباشق تطير فوق السطوح ، وشربت السنزانو • وحملت الي مس غايج كأسا فيها شيء من شراب البيض * • فخفضت' زجاجة الفيرموت الى الجانب الاخر من السرير عندما دخلت' •

وقالت : •

ـ « لقد وضعت لك مس فان كامبن بعض الشري ** في هذا • يجب ان لا تكون فظاً معها • انها ليست صغيرة السن ، وهذا المستشفى يلقي علـى عاتقها مسؤولية كبيرة • ان مسز ووكر عجوز اكثر مما ينبغي ، وهي لا تستطيع ان تقدّم الى مس فان كامبن عونا يذكر • »

فقلت :

ـ انها امرأة رائعة ، احملي اليها شكري العظيم • »

ـ « سوف آتيك بطعام العشاء ، في الحال • »

فقلت : « حسن جدا • انا لست جائعا • »

وحين جاءت بالصينية ، ووضعتها على مائدة السرير ، شكرتُها وتناولت قليلا من الطعام • وبعد ذلك ساد الظلام في الخارج ، وكان في ميسوري ان ارى اشعة الاضواء الكشافة تتحرك في السماء • وراقبت' ذلك برهة قصيرة ، ثم رقدت • لقد نمت نوما عميقا ، ومع ذلك فقد أفقت مرة مذعورا يتصبب العرق مني ، ثم عدت الى النوم محاولا ان أفر من الحلم الذي رأيته • وأفقت بعـد ذلك نهائيا قبل مطلع الفجر بكثير ، فسمعت الديكة تصيح ، وبقيت يقظـان حتى بدأ الضياء يغمر الكون • كنت مُتعبا ، وما ان عمّ الضياء الكون حتى استسلمت للرقاد من جديد •

---

* egg nog وهو يضرب باللبن ، ويضاف اليه بعض الخمر احيانا • (المعرب)

** Sherry نوع من الخمر •

الفصل الرابع عشر

كانت أشعة الشمس المشرقة تغمر الغرفة عندما استيقظت • لقد خيّل الي اني في الجبهة ، فتمطيت في السرير • وآلمتني رجلاي ، فنظرت اليهما وهما لا تزالان في الضمادات القذرة ، وما ان رأيتهما حتى عرفت أين كنت • ومددتُ يدي الى حبل الجرس ، وضغطت على الزر • وسمعته يرن في الرواق ، ثم سمعت شخصا يمشي في الرواق على نعلين من مطاط • كانت هي مس غايج ، ولقد بدت أكبر سنا ، بعض الشيء ، في أشعة الشمس المشرقة ، وغير جميلة جدا •

وقالت :

ـ « صباح الخير • هل قضيت ليلة طيبة ؟ »

فقلت :

ـ « نعم • أشكرك شكرا كثيرا • هل استطيع ان استدعي حلاقا ؟ »

ـ « لقد جئت لاراك فوجدتك نائما ومعك هذه في السرير • »

وفتحت باب الخزانة وارتني زجاجة الفيرموت • كانت فارغة تقريبا •

وقالت :

ـ « لقد وضعتُ هنا أيضا الزجاجة الاخرى التي كانت تحت السرير • لِمَ لم تطلب مني كاسا ؟ »

ـ « كنت اخشى أن تضنّي علي بذلك • »

ـ « لا • لقد كان جديرا بي ان اشرب معك قليلا • »

ـ « انت فتاة رائعة • »

فقالت :

ـ « ليس من الخير لك ان تشرب وحدك • يجب ان لا تفعل ذلك بعد الان • »

ـ حسن • »

فقالت :

ـ « ان صديقتك مس باركلي قد جاءت • »

ـ « حقا ؟ »

ـ « نعم • انا لا أحبها • »

ـ « سوف تحبينها • انها لطيفة الى حد بالغ • »

فهزت رأسها ، وقالت :

ـ « انا واثقة انها لطيفة • هل تستطيع ان تبتعد قليلا جدا الى هذه الناحية ؟ هذا رائع • سوف اغسلك استعدادا لطعام الصباح • »

وغسلتني بقماشة وصابون وماء حار • وقالت :

ـ « ارفع كتفك • هذا رائع • »

ـ « هل استطيع ان استدعي الحلاق قبل طعام الصباح ؟ »

ـ « سوف ابعث البواب لاستدعائه • »

وغادرت الغرفة ثم رجعت ، وقالت وهي تغمس القماشة في حوض الماء :

ـ « لقد ذهب لكي يدعوه • »

وأقبل الحلاق مع البواب • كان رجلا في نحو الخمسين ذا شاربين معقوفين • وكانت مس غايج قد اكملت غسلي وخرجت • وطرّى الحلاق وجهي بالماء والصابون وشرع يحلق • كان صارم الوجه ، وكان يحاذر ان يتكلم •

فقلت :

ـ « ما المسألة ؟ أليس لديك انباء ؟ »

ـ « أية أنباء ؟ »

ـ « كائنا ما كانت • ما الذي حدث في المدينة ؟ »

فقال :

ـ « نحن في حرب • ان للعدو آذانا في كل مكان • »
ورفعت بصري اليه • فقال وتابع عمله :
ـ « أرجوك ان لا تحرك وجهك • انا لن اقول شيئا • »
فسألته :
ـ « ما بالك ؟ »
ـ « انا ايطالي • انا لا استطيع ان اقوم بأي اتصال مع العدو • »
وآثرت الاكتفاء بهذا المقدار • فقد يكون الرجل مجنونا • وفي هذه الحال يكون اسراعي في الخروج من تحت موساه خيراً وابقى • وما كدت احاول ان انعم النظر اليه حتى قال :
ـ « احذر • الموسى حادة • »
وعندما أتمَّ عمله دفعت اليه أجره ، وأعطيته بقشيشا مقداره نصف لير • وأعاد اليَّ القطع النقدية •
ـ « لا • لن آخذ • انا لست في الجبهة • ولكني ايطالي • »
ـ « اغربْ عن وجهي • »
فقال وهو يلف موساه بصحيفة ما :
ـ « بأذنك • »
وخرج تاركا القطع النحاسية الخمس على الطاولة الى جانب السرير • وقرعت الجرس • فأقبلت مس غايج •
ـ « هل لك ان تستدعي البواب من فضلك ؟ »
ـ « حسن • »
ودخل البواب • كان يحاول ان يمسك نفسه عن الضحك •
ـ « هل ذلك الحلاق مجنون ؟ »
ـ « لا ، سينيورينو • لقد ارتكب خطأ • انه لا يفهم كثيرا ، ولقد حسب انك ضابط نمساوي • »
فقلت :
ـ « اوه ! »
فضحك البواب :
ـ « أه أه أه ! كان مضحكا • لقد قال لي انك لو تحركت حركة واحدة اذن لسارع الى ••• »

وامرَّ سبَّابته عبر حنجرته ٠
وحاول ان يمسك نفسه عن الضحك :
ـ « أه أه أه ! حين قلت له انك لست نمساويا ٠ أه أه أه ٠ »
فقلت في مرارة :
ـ « أه أه أه ! كان يكون الامر مضحكا ، حقا ، لــو احتزَّ حنجرتي ٠ أه أه أه ! »
ـ « لا ، سينيورينو ٠ لا ، لا ٠ المضحك هو ذعره الشديد ذاك من جندي نمساوي ٠ أه أه أه ! »
فقلت :
ـ « أه أه أه ٠ أخرُجْ من هنا ! »
وخرج ، فسمعته يضحك في الرواق ٠ وسمعت وقــع قدمين تقتربان ٠ وتطلَّعت الى الباب ٠ كانت هي كاثرين باركلي ٠
ودخلت الغرفة وتقدمتْ حتى السرير ٠
وقالت :
ـ « هالو ، يا حبيبي ! »
لقد بدت نضرة ، فتيَّة ، وجميلة جدا ٠ وخيل الي أني لم أر في يوم من الايام شخصا على مثل هذا الجمال ٠
وقلت :
ـ « هالو ! »
وحين رأيتها شعرتُ اني متيَّم بحبها ٠ لقد اضطرب كياني كله اضطرابا ٠ ونظرتْ الى الباب ، ورأت انه لم يكن ثمة أحد ، فجلست على جانب السرير وانحنت فوقي وقبَّلتني ٠ وجذبتُها الى أدنى وقبَّلتها ٠ وقد شعرت بقلبها يخفق ٠
وقلت :
ـ « أيتها الحبيبة ٠ الست رائعة في عودتك هذه ؟ »
ـ « لم يكن ذلك عسيرا جدا ٠ قد يكون من العسير أن أبقى ٠ »
فقلت :
ـ « يجب أن تبقيْ ٠ أوه ، انت رائعة ٠ »
كنت مُدلَّها بها ٠ ولم يكن في امكاني أن اصدّق انها كانت هناك فعلا ،

فهصرتها بين ذراعيَّ في قوة ٠
وقالت :
ـ « ينبغي لك ان لا تفعل ٠ انت مريض ٠ »
ـ « بل اني لفي صحة جيدة ٠ هيَّا ! »
ـ « لا ٠ انت لا تزال ضعيفا جدا ٠ »
ـ « أنا موفور القوة ٠ أوه ، ارجوكِ ٠ »
ـ « هل تحبني ؟ »
ـ « أنا احبكِ حقا ٠ انا متيَّم بك ٠ هيا ، ارجوك ٠ »
ـ « اسمعْ قلبينا يخفقان ٠ »
ـ « أنا لا ابالي بقلبينا ٠ انا اريدكِ انت ٠ اني مجنون بك ٠ »
ـ « هل تحبني حقا ؟ »
ـ « لا تكرري ذلك على نحو موصول ٠ هيا ٠ ارجوك ٠ارجوك يا كاثرين ٠ »
ـ « حسن ، شرط ان لا يتجاوز ذلك اكثر من دقيقة واحدة ٠ »
فقلت :
ـ « لا بأس ٠ أغلقي الباب ٠ »
ـ « أنت لا تستطيع ٠ هذا شيء لا ينبغي لك ٠ »
ـ « تعالي ٠ لا تتكلمي ٠ تعالي ، ارجوكِ ٠ »

* *

وجلست كاثرين على كرسي الى جانب السرير ٠ كان الباب مفتوحا على الرواق ٠ وكانت بهيميَّتي قد زالت ، ولقد شعرت بالنشاط اكثر مما شعرت به في ايما وقت مضى ٠

وسألتني :
ـ « والان هل تصدّق اني أحبك ؟ »
فقلت :
ـ أوه ، انتِ فاتنة ٠ يجب ان تبقي ٠ انهم لا يستطيعون ان يُرجعوك ٠ أنا مجنون بحبك ٠ »
ـ « ينبغي ان نكون حذرَيْن الى أبعد الحدود ٠ لقد كان ذلك حماقة

ليس غير • اننا لا نستطيع ان نفعل ذلك • »

ـ « نستطيع ذلك في الليل • »

ـ « يجب أن نأخذ حذرنا الى حد رهيب • وينبغي أن تأخذ حذرك امام الناس • »

ـ « سوف افعل • »

ـ « يتعيَّن عليك ذلك • انك لطيف • أنت تحبني ، أليس كذلك ؟ »

ـ « لا تقولي ذلك بعد الان • انت لا تعرفين أي أثر سيء يتركه ذلك في نفسي • »

ـ « سوف اكون حذرة اذن • انا لا اريد أن ازعجك اكثر مما فعلت • يجب أن اذهب الان ، أيها الحبيب ، فعلا • »

ـ « ارجعي في الحال • »

ـ « سوف أرجع حين اوفَّق الى ذلك • »

ـ « وداعا • »

ـ « وداعا ، ايها الحبيب ! »

وغادرتِ الغرفة • والله يشهد أني لم أرِدْ أن اقع في حبها • انا لم ارد ان اقع في حب امرأة ما • ولكن الله يشهد أني وقعت برغم ذلك في حبها • لقد استلقيت هناك على سرير المستشفى ، في ميلانو ، وطافت في رأسي ضروب الاشياء كلها • ولكنني شعرت بالنشاط الى حد مدهش • وأخيرا دخلتْ علي مس غايج ، وقالت :

ـ « الطبيب آت • لقد تلفن من بحيرة كومو • »

ـ « ومتى سيصل الى هنا ؟ »

ـ « سوف يكون هنا عند الاصيل • »

الفصل الخامس عشر

ومنذ تلك اللحظة حتى الاصيل لم يحدث شيء ما · كان الطبيب رجلا ضئيل الجسم ، مهزولا ، هادئا ، وكان يبدو وكأن الحرب قد اوقعت الاضطراب في نفسه · لقد أخرج عددا من الشظايا الفولاذية الصغيرة من فخديَّ ، في اشمئزاز رقيق مصقول · ولقد اصطنع مخدرا محليا يدعونه « الثلج » او شيئا مثل ذلك ، مخدِّراً يجلّد الانسجة ويكبت الالم حتى اللحظة التي يبلغ فيها المسبار ، او المبضع ، او الكلاّب اعماق الجزء المتجمِّد · وحدّد المنطقة المخدَّرة في وضوح ، وبعد فترة قصيرة استُنفِدت وداعة الطبيب الهشّة وقال ان من الافضل أن نأخذ صورة بأشعة اكس ، لان نتائج السَّبْر لم تكن مُرضية ·

وأخِذت هذه الصورة في « مستشفى ماغيور » ، وكان الطبيب الذي قام بهذه المهمة انفعاليًّا ، نشيطا ، مرحا · ورُتّب كل شيء بحيث يكون في ميسور المريض ان يرى بنفسه ، من طريق رفع كتفيه ، بعض الاجسام الغريبة الكبرى كما تبدو في الآلة · وقال الطبيب انه سوف يبعث الينا بالصورة · وسألني أن ادوّن في مفكرته اسمي ، وفرقتي ، وبعض انطباعاتي · لقد أعلن أن الاجسام الغريبة كانت بشعة ، قذرة ، ووحشية · ان النمساويين ابناء زنا · كم رجلا قتلتُ منهم ؟ انا لم اقتل احدا ، ولكني كنت تائقا الى ايقاع الرضى في نفسه ، فقلت اني قتلتُ كثيرا منهم · كانت مس غايبج معي ، ولقد طوقها الطبيب بذراعه وقال انها اجمل من كليوباترة · هل فهمتْ ذلك ؟

كليوباترة ملكة مصر القديمة · أجل ، لقد كانت كذلك وحقّ الاله · ورجعنا الى المستشفى الصغير في سيارة الاسعاف ، وبعد فترة قصيرة وكثير من الرفع ، انتهينا الى الدور الاعلى ووجدت نفسي في السرير كـرة اخرى · وجاءت الصور اصيل ذلك اليوم ، وكان الطبيب قد قال انه سوف يبعث بها في الاصيل وحقّ الاله ، ولقد وفى بما وعد · وأطلعتني كاثرين باركلي عليها · كانت محفوظة في ظروف حمراء ، ولقد اخرجتها كاثرين من ظروفها ، ورفعتها في وجه الضياء ، ونظرنا اليها معا ·

ـ « هذه رجلك اليمنى · » قالت ذلك ، ثم اعادت الصورة الى الظرف ، واضافت :

ـ « وهذه رجلك اليسرى · »

فقلت :

ـ « ضعيها جانبا وتعالي الى السرير · »

فقالت :

ـ « لا استطيع · لقد جئت بها لأريك اياها لحظة ثم اعود · »

وغادرت الغرفة ، وبقيت مستلقيا هناك وحدي · كان اصيلا قائظا ، وكنت برما من الاستلقاء في السرير · وكلفت البواب أن يذهب لشراء الصحف ، لشراء جميع الصحف التي يستطيع الحصول عليها ·

وقبل ان يرجع دخل علي الغرفة ثلاثة اطباء · لقد لاحظت ان الاطباء الذين يخفقون في ممارسة الطب ينزعون الى التماس العون من زملائهم واصطحابهم حين يعودون المريض · فالطبيب العاجز عن استئصال زائدتك الدودية على الوجه الملائم يشير عليك في أغلب الظن بمراجعة طبيب عاجز عن استئصال لوزتيك في نجاح · وكان هؤلاء الاطباء الثلاثة من هذه الفئة بالذات ·

وقال كبيرهم ذو اليدين الرقيقتين :

ـ « هذا هو الشاب · »

فقال الطبيب الطويل المهزول ذو اللحية :

ـ « كيف حالك ؟ »

أما الطبيب الثالث ، الذي كان يحمل صور اشعة اكس في ظروفها الحمراء فلم يقل شيئا ·

وتساءل الطبيب الملتحي :

ـ « هل ننزع الضمادات ؟ »

فقال الطبيب الرئيس موجّها الخطاب الى مس غايج :

ـ « طبعا ، انزعي الضمادات ، ارجوكِ ، ايتها الممرضة . »

فنزعت مس غايج الضمادات . وخفضت بصري الى رجليَّ . لقد كانت لهما ، في مستشفى الميدان ، سيْما شرائح لحم مشوية غير ناضجة جدا . لقد علَتْهما تشرة ، وكانت الركبة متورمة ، حائلة اللون ، وكان باطن الساق غائرا ولكن لم يكن ثمة صديد . وقال رئيس الاطباء :

ـ « نظيف جدا . نظيف جدا وجميل . »

فقال الطبيب ذو اللحية :

ـ « أمْـمْـمْ . »

ونظر الطبيب الثالث من فوق كتف الطبيب الرئيس .

وقال الطبيب الملتحي :

ـ « ارجوك أن تحرك ركبتك . »

ـ « لا استطيع . »

فتساءل الطبيب الملتحي :

ـ « هل نختبر الحركة المفصلية ؟ »

كان يحمل على ردنه ، الى جانب النجوم الثلاثة ، شريطا ، وهذا يعني انه كان برتبة كابتن اول .

فأجابه الطبيب الرئيس :

ـ « من كل بد . »

وامسك اثنان منهم برجلي اليمنى ، في كثير من الرفق ، ولَوَّياها .

فقلت :

ـ « ان هذا يوجعني . »

ـ « نعم . نعم . الوِها اكثر قليلا ايها الطبيب . »

فقلت :

ـ كفى . انها لا تستطيع ان تلتوي اكثر من ذلك . »

فقال الكابتن الاول :

ـ « حركة مفصلية جزئية . »

وتصدّر ثم اضاف :

ـ « هل استطيع ان ارى الصورة مرة اخرى ، ايها الطبيب ؟ »

فقدّم اليه الطبيب الثالث احدى الصور .

ـ « لا . الرجل اليسرى من فضلك . »

ـ « هذه هي الرجل اليسرى ، أيها الطبيب . »

ـ «أنت على صواب . لقد كنت انظر من زاوية مختلفة . »

قال ذلك ، وأعاد الصورة . ثم انه فحص الصورة الاخرى فترة من الزمن واضاف :

ـ « هل ترى ، أيها الطبيب ؟ »

وأشار الى أحد الاجسام الغريبة التي تراءت في وجـــه الضياء مستديرة واضحة . ودرس الطبيبان الصورة برهة قصيرة .

وقال الكابتن الاول ذو اللحية :

ـ « شيء واحد استطيع أن أقوله . انها مسألة وقت . ثلاثة أشهر ، او ربما ستة اشهر . »

ـ « طبعا . انها مسألة وقت . انا لا استطيع ، ضميريا ، ان أفتح ركبة مثل هذه قبل ان تتكيَّس القذيفة . »

ـ « أنا من رأيك ، أيها الطبيب . »

فسألت :

ـ « ستة اشهر من اجل ماذا ؟ »

ـ « ستة أشهر لكي تتكيَّس القذيفة قبل أن تُفتح الركبة على نحـــو مأمون . »

ـ « انا لا اصدّق هذا . »

ـ « ألا تريد الاحتفاظ بركبتك ، أيها الشاب ؟ »

فقلت :

ـ « لا . »

ـ « ماذا ؟ »
فقلت :
ـ « أريد أن اقطعها لكي أقيم عليها فخا · »
ـ « ماذا تعني ؟ فخّ ؟ »
فقال الطبيب الرئيس وهو يربّت على كتفي في رقة بالغة :
ـ « انه يمزح · هو يريد الاحتفاظ بركبته · هذا شاب شجاع جدا · لقد رُشّح لنيل مدالية الشجاعة الفضية · »
فقال الكابتن الاول :
ـ « أقدّم اليك تهنئاتي كلها · »
وصافحني هازّاً يدي ، وأضاف :
ـ « كل ما استطيع قوله هو أن عليك ، اذا اردت أن تكون على طرف الامان ، ان تنتظر ستة أشهر قبل فتح ركبة كهذه · أنت حر طبعا في أن تكوّن رأيا آخر · »
فقلت :
ـ « أشكرك كثيرا · انا اقدر رأيك حق قدره · »
ونظر الكابتن الاول الى ساعته · وقال :
ـ « يجب أن نذهب · أحسن تمنياتي · »
فقلت :
ـ « أحسن تمنياتي وشكرا جزيلا · »
وصافحت الطبيب الثالث :
ـ « كابيتانو فاريني ··· »
ـ « تينانتي * هنري ··· »
وخرجوا كلهم من الغرفة ·
وصحت :
ـ « مس غايج ! »
فدخلت علي ، فقلت :
ـ « ارجوكِ أن تطلبي الى الطبيب الرئيس ان يعود لحظة واحدة · »

* الليفتنانت او الملازم الاول ·

وأقبل الطبيب ، ووقف الى جانب السرير ، وقال :

ـ « هل ابديت رغبتك في الاجتماع بي ؟ »

ـ « نعم . أنا لا استطيع أن انتظر ستة أشهر لاجراء العملية الجراحية . أستحلفك بالله ، أيها الطبيب ، هل قـُدّر لك في يوم من الايام ، أن تبقى ستة أشهر في الفراش ؟ »

ـ « أنت لن تبقى طوال الوقت في الفراش . ينبغي أن تعرّض جراحك ، قبل كل شيء للشمس . وبعد ذلك يصبح في ميسورك أن تمشي على عكازين . »

ـ « طوال ستة أشهر ، وبعد ذلك تجرى لي عملية جراحية ؟ »

ـ « هذه هي الطريقة المأمونة . يجب ان نعطي الاجسام الغريبة وقتا كافيا لتتكيّس والسائل الزلالي متسعا من الوقت ليتشكل من جديد . وبعد ذلك يكون من المأمون فتح الركبة . »

ـ « هل تعتقد فعلا ، انت نفسك ، ان علي أن انتظر هذه المدة كلها ؟ »

ـ « هذه هي الطريقة المأمونة . »

ـ « من هو ذلك الكابتن الاول ؟ »

ـ « انه جراح ممتاز من جراحي ميلانو . »

ـ « هو كابتن اول ، أليس كذلك ؟ »

ـ « أجل ، ولكنه جراح ممتاز . »

ـ « انا لا اريد ان يعبث برجلي كابتن اول . لو كانت له أية قيمة اذن لرُفّع الى رتبة مايجور . أنا أعرف ما معنى الكابتن الاول ، ايها الطبيب . »

ـ « انه جراح ممتاز ، وانا افضل الاخذ برأيه على الاخذ برأي أي جراح أعرفه . »

ـ « هل يستطيع جراح آخر ان يراني ؟ »

ـ « طبعا ، اذا شئت . ولكني شخصيا آخذ برأي الدكتور فاريلاً . »

ـ « هل لك ان تكلف جراحا آخر بأن يجيء ويرى رجلي ؟ »

ـ « سوف اسأل فالانتيني ان يجيء . »

ـ « من هو ؟ »

ـ « انه جراح من جراحي مستشفى ماغيور . »

ـ « حسن . سوف اقدر لك هذا العمل الى ابعد حد . انت ترى ، ايها الطبيب ، اني لا استطيع البقاء في الفراش ستة أشهر . »

ـ « انك لن تبقى في الفراش . سوف تعطى قبل كل شيء علاجا شمسيا . وبعد ذلك تُعطى تمرينات خفيفة . حتى اذا تمّ التكيّس اجرينا الجراحة . »

ـ « ولكني لا استطيع ان انتظر ستة اشهر . »

ونشر الطبيب اصابعه الدقيقة على القبعة التي كان يمسك بها وابتسم قائلا :

ـ « هل انت مستعجل الى هذا الحد للعودة الى الجبهة ؟ »

ـ « ولِمَ لا ؟ »

فقال :

ـ « هذا جميل جدا . انت شاب نبيل . »

وانحنى فوقي ، وطبع على جبيني قبلة رقيقة جدا ، ثم اضاف :

ـ « سوف استدعي فالانتيني . لا تقلق ولا تطلق العنان لاعصابك . كن ولدا عاقلا . »

فسألته :

ـ « ما رأيك في كأس من الخمر ؟ »

ـ « شكرا . انا لا اشرب الكحول ابدا . »

ـ « اشرب كأسا واحدة فقط . »

وقرعتُ الجرس للبواب لكي يأتيني بقدحين .

ـ « لا . لا . اشكرك . انهم في انتظاري . »

فقلت :

ـ « الى اللقاء . »

ـ « الى اللقاء . »

وبعد ساعتين دخل الدكتور فالانتيني الغرفة . كان مستعجلا جدا ، وكان طرفا شاربيه منتصبين الى اعلى . كان برتبة مايجور ، وكان مسفوع

الوجه باشعة الشمس ، وكان يضحك على نحو موصول •

وسالني :

ـ « كيف اصبت بهذا البلاء الملعون ؟ دعني ارى الصورة • اجل • اجل • هذا هو • انت تبدو سليم الصحة مثل معزاة • من هي هذه الفتاة الجميلة ؟ أهي معشوقتك ؟ لقد حسبت ذلك • اليست هذه حربا لعينة ؟ هل تحس بشيء ؟ انت فتىً رائع • سوف اخلقك خلقا جديدا • هل تشعر بألم ؟ انت تراهن انها تؤلمك ؟ ما اشد شغف اولئك الاطباء بأيلامك ! ما الذي فعلوه من اجلك حتى الان ؟ الا تستطيع تلك الفتاة الكلامْ باللغة الايطالية ؟ يجب عليها ان تتعلم • يا لها من فتاة بارعة الجمال ! ان في استطاعتي ان اعلّمها • سوف ادخل انا بنفسي هذا المستشفى كمريض يلتمس المعالجة • لا • بل اني سوف اقوم بتوليدها بالمجان • هل تفهم هي ذلك ؟ انها سوف تُنجب لك غلاما رائعا • غلاما اشقر مثلها • هذا رائع • هذا حسن • يا لها من فتاة بارعة الجمال • اسألها هل ترغب في ان تتناول طعام العشاء معي ؟ لا ، لا اريد ان ابعدها عنك • اشكرك • اشكرك كثيرا • ايتها الآنسة • هذا كل شيء • » .

ـ « هذا كل ما اريد ان اعرفه • » وربّت على كتفي • « لا تستعمل الضمادات بعد الان • »

ـ « ما قولك في كأس ، يا دكتور فالانتيني ؟ »

ـ « كأس ؟ طبعا • انا على استعداد لان اشرب عشرة كؤوس • اين هي ؟ »

ـ « في الخزانة • مس باركلي سوف تأتينا بالزجاجة • »

ـ « على صحتك ! على صحتك ، ايتها الانسة • يا لها من فتاة بارعة الجمال ! سوف اجيئك بكونياك افضل من هذا • »

قال ذلك ومسح شاربيه •

ـ « متى نستطيع اجراء العملية الجراحية ، في اعتقادك ؟ »

ـ « غدا صباحا ، وليس قبل ذلك • يجب أن تُفْرَغ معدتك • يجب أن نعطيك مليّنا • سوف ارى السيدة العجوز في الطابق السفلي واترك لها التعليمات الضرورية • الى اللقاء • سوف اراك غدا • سوف آتيك بكونياك

افضل من هذا • انت تتمتع بقسط كبير من الراحة هنا • وداعا • الى الغد • نم نوما عميقا • سوف اراك في الصباح الباكر • »

وحين انتهى الى العتبـة لوَّح لي بيـده • وانتصب شاربـاه على نحو مستقيم ، واشرق وجهه الاسمر بالابتسام • كان ثمة على ردن سترته نجمة" وسطـَ مربَّع ، لانه كان برتبة مايجور •

الفصل السادس عشر

في تلك الليلة دخل خفاش الغرفة من خلال الباب المفتوح المؤدي الى الشرفة والذي كنا نراقب منه الليل فوق سطوح المدينة · كانت غرفتنا مظلمة جدا ، ولم يكن ثمة غير انعكاس نور الليل الباهت فوق المدينة ، ولم يكن الخفاش مذعورا ، ولقد واصل قَنَصَه في الغرفة وكأنه في الخارج · كنا مُستلقين في سُرُرنا وكنا نراقبه ، ولست احسب انه رآنا لانا اعتصمنا بالسكينة · وبعد ان غادر الغرفة رأينا ضوءا كشافا يخترق السماء ، ثم يختفي ليسود الظلام من جديد · وهبَّت انسام الليل ، وسمعنا رجال المدفعية المضادة للطائرات يتحدثون فوق السطح المجاور · كان الجو باردا بعض الشيء ، وكان المدفعيون يرتدون معاطفهم · وخلال الليل خشيت ان يفاجئنا أحد ، ولكن كاثرين قالت انهم جميعا نائمون · وفي موهن من الليل استسلمنا للنوم ، حتى اذا استيقظتُ لم اجدها هناك ، ولكني سمعتها تمشي في الرواق · وفَتَح الباب ، ورجعَتْ الى السرير وقالت ان كل شيء حسن ، وانها كانت في الدور الارضي ، وان الجميع نائمون · لقد استرقتِ السمع من وراء باب مس فان كامبن ، فسمعَتْها تتنفَّس في نومها · لقد جاءت ببعض البسكويت · فأكلنا ذلك كله واحتسينا قليلا من الفيرموت · لقد كنا نتضور جوعا ، ولكنها قالت ان هذا كله يجب ان يُخْرَجَ مني في الصباح · وعدت فاستسلمت للرقاد ، عند الضحى ، حتى اذا افقتُ وجدتُ انها قد غادرت الغرفة كرة اخرى · ثم انها اقبلتْ ناضرة فاتنة ، وجلست

وجلست على السرير · واشرقت الشمس وميزان الحرارة في فمي · واستروحنا الندى على السطوح ، ثم رائحةَ القهوة التي كان المدفعيون يشربونها على السطح المجاور ·

وقالت كاثرين :

ـ « أتمنى لو كان في استطاعتنا أن نتنزّه قليلا · ولو كان عندنا كرسي دوّار اذن لاقعدتك عليه ودفعتك أمامي · »

ـ « وكيف تستطيعين ان تجلسيني في ذلك الكرسي ؟ »

ـ « لن يعجزنا ذلك · »

فقلت ، وانا اطل ببصري من الباب المفتوح :

ـ « لو تمَّ لنا ذلك اذن لاستطعنا ان نخرج الى الحديقة وان نتناول طعام الصباح في الهواء الطلق · »

فقالت :

ـ « أجل ، ولكن الذي سوف نقوم به فعلا الان هو اعدادك لصديقك الدكتور فالانتيني · »

ـ « لقد بدا لي انه مُدهش · »

ـ « انا لم احبَّه بقدر ما احببته انت · ولكن يخيَّل الي انه طيّب جدا · »

فقلت :

ـ « ارجعي الى السرير ، ارجوكِ ، يا كاثرين · »

ـ « لا استطيع · ألم نقضِ ليلة حلوة ؟ »

ـ « وهل لا تستطيعين ان تكوني انتِ صاحبة النوبة هذ هالليلة أيضا ؟ »

ـ « أغلب الظن أني سوف استطيع · ولكنك لن تحتاج اليَّ · »

ـ « بلى سأحتاج اليكِ · »

ـ « لا · لن تحتاج اليَّ · أنت لم تخضع لاية جراحة من قبل ، وانك لا تدري أية حال ستكون حالك · »

ـ « سوف اكون في حال حسنة · »

ـ « انك ستكون مريضا ، ولن اكون انا ذات فائدة بالنسبة اليك · »

ـ « ارجعي الآن أذن · »

فقالت :

ـ « لا ٠ يجب عليّ ان اعيدَ سجل حرارتك ، ايها الحبيب ، وان احضّرك للعملية ٠ »

ـ « انـتِ لا تحبينني حقـا ٠ لو كنتِ تحبيننــي حقـا اذن لرجعت مرة ثانية ٠ »

وقبّلتني قائلةً :

ـ« انت غلام احمق ٠ ان سجل حرارتك ممتاز ٠ فحرارتك هي دائمـــا سوية ٠ ان لك حرارةً جميلة الى ابعد الحدود ٠ »

ـ « وانتِ ، ان كل ما فيكِ جميل ٠ »

ـ « اوه ، لا ٠ ان حرارتك هي الجميلة ٠ اني شديدة الفخر بحرارتك الى حد فظيع ٠ »

ـ « لعل جميع اولادنا ستكون لهم حرارات رائعة ٠ »

ـ « اغلب الظن ان اولادنا سوف تكون لهم حرارات بهيمية ٠ »

ـ « وما الذي ستصنعينه من اجل اعدادي للدكتور فالانتيني ؟ »

ـ « ليس شيئا كثيرا ٠ ولكنه غير مستساغ ٠ »

ـ « كم اتمنى ان لا تقومي انتِ بذلك ٠ »

ـ « اما انا فلا اتمنى ٠ انا لـن ادع ايما شخص آخر يمسّك ٠ انـــا حمقاء ٠ ولسوف تثور ثائرتي اذا ما مسّتك اي منهن ٠ »

ـ « وحتى فيرغوسون ؟ »

ـ « على الاخص فيرغوسون ، وغايج ، والاخرى ، ما اسمها ؟ »

ـ « ووكر ؟ »

ـ « تماما ٠ أن المرضات في هذا المستشفى يزدن عن حاجته ٠ ويجب ان يفد الينا بعض المرضى والا نُقِلنا من هنا ٠ نحن في الوقت الحاضر اربع ممرضات ٠ »

ـ « لعل بعض المرضى يجيئون قريبا ٠ وعندئذ تمس الحاجة الى هـــذا العدد من الممرضات ٠ انه مستشفى كبير ٠ »

ـ « ارجو ان نستقبل مرضى اضافيين ٠ ما الذي سوف اصنعه اذا نقلوني من هنا ؟ انهم لا بد ان يقدموا على ذلك أن لم يأتنا زبائن جدد ٠ »

ـ « عندئذ ارحل انا ايضا ٠ »

ـ « لا تكن سخيفا · ليس في استطاعتك الآن ان ترحل · كل ما عليك ان تفعله هو ان تسرع في الشفاء ، ايها الحبيب ، وبعد ذلك نذهب الى مكان ما · »

ـ « ثم ماذا ؟ »

ـ « لعل الحرب ان تنتهي · فليس في امكانها ان تظل دائرة الرحى الى الابد · »

فقلت :

ـ « سوف اشفى فالانتيني سوف يرممني · »

ـ « من غير شك · ما دام يحمل مثل هذين الشاربين ! وارجوك يا حبيبي حين يعطونك المخدر فكر في شيء آخر ، لا تفكر فينا نحن · لان المرء يصبح كثير الثرثرة تحت المخدّر · »

ـ « ما الذي يجب أن افكر فيه ؟ »

ـ « اي شيء · اي شيء سوانا · فكر في اهلك ، بل في اية فتاة اخرى · »

ـ « لا · »

ـ « ردد صلواتك اذن · ان ذلك لا بدّ ان يترك انطباعة رائعة · »

ـ « ولكنني قد لا اتكلم البتة · »

ـ « هذا صحيح · ان الناس كثيرا ما لا يتكلمون · »

ـ « انا لن اتكلم · »

ـ « لا تتبجّح ، ايها الحبيب · ارجوك ان لا تتبجح · انت لطيف جدا ، ولستَ مضطرا الى التبجح · »

ـ « انا لن اقول كلمة · »

ـ « لا · انت تتبجح ، ايها الحبيب · انت تعلم انك في غير حاجة الى التبجح · كل ما عليك ان تفعله هو ان تبدأ بتلاوة صلواتك او اشعارك حالما يطلبون اليك ان تأخذ نَفَسا عميقا · انك ستكون على تلك الصورة لطيفا جدا ، ولسوف اكون شديدة الاعتزاز بك · انني لفخورة بك على اية حال · فحرارتك رائعة جدا ، وانت تنام مثل طفل صغير وذراعك حول الوسادة ظنا منك انها انا · او ظنا منك انها فتاة اخرى ، فمن يدري ؟ فتاة جميلة من فتيات ايطاليا ··· »

ـ « انها انتِ . »

ـ « طبعا . اوه ، اني لاحبك ، وان فالانتيني سوف يحسن اصلاح رجلك . انا سعيدة لعدم اضطراري الى مراقبة ذلك . »

ـ « وستكون نوبة العمل من نصيبك الليلة . »

ـ « اجل . ولكن ذلك لن يهمّك . »

ـ « انتظري وانظري . »

ـ « والآن ، ايها الحبيب . انت بالغ النظافة من الداخل ومن الخارج . قل لي . كم امرأة قدّر لك أن تحب ؟ »

ـ « لم أحب أية امرأة . »

ـ « حتى انا لم تحبني ؟ »

ـ « اجل . لقد احببتك انت . »

ـ « وكم فتاة غيري ؟ »

ـ « انا لم احب أية فتاة قبلك . »

ـ « مع كم فتاة اخرى ـ كيف تعبر عن ذلك ؟ ـ عشْتَ قبلي ؟ »

ـ « لم أعش مع أية فتاة . »

ـ « أنت تكذب علي . »

ـ « نعم . »

ـ « حسن . استمر في الكذب علي . ذلك هــو الشيء الذي اريدك ان تفعله . هل كنَّ جميلات ؟ »

ـ « أنا لم اعش مع أية فتاة قط . »

ـ « مفهوم . هل كنَّ فاتنات الى حد بعيد ؟ »

ـ لست أدري شيئا عن ذلك . »

ـ « أنت مِلْك" لي انا . هذا صحيح ، وانت لم تكن فى ايما يــوم من الايام مِلكا لاحد . ولكنني لا ابالي اذا ما كنت في يوم من الايام ملكا لبعض الفتيات . انا لست خائفة منهن . ولكن لا تحدّثني عنهن . عندما يمكث المرء مع فتاة من الفتيات متى تُعلمه بالثمن الذي يتعين عليه دفعه ؟ »

ـ « لست ادري . »

ـ « طبعا · هل تقول له انها تحبه ؟ أنبئني بذلك · انا اريـد ان اعرف ذلك · »

ـ « نعم · اذا كان يريد منها أن تقول له هذا · »

ـ « هل يقول لها انه يحبها ؟ قل لي من فضلك · ان هذا مهمّ · »

ـ « انه يفعل اذا كان راغبا في ذلك · »

ـ « ولكنك لم تفعل ، اليس كذلك ؟ »

ـ « لا · »

ـ « حقا ؟ أصدقني القول · »

فكذبتُ قائلا :

ـ « لا · »

فقالت :

ـ « أوه ، كنت اعلم جيدا أنك لم تُقدم على مثل هــذا الصنيع قط ·

وفي الخارج ، كانت الشمس قد ارتفعت فوق السطوح ، وكان في استطاعتي ان ارى انوف الكاتدرائية واشعة الشمس فوقها · كنت نظيفا من الداخل ومن الخارج ، وكنت في انتظار الطبيب ·

وقالت كاثرين :

ـ « هكذا اذن ؟ انها تقول ما يريدها ان تقول تماما ؟ »

ـ « ليس دائما · »

ـ « ولكني سأفعل · سوف اقول ما تريدني ان أقوله تماما ، وبعد ذلـك لن تكون في حاجة الى فتيات اخريات أبد الدهر ، اليس كذلك ؟ »

ونظرت الي في سعادة بالغة ، واضافت :

ـ « سوف افعل ما تريد ، وأقول ما تريد ، وبذلك استطيع ان انعم بالفوز العظيم · أليس كذلك ؟ »

ـ « نعم · »

ـ « أي شـيء تريدنـي أن أفعلـه الان وقـد أصبحـتَ علـى أتـم الاستعداد ؟ »

ـ « ان ترجعي الى السرير كرة اخرى · »

ـ « حسن . ها أناذا . »

فقلت :

ـ « أوه ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي ! »

فقالت :

ـ « أرأيت ؟ انا أفعل كل ما تريده . »

ـ أنت فاتنة الى ابعد الحدود . »

ـ « أخشى ان لا أكون قد اتقنت ذلك بعد . »

ـ « أنت فاتنة . »

ـ « ـ أنا اريد ما تريد . لم يعد ثمة شيء اسمـــه انا . لم يبــق غير رغبتك . »

ـ « حبيبتي ! »

ـ « أنا طيبة . ألست طيبة ؟ انك لن تشتهي بعد اليوم أية فتاة أخرى ، أليس كذلك ؟ »

ـ « لا . »

ـ « أرأيت ؟ انا طيبة . انا أفعل ما تأمرني به . »

الفصل السابع عشر

وحين أفقت بعد العملية الجراحية ادركت اني لم أفقد الحياة . انك لا تفقد الحياة . انهم يخنقونك ليس غير . وهذا لا يشبه الموت أبدا . انه مجرد خنق كيميائي يلجأون اليه لكي لا تحسَّ بشيء . وفوق هذا فانه أشبه ما يكون بالسكْر الشديد مع فارق واحد وهو انك عندما تقيء لا يخرج من جوفك غير الصفراء ثم لا تستشعر شيئا من النشاط بعد ذلك . لقد رأيت عند ادنى السرير أكياس رمل كانت تتدلى من انابيب منبثقة من القالب الجصيّ . وبعد برهة رأيت مس غايج ، فقالت لي :

– « كيف انت الان ؟ »

فقلت :

– « أحسن . »

– « لقد أجرى لركبتك عملية رائعة . »

– « كم استغرقت ؟ »

– « ساعتين ونصف . »

– « ألم أقل شيئا سخيفا ؟ »

– « لم تقل شيئا . لا تتكلم الان . الزم الهدوء . »

كنت خائر القوى ، وكانت كاثرين على حق . اني لم أبال بالممرضة المكلفة بالخدمة تلك الليلة .

**

كان ثمة ، الان ، في المستشفى ، ثلاثة مرضى آخرين : فتى من جورجيا

يعمل في الصليب الاحمر ، وكان مهزول الجسم يشكو الملاريا ، وفتى لطيف من نيويورك ، وكان مهزول الجسم أيضا يشكو من الملاريا واليرقان ، وفتى بارع حاول ان يفك غطاء قنبلة من قنابل شربنيل ذات الانفجار العالي ، لكي يحتفظ بذلك كتذكار • وكانت ذات أنف ينطلق بعد انفجار القنبلة وينفجر عند اول احتكاك •

وأحبّت الممرضات كاثرين باركلي حبا عظيما لانها كانت مستعدة دائما للنهوض بعبء الخدمة الليلية • ولم يكن لديها غير عمل قليل مع الغلامين المصابين بالملاريا ، وكان الغلام الذي فك لولب الغطاء صديقا لنا ، ولم يكن يقرع الجرس في الليل الا عند الضرورة • وهكذا كنا نقضي الاوقات المتراخية ما بين المهمة والمهمة معا • لقد احببتها حبا جما ، ولقد أحبتني هي •كنت أنام في ساعات النهار ، وكنا نكتب خلال اويقات يقظتنا من النهار رسائل يبعث بها احدنا الى الاخر من طريق فيرغوسون • لقد كانت فيرغوسون فتاة طيبة • ولم أعرف قط شيئا عنها ، باستثناء ان لها أخا في الفرقة الثانية والخمسين وأخا في العراق ، ولقد كانت مخلصة جدا لكاثرين باركلي •

وقلت لها مرة :

ـ « هل ترغبين في ان تشهدي حفلة زواجنا في المستقبل ، يا فيرغي ؟ »

ـ « انكما لن تتزوجا ابدا • »

ـ « بلى ، سنتزوج • »

ـ « لا • لن تتزوّجا • »

ـ « ولم لا ؟ »

ـ « سوف تتخاصمان قبل ان تتزوّجا • »

ـ « اننا لا نتخاصم ابدا • »

ـ « لا يزال امامكما متسع من الوقت • »

ـ « اننا لن نتخاصم • »

ـ « سوف تموت انت اذن • اما الخصام واما الموت • ذلك ما يفعله الناس• انهم لا يتزوجون • »

وبسطت' يدي الى يدها . فقالت :

ــ « لا تلمسني . أنا لا أبكي . لعلكما أن تسلما انتما الاثنين . ولكن انتبه . حذارِ ان توقعها في بلاء ما . اذا ما أوقعتها في بلاء ما فسوف أقتلك . »

ــ « لن أوقعها في أي بلاء . »

ــ « انتبه جيدا اذن . ارجو ان تكون في خير . هل تقضيان وقتا طيبا ؟ »

ــ « اجل ، نحن نقضي وقتا طيبا . »

ــ « لا تقاتل اذن ، ولا توقِعْها في البلاء . »

ــ « اني لن أوقعها . »

ــ « خذ حذرك . انا لا اريد ان اراها مع أي من غلمان الحرب هؤلاء . »

ــ « انت فتاة رائعة ، يا فيرغي . »

ــ « لا . لستُ كذلك . لا تحاول أن تتملَّقني . كيف رِجلك ؟ »

ــ « ممتازة . »

ــ « ورأسك ؟ »

ومسَّت أعلاه بأصابعها . كان حسَّاسا مثل رِجْل اصابها التنميل .

ــ « انه لم يزعجني قط . »

ــ « في استطاعة ورم مثل هذا ان يُطير صوابك . وتقول انه لم يزعجك قط ؟ »

ــ « لا . لم يزعجني . »

ــ « أنت شاب محظوظ . هل انهيت رسالتك ؟ سوف أنزل الى تحت . »

ــ ها هي الرسالة . »

ــ « يجب ان تطلب اليها ان لا تقوم بمهام الخدمة الليلية فترة قصيرة . لقد امست متعبة جدا . »

ــ « حسن . سوف أفعل . »

ــ « لقد عرضت عليها ان احلَّ محلها ولكنها تأبى . والممرضات

الاخريات سعيدات بتركها تنهض بهذا العبء . ان من الخير ان تعطيها فترة راحة قصيرة ليس غير . »

ـ « حسن . »

ـ « لقد تحدثت مس فان كامبن مرة فقالت انك تظل نائما حتى الظهر .. »

ـ « لا استغرب ذلك . »

ـ « من الافضل ان تريحها من الخدمة الليلية فترة قصيرة . »

ـ « هذا ما أرغب فيه . »

ـ « لا . أنت لا ترغب . ولكن اذا استطعت حملها على ذلك ازددت احتراما لك . »

ـ « سوف أحملها على ذلك . »

ـ « لست اصدق هذا . »

واخذتِ الرسالة وخرجتْ . وقرعتُ الجرس ، فأقبلت مس غايج في الحال .

ـ « ما المسألة ؟ »

ـ « لا شيء . ولكني اردت أن أتحدث اليك . الا تعتقدين ان مس باركلي يجب ان تهجر الخدمة الليلية فترة قصيرة ؟ انها تبدو مُتعبة الى حدٍّ رهيب . لماذا تسهر الليالي على هذا النحو منذ زمن بعيد ؟ »

فحدّقت مس غايج الي ، وقالت :

ـ « انا صديقتك . انت في غير حاجة الى ان تتحدث معي على هذه الشاكلة . »

ـ « ماذا تعنين ؟ »

ـ « لا تتظاهر بالبله . أهذا كل ما أردته مني ؟ »

ـ « هل ترغبيّن في كاس من الفيرموت ؟ »

ـ « حسن . وبعد ذلك يتعين علي ان أذهب . »

وأخرجت الزجاجة من الخزانة ، وجاءت بكاس .

فقلت :

ـ « خذي الكأس أنت . أما انا فسأشرب من الزجاجة . »

فقالت مس غايج :

ـ « على صحتك ! »

ـ « ماذا قالت فان كامبن عن نومي حتى ساعة متأخرة من الصباح ؟ »

ـ «لا شيء . مجرد ثرثرة . انها تدعوك مريضنا المدلّل . »

ـ « فلتذهب الى الجحيم ! »

فقالت مس غايج :

ـ « انها ليست خبيثة . انها عجوز وعصبية المزاج ليس غير . انها لم تحبك في يوم من الايام . »

ـ « اعرف ذلك . »

ـ « حسنا . أما انا فعلى العكس . انا صديقة لك . لا تنس هذا. »

ـ « انت رائعة الى حد رهيب . »

ـ « لا . انا اعرف من هي الرائعة في نظرك . ولكني صديقتك . كيف رجلك الان ؟ »

ـ « جيدة جدا . »

ـ « سوف آتي بشيء من الماء المعدني البارد لاسكبه عليها . لا ريب في انها تحكّك تحت هذا القالب الجصّي . الجو حار في الخارج . »

ـ « أنت رائعة الى حد رهيب . »

ـ هل تحكّك كثيرا ؟ »

ـ « لا . انها جيدة . »

وانحنت قليلا وقالت :

ـ « سوف أسوّي هذه الاثقال على نحو أفضل . أنا صديقة لك . »

ـ « اعرف ذلك . »

ـ « لا . أنت لا تعرف . ولكنك سوف تعرف في يوم من الايام . »

وهجرت كاثرين باركلي الخدمة الليلية ثلاث ليال متواصلة ثم استأنفتها من جديد . لقد شعرنا وكأننا التقينا كرة ثانية بعد أن قام كل منا برحلة طويلة .

الفصل الثامن عشر

لقد قضينا وقتا طيبا ، ذلك الصيف . وحين كان في ميسوري مغادرة الغرفة كنت اركب متن عربة وأطوّف في الحديقة العامة . أنا اذكر العربة ، والجواد يمشي وئيدا ، وظهر السائق امامنا ، وقد اعتمر بقبعته العالية المفرّنشة ، وكاثرين باركلي جالسة بقربي . كان تماسّ أيدينا ، مجردُ التقاء جانب يدي بجانب يدها ، كافيا لان يثير اهتياجنا . وبعد ذلك حين أمسى في استطاعتي ان أسير على عكازين كنا نذهب لتناول طعام العشاء في مطعم « بيفي » أو « الغران ايتاليا » ، وكنا نجلس الى الموائد الممدودة في الخارج على أرضية الرواق . كان النُدُل يدخلون ويخرجون ، وكان ثمة اناس يروحون ويجيئون ، وكانت على الموائد شموع تلقي ظلالها على الاغطية ، وبعد ان قررنا اننا نؤثر « الغران ايتاليا » حجز لنا جورج ، كبير الندل ، احدى الموائد . كان نادلا بارعا ، وكنا نسأله أن يطلب لنا الطعام فيما نحن ننظر الى الناس والى الرواق الكبير في الغسق ، وفيما نحن نتبادل النظرات ايضا . لقد شربنا « كابري » أبيض غير حلو مثلجا في دلو ، على الرغم من اننا جرّبنا كثيرا من الخمور الاخرى ، كالفريزا ، والباربيرا ، وبعض الخمور الحلوة البيضاء . ولم يكن عندهم ساقي خمر بسبب من الحرب ، وكان جورج يبتسم في خجل كلما سألته عن خمور مثل الفريزا .

وقال :

ـ « تخيّل ان بلدا يصنع ضربا من الخمر لان مذاقها كمذاق الفريز ٠ »
فتساءلت كاثرين :
ـ « ولم لا ؟ يبدو لي ان ذلك شيء رائع ٠ »
فقال جورج :
ـ « ذوقيها ، أيتها السيدة ، اذا شئت ٠ ولكن دعيني أحمل زجاجة صغيرة من المارغو الى الملازم الاول ٠ »
ـ « سوف أذوقها انا ايضا ، يا جورج ٠ »
ـ « سيدي ، انا لا استطيع ان انصحك بذلك ٠ انها خلوٌ حتى من نكهة الفريز ٠ »
فقالت كاثرين :
ـ « من يدري ؟ ولا ريب في انها تكون رائعة اذا كان لها مثل تلك النكهة ٠ »
فقال جورج :
ـ « سوف آتي بها ، حتى اذا نالت سيدتي كفايتها منها أرجعتها ٠ »
انها لم تكن خمرا بالمعنى الصحيح ٠ ولم يكن لها ، كما قال جورج ، حتى نكهة الفريز ٠ ورجعنا الى كابري ٠ وذات ليلة أعوزني المال ، فأقرضني جورج مئة لير وقال :
ـ « لا بأس ، أيها الملازم ٠ انا اعرف كيف يحدث ذلك ٠ انا اعرف كيف يفتقد المرء المال ٠ اذا احتجت انت او السيدة الى مال فاذكر ان لديَّ دائما بعض المال ٠ »
وبعد العشاء تمشيّنا في الرواق مجتازين بالمطاعم الاخرى وبالمخازن التجارية وقد أنزلت مصاريع نوافذها الحديدية ، ووقفنا عند الدكان الصغير الذي يبيعون فيه الساندويش : ساندويشات لحم الخنزير ، وساندويشات الخس ، وساندويشات الانشوفة* المصنوعة من أرغفة صغيرة جدا سمراء مصقولة لا يزيد طولها على طول اصبعك ٠ وكانت هذه الساندويشات معدّة للاكل في موهن من الليل حين يستبدُّ بنا الجوع ٠ ثم اننا امتطينا

*الانشوفة نوع من السمك ، ويعرف ايضا بالانشوا

عربة مكشوفة خارج الرواق تجاه الكاتدرائية ورجعنا الى المستشفى . وعند باب المستشفى اقبل البواب لكي يساعدني على اصطناع العكازين . ودفعت الاجرة الى السائق ، ثم صعدنا بالمصعد . وغادرت كاثرين المصعد عند الطابق الثاني حيث تسكن الممرضات ، وتابعت انا صعودي واجتزت البهو ، على عكازيَّ ، الى غرفتي . كنت في بعض الاحيان أخلع ملابسي وآوي الى فراشي ، وكنت في احيان اخرى اجلس على الشرفة رافعا رجليَّ على كرسي آخر وأراقب السنونو فوق السطوح وأنتظر كاثرين . حتى اذا ارتقت السلم كنت استشعر وكأنها رجعت من رحلة طويلة ، وأجتاز الردهة معها على عكازيَّ . كنت أحمل الطسوت وأنتظر خارج الابواب ، أو أدخل الغرفة معها . وكل ذلك كان يتوقف على الجماعة ومدى صداقتها لنا ، حتى اذا أتمَّت كل ما كان يتعيَّن عليها ان تفعله جلسنا على الشرفة خارج غرفتي . وبعد ذلك كنت آوي الى فراشي . حتى اذا نام القوم كلهم ، ووثقتُ من أن أحدا لن يستدعيها ، انسلَّت الى غرفتي . كنت احب ان احل شعرها ، وكانت تجلس على السرير وتعتصم بالسكينة البالغة ، منحنية لتقبِّلني وانا افعل ذلك ، فكنت اسحب الدبابيس واضعها على غطاء السرير فيتهدل شعرها ، فاراقبها وهي معتصمة بالسكوت البالغ ، ثم اسحب الدبوسين الاخيرين فينهار شعرها كله ، فتخفض رأسها فاذا بشعرها يحتوينا ، انا وهي ، وكأننا داخل خيمة او خلف شلال .

كان لها شعر جميل الى حد رائع ، فكنت استلقي بعض الاحيان واراقبها وهي تفتله في الضياء المنبعث من الباب المفتوح ، ولقد كان يلتمع حتى في الليل كما يلتمع الماء قبيل الفجر في بعض الاحيان . وكان لها وجه وسيم وجسد فاتن وبشرة ناعمة بهية ايضا . كنا احيانا نستلقي على السرير معا ، فألمس وجنتيها وجبينها وما تحت عينيها وذقنها وحنجرتها بأناملي واقول : « ناعمة مثل اصابع البيانو » ، فتلمس هي ذقني بأصبعها وتقول : « ناعمة مثل ورق الصنفرة* وقاسية جدا على اصابع البيانو ! »

---

* ورق الصنفرة هو المعروف عند العوام بـ «ورق القزاز» ويستعمل لصقل الخشب وغيره.

ـ « أهي خشنة ؟ »

ـ « لا ، يا حبيبي . كنت امزح ليس غير . »

كانت الليالي رائعة ، وكنا نشعر بفيض من السعادة اذا ما وفق احدنا الى ان يمس الآخر . وعلاوة على لحظات البهجة الكبرى كان لدينا كثير من الطرائق الصغيرة للتعبير عن حبنا ، ولقد حاولنا ان ننقل ما يجول في خاطر احدنا الى خاطر الآخر حين نكون في غرفتين مختلفتين . وبدا وكاننا نجحنا في ذلك احيانا . ولكن هذا كان راجعا ، في ارجح الظن ، الى اننا كنا نفكر في الشيء نفسه في آن معا .

وقال كل منا للاخر اننا متزوجان منذ اليوم الاول لمجيئها الى المستشفى ، وكنا نعد الشهور ابتداء من يوم زفافنا . لقد اردت ان اكون متزوجا فعلا ، ولكن كاثرين قالت اننا اذا فعلنا ذلك ابعدوها عن المستشفى ، واننا اذا بدأنا باتخاذ الاجراءات الشكلية فلا بد ان يراقبوها وان يشوش ذلك حياتنا . كان علينا ان نعقد القران وفقا للقانون الايطالي ، وكانت الاجراءات الشكلية فظيعة . كنت راغبا في الزواج الفعلي لاني خشيت ، كلما فكرت في ذلك ، ان ننجب ولدا ، ولكنا خيلنا لنفسينا اننا متزوجان ، ولم نشغل بالنا بذلك كثيرا ، واحسب اني كنت سعيدا بعدم الزواج حقا . واذكر اننا تحدثنا في هذا الموضوع ذات ليلة ، فقالت كاثرين :

ـ « ولكنهم سوف يبعدونني ، أيها الحبيب ! »

ـ « ومن يدرى ، لعلهم ان لا يبعدوك . »

ـ « بلى ، سيفعلون . انهم سوف يرسلونني الى بلادي ، وعندئذ يفرق ما بيننا حتى نهاية الحرب . »

ـ « سوف ازورك في اجازة . »

ـ « انك لن تجد متسعا من الوقت للمجيء الى اسكتلندة والعودة منها خلال الايام المعدودة التي تتألف منها اجازتك . والى هذا ، فانا لن اتركك . واي فائدة تعود علينا من الزواج الآن ؟ نحن متزوجان فعلا . انا لا أستطيع ان اكون متزوجة اكثر مني الآن . »

ـ « لقد اردت ذلك من اجلك انت . »

ـ « أليس هنـــاك شيء اسمه أنا • أنا أنت • لا تجعل مني كينونـــة مستقلة • »

ـ « لقد حسبت ان الفتيات يرغبن دائما في الزواج • »

ـ « اجل ، انهن يرغبن في ذلـــك • ولكني متزوجـة ، يا عزيزي • انـا متزوجة منك • ألستَ تعتبرني زوجة طيبة ؟ »

ـ « انتِ زوجة فاتنة • »

ـ « انت تعلم ، يا حبيبي ، انـه قُدِّر لي قبـــل اليوم ان انتظر عقـــد قراني • »

ـ « لا اريد ان اسمع شيئا عن ذلك • »

ـ « انت تعرف اني لا احب احدا غيرك • ينبغي ان لا تغضب اذا ما احبني رجل آخر • »

ـ « ان ذلك يغضبني • »

ـ « ينبغي ان لا تأخذك الغيرة من رجـــل ميت في حين انك تملك كـل شيء • »

ـ « لا ، ولكني لا اريد ان اسمع شيئا عن ذلك • »

ـ « يا حبيبي المسكين ! وانا اعلم انك عشت مع جميع انواع النساء ولا اجد في ذلك أي بأس • »

ـ « اليس في استطاعتنا ان نتزوج سرا بطريقة او بأخرى ؟ حتى اذا مـــا أصابني شيء او وضعتِ انتِ ولدا ••• »

ـ « ليس ثمة غير طريقتين للزواج : الطريقة الكنسية والطريقة المدنية • نحن متزوجان سرا • ولقد كان خليقا بي ، ايها الحبيب في ان اعلّق اهمية عظمى على ذلك لو كان لي أيما دين • ولكني لا دين لي • »

ـ « لقد قدّمتِ اليّ القديس انطوني • »

ـ « كان ذلك من اجل الحظ • لقد قدّمه اليّ شخص ما • »

ـ « واذن فليس هناك ما يثير قلقك ؟ »

ـ « مجرد التفكير بأني قد افصّل عنك • انت ديني • انت كل ما املك • »

ـ « حسن • ولكني سأتزوجكِ يومَ ترغبين في ذلك • »

ـ « لا تتكلـــم وكأنـــه كان عليك أن تجعـل منـي امرأة شريفة • أنـا

امرأة شريفة جدا . انك لا تستطيع أن تخجل من شيء اذا كنت سعيدا بـه معتزا بامتلاكه . ألست أنت سعيدا ؟ »

ـ « ولكنكِ لن تتركيني مفضلة عليّ شخصا آخر ؟ »

ـ « لا يا حبيبي . انا لن افضل عليك شخصا آخر . اني اتوقع ان تُلم بنا ضروب الاشياء الرهيبة . ولكن في استطاعتك أن تطمئن من هذه الناحية . »

ـ « انا مطمئن . ولكنني أحبك حبا جما ، ولقد احببتِ انتِ شخصا آخر من قبل . »

ـ « وماذا اصابه ؟ »

ـ « لقد مات . »

ـ « أجل ، ولو لم يفعل لما قدّر لي أن اجتمع بك . انا لست خائنة ، ايها الحبيب . ان لي اخطاء كثيرة ، ولكني شديدة الاخلاص . ولسوف تتضايق وشيكا من شدة اخلاصي . »

ـ « يتعيّن عليّ ان ارجع الى الجبهة في وقت قريب جدا . »

ـ « لن نفكر في ذلك حتى تذهب . انت ترى اني سعيدة ، ايها الحبيب ، واننا نقضي وقتا رائعا . انا لم اعرف السعادة منذ عهد بعيد ، وحين التقيت بك كدت اصاب بالجنون . بل لعلي جُننت حقا . اما الآن فنحن سعيدان ، وان كلاً منا ليحب الآخر . لنكن سعيدين ، بكل بساطة . انت سعيد ، أليس كذلك ؟ هل اقوم انا بأي عمل لا تحبه ؟ هل استطيع أن افعل شيئا ما لكي أرضيك ؟ اتحب أن احل شعري ؟ أتحب أن تلعب ؟ »

ـ « نعم ، وتعالي الى السرير . »

ـ « حسن . سوف اذهب وارى المرضى اولا . »

الفصل التاسع عشر

وانقضى الصيف على هذا النحو . ولست اتذكر شيئا كثيرا عن الايام ، باستثناء انها كانت حارة ، وانه كان ثمة انتصارات عسكريـــة كثيرة في الصحف . لقد كنت اتمتع بصحة جيدة جدا ، ولقد شفيت رجلاي في سرعة ، فلم تكد تنقضي فترة قصيرة على اصطناعي للعكازين حتى استغنيت عنهمـا واخذت أمشي على عصا . وبعد ذلك خضعت للمعالجة في مستشفى ماغيور من اجل ثني الركبتين : معالجة ميكانيكية ، انشواء في صندوق من المرايـا مفعم بالاشعة البنفسجية ، وتدليك ، وحمامات . وكنت اذهب الى هناك عند الاصيل ، وبعد ذلك كنت اعرج على المقهى فأشرب كأسا من الخمر واطالـع الصحف . ولم اكن أطوف في المدينة ، ولكني كنت ارغب في العودة الى غرفتي في المستشفى حال خروجي من المقهى . كل ما كنت اطمع فيه هـــو ان ارى كاثرين . وفي ما عدا ذلك ، لم اكن افكر الا في قتل الوقت . وفي معظم الاحوال كنت انام في الاصباح ، وفي ساعات الاصيل ، وفي بعض الاحيان كنت اشهد سباق الخيل ، وعند المساء أمضي لاخضع للمعالجة الميكانيكية . ومرة بعد مرة كنت اعرج على النادي الانجلو اميركي واسترخي في كرسي عميق مفروش بالجلد ، تجاه النافذة ، واطالع المجلات . لقد كان محظرا علينا ان نتنزه معا ، بعد استغنائي عن العكازين ، لانه لم يكن من اللائق ان ترى احدى الممرضات ، غير مصحوبة بوصيفة ما ، مع جريح لا يبدو محتاجا الى رعاية ، وهكذا مـا

كنا نجتمع كثيرا في ساعات الاصيل • ومع ذلك ، فقد كان في استطاعتنا ، احيانا ، ان نغادر المستشفى ونتناول طعام العشاء اذا ما رافقتنا فيرغوسون • كانت مس فان كامبن قد تقبّلت وضعنا كصديقين حميمين لانها كانت تفوز من كاثرين بمقدار كبير من العمل • كانت تعتقد ان كاثرين تنتمي الى اسرة رفيعة جدا ، وهذا ما جعلها تحابي كاثرين آخر الامر • فقد كانت مس فان كامبن تعلّق أهمية كبرى على مسألة الاسْرة ، وكانت هي نفسها تنتسب الى اسرة ممتازة • وكان المستشفى غاصا بالمرضى ايضا ، وهذا ما ابقاهــا مشغولة دائما • ولم يكن الصيف صيفا قائظا ، ولقد كنت اعرف كثيرا مــن الناس في ميلانو ، ولكني كنت شديدة التوق دائما الى غرفتي في المستشفى حالما تؤذن الشمس بالمغيب • وفي الجبهة كانت القوات الايطالية تتقــدم في نجاد الـ « كارسو » ، وكانت قد استولت على « كوك » ، من الناحية الاخرى من « بلافا » ، وشرعوا في الاستيلاء على نجاد بينسيزا • اما الجبهة الغربية فلم تَبْدُ على مثل هــذا الاشراق • لقد تراءى وكأن الحرب سوف تستمـر دهرا طويلا • وكانت الولايات المتحدة قد دخلت الحرب الآن ، بيــداـي اعتقدت اننا نحتاج الى عام كامل لكي نستقدم عددا كبيرا مــن المحاربـين وندرّبهم على القتال • ان السنة التالية سوف تكـون سنة رديئة ، ومــن يدري فقد تكون سنة طيبة • كان الايطاليون قد دفعوا الى المعركة عددا هائلا من الرجال • وما كنت لأفهم كيف يمكن لذلك الوضع ان يستمر • وحتى ولو استولوا على كامل البينسيزا وجبل سان غابرييل فعندئذ تظل في ايدي النمسويين ، وراءهما ، جبال كثيرة • لقد رايتُ تلك الجبال • كانــت جميع الجبال الاكثر ارتفاعا واقعة خلف البينسيزا وسان غابرييــل • وفي نجاد الـ « كارسو » كانوا يتقدمون ، ولكن كان في السفوح ، المجاورة للبحر ، سباخ ومستنقعات • ولقد كان خليقا بنابوليون ان يجلـد النمسويــين في السهول ، ولكنه ما كان ليحاربهم في الجبال ابدا • اغلب الظن انه كان قمينا بأن يدعهم يهبطون ويجلدهم قرب فيرونا • ومن يدري ، لعل الحروب مــا عادت تُكسَب بعد اليوم • لعلّهــا امست تستمر الى الابد • لعلها كانــت حروب مئة عام جديدة • واعدت الجريدة الى موضعها وغـادرت النادي •

وهبطت درجات السلم في احتراس وعدت فصعّدت في ال « فيا مانزوني » ·
وامام « الاوتيل الكبير » التقيت ميبارز العجوز وزوجته يترجّلان من عربة ·
كانا عائدين من سباق الخيل · وكانـت هي امرأة ضخمـة الصدر ترتـدي
ملابس من الساتان الاسود · كانت قصيرة القامـة ، عجوزا ، ذات شاربين
ابيضين ، وكانت تمشي مبسوطة القدمين* متوكئة على عصا ·

ـ « كيف حالك ؟ كيف حالك ؟ »

قالت ذلك وصافحتني ·

ثم قال ميبارز :

ـ « هالو ! »

ـ « كيف كانت حفلة السباق ؟ »

ـ « رائعة · رائعة فعلا · ان ثلاثة من الجياد التي راهنت عليها جـاءت
مجلية · »

وسألتُ ميبارز قائلا :

ـ « وانت · كيف كان حظك ؟ »

ـ « حسن · لقد جاء واحد من الجياد التي راهنت عليها مجليا · »

فقالت السيدة ميبارز :

ـ « انا لا اعرف شيئا عن حاله · انه لا يخبرني البتة · »

فقال ميبارز في لهجة ودية :

ـ « انا بخير · ان عليك ان تغادر المستشفى · »

وفيما كنا نتحدث كان يخيّل اليّ ان ميبارز لم يكن ينظر الي ، او انـه
كان يحسبني رجلا آخر ·

فقلت :

ـ « سوف افعل · »

فقالت السيدة ميبارز :

ـ « لقد جئت الى المستشفى لأراك · ان عندي اشياء لاولادي · انتم جميعا
اولادي · انتم من غير شك اولادي الاعزاء · »

---

* flat - footed

ـ « انهم سوف يكونون سعداء برؤيتك • »

ـ « يا لاولادي الاعزاء ! وانت ايضا ! انت احد اولادي • »

فقلت :

ـ « يتعيَّن عليَّ ان ارجع • »

ـ « ابلغْ حبي جميع اولئك الغلمان الاعزاء • ان عليَّ ان احمل اليهم اشياء كثيرة • ان عندي « مارسالا » و « كاتو » من النوع الفاخر • »

فقلت :

ـ « الى اللقاء • انهم سوف يسعدون برؤيتك الى حد فظيع • »

فقال ميبارز :

ـ « الى اللقاء • تعال الى الـ « غاليريا » • انت تعرف اين مائدتي • انا جميعا نذهب الى هناك كل اصيل • »

وصعَّدت في الشارع • لقد اردت ان اشتري من الـ « كوفا » شيئا اقدمه الى كاثرين • وهكذا اشتريت من الـ « كوفا » علبة من الشوكولا ، وفيما الفتاة تلفها لي مضيت الى المشرب • كان ثمة انكليزيان وبضعة طيارين • فاحتسيت وحدي شيئا من المارتيني ، ودفعت الثمن ، ثم اخذت علبة الشوكولا من المنضدة الخارجية ، ورجعت الى غرفتي في المستشفى • وامام البار الصغير غير البعيد عن الـ « سكالا » كان اناس اعرفهم : نائب قنصل ، وشخصان يدرسان الغناء ، وايتور موريتي وهو ايطالي من سان فرانسسكو يخدم في الجيش الايطالي • واحتسيت معهم كأسا • وكان احد المغنين يدعى رالف سيمونز ، وكان يغني متخذا هذا الاسم الفني : آنريكو ديلكريدو • ولم ادر قط مدى اجادته للغناء ، ولكنه كان دائما على اهبة حدث هائل • كان بدينا ، وكان يبدو ناصل اللون حول الانف وكأنه مصاب بحمَّى القش • كان قد غنَّى في الـ « بيياسينزا » ورجع • كان قد غنَّى « توسكا » ، ولقد كان موفقا في ادائها الى حد رائع •

وقال :

ـ « لا ريب في انك لم تسمعني قط أغني • »

ـ « متى ستغني هنا ؟ »

ـ « سوف اعمل في الـ « سكالا » في الخريف • »

فقال ايتور :

اراهن انهم سوف يقذفونك بالمقاعد الخشبية · هل سمعت كيف قذفوه بالمقاعد الخشبية في مودينا ؟ »

ـ « انها كذبة لعينة · »

ـ « لقد قذفوه بالمقاعد الخشبية · انا كنت هناك · لقد قذفته انا نفسي بستة مقاعد · »

ـ « انت لست غير دجال من فريسكو · »

فقال ايتور :

ـ « هو لا يحسن النطق بالايطالية · وحيثما ذهب قذفوه بالمقاعد · »

فقال الصادح الآخر :

ـ « البياسانتزا من اقذر الصالات في شمال ايطاليا · صدقني اذا قلت لك انها علبة صغيرة يكاد يتعذر على المغني الانشاد فيها · »

كان هذا الصادح يدعى ادغار ساوندرز ، وكـــان اسمه الفني ادواردو جيبوفاني ·

فقال ايتور :

ـ « اتمنى لو اكون هناك لكي اراهم يقذفونك بالمقاعد الخشبية · انت لا تستطيع الغناء بالايطالية · »

فقال ادغار ساوندرز :

ـ « انه احمق · القذف بالمقاعد ، هذا كل ما يقدر على قوله · »

فقال ايتور :

ـ « هذا كل ما يقدرون على فعله عندما تغنيان انتما الاثنان · وبعد ذلك عندما تعودان الى اميركا فسوف تتحدثان عن انتصاراتكما في الـ « سكالا » · انهما لن يتركوكما تنهيان النغمة الاولى في السكالا · »

فقال سيمونز :

ـ « سوف أغني في الـ « سكالا » · سوف أغني « توسكا » في تشرين الاول · »

فقال ايتور لنائب القنصل :

ـ « سوف نذهب الى هناك ، أليس كذلك يا ماك ؟ انهما سيكونان في حاجة الى من يحميهما • »

فقال نائب القنصل :

ـ « لا مانع • »

ووجّه ايتور الخطاب الي فقال :

ـ « سمعت انك سوف تُمنح المدالية الفضية • أي نوع من التقدير سوف تنال ؟ »

ـ « لست ادري • لست ادري أني سأنال وساما • »

ـ « بل ستنال وساما • أوه ، أيها الغلام ، ان فتيات الـ « كوفا » سوف يَجدْنك رائعا عندئذ • سوف يعتقدن كلهن انك قتلتَ مئتي نمسوي واستوليت بنفسك على خندق كامل • صدّقني ، لقد كان علي ان اسعى للحصول على اوسمتي • »

فسأله نائب القنصل :

ـ « كم وساما تحمل ؟ »

فقال سيمونز :

ـ « انه يحمل الاوسمة كلها •انه الفتى الذي تدور رحى الحرب من اجله • »

فقال ايتور :

ـ « لقد نلتُ المدالية البرونزية مرتين ، والمدالية الفضية ثلاث مرات • ولكن لم تصلني حتى الان غير براءة احدى هذه المداليات • »

فسأله سيمونز :

ـ « والبراءات الاخرى ؟

فقال ايتور :

ـ « كان العمل مخفقا • وحين يكون العمل مخفقا فانهم يحتجزون المداليات جميعا • »

ـ « كم مرة جُرحت يا ايتور ؟ »
ـ « ثلاث مرات جراحا خطيرة ٠ انا احمل ثلاثا من اشرطة الجراح ٠ هل تـرى ؟ »

قال ذلك ورفع ردنه ٠ كانت الاشرطة ثلاثة خطوط فضية متوازية علـى خلفية سوداء خيطت الى قماش الردن تحت الكتف بثمانية انشات ٠

فالتفت ايتور الي وقال :

ـ « وانت أيضا تحمل شريطا من مثل هذه الاشرطة ٠ صدقني اذا قلت لك انها رائعة ٠ أنا أفضلها على المداليات ٠ صدقني ، أيها الغلام ، أنك حين تفوز بثلاثة تكون قد فزت بشيء ٠ ان المرء لا يُمنح شريطا منها الا لقاء جرح يبقيه طريح المستشفى ثلاثة اشهر ٠ »

فسأله نائب القنصل :

ـ « أين جُرحت يا ايتور ؟ »

فرفع ايتور ردنه كاشفا عن الندبة الحمراء العميقة الملساء ، وقال .

ـ « هنا ٠ وهنا في رجلي ٠ انا لا استطيع ان اريك هذه لاني اطوّق ساقي بوقاء ، وفي القدم ٠ ان ثمة في قدمي عظما ميتا لا يزال منتنا حتى هذه اللحظة ٠ وكل صباح انتزعُ قطعـــا صغيرة جديدة ، وهو يُنتن دائما على نحـــو موصول ٠ »

فسأله سيمونز :

ـ « بأي شيء جُرحت ؟ »

ـ « قنبلة يدوية ٠ احدى ساحقات البطاطا تلك ٠ لقد اطارت جانبا كاملا من قدمي ٠ انت تعرف ساحقات البطاطا تلك ، أليس كذلك ؟ »

قال ذلك والتفت الي ٠

ـ « طبعا ٠ »

فقال ايتور :

ـ « لقد رأيت ابن الزانية يقذف بها ٠ لقد صرعتني ، وظننت اني قـــد متُ في الحال ، ولكن ساحقات البطاطا اللعينات هذه ليس في جوفها شيء ٠ وقتلت ابنَ الزانية بنار بندقيتي ٠ انا احمل بندقية ،دائما ، لكي لا يدركوا

اني ضابط • »

فسأله سيمونز :

ـ « كيف بدا عندئذ ؟ »

فتابع ايتور كلامه قائلا :

ـ « كانت تلك هي القنبلة الوحيدة التي يملكها • ولست أدري لماذا قذف بها • يخيّل الي انه كان يطمح دائما الى ان يلقي قنبلة من القنابل • • ولعله لم يشهد قط قتالا حقيقيا . لقد قتلتُ ابن الزانية في الحال • »

فسأله سيمونز :

ـ « كيف بدا حين قتلته ؟ »

فقال ايتور :

ـ « يا للجحيم ! ومن أين أعرف ؟ لقد اصبته في بطنه • لقد خشيت أن اخطىء الهدف اذا صوبت النار الى رأسه • »

فسألته :

ـ « منذ متى رقيت الى درجة ضابط ، يا ايتور ؟ »

ـ « منذ سنتين • سوف اصبح رئيسا (كابتن) • منذ متى اصبحت أنت ملازما اول ؟ »

ـ « منذ ثلاث سنوات • »

فقال ايتور :

ـ ليس في امكانك ان تصبح رئيسا (كابتن) لانك لا تعرف اللغة الايطالية معرفة حسنة • انت تستطيع أن تتكلم ، ولكنك لا تحسن القراءة والكتابة • ينبغي أن تنعمَ بثقافة مـا لكي تكون رئيسا • لمـــاذا لا تلتحق بالجيش الاميركي ؟ »

ـ « من الجائز أن افعل • »

ـ « يا الهي • شدَّ ما اتمنى لو استطيع أنا ذلك • كم يبلغ راتب الكابتن ، يا ماك ؟ »

ـ « لست ادري على وجه الضبط • حوالي مئتين وخمسين دولارا ، في ما أظن • »

ـ « يا للمسيح ! ما اكثر الاشياء التي استطيع القيام بها بمئتين وخمسين

دولارا ! من الخير لك أن تسارع الى الالتحاق بالجيش الاميركي ، يا فْرَدْ ولعلك أن تجد وسيلة لادخالي انا أيضا . »

ـ « حسن . »

ـ « انا استطيع ان اقود سرية بالايطالية . وفي ميسوري أن أتعلم كيف أفعل ذلك بالانكليزية ، في سهولة . »

فقال سمونز :

ـ « ولسوف تصبح جنرالا . »

ـ « لا . ان ثقافتي لا تؤهلني لرتبة جنرال . الجنرال يجب أن يعرف اشياء كثيرة الى حد رهيب . أنتم فتية مضحكون . انكم تحسبون أن الحرب دهزلة . أنتم لا تملكون من المخ مقدارا يؤهلكم لان تكونوا عُرَفاء من الدرجة الثانية ! »

فقال سيمونز :

ـ « أحمد الله على أني في غير حاجة الى ذلك . »

ـ « لعلك أن تصبح في حاجة الى ذلك اذا ما عبّأوكم كلكم، انتم المتقاعسين، أوه ، كم أتمنى أن أراكما ، انتما الاثنين ، في شرذمتي . و « ماك » ايضا . سوف اجعلك مرافقي العسكري ، يا ماك . »

فقال ماك :

ـ « أنت فتى عظيم ، يا ايتور . ولكني أخشى أن لا تكون رجلا عسكري الروح . »

فقال ايتور :

ـ « سوف اصبح كولونيلا قبل أن تنتهي الحرب . »

ـ « اذا لم يقتلوك . »

ـ « انهم لن يقتلوني . »

قال ذلك ومسَّ بأبهامه وسبابته النجوم التي على رقبة ثوبه . ثم اضاف :

ـ « أترى ماذا افعل ؟ أننا نلمس نجومنا كلما أشار احد الى الموت في ساحة المعركة . »

فقال ساوندرز وهو ينهض واقفا :

ـ « فلنذهب يا سيم . »

ـ « حسن . »

فقلت :

ـ الى اللقاء . يتعين علي أنا ايضا أن اذهب . » كانت الساعة التي في داخل المشرب تشير الى السادسة الا ربعا . « سيياوو ، ايتور ! »

فقال ايتور :

ـ « سيياوو ، فْرَدْ ! يسعدني جدا انك ستفوز بالمدالية الفضية . »

ـ « لست أعلم أني سأفوز بها . »

ـ « بل انك ستفوز بها من غير شك . يا فرد . لقد سمعت انك سوف تفوز بها من غير شك . »

فقلت :

ـ « حسنا ، الى اللقاء . ابتعد عن المتاعب ، يا ايتور . »

ـ « لا تقلق علي . أنا لا أحتسي الخمر ولا اتسكع . أنا لست عبدا من عبيد الخمر ولا موكّلا ببائعات اللذة اتبعهن حيثما وُجدن . اني أعرف ما هو صالح لي . »

فقلت :

ـ « الى اللقاء ! يسعدني أنك سوف ترقّى الى رتبة كابتن . »

ـ « أنا لست في حاجة الى الانتظار حتى ارقّى . سوف أمنح هذه الرتبة جزاء ما أبليت في الحرب من بلاء حسن . أنت تدري . ثلاثة نجوم مع السيفين المتَصالبيْن والتاج من فوقهما . ذلك أنا ! »

ـ « حظا سعيدا ! »

ـ « حظا سعيدا . متى سترجع الى الجبهة ؟ »

ـ « قريبا جدا . »

ـ « حسنا . سوف أراك هناك . »

ـ « الى اللقاء . واجتنبِ ارتكاب المعاصي . »

وهبطت شارعا خلفيا قادني الى طريق مختصرة انتهت بي الى المستشفى . كان ايتور في الثالثة والعشرين . وكان احد اعمامه قد نشّأه في سان

فرنسسكو ، وكان يزور أباه وأمه في تورينو عندما أعلنت الحرب . وكانت له أخت ارسلت معه الى اميركا يوم ارسل هو بالذات لكي تحيا الى جانب عمها ، وكانت على عتبة التخرج من مدرسة المعلمين والمعلمات تلك السنة . كان من ذلك الصنف من الابطال الذين يسئمون كل من يجتمع بهم . ولم يكن في ميسور كاثرين أن تحتمله .

وقالت :

ــ « ان عندنا ابطالا ايضا . ولكنهم على العموم ، يا حبيبي ، اكثر رصانة . »

ــ « أنا لا أتضايق منه . »

ــ « وأنا ما كنت لاتضايق منه لو لم يكن على هذا الغرور كله ، ولو لم يكن يسئمني ، ويسئمني ، ويسئمني . »

ــ « انه يسئمني أيضا . »

ــ « لطف منك أن تقول هذا ، ايها الحبيب . ولكنك في غير حاجة الى ذلك . انت تستطيع أن تتصوره في الجبهة وانت تعرف أنه ذو غناء ، ولكنه يمثل عندي نوع الفتيان الذي اكرهه . »

ــ « أدري . »

ــ « جميل منك الى حد فظيع أن تدري . وانا أبذل جهدي كي أحبه ، ولكنه فتى رهيب ، رهيب حقا . »

ــ « لقد قال ، هذا الاصيل ، انه سوف يرقّى الى رتبة كابتن . »

فقالت كاثرين :

ــ « أنا سعيدة . لاريب في أن هذا سوف يسره . »

ــ « ألا تتمنين أن ارقّى الى رتبة اجلّ شأنا ؟ »

ــ « لا أيها الحبيب . كل ما أبتغيه أن تنعم برتبة كافية للسماح لنا بالدخول الى مطاعم أفضل . »

ــ « تلك هي ، بالضبط ، الرتبة التي احملها . »

ــ « ان رتبتك رائعة . انا لا اريد لك أية رتبة أضافية . قد تسوّل لك نفسك ذلك . أوه ، أيها الحبيب ، أنا سعيدة جدا بكونك غير مغرور . ولقد كان خليقا بي أن اتزوجك حتى ولو كنت مغرورا ، ولكن مما يوقع السكينة

في نفس المرأة ان يكون زوجها رجلا غير مغرور ٠ »

كنا نتحدث ، في رفق ، على الشرفة ٠ وكان مفروضا في القمر ان يطلع ، ولكن كان ثمة ضباب يغشى المدينة ، فلم يطلع القمر ، وما هي الا لحظة حتى شرع الرذاذ يسقط ، فدخلنا ٠ وفي الخارج تحوّل الضباب الى مطر ، وما هي الا فترة قصيرة حتى هطل المطر غزيرا ، فسمعناه ينقر على السطح نقرا ٠ فنهضتُ ووقفتُ لدى الباب لأرى أيتسرّب المطر الى الداخل أم لا ٠ واذ وجدتُ انه لا يتسرب تركت الباب مفتوحا ٠

وسألتني كاثرين :

ـ « ومن رأيت ايضا ؟ »

ـ « السيد والسيدة مييارز ٠ »

ـ « انهما مخلوقان غريبان ٠ »

ـ « يقولون انه كان في وطنه في اصلاحية المجرمين ٠ وان السلطة اجازت له الخروج من البلاد ليموت ٠ »

ـ « ومنذ ذلك الحين عاش سعيدا في ميلانو ٠ »

ـ « سعيدا ؟ لست ادري الى أي حد ٠ »

ـ « سعيدا الى حد كاف بعد السجن على ما اعتقد ٠ »

ـ « انها سوف تحمل بعض الاشياء الى هنا ٠ »

ـ « انها تحمل اشياء رائعة ٠ هل كنت ولدها العزيز ؟ »

ـ « أحد اولادها ٠ »

فقالت كاثرين :

ـ « أنتم جميعا اولادها الاعزاء ٠ انها تفضل الاولاد الاعزاء ٠ استمع الى المطر ٠ »

ـ « انه يهطل في غزارة ٠ »

ـ « ولسوف تحبني أنت دائما ، أليس كذلك ؟ »

ـ « نعم ٠ »

ـ « ولن يُحدث المطر أي فرق ؟ »

ـ « لا ٠ »

ـ « هذا حسن ٠ لاني خائفة من المطر ٠ »

فقلت :

ـ « لماذا ؟ »

كان النعاس قد غلب علي . وفي الخارج كان المطر يهطل في اطّراد .

ـ « لست أدري ، يا حبيبي . لقد كنت طوال عمري أخشى المطر . »

ـ « أنا أحبه . »

ـ « أنا أحب النزهة اثناء المطر . ولكنه شديد القسوة على الحب . »

ـ « سوف أحبك دائما . »

ـ « سوف أحبك في المطر ، وفي الثلج ، وفي البَرَد و ـ ماذا ايضا ؟ »

ـ « لست ادري . أحسب أني نعسان . »

ـ « امضِ الى النوم ، يا حبيبي ، ولسوف أحبك أيا كان الامر . »

ـ « انتِ لستِ خائفة من المطر حقا ، أ ليس كذلك ؟ »

ـ « ليس حين اكون معك . »

ـ « لماذا تخافين المطر ؟ »

ـ « لست ادري . »

ـ « قولي لي . »

ـ « لا تحملني على ذلك . »

ـ « قولي لي . »

ـ « لا . »

ـ « قولي لي . »

ـ « حسن . أنا أخاف المطر لاني أرى نفسي ، أحيانا ، وقد متُّ وهو يهطل . »

ـ « لا . »

ـ « وفي بعض الاحيان يتراءى لي انك متَّ وهو يهطل . »

ـ « هذا أقرب الى المعقول . »

ـ « لا ، لا ، يا حبيبي • لأن في استطاعتي أن اصونك من الخطر • أنا أعلم أني قادرة على ذلك • ولكن المرء لا يستطيع أن يصون نفسه وينقذها • »

ـ « كفى ، ارجوك • أنا لا اريد أن اراك تتكلمين مثل امرأة أسكتلندية ومثل مجنونة في هذه الليلة لأن ايام لقائنا توشك على الانتهاء • »

ـ « لا • ولكني اسكتلندية ومجنونة • ومع هذا فسوف اكف عن ذلك • انه كله هراء • »

ـ « أجل أنه كله هراء • »

ـ « أنه كله هراء • انه ليس الا هراء • انا لست خائفة من المطر • أنا لست خائفة من المطر • أوه ، أوه ، يا الهي ، اني اتمنى أن أكون غير خائفة • »

كانت تبكي • وواسيتها ، فأقلعت عن البكاء • ولكن المطر استمر يهطل في الخارج •

الفصل العشرون

وذات يوم ذهبنا ، عند الاصيل ، لنشهد سباق الخيل . ولقـــد ذهبت فيرغوسون معنا ايضا ، وكذلك كروويل رودجرز ، وهو الفتى الذي جُرحت عيناه بسبب انفجار القنبلة الصغيرة . وارتدت الفتاتان ملابسهما بعد طعام الغداء ، على حين جلست انا وكروويل رودجرز على السرير في غرفته وطالعنا النتائج التي حققتها الخيل في الحفلات السابقة ونبوءات الصحيفة السباقية . كان رأس كروويل معصوبا ، ولم يكن يبالي كثيرا بهذه السباقات ، ولكنه كان يطالع الصحيفة السباقية على نحو موصول ، ويحرص على متابعة انبائها كلها قتلا للوقت . لقد قال ان الخيل لا تساوي شيئا ، ولكننا لا نملك حق الاختيار . وكان ميبارز العجوز يحبه ويعطيه بعض « المعلومات » الخاصة . وكان ميبارز يكسب في كل شوط تقريبا ، ولكنه يكره اعطاء المعلومات لان ذلك يخفض الاسعار . وكان السباق أبعد ما يكون عن الاستقامة . فالرجال الذين طُردوا من حلبة السباق في كل مكان اقبلوا للتسابق في ايطاليا . وكانت « معلومات » ميبارز جيدة ولكنني كنت أكره أن أسأله لانه كان لا يجيب في بعض الاحيان ، ولانه كان في استطاعتك دائما أن ترى أن اجابته على سؤالك تؤذيه . ولكنه استشعر انه مضطر لاخبارنا لسبب ما ، وكان كرهه لتزويـد كروويل بمعلوماته أقل على كل حال . كانت عينا كروويل قـــد أوذيتا ، وكانت الاصابة التي نزلت بأحداهما خطيرة . وكان ميبارز يشكو بلاء فـي العينين ، ومن أجل ذلك أحبّ كروويل . وكان ميبارز لا يخبر زوجته على

أي الخيول يراهن ، البتة ، وكانت هـي تكسب وتخسر ، تخسر في الكثرة الكبيرة من الاحوال ، وتتحدث طوال الوقت ٠

وانطلقنا نحن الاربعة الى سان سيرو في عربة مكشوفة ٠ كان نهارا رائعا ، ولقد اجتزنا الحديقة العامة ، واتبعنا خط الترام ، ثم غادرنا المدينة حيث كانت الطريق مغبرّة ٠ كان ثمة دارات ذات أسيجة حديدية ، وحدائق غناء واسعة ، وخنادق تجري فيها المياه وبساتين يعلو الغبار اوراق نباتاتهـا الخضراء ٠ كـان في ميسورنا ان ننظر عبر السهل ونـرى البيوت الريفية والمزارع الغنية الخضراء بمجاري الريّ التي تخترقها ، والجبال القائمة الى الشمال ٠ كانت ثمة عربات كثيرة تنطلق الى ميدان السباق ، ولقد أجاز لنا المراقبون الواقفون بالباب أن ندخل من غير بطاقات لاننا كنا نرتدي البذلة العسكرية ٠ وترجلنا من العربة واشترينا نسخا من برنامج الحفلة ، ومشينا عبر الباحة الداخلية ، ثـم عبر حلبة السباق الملساء الكثيفة الى المرتـع (البادوك) ٠ كانت المدرجات خشبية عتيقة ، وكانت أكشاك المراهنة تحت المدرجات ، وفي صف ممتد قرب الاصاطب * ٠ وكان يحتشد على طول سياج الباحة الداخلية جمع من الجند غفير ٠ وكان المرتع مكتظا بالناس ، وكانوا يطوفون بالخيل في ساحة مستديرة قائمة تحت الاشجار ، وراء المدرج الكبير ، لقد رأينا أناسا نعرفهم ، وجئنا بكرسيين لفيرغوسون وكاثرين ، وشرعنا نتأمل الجياد ٠

لقد دارت ، واحدا أثر واحد ، مطأطئة رؤوسها ، يقود كلا منها سائسه ٠ وكان أحد الجياد ذا لون أسود ضارب الى الارجواني ، ولقد أقسم كروويـل أغلظ الايمان أن القوم صبغوه بذلك اللون صبغا ٠ وراقبناه ، فظهر لنا أن كلام كروويل جائز ٠ وكان ذلك الجواد قد خرج في اللحظة التي أعلن فيهـا الجرس ضرورة امتطاء الفرسان صهوات الجياد ٠ وبحثنا عنه في البرنامـج مسترشدين بالرقم الذي على ذراع سائسه ، فاذا بنا نقرأ أنه جواد مخصيّ يدعى جاپالاك ٠ وكان الشوط خاصا بالجياد التي لم تربح قط جائزة مقدارها

---

* جمع اصطبل ٠

الف لير او يزيد · وكانت كاثرين واثقة ان لونه قد غُيِّر · وقالت فيرغوسون انها لا تستطيع أن تقطع برأي · اما أنا فاعتقدت انه يبدو مُريبا · واتفقنا كلنا على أن من واجبنا أن نراهن عليه ، ففعلنا بمئة لير · وكانت لوائح الارباح المحتملة تُظهر انه سوف يعود على المراهنين بربح تبلغ نسبته ٣٥ الى ١ · ومضى كroويل واشترى البطاقات ، فيما كنا نحن نراقب الفرسان يقومون بدورة أخيرة ثم يتجهون ، تحت الاشجار ، الى الحلْبة ، ويَجْرون في تؤدة نحو المنعطف الذي ستنطلق منه الجياد ·

وارتقينا المدرَّج لنراقب السباق · ولم يكن عندهم في سان سيرو حاجز متمغّط آنذاك ، فما كان من معطي الاشارة الا أن صفَّ جميع الجياد ، التي بدت في موقفها من الحلبة صغيرة جدا ، ثم اذِن لها بالانطلاق بضربة من سوطه الطويل · ومرَّت الجياد أمامنا يتقدمها الجواد الاسود بمرحلة حسنة ، وعند المنعطف كانت الشقة بينه وبين سائر الجياد بعيدة · وتابعتُ الجياد بنظارتيَّ المقرِّبتين وهي تندفع في الجانب البعيد ، فرأيتُ فارس الجواد الاسود يناضل لكبح جماحه ، ولكنه لم يستطع كبحه ، حتى اذا دارت الجياد حول المنعطف واندفعت في خط مستقيم كان الجواد الاسود يتقدمها كلها بخمسة عشر طولا · واستمر في عَدْوه الخاطف حتى استدار حول المنعطف بعد أن بلغ الغاية ·

فقالت كاثرين :

« أليس هذا رائعا ؟ سوف نكسب أكثر من ثلاثة آلاف لير · ينبغي أن يكون جوادا مدهشا · »

فقال كroويل :

ـ « أرجو أن لا ينحلَّ لونه قبل أن يدفعوا الينا ما كسبناه · »

فقالت كاثرين :

ـ « لقد كان جوادا بديعا حقا ، وأني لأتساءل هل راهن مستر مييارز عليه ؟ »

فرفعت صوتي مخاطبا مييارز :

ـ « هل راهنت على الجواد الفائز ؟ »

فهزّ برأسه أن نعم ·

فقالت مسز ميبارز :

ـ « أما أنا فلم أراهن عليه · على أي جواد راهنتم ، يا اولادي ؟ »

ـ « على جابالاك · »

ـ « فعلا ؟ لقد اعطى ليرُهُ خمسة وثلاثين ليرا · »

ـ « لقد احببنا لونه · »

ـ « انا لماحبه · لقد بدا لي انه مرهَق لا روح فيه · لقد نصحوني بأن لا اراهن عليه · »

فقال ميبارز :

ـ « انه لن يعود على المراهنين بربح كثير · »

فقلت :

ـ « لقد اشارت اللوائح الى أن كل لير سوف يعود على حاملي الاوراق بخمسة وثلاثين ليرا · »

فقال ميبارز :

ـ « انه لن يعود عليهم بربح وفير · لقد راهنوا عليه ، في الدقيقة الاخيرة ، بكثير من المال · »

ـ « من هم هؤلاء ؟ »

ـ « كيمبتون والغلمان . سوف ترى · ان اللير الواحد لن يعود على المراهنين بليرين اثنين · »

فقالت كاثرين :

ـ « واذن فلن نفوز بثلاثة آلاف لير · انا لا احب هذه السباقات الملتوية الفاسدة ! »

ـ « سوف نفوز بمئتي لير · »

ـ هذا مبلغ تافه · انه لن يعود علينا بفائدة ما · لقد حسبتُ اننا سوف نفوز بثلاثة آلاف · »

فقالت فيرغوسون :

ـ « هذا وضع ملتوٍ مثير للاشمئزاز · »

فقالت كاثرين :

— « طبعا ، لو لم يكن الوضع ملتويا لما راهنّا على ذلك الجواد البتة . ولكني مع ذلك كان خليقا بي ان احب الثلاثة آلاف لير . »

فما كان من كروويل الا أن قال :

— « فلننزل ونشرب كأسا وبعد ذلك نرى كم سيدفعون . »

وهبطنا المدرّج ، وقصدنا الى حيث نصبوا الارقام ، وقُرع الجرس ايذانا بالدفع ، ووضعوا الرقم ١٨،٥٠ امام جابالاك ، مجلياً . ومعنى ذلك ان اللير الواحد قصّر عن اعطاء المراهنين حتى لير يْن اثنين .

ومضينا الى المشرب ، تحت المدرّج الكبير ، وشربنا كأسا من الويسكي الممزوجة بالصودا . وهناك وجدنا شخصين ايطاليين نعرفهما ، وماك آدمز نائب القنصل ، فرافقونا عندما رجعنا الى حيث كانت كاثرين وفيرغوسون تنتظران . كان الايطاليان بالغَيْ التهذيب ، ولقد تحدّث ماك آدمز الى كاثرين عندما هبطنا لنراهن على جياد جديدة . كان مستر ميبارز واقفا قرب كشك الرهان التبادلي .

وقلت لكروويل :

— « أسأله عن أي جواد راهنَ ؟ »

فسأله كروويل :

— « على أي جواد راهنت ، يا مستر ميبارز ؟ »

فأخرج ميبارز برنامج السباق وأشار بقلمه الرصاصي الى رقم خمسة .

فقال له كروويل :

— « هل يزعجك أن نراهن عليه أيضا ؟ »

— « بادر الى ذلك . بادر الى ذلك ، ولكن لا تخبر زوجتي أني دللْتك عليه . »

فسألتُه « هل ترغب في كأس ؟ »

— « لا ، شكرا . أنا لا أحتسي الخمر أبدا . »

وراهنّا بمئة لير على الجواد رقم خمسة مجلياً ، وبمئة لير عليه مصلّيا ، ثم شربنا كأسا أخرى من الويسكي الممزوجة بالصودا . كنت أستشعر نشاطا بالغا . وتلقّفنا ايطاليَيْن اضافيين ، تناول كل منهما كأسا معنا ، ورجعنا الى الفتاتين . وكان هذان الايطاليان بالغي التهذيب أيضا ، وقد ضارعا في

ذلك الرجلين الايطاليين اللذين تلقفناهما من قبل . وما هي الا لحظة حتى لم يعد في ميسور أحد أن يقعد . وقدّمتُ الاوراق الى كاثرين .

ـ « على أي جواد راهنتم ؟ »

ـ لست ادري . لقد اختاره لنا مستر مييارز . »

ـ « ألا تعرف أسم الجواد ؟ »

ـ « لا . في استطاعتك أن تجديه في البرنامج . رقم خمسة على ما أظن . »

فقالت :

ـ « أن لك ايمانا مؤثرا . »

وكسب رقم خمسة السباق ، ولكنه لم يعد على المراهنين بشيء . واستبدّ الغضب بمييارز .

وقـــال :

ـ « ان عليك أن تدفع مئتي لير لكي تربح عشرين . عشرة ليرات من اجل أثني عشر . هذا شيء لا يستحق العناء . لقد خسرت زوجتي عشرين ليرا . »

فقالت كاثرين لي :

ـ « سوف أذهب معك . »

ونهض الايطاليون . وهبطنا المدرج ، وتقدمنا نحو المرتع (البادوك) .

وسألتني كاثرين :

ـ « هل يعجبك هذا ؟ »

ـ « نعم ، يخيّل الي ذلك . »

فقالت :

ـ « كل شيء على ما يرام ، في ما أحسب . ولكني ، أيها الحبيب ، لا احتمل أن أرى كل هؤلاء الناس . »

ـ « نحن لا نرى كثيرا من الناس . »

ـ « لا . ولكـن الزوجين مييارز هذين وذلـك الرجل المصرفيّ وزوجتـه وبناتـه ... »

فقلت :

ـ « انه يدفع حوالاتي حالَ اطلاعه عليها . »

ـ « أجل ، ولكن شخصا آخر سوف يفعل ذلك اذا أحجم هو عنه . لقـد

كان هؤلاء الفتية الاربعة الاخيرون فظيعين • »

ـ « في أستطاعتنا أن نبقى هنا ونراقب السباق من وراء الحاجز • »

ـ « ذلك شيء رائع • ولنراهن ، يا حبيبي ، على جواد لم نسمع به قط ، جواد لن يراهن عليه مستر ميبارز • »

ـ « حسن • »

وراهنّا على جواد يدعى « لايت فور مي » Light for me فجاء رابعا بين جياد خمسة • واتكأنا على الحاجز ، وراقبنا الجياد وهي تنطلق ، مُقَعْقعة بحوافرها ، ورأينا الجبال في المدى البعيد ، وميلانو وراء الاشجار والحقول •

ـ « أنا أستشعر الان أني أبهج نفسا من ذي قبل • » كذلك قالت كاثرين • كانت الجياد تنقلب على اعقابها ، من خلال الباب ، ندية بالعرق المتصبب من اجسادها ، وكان الفرسان يهدّئون من هياجها ، ويتقدمون بها نحو الاشجار حيث ترجّلوا عنها •

ـ « ألا ترغب في كأس ؟ في استطاعتنا أن نشرب ههنا شيئا واز نراقب الجياد في وقت واحد • »

فقلت :

ـ « حسن • سوف آتي بكأسين • »

فقالت كاثرين :

ـ « لا • النادل سوف يأتي بهما • »

ورفعت يدها ، فأقبل النادل من الـ « باغو دا بار » المجاور للاصاطب ، وجلسنا الى مائدة حديدية مستديرة •

ـ « ألا تستمتع بالشراب ، أكثر ، حين نكون وحدنا ؟ »

فقلت :

ـ « نعم • »

ـ « لقد شعرت بوحشة بالغة عندما كنا جميعا هناك • »

فقلت :

ـ « يلوح لي أن هذا المكان عظيم • »

ـ « نعم • وانه لسباق" رائع حقا • »

ـ « انه جميل • »

ـ « لا تَدَعني افسد عليك متعتك ، يا حبيبي · سوف أرجع في أيــة لحظة تشاء · »

فقلـــت :

ـ « لا · سوف نبقى هنا ونحتسي كأسينا · ثم نهبط حتى الخندق المائي لنشهد سباق الحواجز · »

فقالـــت :

ـ « أنت لطيف معي الى حد فظيع · »

وبعد ان سلخنا فترة على انفراد نازعتنا النفس الى رؤية الاخرين مـن جديد · لقد قضينا وقتا طيبا ·

الفصل الحادى والعشرون

في أيلول (سبتمبر) أقبلت أولى الليالي الباردة ، ثم اعتدل الجو في النهارات ، وبدأت الاوراق في الحدائق العامة تصفر ، وادركنا ان الصيف قد انقضى . كان القتال فى الجبهة يسير على نحو سيء جدا ، وكانوا قد عجزوا عن احتلال سان غابرييل . وكان القتال من أجل الاستيلاء على نجد بينسيزا قد انتهى ، وحوالي منتصف الشهر كان القتال من اجل سان غابرييل قد اوشك على الانتهاء أيضا . انهم لم يستطيعوا احتلاله . وكان ايتور قد رجع الى الجبهة ، وكانت الجياد قد ارسلت الى رومة ، ولم يعد ثمة حفلات سباق . وكان كroويل قد ذهب الى رومة أيضا تمهيدا لاعادته الى أميركا . وقامت المظاهرات ضد الحرب مرتين في المدينة ، أما في تورين فكانت المظاهرات خطيرة جدا . وفي النادي أخبرني مايجور بريطاني أن الايطاليين خسروا مئة وخمسين الف رجل في نجد بينسيزا وفي سان غابرييل . وقال انهم خسروا ، بالاضافة الى ذلك ، اربعين ألفا في ال « كارسو » . لقد شربنا معا ، ولقد استرسل في الحديث . قال ان القتال هناك قد انتهى بقدر ما يتعلق الامر بهذا العام ، وأن الايطاليين قد نهشوا أكثر مما يستطيعون أن يمضغوا . وقال ان الهجوم في الفلاندر على وشك الاخفاق . وأذا ما خسر الحلفاء عددا من الرجال موازيا للذي خسروه هذا الخريف فعندئذ يهلكون بعد عام واحد . لقد قال ان الهلاك قد حل بنا كلنا ، ولكننا نظل في حال لا بأس بها ما دمنا نجهل ذلك . لقد هلكنا جميعا . ولكن المهم أن لا نتبيّن

هذه الحقيقة · وكانت الدولة التي تدرك هذا ، بعد سائر الدول ، هي القمينة بأن تكسب الحرب · واحتسينا كأسا اخرى · هل كنت أنتسب الى أركان حرب ما ؟ لا · أما هو فكان · كانت كلها عبثا ولعبا · ولقد كنا وحدنا في النادي ، جالسين على احدى الارائك الجلدية الكبيرة · وكان حذاؤه العسكري ذو الجلد الداكن مصقولا صقلا حسنا · كان حذاء عسكريا جميلا · لقد قال انها كانت كلها عبثا ولعبا · انهم لا يفكرون الا بالفرق وما تملكه الدولة من القوى البشرية · وهم يتشاحنون حول الفرق ، حتى اذا فازوا بها عملوا على ذبحها ذبحا · كان الهلاك قد حلَّ بهم جميعا · وكان الالمان يكسبون الانتصارات · وحق الرب انهم لجنود · لقد كان الهوني القديم جنديا · ولكن الهلاك قد المَّ بهم أيضا · لقد المَّ بنا الهلاك جميعا · وسألته عن الروس · فقال ان الهلاك قد اصابهم منذ حين · ولسوف أرى وشيكا انهم قد هلكوا · والنمساويون أيضا قد ألم بهم الهلاك وهم لن يستطيعوا الخلاص من هذه الورطة الا بمعونة بعض الفرق الهونية · * هل كان يعتقد أنهم سيشنون هجوما في هذا الخريف ؟ طبعا ، انهم سيفعلون · وكان الهلاك قد نزل بالايطاليين · كل امرىء كان يعرف هذه الواقعة · ان الهون القدماء سوف يهبطون من خلال الترنتينو ويقطعون السكة الحديدية عند فيسانتزا وعندئذ ماذا يفعل الايطاليون ؟ فقلت : لقد جربوا ذلك عام ١٦ · فقال : ليس مع الالمان · فقلت : بلى · فقال : ولكنهم لن يفعلوا ذلك في أرجح الظن · الامر بسيط أكثر مما ينبغي · انهم سوف يحاولون شيئا معقدا ثم يُهزمون على نحو ملوكي · وقلت : يتعيَّن علي ان اذهب · يتعيَّن علي أن أرجع الى المستشفى · فقال : الى اللقاء · ثم أضاف في ابتهاج : أتمنى لك حظا سعيدا ! كانت ثمة مغايرة كبيرة بين تشاؤمه العالمي ومرحه الشخصي ·

وعرَّجتُ على مزين ، فحلقت لحيتي ، وانقلبت الى غرفتي في المستشفى · كانت رجلي في حال حسنة ما كنت أطمع في مثلها · وكنت قد ذهبت قبل ثلاثة ايام لفحصها · وكان علي أن أخضع لبعض المعالجات قبل أن أقلع عن

---

* المراد بالفرق الهونية الفرق الالمانية · (المعرب)

التردد الى مستشفى داغيور ، فمشيت في محاذاة الرصيف وانا أبذل غاية الجهد لكي لا أعرُج • كان تحت القناطر رجل عجوز يحمل اوراقا سوداء يرسم عليها بمقصه صورا من النوع المعروف بـ « السيلوويت » •• ووقفت اراقبه • كانت فتاتان قد اتخذتا وضعا ملائما للتصوير ، ولقد قصَّ صورتيهما المظلَّلتين (سيلوويت) معا مُعملا مقصّه في سرعة بالغة ، ناظرا اليهما ورأسه ممالٌ الى جانب • كانت الفتاتان تضحكان • وأراني الصورتين المظللتين قبل أن يلصقهما على ورق ابيض ويقدّمهما الى الفتاتين •

وقال :

ـ « انهما جميلتان • ما رأيك في أن أصنع لك صورة مماثلة ، ايها الملازم ؟ »

ومضت الفتاتان وهما تتأملان صورتيهما المظللتين وتضحكان • كانتا فتاتين وسيمتين • وكانت احداهما تعمل في الحانة القائمة تجاه المستشفى •

فقلت :

ـ « حسن • »

ـ « ارفع قبعتك عن رأسك • »

ـ « لا • صوّرني وهي على رأسي • »

فقال الرجل العجوز :

ـ « انها لن تكون جميلة جدا • »

ثم اشرق وجهه وأضاف :

ـ « ولكنها ستكون اكثر عسكرية • »

وقصّ الورقة السوداء ، ثم فصل ما بين الكثافتين ، وألصق الصورة على لوح من الورق المقوّى وقدّمها الي •

ـ « كم ؟ »

فلوّح بيده قائلا :

ـ « لا شيء على الاطلاق • لقد أحببت أن اقدّمها اليك هدية • »

وقدمت اليه بعض القطع النحاسية قائلا :

ـ « ارجوك • لا تحرمني هذه المتعة • »

ـ « لا • لقد صنعتُ لك تلك الصورة لمجرّد المتعة ليس غير • اعطها لفتاتك • »

ـ « شكرا جزيلا • والى اللقاء القريب • »

ـ « الى اللقاء • »

ومضيت الى المستشفى • كان ثمة بعض الرسائل : رسالة رسمية ورسائل أخرى • لقد مُنحت اجازة نقاهة تنسحب على ثلاثة اسابيع ، أرجع بعد انقضائها الى الجبهة • وأعدت تلاوة الرسالة في عناية • حسنا ، ذلك كان مضمونها • وبدأت الاجازة في الرابع من أكتوبر عندما أتممت برنامج المعالجة • أن ثلاثة اسابيع تساوي واحدا وعشرين يوما • يعني أن الاجازة سوف تنقضي في الخامس والعشرين من اكتوبر • وأعلمت أدارة المستشفى أني لن أعود لتناول العشاء ، ومضيت الى المطعم الواقع غير بعيد عن المستشفى ، لكي أتعشى • وقرأتُ الرسائل التي وردتني والـ « كوريير ديلا سيرّا » ، على المائدة • كانت ثمة رسالة من جدي تنطوي على انباء عائلية ، وتشجيع وطنيّ ، وشيك بمئتي دولار ، وبعض قصاصات من الصحف • وكانت هناك ايضا رسالة باردة من كاهن زمرتنا ، ورسالة من صديق طيّار يعمل في سلاح الجو الفرنسي فهو يتحدث عن اعمال الفرقة التي كان عضوا فيها ، ومذكرة من رينالدي يسألني فيها الى متى سأظل مختبئا في ميلانو ، وما هي الاخبار كاملة • لقد رجاني أن احمل اليه بعض اسطوانات الفونوغراف مرسلا الي بيانا بها • وشربت زجاجة صغيرة من الشيبانتي مع الطعام ، ثم تناولت بعد ذلك فنجانا من القهوة وكأسا من الكونياك • وأنهيت تلاوة الصحيفة ووضعت رسائلي في جيبي ، وتركت الصحيفة على المائدة مع البقشيش وخرجت • وفي غرفتي في المستشفى نزعت ثيابي ، وارتديت بيجامة ومبذلا (روب دو شامبر) ، واسدلت الستائر على الباب المؤدي الى الشرفة ، وقعدت في سريري وانشأت اقرأ في صحف بوسطن التي كانت السيدة ميارز قد تركتها لاولادها في المستشفى • كان فريق « شيكاغو هوايت سوكس » قد ربح بطولة « العصبة الاميركية » ، وكان فريق « عمالقة نيويورك » يتقدم الجميع في « العصبة الوطنية » • وكان بايب روث « قاذفا » يلعب مع فريق بوسطن • كانت الصحف مسئمة ، وكانت الانباء محلية

عتيقة ، وكانت اخبار الحرب كلها قديمة . أما الانباء الاميركية فلم تكن تتحدث الا عن معسكرات التدريب . وكنت سعيدا لعدم وجودي في معسكر تدريب . وكانت اخبار لعبة البايسبول هي كل ما استطعت ان أقرأه ، وهذه الاخبار نفسها لم تثر في ذات نفسي اي شوق . كان من المستحيل علي ان اقرأ مجموعة الصحف هذه كلها في شوق . وكانت قد امست عتيقة بعض الشيء ، ولكني سرّحت النظر فيها فترة قصيرة ، وتساءلت هل دخلت اميركا الحرب فعلا ، وما اذا كان ذلك سيحملها على تعطيل الاتحادات الرياضية الكبرى . أغلب الظن انها لن تفعل . كانت سباقات الخيل لا تزال تُجرى في ميلانو وقد انتهت الحرب الى وضع ليس في الامكان ان تنتهي الى اسوأ منه . وكانوا قد عطلوا سباقات الخيل في فرنسا ومن هناك بالذات أقبل جوادنا « جابالاك » . ولم يكن من المنتظر ان تبدأ كاترين خدمتها الليلة الا في الساعة التاسعة . وسمعت وقع قدميها عندما مضت لمباشرة خدمتها هذه ، ورأيتها مرة تجتاز الرواق . لقد قصدت الى بضع غرف اخرى ، واخيرا وفدت على غرفتي .

وقالت :

– « لقد تأخرتُ عليك ، يا حبيبي . كانت لدي شواغل كثيرة . كيف حالك ؟ »

وحدّثتها عن الاوراق وعن الاجازة .

فقالت :

– « هذا رائع . الى أين تريد ان تذهب ؟

– « لن اذهب الى أي مكان . اريد ان ابقى هنا . »

– « هذه حماقة . اختر مكانا تذهب اليه وعندئذ اذهب معك . »

– « وكيف تعتزمين ان تتدبري ذلك ؟ »

– « لست ادري . ولكني سأجد الوسيلة . »

– « انت رائعة الى حد بعيد . »

– « لا ، لست رائعة . ولكن الحياة ليست صعبة القياد حين لا يكون لديك ما تخسره . »

– « ماذا تعنين ؟ »

ـ « لا شيء • كنت افكر فقط الى أي حد تبدو صغيرة تلك العقبات التي كانت في وقت من الاوقات ضخمة جدا • »

ـ « يخيّل الي انه سيكون من العسير عليك أن تتدبري الامر • »

ـ « لا ، لا ، يا حبيبي • اني عند الحاجة مستعدة لان اقدم استقالتي ، والسلام • ولكن المسألة لن تصل الى هذا الحد • »

ـ « الى أين يجب ان نذهب ؟ »

ـ « لا فرق عندي • الى اي مكان تريده انت • الى أي مكان لا نعرف فيه احدا من الناس • »

ـ « اليس من فرق عندك حقا ؟ »

ـ « مطلقا • سوف احب أي مكان نذهب اليه • »

لقد بدت قلقة متوترة الاعصاب •

ـ « ما بالك ، يا كاثرين ؟ »

ـ « لا شيء • لا شيء على الاطلاق • »

ـ « بلى ، ان ثمة شيئا • »

ـ « لا ، لا شيء • لا شيء فعلا • »

ـ « انا اعرف ان هناك شيئا • اخبريني ، يا حبيبتي • في استطاعتك ان تخبريني • »

ـ « ليس ثمة شيء • »

ـ « اخبريني • »

ـ « لست ارغب في ذلك • انا اخشى ان اعكر صفو سعادتك او أن أثير قلقك • »

ـ « لن يصيبني شيء من ذلك ان لم يكن فيه ما يقلقك انت • »

ـ « لست اريد ان افضي بذلك اليك • »

ـ « بلى • »

ـ « اهو حتم علي ؟ »

ـ « انا حامل ، يا حبيبي • منذ ثلاثة اشهر تقريبا • ان هذا لم يقلقك ، اليس كذلك ؟ ارجوك ، ان لا تقلق • ليس في هذا ما يوجب قلقك • »

ـ « نعم • »

ـ « حسن . »

ـ « فعلا ؟ »

ـ « من غير شك . »

ـ « لقد فعلتُ كل شيء . لقد تناولتُ كل شيء ، ولكن عبثا . »

ـ « انا لست قلقا . »

ـ « لم يكن في ميسوري ان اجتنب ذلك ، يا حبيبي ، ولم اقلق من جراء ذلك . ينبغي ان لا تقلق او تحزن . »

ـ « انا قلق عليك ليس غير . »

ـ « ذلك هو . ذلك ما لا ينبغي لـك ان تفعله . ان النسـاء يحملن كل يوم . كل امرأة تحمل وتنجب اولادا . هذه مسألة طبيعية . »

ـ « انت رائعة الى حد بعيد . »

ـ « لا ، لستُ كذلك . ولكـن ينبغي ان لا تبالي ، يـا حبيبي . سوف احاول ان لا اورثك ايما بلاء . انا اعلم اني اورثتك بلاء الان ، ولكن ألم اكن فتاة طيبة حتى هذه اللحظـة ؟ انت لم تعرف ذلـك قط من قبـــل ، اليس كذلك ؟ »

ـ « لا . »

ـ « سوف يكون الامر كله هكذا . كل ما عليك ان تفعله هو ان لا تقلق . في استطاعتي ان ارى امارات القلق على محياك . اقلع عن هذا . ما رأيك في كأس من الخمر ، ايها الحبيب ؟ انا اعرف ان كأس الخمر قادرة دائما على ادخال البهجة الى فؤادك . »

ـ « لا . انا أحسُ اني مبتهج . انك رائعة الى حد بعيد . »

ـ « لا لستُ كذلك . سوف أتدبر الامر لكـي نذهب معـا الى أي مكان تختار الذهاب اليه . ان الجو سوف يكون رائعا في تشرين الاول (اكتوبر) . ولست اشك في انا سوف نقضي وقتا طيبا ، ايها الحبيب ، ولسوف اكتب اليك كل يوم بعد ان تمضي الى الجبهة . »

ـ « أين ستكونين ؟ »

ـ « لست ادري حتى الان . ولكن في مكان ما ، في مكان رائع ، سوف اهتم بهذا كله . »

وران علينـا الهدوء فترة ولم ننطق بكلمـة . كانت كاثريـن قاعدة على

السرير ، وكنت انظر اليها ، ولكن أيا منا لم يلمس الاخر · كنا منفصلين مثل شخصين استبدّ بهما الارتباك لان ثالثـا دخل عليهما الغرفـة فجأة · وبسطتْ يدها وامسكت يدي ·

– « انت لست غاضبا ، اليس كذلك يا حبيبي ؟ »

– « لا · »

– « ولا تشعر انك قد وقعت في شرَك ؟ »

– « ربما قليلا · ولكن ليس من جانبكِ انت · »

– « انا لم اقصد من جانبي · ينبغي ان لا تكون ابله · لقد عنيتُ مجرد الوقوع في الشرك · »

– « ان المرء ليشعر دائما انه قد وقع في الشرك ، بيولوجياً · »

ولم تتحرك ، ولم تسحب يدها ، ولكني شعرت انها قد ذهبت الى بعيد ، الى بعيد جدا ·

– « ان « دائما » ليست لفظة لطيفة · »

– « آسف · »

– « لا بأس · ولكنك ترى اني لم ارزق قط ولدا من قبل ، بل لم احب قط احدا من قبل · ولقد بذلت غاية جهدي لكي أكون وفق ما تشتهي وبعد هذا كله تقول « دائما » ·

فاقترحت :

– « انا على استعداد لان اقطع لساني ! »

– « اوه ، يا حبيبي ! » قالت ذلك ، ورجعت من المكان النائي الذي كانت قد ذهبت اليه · « يجب ان لا تؤاخذني · » والتقينـا كرة اخرى ، وزال الارتباك كله · « نحن في الحقيقة شخص واحد ، وليس ينبغي لنا أن نسيء الفهم عمدا · »

– « ولكن الناس يفعلون · انهم يتحابون ثم يسيء أحدهم فهم الاخر عمدا ، ويتشاجرون ، وفجأة لا يعودون شخصا واحدا · »

– « اننا لن نتشاجر · »

– « ليس ينبغي لنا ان نفعل · لاننا وحدنا نحن الاثنين وفي العالم يوجد سائر الناس · فاذا ما شجر بيننا شيء هلكنـا ، واستردّنـا الناس مـن

جديد • »

فقلت :

ـ « انهم لن يستردونا • لانك بالغة الشجاعة ، وليس يصيب الشجعان شيء ابدا • »

ـ « انهم يموتون طبعا • »

ـ « نعم ، ولكن مرة واحدة • »

ـ « لست ادري • من قال ذلك ؟

ـ « الجبان يموت الف ميتة ، ولكن الشجاع لا يموت الا ميتة واحدة • »

ـ « طبعا • من قال ذلك ؟ »

ـ « لست ادري • » .

وقالت :

ـ « لعل قائل هذا الكلام رجل جبان • لقد عرف اشياء كثيرة عن الجبناء، ولكنه لم يعرف شيئا عن الشجعان • ان الشجاع قد يموت الفيَّ ميتة اذا كان ذكيا • كل ما في الامر انه لا يتحدث عن ذلك البتة • »

ـ « لست ادري • ان من العسير على المرء ان ينفذ الى عقل الشجاع . »

ـ « أجل • ذلك يفسر لك كيف يظلّون هكذا • »

ـ « انتِ ثقة في الموضوع • »

ـ « أصبت ، يا حبيبي • اني استحق هذه الصفة • »

ـ « انتِ شجاعة • »

فقالت :

ـ « لا • ولكني اتمنى لو أكون • »

فقلت :

ـ « أما انا فلا اتمنى ذلك • انا اعرف واقعي • لقد خبرت الحياة خبرة طويلة ساعدتني على الفوز بهذه المعرفة • انا اشبه شيء بلاعب بايسبول يسجّل بضرباته مئتين وثلاثين ويعلم انه لا يُحسن خيرا من ذلك • »

ـ « وما هو لاعب البايسبول الذي يسجل مئتين وثلاثين ؟ ذلــك شيء مثير الى حد فظيع • »

ـ « لا ، على الاطلاق • ان هذا يعني أنه لاعب بايسبول متوسط • »

فوخزتني قائلة :

ـ « ولكنه لاعب على كل حال • »

فقلــت :

ـ « أعتقد اننا كلينا مغروران • ولكنكِ أنتِ شجاعة • »

ـ « لا • ولكني أتمنى لو أكون • »

فقلت :

ـ « كلانا شجاع • وأنا أكون بالغ الشجاعة حين أشرب كأسا • »

فقالت كاثرين :

ـ « نحن رائعان • »

ونهضت الى الخزانة ، وجاءتني بزجاجة الكونياك وبكأس ، وقالت :

ـ « أشرب كأسا ، يا حبيبي • لقد كنت لطيفا الى حد بعيد • »

ـ « لا • أنا لا أشعر بالحاجة الى ذلك • »

ـ « خذ واحدة • »

ـ « حسن • »

فملأتُ ثلث الكوب بالكونياك واجترعتهُ دفعة واحدة •

فقالت :

ـ « لقد كانت هذه جرعة كبيرة جدا • أنا أعرف أن البراندي جُعلــت للابطال ، ولكن عليك أن لا تغالي في ذلك • »

ـ « أين سنسكن بعد الحرب ؟ »

فقلت :

ـ « في مأوى للعجزة ، في أغلب الظن • فمنذ ثلاث سنوات وأنا أتطلع ، على نحو صبياني متطرف ، الى انتهاء الحرب في عيد الميلاد • أما ألان فأنا لا أتوقع أنتهاءها ألا بعد أن يصبح ابننا ضابطا في البحرية • »

ـ « لعله أن يصبح جنرالا • »

ـ « أذا قدّر لهذه الحرب أن تصبح حرب « مئة عام » اخرى فسوف يكون

لديه متسع من الوقت ليجرب الخدمة في كل من الجيش والبحرية • »

ـ « ألا تريدين أن تشربي كأسا ؟ »

ـ « لا • انها تجعلك سعيدا ، دائما ، يا حبيبي ، ولكنها لا توقع في رأسي ألا الدوار • »

ـ « ألم تشربي شيئا من البراندي في حياتك قط ؟ »

ـ « لا ، يا حبيبي • انا زوجة محافظة جدا • »

ومددت يدي الى ارض الغرفة التماسا للزجاجة وملأت كأسا اخرى •

فقالت كاثرين :

ـ « من الخير لي أن اذهب والقي نظرة على مواطنيك • ولعلك أن تقرأ الصحف ريثما أعود • »

ـ « أيتعين عليك حقا أن تذهبي ؟ »

ـ « عاجلا أو آجلا • »

ـ « حسن • اذهبي الآن أذن • »

ـ « سوف أرجع بعد قليل • »

فقلت :

ـ « وعندئذ أكون قد أنهيت قراءة الصحف • »

الفصل الثاني والعشرون

وانخفضت الحرارة تلك الليلة ، وفي اليوم التالي هطل المطر · وفي طريق عودتي من مستشفى ماغيور الى الغرفة اشتد تهطال المطر حتى بلغتُها وأنا مبلل ندي · وهناك في غرفتي كان المطر يتساقط على الشرفة في غزارة ، وكانت الريح تقذف الابواب الزجاجية به · وغيرت ملابسي ، وشربت شيئا من البراندي ، ولكن البراندي لم تبدُ طيبة المذاق · واستشعرت ، خـــلال الليل ، بغثيان · وفي الصباح ، بعد أن تناولت الفطور ، تقيأت ·

وقال طبيب المستشفى :

ــ « ليس في ذلك شك · أنظري الى بياض عينيه ، يا آنسة · »

ونظرت مس غايج · وكلّفاني أن انظر في مرآة · كان « بياض » عيني أصفر ، وكنت مصابا باليرقان · وبقيت مريضا بهذا الداء اسبوعين اثنين · ومن أجل ذلك لم نقضِ اجازة نقاهة معا · كنا قد اعتزمنا الذهاب الـــى بالانتزا ، على بحيرة « لاغو ماغيور » · فالجو جميل ، هناك ، في الخريف عندما تذوي اوراق الشجر · أن ثمة نزهات تستطيع أن تقوم بها ، وأن فـــي أمكانك أن تتصيد سمك الاطروط في البحيرة · وكان الذهاب الى بالانتزا خيرا من الذهاب الى ستريزا لان الناس في بالانتزا كانوا أقل · ان من اليسير جدا على المرء أن ينتقل من ميلانو الى ستريزا ، وهذا ما يجعل هذه الاخيرة حافلة دائما بأناس تعرِفهم ، وهناك في بالانتزا قرية جميلة ، وفي أستطاعتك أن تجذّف الى الجزر التي يسكنها الصيادون · وأنك لواجد في كبرى تلك

الجزر مطعما · ولكننا لم نذهب ·

وذات يوم ، وكنت طريح الفراش باليرقان ، دخلت عليّ مس فان كامبن ، وفتحت الخزانة ، فرأت الزجاجات الفارغة هناك · كنت قد كلفت البواب بأن يخرج من غرفتي عددا كبيرا منها ، وأحسب أنها رأته وهو يمضي بها ، فوفدت علي فوجدت مقدارا آخر منها · كانت في المحل الاول زجاجات فيرموت، وزجاجات مارسالا ، وزجاجات كابري ، وقوارير شيبانتي فارغة ، وبضع زجاجات كونياك · وكان البواب قد أخرج الزجاجات الضخمة ، تلك التي كانت تحتوي الفيرموت وقوارير الشيبانتي المغطاة بالقش ، وترك زجاجات البراندي الى الاخير · وكان ما عثرت عليه مس فان كامبن هو زجاجات البراندي وزجاجة على شكل دب كانت تحتوي على شراب الـ « كوميل » · وأثارتها هذه الزجاجة التي على شكل دب اثارة خاصة · فرفعتها عاليا · كان الدب قاعدا على مؤخرته رافعا قدميه الى أعلى · وكان في رأسه الزجاجي فلينة ، وبضع بلورات دبقة في قعره · وأنشأتُ أضحك ·

وقلت :

ـ « كان فيها كوميل · أن أفضل الكوميل يجيء في هذه الزجاجات المصنوعة على شكل دب · أنها تردُ من روسيا · »

وسألتني مس فان كامبن :

ـ « هذه كلها زجاجات براندي ، أليس كذلك ؟ »

فقلت :

ـ « لا أستطيع أن اراها كلها · ولكنها زجاجات براندي في أرجح الظن · »

ـ « منذ متى أقدمتَ على هذا الصنيع ؟ »

فقلت :

ـ « لقد أشتريتها وحملتها الى هنا بنفسي · كان يزورنا بين الفينة والفينة ضباط ايطاليون ، ولقد احتفظت بالبراندي لاقدمها اليهم · »

فقالت :

ـ « ألم تكن أنت نفسك تشربها ؟ »

ـ « لقد شربتُها أنا نفسي أيضا · »

فقالت :

ـ « براندي ؟ احدى عشرة زجاجة فارغة من البراندي ، وهذا الشراب الدبّي ! »

ـ « كوميل · »

ـ « سوف أكلف أحدا بأخراجها من هنا · هل هذا كل ما عندك من زجاجات فارغة ؟ »

ـ « في الوقت الحاضر · »

ـ « وكنت اشفق عليك لاصابتك باليرقان ! يا لضياع الشفقة فيك ! »

« شكرا · »

ـ « أحسب أن المرء لا يستطيع أن يلومك لعدمرغبتك في العودة الى الجبهة· ولكني اود لو أراك تجرب وسيلة أدلّ على الذكاء من تعريض نفسك للاصابة باليرقان عن طريق الاسراف في الشراب · »

ـ « عن طريق ماذا ؟ »

ـ « من طريق الاسراف في الشراب · لقد سمِعْتَني جيدا على ما أظن · »

فلم أنبس ببنت شفة · وأضافت :

ـ « أخشى أن تضطر للعودة الى الجبهة حال شفائك من اليرقان ··· اللهم الا اذا اكتشفت وسيلة أخرى · ولست أعتقد أن اليرقان المفتعل افتعالا يؤهلك للفوز بأجازة نقاهة · »

ـ « لا تعتقدين ؟ »

ـ « لا · »

ـ « هل أصبتِ ذات يوم باليرقان ، يا مس فان كامبن ؟ »

ـ « لا · ولكني رأيت كثيرين مصابين به · »

ـ « هل لاحظتِ كيف يستمتع المرضى بدائهم ذاك ؟ »

ـ « أحسب أن هذا خير من الجبهة · »

فقلت :

ـ « مس فان كامبن ، هل عرفتِ ذات يوم رجلا حاول أن يفتعل العجز من طريق رَفْس نفسه على الخصيتين ؟ »

وتجاهلت مس فان كامبن السؤال • كان عليها أما ان تتجاهله وأما أن تغادر الغرفة • ولم تكن مستعدة لمغادرة الغرفة لانها أبغضتني منذ زمن طويل وكانت هذه فرصة نادرة للتشفي مني •

وقالت :

ـ « لقد عرفت رجالا كثيرين فروا من الجبهة بأن عمدوا الى جرح أنفسهم بأنفسهم • »

ـ « لم يكن هذا هو السؤال • انا ايضا رأيت رجالا جرحوا أنفسهم بأنفسهم • لقد سألتكِ هل رأيت في يوم من الايام رجلا حاول أن يفتعل العجز بأن راح يرفس نفسه على الخصيتين ؟ لان هذا هو أقرب ألاحاسيس الى اليرقان ، وهو احساس لم يعرفه غير عدد قليل جدا من النساء فى ما اعتقد • وهذا ما حملني على ان اسألك هل أصبت ، ذات يوم ، باليرقان يا مس فان كامبن ، لان ••• »

وغادرت مس فان كامبن الغرفة • وبعد ذلك بقليل دخلت مس غايج

ـ « ماذا قلت لفان كامبن ؟ كانت ثائرة • »

ـ « كنا نقارن بين الاحاسيس • كنت أعتزم أن أشير الى انها لم تعرف المخاض قط ••• »

فقالت غايج :

ـ « أنت مجنون • انها سوف تسلخ جلدك • »

ـ « لقد سخلته • لقد اضاعت علي اجازة نقاهتي ، وقد تسعى لتقديمي للمحاكمة امام المجلس الحربي • انها من الانحطاط بحيث لا تتورع عن ذلك • »

فقالت غايج :

ـ « انها لم تحبك في يوم من الايام • علام هذا كله ؟ »

ـ « هي تزعم أني اسرفت في الشراب لكي أصيب نفسي باليرقان ، وبذلك أتخلص من العودة الى الجبهة • »

فقالت غايج :

ـ « بوه ! أنا مستعدة لان أقسم انك لم تشرب خمرا قط · كل امـــرىء سوف يقسم انك لم تشرب خمرا قط · »

ـ « لقد عثرتْ على الزجاجات · »

ـ « قلت لك مئة مرة أن لا تبقي هذه الزجاجات هنا · أين هى الان ؟ »

ـ « فى الخزانة · »

ـ « أعندك حقيبة ثياب ؟ »

ـ « لا · ضعيها في ذلك الخُرْج ، وقالت :

ووضعت مس غايج الزجاجات في الخرج ، وقالت :

ـ « سوف أعطيها الى البواب · »

وتقدمتْ نحو الباب ·

ولكن مس فان كامبن برزت فجأة وقالت :

ـ « دقيقة واحدة · سوف آخذ أنا هذه الزجاجات · »

كان البواب معها ، ووجهت اليه الخطاب قائلة :

ـ « أحملها من فضلك · أريد أن أطلـــع الطبيب عليهـــا قبل أن أضـــع تقريري

وابتعدت مجتازة الرواق · وحمل البواب الخرج · لقد عرف أى شىء كان فيه ·

ولم يحدث شىء غير خسارتي اجازة النقاهة ·

الفصل الثالث والعشرون

وفي الليلة التي كنت أعتزم فيها العودة الى الجبهة أرسلت البواب ليحجز لي مقعدا في القطار القادم من تورين · وكان ذلك القطار يتشكل في تورين ، ويصل الى ميلانو حوالي الساعة العاشرة والنصف ليلا فيمكث في المحطة حتى انطلاقه منها عند منتصف الليل · وكان عليك أن تكون هناك عند وصوله لكي تفوز بمقعد · · واصطحب البواب صديقا له ، وكان مدفعيا يقضي اجازته وكان يعمل في دكان خياط · وقد أكد البواب أن في امكانه ، بمعونة ذلك الصديق أن يحجز لي مقعدا · وأعطيتهما مبلغا من المال يشتريان به تذكرتين تخولانهما الدخول الى رصيف المحطة ، وعهدت اليهما بنقل امتعتي · كان ثمة خُرج كبير وجرابان ·

وحوالي الساعة الخامسة ودّعت اهل المستشفى ومضيت لسبيلي · كان البواب قد وضع امتعتي في حُجَيْرته فأخبرته اني سوف أفد على المحطة قبل منتصف الليل بقليل · ونادتني زوجته « سينيورينو » وأنشأت تبكي · ثم كفكفت عبراتها ، وصافحتني ، وانخرطت في البكاء من جديد · عندئذ ربتّ على ظهرها فبكت كرة أخرى · كانت قد رتقت ملابسي وجواربي ، وكانت امرأة بدينة شديدة القِصر بهيجة الطلعة ذات شعر أشيب · وحين بكت ، انهار وجهها كله · وهبطتُ الطريق حتى الزاوية التي تقوم عندها احدى الحانات وانتظرت في داخلها مطلا من النافذة · كان الظلام قد هبط · وكان الجو باردا شديد الضباب · ودفعت ثمن القهوة وال « غرابّا » وراقبت

الناس ، على ضوء النور المنبعث من النافذة ، وهم يروحون ويجيئون . ورأيت كاثرين فنقرت على زجاج النافذة . فالتفتت ، فرأتني ، وابتسمت وخرجت انا للقائها . كانت قد طرحت على كتفيها رداء ازرق داكنا ، وكانت تعتمر بقبعة من لبّاد رَخْص . وتمشّينا معا على الرصيف ، مجتازَيْن بالحانات ، ثم عبرنا ساحة السوق ، وصعّدنا في الشارع ، واجتزنا الطريق المقنطر حتى انتهينا الى ساحة الكاتدرائية . كانت ثمة خطوط ترامواي ، وكانت الكاتدرائية قائمة خلف هذه الخطوط . كانت بيضاء وندية في الضباب . وعبَرْنا خطوط الترامواي . والى يسارنا كانت الدكاكين والمحلات التجارية ، مضاءة النوافذ ، ومدخل ال « غاليريا » . كان الضباب يرين على الساحة ، وحين اقتربنا من صدر الكاتدرائية وجدناه ضخما جدا ووجدنا حجارته ندية .

ـ « هل ترغبين في الدخول ؟ »

فقالت كاثرين :

ـ « لا . »

وتابعنا سيرنا . كان ثمة جندي يقف مع صديقة له في ظل نصف قنطرة حجرية من انصاف القناطر الساندة التي أمامنا . واجتزنا بالجندي وصاحبته . كانا ملتصقين بالعمود الحجري ، وكان الجندي يلف الفتاة بمعطفه .

وقلت :

ـ انهما مثلنا . »

فقالت كاثرين :

ـ « لا أحد مثلنا . »

كان في ملاحظتها كآبة بالغة .

ـ « اتمنى لو كان لديهما مكان يذهبان اليه . »

ـ جائز ان لا يفيدهما ذلك شيئا . »

ـ « لست ادري . ينبغي ان يكون لكل امرىء مكان يذهب اليه . »

فقالت كاثرين :

ـ « ان لديهما الكاتدرائية . »

كنا قد ابتعدنا عن الكاتدرائية الان . فعبَرْنا الطرف الاقصى من الساحة والتفتنا الى الكاتدرائية . كانت رائعة وسط الضباب . وكنا نقف تجاه محل من محلات بيع الادوات الجلدية . كان ثمة في واجهة المجل حـــذاء فارس وخُرْج ، وحذاء تزلج . وبدت كلّ من هذه السلع وكأنها معروضة على حدة . كان الخرج في الوسط ، وكان حذاء الفارس في ناحية ، وحذاء التزلج في أخرى . وكان الجلد داكنا ومزيَّتا فهو رخص مثل سَرْج مستعمل . وعلى هذا الجلد الداكن المزيَّت ألقى النور الكهربائي أضواء ساطعة .

ـ « سوف نتزلج في يوم من الايام . »

فقالت كاثرين :

ـ « بعد شهرين يبدأ التزلج في مورين . »

ـ « دعينا نذهب الى هناك . »

فقالت :

ـ « حسن . »

واجتزنا بواجهات اخرى ، وانعطفنا هابطَيْن شارعا فرعيا .

ـ « ان قدميَّ لم تطأ هذا الشارع قط من قبل . »

فقلت :

ـ « هذه هي الطريق التي أسلكها كلما ذهبت الى المستشفى . »

كانت طريقا ضيقة ، وقد لزمنا جانبها الايمن . كان ثمة كثير من الناس يمشون في الضباب . وكانت هناك محال تجارية ، وكانت جميع الواجهـات مضاءة . وتأملنا واجهة بائع جبن . ثم وقفت تجاه دكان تاجر اسلحة ، وقلت:

ـ « فلندخل دقيقة . يجب ان اشتري سلاحا . »

ـ « أي نوع من السلاح ؟ »

ـ « غدّارة . »

ودخلنا ، وحللت حِمالتي ووضعتها ، بجرابها الفارغ الخاص بالغـدارة ، على منضدة العرض . وكانت خلف المنضدة امرأتان . وجاءتني المرأتان بعدة غدارات .

وقلت وانا أفتح جراب الغدارة :

ـ « يجب ان تتلاءم مع هذا الجراب • »

كان جرابا جلديا رماديا ، وكنت قد اشتريته مستعملا لكي البسه في المدينة •

وسألتنى كاثرين :

ـ « هل عندهم غدارات جيدة ؟ »

فقلت :

ـ « انها كلها متماثلة تقريبا • »

ثم التفتُ الى المرأة وسألتها :

ـ « هل استطيع ان أجرب هذه ؟ »

فقالت :

ـ « ليس لديَّ الان مكان لاطلاق النار • ولكنها جيدة جدا • انك لن تخطىء الهدف بها ابدا • »

وضغطت على « لسان » الغدارة ، وخفضت « كلبها » • كان النابض قاسيا ولكنه يعمل في سلاسة • وسدَّدت الغدارة وضغطت على « اللسان » من جديد •

فقالت المرأة :

ـ « انها مستعملة • وكان صاحبها القديم ضابطا بارعا في الرماية • »

ـ « وكنتِ انتِ التي بعته اياها ؟ »

ـ « نعم • »

ـ « وكيف استرجعتِها منه ؟ »

ـ « من العسكري المرافق له • »

فقلت :

ـ « لعلَّ غدارتي عندكِ ايضا • كم ثمن هذه ؟ »

ـ « خمسون ليراً • انها رخيصة جدا • »

ـ « حسن • اريد حافظتَي خرطوش اضافيتين وعلبة خراطيش • »

وجاءتني بذلك من تحت منضدة العرض •

وسألتني :

ـ « هل تحتاج الى سيف ؟ ان لديّ بعض السيوف المستعملة الرخيصة ٠ »
فقلت :
ـ « انا ذاهب الى الجبهة ٠ »
فقالت :
ـ « اوه ٠ نعم ٠ واذن فلن تكون في حاجة الى سيف ٠ »
ودفعت ثمن الخراطيش والغدارة ، وملأت « الخزان » واعدته الى مكانه ، ثم وضعت الغدارة في جرابها الفارغ ، وملأت الحافظتين الاضافيتين بالخراطيش ، ووضعتهما في الفجوتين اللتين فوق الجراب ، ثم لبستُ الحِمالة ٠
لقد استشعرتُ الغدارةَ ثقيلةً على الحمالة ٠ ولكنني قلت في ما بيني وبين نفسي ان من الخير ان احمل مثل هذه الغدارة ٠
وقلت :
ـ « ها قد اصبحت كامل السلاح ٠ ذلك هو العمل الوحيد الذي كان يتعين عليّ ان اتذكّر القيام به ٠ لقد سرق احدهم غدارتي الاخرى وانا في طريقي الى المستشفى ٠ »
فقالت كاثرين :
ـ « ارجو ان تكون غدارة جيدة ٠ »
وسألتني المرأة :
ـ « هل تريد شيئا آخر ؟ »
ـ « لست اعتقد ذلك ٠ »

فقالت :
ـ « ان للغدارة حبلا في طرفه كلاّبة ٠ »
ـ « لقد لاحظت ذلك ٠ »
كانت المرأة تريد ان تبيعني شيئا آخر ٠
ـ « ألا تحتاج الى صفّارة ؟ »
ـ « لست اعتقد ذلك ٠ »
وودعتنا المرأة ، وخرجنا نمشي على الرصيف ٠ ونظرت كاثرين الى

النافذة ، فأطلّت المرأة علينا وانحنت تحية لنا ٠

ــ « ما هذه المرايا الصغيرة المنزّلة في تلك الالواح الخشبية ؟ »

ــ « انها وسيلة لاجتذاب الطيور ٠ انهم يفتلونها في الحقول ، فتراها القبّرات ، فتندفع نحوها ، فيطلق الايطاليون النار عليها ٠ »

فقالت كاثرين :

ــ « انهم شعب ذكي ٠ انتم لا تطلقون النار على القبّرات في اميركا ، أليس كذلك يا حبيبي ؟ »

ــ « لسنا نستهدفها على وجه التخصيص ٠ »

وعبرنا الشارع وبدأنا نمشي في الجانب الآخر منه ٠

وقالت كاثرين :

ــ « اني اشعر بارتياح الآن ٠ كان الضيق يستبد بي عندما انطلقنا ٠ »

ــ « اننا نشعر بالارتياح كلما كنا معا ٠ »

ــ « ولسوف نكون دائما معا ٠ »

ــ « نعم ، باستثناء اني سأمضي لسبيلي في منتصف الليل ٠ »

ــ « لا تفكر في ذلك ، يا حبيبي ٠ »

وصعّدنا في الشارع ٠ كان الضباب قد جعل الاضواء صفراء ٠

وسألتني كاثرين :

ــ « ألم تتعب ؟ »

ــ « وانت ؟ »

ــ « انا في أحسن حال ٠ من الطريف ان يمشي المرء ٠ »

ــ « ولكن يحسن بنا ان لا نسرف في ذلك ٠ »

ــ « كما تريد ٠ »

وانعطفنا هابطين شارعا فرعيا لا اضواء فيه ٠ ومشينا في ذلك الشارع فترة ٠ ثم وقفت وقبّلت كاثرين ٠ وفيما انا اقبّلها استشعرت يدها على كتفي ٠ كانت قد جذبت الرداء المطروح على ظهري واحاطت نفسها به حتى لقد غطى كلا منا ٠ كنا واقفين في الشارع مستندين الى جدار عال ٠

وقلت :

ــ « فلنذهب الى مكان ما ٠ »

فقالت كاثرين :

ـ « حسن • »

وواصلنا طريقنا حتى انتهت بنا تلك الطريق الى شارع اعرض ممتد على ضفة قناة • وعلى الجانب الآخر من ذلك الشارع كان جدار آجري وابنية • وتجاهنا ، في اقصى الشارع ، رأيت تراما يعبر جسرا •

ـ « في استطاعتنا ان نفوز بعربة خيل عند الجسر • »

ووقفت على الجسر ، وسط الضباب ، انتظر عربة • ومرّت بضع حافلات ترام ملأى بأناس عائدين الى بيوتهم • ثم انّ عربة اقبلت ، ولكنها كانت تقلّ شخصا ما • كان الضباب يتحول الى مطر •

وقالت كاثرين :

ـ « في استطاعتنا ان نذهب سيرا على الاقدام او ان نأخذ الترام • »

واوقف السائق فرسه ، وخفض الاشارة المعدنية على عدّاده الآلي • كان غطاء العربة مرفوعا ، وكانت على سترة السائق قطرات ماء • كانت قبعته المُفَرنَشة تلتمع تحت المطر • وجلسنا معا في المقعد الخلفي ، فوجدنا نفسينا ـ تحت غطاء العربة ـ في ظلام حالك •

ـ « الى اين سألتَه أن يذهب ؟ »

ـ « الى المحطة • ان ثمة تجاه المحطة فندقا نستطيع ان نقصد اليه • »

ـ « وهل نستطيع ان نذهب على هذه الحال ، من غير امتعة ؟ »

فقلت :

ـ « اجل • »

كانت طريقنا الى المحطة طويلة ، وكان علينا ان نجتاز عددا من الشوارع الفرعية تحت المطر •

وسالتني كاثرين :

ـ « ألن نتعشى ؟ انا اخشى ان يستبدّ بي الجوع • »

ـ « سوف نتعشّى في غرفتنا • »

ـ « ليس لديّ ما البسه • بل ليس لديّ حتى قميص نوم • »

فقلت :

ـ « سوف نذهب ونشتري واحدا • »

ووجهت الخطاب الى سائق العربة :

– « اذهب الى الـ « فيبيا مانزوني » واصعد بنا ذلك الشارع • »

فهز رأسه ، وانعطف الى اليسار عند اول زاوية • وفي الشارع الكبير انشأت كاثرين تبحث عن دكان ما •

وقـالت :

– «هو ذا محل • »

واوقفتُ السائق ، وترجلتْ كاثرين ، واجتازت الرصيف ودخلت المحل • وقبعتُ في مقعد العربة الخلفي انتظرها • كان المطر يهطل ، وكان في ميسوري ان استروح عبق الشارع النديّ ورائحة الفرس وقد تصاعد البخار من جسده تحت المطر • ورجعتْ كاثرين حاملـــة رزمـــة ، وامتطت متن العربـــة ، فانطلقنا •

وقـالت :

– « كنت مبذّرة جدا ، يا حبيبي ، ولكنه قميص نوم رائع • »

حتى اذا وصلنا الى الفندق سألتُ كاثرين ان تبقى فى العربة ريثما ادخل الفندق واتحدّث الى مديره • كان ثمة عدد كبير من الغرف الشاغرة • فرجعت الى العربة ، ودفعت الى السائق اجرته ، ودخلت الفندق انا وكاثرين • وحمل غلام الفندق الرزمة • ورافقنا المدير ، في حفاوة بالغة ، حتى المصعد الكهربائي • كان ثمة مقادير وافرة من النحاس والقطيفـــة الحمراء • وامتطى المدير متن المصعد معنا •

– « هل يرغب السيد والسيدة في تناول طعام الغداء في غرفتهما ؟ »

فقلت :

– « نعم • هل لك ان تبعث بلائحة الطعام الى الغرفة ؟ »

– « هل ترغبـــان في شيء خصوصي للعشـــاء ، بعض الطيور او عجّة « سُوفليه » مثلا ؟ »

واجتاز المصعد ثلاثة ادوار ، مشيرا الى كل منها بتكّة خافتة • ثم انه تكّ تكّة اخيرة ووقف :

– « ما عندك من صنوف الطير ؟ »

– « في استطاعتي ان اقدّم اليكما دُرّاجا او ودقوقا * »

---

* Woodcock

فقلت :

ـ « نريد ودقوقا • »

وهبطنا الرواق • كانت السجادة بالية • وكان ثمة كثير من الابواب •

وكف المدير عن السير واخرج مفتاحا فتح به احد الابواب •

ـ « هي ذي غرفة فاتنة • »

ووضع غلام الفندق الرزمة على مائدة كانت في وسط الغرفة • وازاح المدير الستائر •

وقال :

ـ « الضباب كثيف في الخارج • »

كان اثاث الغرفة من القطيفة الحمراء • وكان فيها عدد كبير من المرايا ، وكرسيان ، وسرير عريض ذو غطاء من الاطلس • وكان ثمة باب يؤدي الى الحمام •

وقال المدير :

ـ « سوف ابعث اليكما بلائحة الطعام • »

وانحنى وخرج •

ومضيت الى النافذة ، ثم سحبت حبلا اسدل الستائر القطيفية الكثيفة • كانت كاثرين جالسة على السرير تتأمل الثريا البلورية • كانت قد نزعت قبعتها ، فتوهج شعرها تحت الضوء • ورأت نفسها في احدى المرايا ، ورفعت يديها الى شعرها • ورأيتها في ثلاث مرايا اخرى • لقد بدت غير سعيدة • ولقد تركت « شالها » يسقط على السرير •

ـ « ما بالك ، يا حبيبتي ؟ »

فقالت :

ـ « انا لم اشعر قط في يوم من الايام وكأني بائعة لذة • »

وقصدت الى النافذة ، وازحت الستار جانبا ، ونظرت الى الخارج • لم يخطر لي ببال ان الامر قد يبدو على هذه الشاكلة •

وقلت :

ـ « ولكنك لست بائعة لذة • »

ـ « أعرف ذلك ، يا حبيبي • ولكن ليس من السائغ ان تستشعر المرأة وكأنها بائعة لذة • »

ذاك صوتها جافا صدئا .
وتمتمت :
ــ « لقد كان هذا خير فندق نستطيع ان نقصد اليه . »
واطللت من النافذة . وعبر الساحة ، كانت اضواء المحطة . وكانت العربات تجتاز الشارع ، ولقد رأيت الاشجار في الحديقة العامة . وانعكست اضواء الفندق على الرصيف النديّ . وقلت في نفسي : اوه ، يا للجحيم ، اينبغي لنا ان نتجادل الآن ؟
وقالت كاثرين :
ــ « تعال الى هنا ، ارجوك . »
كان الصدأ قد زايل صوتها واردفت :
ــ « تعال ، ارجوك . لقد عدتُ فتاة طيبة . »
ونظرتُ الى السرير . كانت تبتسم .
وتقدّمت نحوها ، وجلست على السرير الى جانبها ، وقبّلتها .
ــ « أأنتِ فتاتي الطيبة ؟ »
فقالت :
ــ « انا لك من غير ريب . »
واثر تناولنا الطعام شعرنا بانتعاش . وبعد ذلك غلب علينا الابتهاج الشديد . وما هي الا فترة حتى شعرنا وكأن تلك الغرفة بيتنا . كانت غرفتي في المستشفى هي بيتنا ، وهذه الغرفة كانت بيتنا ايضا بالطريقة نفسها .
وفيما نحن نأكل طرحت كاثرين صُدْرتي على منكبيها . كنا جائعين جدا، وكان الطعام جيدا ، وشربنا زجاجة كابري ، وزجاجة « سان ايستيف » . لقد شربت القدر الاعظم ، ولكن كاثرين شربت بعض الشيء ، ولقد ابهج ذلك فؤادها . كان عشاؤنا يتألف من ديك من النوع المعروف بال « ودقوق » مع بطاطا « سوفليه » ، ومصفّى الكستناء ، وسلطة ، واخيرا زاباغليون * كحلوى .

* Zabaglione

وقـالت كاثرين :

ــ « انها غرفة رائعة · كان ينبغي ان نقضي فيها جميع ايامنا في ميلانو · »

ــ « انها غرفة مضحكة · ولكنها حسنة · »

وقـالت كاثرين :

ــ « الرذيلة شيء مُذهل · وهذه القطيفة الحمراء رائعـة من غير شك · والمرايا جذابة جدا · »

ــ « انت فتاة عظيمة · »

ــ « اني لاتساءل كيف يكون شعور المرء حين يفيق صباحا بعـد نومه في هذه الغرفة · ولكنها في الواقع غرفة رائعة · »

واترعتُ كأسا اخرى بشراب « سان ايستيف · »

ــ « اتمنى لو نستطيع ان نقترف اثما حقيقيا · ان كل ما نفعله يبدو بريئا وبسيطا الى ابعد الحدود · انا لا استطيع ان اعتقد اننـا نقترف ايَّ اثم · »

ــ « انتِ فتاة عظيمة · »

ــ « كل ما في الامر اني جائعة · جائعة الى حد فظيع · »

فقلــت :

« ــ « انتِ فتاة بسيطة رائعة · »

ــ « انا فتاة بسيطة · ان احدا لم يفهم هذه الحقيقة غيرك · »

ــ « لقد قضيتُ اصيلا كاملا ، ذات يوم ــ ولعل ذلك كان بُعَيْد اجتماعنا لاول مرة ــ وانا افكر كيف يمكـن ان نذهب معـا الى فندق كافور ، وكيف سيكون شعورنا لو ذهبنا · »

ــ « لقد كانت هذه جسارة بالغة منك · نحن لسنا الآن في فندق كافور ، أليس كذلك ؟ »

ــ « لا · انهم ما كانوا ليَقْبلونا هناك · »

ــ « سوف يَقْبلوننا في وقت ما · ولكـن هـذا هـو الـــذي يجعلنـــا شيئا مختلفا ، يا حبيبي · انا لم افكر قط في ايما شيء · »

ــ « ألم تفكري في شيء البتة ؟ »

فقـالت :

ــ « قليــلا · »

ـ « اوه ، انت فتاة قريبة الى الفؤاد ٠ »
واترعت' كأسا اخرى ٠
فقـالت كاثرين :
ـ « انا فتاة بسيطة جدا ٠ »
ـ « لم احسَبْكِ هكذا بادىء الامر ٠ لقد حسبتكِ فتاة طائشة ٠ »
ـ « لقد كنت طائشـة بعض الشيء ٠ ولكني لم اكن طائشـة على صورة معقدة ٠ انا لم اربكك ، أليس كذلك ، يا حبيبي ؟ »
فقلـت :
ـ « الخمر شيء عظيم ٠ انها تُنسيك كل ما هو رديء ٠ »
فقـالت :
ـ « انها لذيذة ٠ ولكنها اصابت والدي اصابة خطيرة بداء النقرس ٠ »
ـ « ألك أب ؟ »
فقالت كاثرين :
ـ « نعم ٠ انه مصاب بالنقرس ٠ ولكن تكون مضطرا ابدا الى الاجتماع به ٠ أليس لك أب ؟ »
ـ « لا ٠ ان لي زوج امّ ٠ »
ـ « هل تعتقد اني سأحبه ؟ »
ـ « لن يكون من واجبك ان تجتمعي اليه ٠ »
فقالت كاثرين :
ـ « نحن سعيدان جدا ٠ انا لا ابالي بأيما شيء منذ اليوم ٠ انا سعيـدة جدا بأن اكون زوجتك ٠ »

واقبل النادل ، واسترجع الصحون والاطباق ٠ وبعـد فترة هيمن علينـا السكون ، وكان في ميسورنـا ان نسمع المطر يهطل ٠ وتحت ، في الشـارع ، زمّرت سيارة ٠

وقلت :

« ولكني اسمع من ورائي دائمـا
عربة الزمان المجنحة تقترب مسرعة ٠ »

وقالت كاثرين :

ـ « انا اعرف هذه القصيدة ٠ انها من نظم مارفيل ٠ ولكنها تتحدث عن فتاة تأبى الحياة مع رجل ٠ »

وغلب الصفاء البالغ على رأسي ، واستعدت هدوئي ، واستشعرت الرغبة في التحدث عن الواقع ٠

ـ « اين تعتزمين ان تلدي ؟ »

ـ « لست ادري ٠ في افضل مكان استطيع ان اجده ٠ »

ـ « وكيف تعتزمين ان تتدبري ذلك ؟ »

ـ « على احسن وجه استطيعه ٠ لا تقلق ، يا حبيبي ٠ قد ترزَق عدة اولاد قبل ان تنتهي الحرب ٠ »

ـ « لقد حان وقت السفر او كاد ٠ »

ـ « ادري ٠ وفي استطاعتنا الذهاب الآن اذا شئت ٠

ـ « لا ٠ »

ـ « اذن لا تقلق ، يا حبيبي ٠ لقد كنت رائعا الآن ، فعلام هذا القلق الذي يستبد بك ؟ »

ـ « لست قلقا ٠ هل ستكتبين اليّ كثيرا ؟ »

ـ « كل يوم ٠ هل يطلعون على بريدك ؟ »

ـ « انهم لا يحسنون قراءة الانكليزية الى درجة تنزل الاذى بأحد ٠ »

فقالت كاثرين :

ـ « سوف اجعلها مبهمة جدا ٠ »

ـ « ولكن ليس اكثر مما ينبغي ٠ »

ـ « سوف اكتفي بجعلها مبهمة قليلا ٠ »

ـ « يخيّل اليّ ان لحظة الانطلاق قد حانت ٠ »

ـ « حسن يا حبيبي ٠ »

ـ « انا اكره مفارقة بيتنا الرائع ٠ »

ـ « وانا ايضا ٠ »

ـ « ولكن علينا ان نمضي ٠ »

ـ « حسن ٠ ولكننا لم يقدّر لنا قط ان نستقر في بيتنا دهرا طويلا ٠ »

ـ « سوف نحظى بذلك يوما ٠ »

ـ « سوف اعدُ لكَ بيتا رائعا عندما ترجع ٠ »

ـ « من يدري ، لعلي ان ارجع في الحال ٠ »

ـ « ربما اصبتَ بجرح طفيف في القدم ٠ »

ـ « او في شحمة الاذن ٠ »

ـ « لا ٠ انا اريد ان تظل اذناك على حالهما ٠ »

ـ « وقدماي ؟ ألا تريدين ان تظلا على حالهما ؟ »

ـ « لقد جُرحتْ قدماك قبل اليوم ٠ »

ـ « ينبغي ان نذهب ، يا حبيبي ٠ لم يعد في امكاننا ان نتأخر ٠ »

ـ « حسن ٠ أخرج انت اولا ٠ »

الفصل الرابع والعشرون

وهبطنا السلم بدلا من ان ننزل بالمصعد الكهربائي · كانت السجادة التي تكسو السلّم باليــة · وكنت قد دفعت نفقات العشاء حين جيء به الى الغرفة ، وكان النادل الذي حمله الينا جالسا على كرسي قرب الباب · وما ان رآنا حتى وثب وانحنى احتراما ، فمضيت معه الى الغرفة الجانبية ودفعت اليه فاتورة الغرفة · وكان مدير الفندق قد تذكّرني كصديق من اصدقائه ورفض ان ادفع اليه الاجرة مقدما ، ولكنه حين انسحب تذكّر ايضا ان يطلب الى النادل ان يرابط لدى الباب لكي لا اخرج من غير دفع · واحسب ان ذلك قد حدث في مرات سابقة ، حتى مع اصدقائه · ان للمرء في زمن الحرب عددا كبيرا جدا من الاصدقاء ·

وسألت النادل ان يحضر لنا عربة ، فأخذ رزمة كاثرين من يدي ، وخرج حاملا مظلة · وفي الخارج رأيناه من خلال النافذة يعبر الشارع تحت المطر · لقد وقفنا في الغرفة الجانبية ، وسرّحنا الطرف عبر النافذة ·

ــ « ما الشعور الذي يسيطر عليكِ ، يا كات ؟ »

ــ « النعاس · »

ــ « اما انا فاحس بالفراغ والجوع · »

ــ « هل لديك ما تأكله ؟ »

ــ « بلى · في جرابي · »

ورأيت العربة مقبلة • ووقفت • وخفض الفرس رأسه تحت المطر • وترجّل النادل ، وفتح مظلته ، وتقدّم نحو الفندق • والتقيناه لدى الباب ، وخرجنا تحت المظلة ، فاجتزنا الرصيف الى حيث كانت العربة واقفة عند حافة الطريق • كانت المياه تجري في القناة •

وقال النادل :

ـ « رزمتك هناك • على المقعد • »

وظل واقفا ، والمظلة في يده ، حتى دخلنا العربة ونقدته البقشيش •

وقال :

ـ « شكرا كثيرا • ورحلة ممتعة • »

وهزّ الحوذي الزمام ، فانطلق الفرس • واستدار النادل تحت المظلة ورجع الى الفندق • وانشأت العربة تهبط بنا الشارع • وانعطفنا نحو اليسار، ثم وقفنا الى اليمين، تجاه المحطة• كان اثنان من الجنود القرَبينيين* واقفين تحت الضوء ، مجتنبيَيْن المطر بشق النفس • والتمع الضوء على خوذتيهما • وبدا المطر واضحا وشفافا وسط الضياء المنبعث من المحطة • واقبل من المحطة احد الحمالين رافعا منكبيه في وجه المطر •

وقلت :

ـ « لا • شكرا • لست في حاجة اليك • »

ورجع يتقي المطر تحت مدخل المحطة المسقوف • والتفتُّ الى كاثرين • كان وجهها في الظل ، تحت غطاء العربة المرفوع •

ـ « والآن نستطيع ان نقول الى اللقاء • »

ـ « الا استطيع ان ادخل ؟ »

ـ « لا • »

ـ « الى اللقاء ، يا كات • »

ـ « هل لك ان تعطيه عنوان المستشفى ؟ »

ـ « من غير ريب • »

واعطيت الحوذي العنوان الذي ينبغي ان يوصلها اليه • فهز برأسه •

---

* carabinieri وقد شرحناها في هامش سابق •

وقلـت :

ـ « الى اللقاء . اعتني جيدا بنفسك ِ وبكاثرين الصغيرة . »

ـ « الى اللقاء يا حبيبي . »

فقلـت :

ـ « الى اللقاء . »

وترجلت ُ تحت المطر ، وانطلقت العربة . وانحنت كاثرين ، فرأيت وجهها في الضياء . وابتسمت لي ولوّحت بيدها . وصعّدت العربة في الشـارع . وأومأت كاثرين الى مدخل المحطة . فنظرت ، فلم اجد غير الجنديين القربينيين ومدخل المحطة . وأدركت انها ترغب اليّ ان ادخـل المحطة اجتنابا للمطر . ودخلت ُ ، ووقفت ُ ، وراقبت العربة وهي تنعطف عند الزاوية . ثم اني عبرت المحطة ، وهبطت المجاز الى القطار .

كان بواب المستشفى على رصيف المحطة يبحث عني . وتبعته ُ الى القطار ، وشققت ُ طريقي وسط الحشد ، وعلى طول المعبر ، حتى دخلت بابا قادني الى المقصورة الملأى التي كان المدفعي يحتل ُ احدى زوايـاهـا . كان خُرْجي وجراباي فوق رأسه في شبكة الامتعـة . وكان كثير مـن الناس واقفين في الرواق ، ولم نكد ندخل المقصورة حتى راح كل ٌ من فيها ينظر الينـا . لم يكن في القطار اماكن كافيـة ، وكان القوم كلهم متجهّمي الوجوه . ونهض المدفعي لي لكي اجلس مكانه . وربتّت شخص ما على كتفي . فأجلت طرفي في ما حولي ، فاذا هو كابتن مدفعية فارع الطول ، مهزول الجسم ، تنسحب على خده ندبة حمراء . كان قد نظر ـ وهو بعد ُ في المجاز ـ من خلال الزجاج، ثم دخل .

وسألته :

ـ « ماذا تريد ؟ »

كنت قد استدرت وواجهته ُ . كان أطول مني ، وكان وجهه مهزولا جـدا تحت ظل خوذته ، وكانت الندبة جديدة ملتمعة . كان كل امرىء في المقصورة ينظر الي .

وقال :

ـ « ليس لك الحق في ان تفعل هذا . ليس لك الحق في ان تكلف جنديـا بحجز مقعد لك . »

ـ « ومع ذلك فقد اقدمتُ على هذا • »

وبلع ريقه • ورأيت حنجرته تعلو ثم تهبط • ووقف المدفعي تجاه المقعد • ونظر الينا آخرون من خلال الزجاج • ولم ينبس احدٌ ممن كانوا في المقصورة ببنت شفة •

ـ « ليس لك الحق في ان تفعل ذلك • لقد جئت الى هنا قبل مجيئك بساعتين • »

ـ « ماذا تريد ؟ »

ـ « المقعد • »

ـ « وأنا ايضا اريده • »

وراقبت وجهه ، وكان في ميسوري ان استشعر ان كل من في المقصورة ضدي • ولم أستطع ان الومهم • فقد كان الرجل مُحقًا • ولكني اردت المقعد • ومع ذلك ، فان احدا لم ينطق بكلمة •

وقلت في ذات نفسي : « اوه ، يا للجحيم ! »

ثم قلت :

ـ « اجلس ، سينيور كابيتانو ! »

وافسح المدفعي طريقا للكابتن الفارع الطول ، فجلس • ونظر الي • كان متجهم الوجه • ولكنه كان قد فاز بالمقعد •

وقلت للمدفعي :

ـ « ايتِ بأمتعتي • »

وخرجنا الى المجاز • كان القطار حاشدا ، وعرفت ان لا أمل لي في الفوز بمقعد • وأعطيت كلا من البواب والمدفعي عشر ليرات • * فاجتازا المَعْبر وهبطا الى الرصيف ناظرَيْن الى النوافذ ، ولكن لم يكن ثمة مقاعد شاغرة •

وقال البواب :

ـ « لعل بعضهم ان يغادر القطار في بريسيا • »

فقال المدفعي :

ـ « بل ان ركابا اضافيين سوف يمتطون القطار في بريسيا • »

---

* جمع لير •

وصافحتهما مودعا ، وانصرفا • كانا مبتئسَيْن • وفي داخل القطار كنا كلنا واقفين في المجاز عندما انطلق القطار • وراقبت أضواء المحطة والافنية اثناء انطلاقه • كان المطر لا يزال يهطل ، وما هي الا فترة قصيرة حتى اصبحت النوافذ مبللة ، ولم يعد في ميسورك ان ترى شيئا • وبعد ذلك نمت على ارض المجاز • لقد وضعت محفظتي المنطوية على دراهمي واوراقي داخل قميصي وبنطلوني بحيث انتهت الى ساق بنطلوني • ونمت طول الليل ، ولم أستيقظ الا في بريسيا وفيرونا عندما امتطى متن الحافلة اناس" جُدُد ، ولكنني عدت فاستسلمت للرقاد في الحال • لقد وضعت رأسي على أحد الجرابَيْن واحدى ذراعيَّ حول الاخرى ، وكنت استشعر ثقل الكيس على جسدي • كان في ميسور كل امرىء ان يخطو من فوقي اذا لم يرغب في ان يطأني بقدميه • وكان كثير من الرجال نائمين على الارض على طول المجاز • في حين وقف آخرون ممسكين بقضبان النوافذ او متكئين على الابواب • فقد كان هذا القطار حاشدا على نحو موصول •

الكتاب الثالث

الفصل الخامس والعشرون

كان الفصل فصل الخريف ٠ وكانت الاشجار كلها عارية ، وكانت الطرق موحلة ٠ ومن يودين ركبت شاحنة اوصلتني الى غوريتزيا ٠ وفي الطريق اجتزنا بشاحنات اخرى ، وسرّحت طرفي في الريف ٠ كانت شجرات التوت عارية من أوراقها ، وكانت الحقول سمراء ٠ كان ثمة على الطريق اوراق ندية ميتة تساقطت من صفوف الاشجار الجرداء ، وكان الرجال يعملون في الطريق فهم يملأون الاخاديد بحجارة مكسَّرة كدّست اكواما على جانب الطريق بين الاشجار ٠ ورأينا المدينة وقد علاها الضباب الذي حجب الجبال٠ وعبرنا النهر ، ورأيت انه يجري جيّاشا عالي الموج ٠ كان المطر قد هطل ، وما يزال ، في الجبال ٠ ودخلنا المدينة ، بعد أن اجتزنا المصانع اولا ، وتبدّت لنا البيوت والدارات ، وقد لاحظت ان عددا اضافيا كبيرا من البيوت قد اصيب بأذى ٠ وفي أحد الشوارع الضيقة اجتزنا بسيارة اسعاف من سيارات الصليب الاحمر البريطاني ٠ كان السائق يعتمر بقلنسوة من النوع الذي ندعوه « كاسكيت » ، وكان وجهه مهزولا بَرْنَزَتْهُ * الشمس ٠ ولم اعرفه ٠ وترجلت من الشاحنة في الساحة الكبيرة تجاه منزل رئيس البلدية ٠ وناولني السائق خُرجي فوضعته على ظهري ، ومضيتُ مؤرجحا جرابيَّ الاثنين ، الى دارتنا ٠ اني لم اشعر بمثل شعور المرء العائد الى بيته ٠

وهبطتُ المجاز ذا الحصباء الندية ، ناظرا الى الدارة من خلال الاشجار ٠

---

* جعلت لون بشرته كالبرونز

كانت النوافذ كلها موصدة ، ولكن الباب كان مفتوحا . ودخلت ، فوجدت المايجور جالسا الى طاولة الحجرة العارية المعلّق على جدرانها خرائط وبيانات مطبوعة بالآلة الكاتبة .

وقال :

ـ « هالو ! كيف انت ؟ »

لقد بدا اكبر سنا واكثر جفافا .

فقلت :

ـ « بخير . كيف تجري الامور ؟ »

فقال :

ـ « انتهى كل شيء . ضع امتعتك واجلس . »

فوضعت خرجي وجراباي على الارض ، ووضعت قلنسوتي على الكيس . ثم اني جئت بالكرسي الاخر ، وكان على مقربة من الحائط ، وجلست الى المكتب .

وقال المايجور :

ـ « لقد كان صيفا سيئا . هل انت معافى الان ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « هل حصلت على سمات الشرف ؟ »

ـ « نعم . لقد حصلت عليها . شكرا جزيلا . »

ـ « دعني اراها . »

وحللت ازرار معطفي وأزحته بحيث استطاع ان يرى الشريطتين .

ـ « هل حصلت على المداليات ؟ »

ـ « لا . على براءاتها فقط . »

ـ « المداليات سوف تأتي في ما بعد . ان ذلك يستغرق وقتا اضافيا . »

ـ « ماذا تريد مني ان افعله الان ؟ »

ـ « السيارات كلها ليست هنا . ان ستا منها في الشمال ، في كابوريتو . هل تعرف كابوريتو ؟ »

ـ « نعم · »

لقد تذكرت انها بلدة صغيرة بيضاء واقعة في احد الاودية ، وان فيها برج اجراس · كانت بلدة صغيرة نظيفة ، وكان في ساحتها العامة نافورة ماء رائعة ·

ـ « اننا نعمل هناك في هذه الايام · ان ثمة كثيرا من الجرحى · لقد انتهى القتال · »

ـ « وأين السيّارات الاخرى ؟ »

ـ « هناك اثنتان في الجبال ، واربع لا تزال في بينسيزا · وفريقا الاسعاف الاخران ينشطان في الـ « كارسو » مع الجيش الثالث · »

ـ « ماذا تريد مني ان افعله ؟ »

ـ « تستطيع ان تذهب الى بينسيزا وتتولى امر السيارات الاربع اذا شئت· لقد سلخ جينو فترة طويلة وهو يعمل هناك · انت لا تعرف تلك المواطن ، اليس كذلك ؟ »

ـ « لا · »

ـ « لقد جرت الامور فيها على نحو سيء · لقد خسرنا ثلاث سيارات · »

ـ « سمعت بذلك · »

ـ « اجل ، لقد كتب اليك رينالدي واخبرك بذلك · »

ـ « أين رينالدي ؟ »

ـ « انه هنا في المستشفى · لقد قضى ايام الصيف والخريف وهو يعمل على نحو موصول · »

ـ « في استطاعتي ان اصدّق ذلك · »

وقال المايجور :

ـ « كانت الاحوال سيئة · وليس في استطاعتك ان تصدّق مبلغ السوء الذي انتهت اليه · لقد كنتُ اعتقد دائما انه كان من حسن حظك ان تُجْرَح يوم جُرِحت بالذات · »

ـ « اعرف هذا · »

وقال المايجور :

ـ « العام القادم سوف يكون اسوأ · من الجائز ان يشنوا هجوما الان ·

هم يقولون انهم سوف يهجمون ولكني لا استطيع ان اصدق ذلك • لقد فات الاوان • هل رأيت النهر ؟ »

ـ « نعم • لقد ارتفع منسوبُه • »

ـ « لست اعتقد انهم سوف يهجمون الان ، بعد أن بدأت الامطار في التهطال • وان الثلج سوف يتساقط وشيكا • ولكن حدثني عن مواطنيك • هل تعتقد ان اميركيين آخرين سوف يعملون في صفوفنا مثلك ؟ »

ـ « انهم يدربون جيشا مؤلفا من عشرة ملايين • »

ـ « ارجو ان نفوز ببعضهم • ولكن الفرنسيين سوف يستولون عليهم كلهم • اننا لن نفوز بأحد منهم هنا • حسن • ابق هنا الليلة ، واذهب غدا بالسيارة الصغيرة واطلب الى جينو ان يعود • سوف ابعث معك من يعرف الطريق • جينو سوف يخبرك بكل شيء • انهم لا يزالون يطلقون النار من مدافعهم ، بعض الشيء ، ولكن كل شيء قد انتهى • انت لا بد راغب في ان ترى البينسيزا • »

ـ « انا سعيد بأن اراها • واني لسعيد بالعودة الى العمل معك ، يا سيدي المايجور • »

وابتسم قائلا :

ـ« لطف" كثير منك أن تقول هذا • لقد سئمتُ هذه الحرب الى ابعد الحدود • ولو اني كنت بعيدا لما رجعت الى هنا ، على ما أعتقد • »

ـ « هل الوضع رديء الى هذا الحد ؟ »

ـ « نعم • بل أنه اردأ من ذلك • اذهبْ واغتسل وابحث عن صديقك رينالدي • »

وخرجتُ وصعدت السلم حاملا امتعتي • لم يكن رينالدي في الغرفة ، ولكن امتعته كانت هناك • وقعدت على السرير ، وفككت وِقاءَ ساقي ، ونزعت الحذاء عن رجلي اليمنى • ثم استلقيت على السرير • كنت متعبا ، وكانت ساقي اليمنى تؤلمني • لقد بدا من الحمق ان استلقي على السرير واحدى رجليَّ حافية ، وهكذا قعدت وحَلَلْتُ فردة الحذاء الاخرى ،وطرحتها على الارض ، ثم استلقيت على البطانية كرة اخرى • كانت نافذة الغرفة

موسدة وكان هواؤها حبيسا كريه العبق ، ولكني كنت من التعب بحيث تقاعست عن النهوض لفتح النافذة . ورأيت ان اشيائى كلها كانت في احدى زوايا الغرفة . وفى الخارج كان الليل يهبط . لقد استلقيت على السرير وفكرت في كاثرين ،وانتظرت رينالدي . كنت اعتزم ان احاول عدم التفكير في كاثرين الا في الليل قبل ان آوي الى النوم . ولكني كنت الان متعبا ولم يكن لدي ما أعمله ، وهكذا استلقيت على السرير وفكرت فيها . وانما كنت افكر فيها عندما دخل رينالدي . كان هو هو لم يتغير فيه شيء . ولعل جسمه ان يكون قد هـزُل بعض الشيء .

وقال :

– « واخيرا ، ايها الطفل ! »

واستويت قاعدا على السرير ، فأقبل نحوي ، وجلس ، وطوّقني بذراعه.

وأضاف :

– « ايها الطفل العجوز الطيب ! »

وضربني على ظهري ضربة مرنانة ، فأمسكت بكلتا ذراعيه .

وقال :

– « ايها الطفل العجوز . دعني أرى ركبتك . »

– « ينبغي ان انزع بنطلوني . »

– « انزع بنطلونك ، أيها الطفل . نحن كلنا اصدقاء هنا . اريد ان ارى أي نوع من العمل أجْرَوْه عليها . »

فوقفت ، ونزعت بنطلوني ، ورفعت طوق الركبة . وجلس رينالدي على الأرض ، ولوى الركبة في رفق الى وراء والى امام . وأمرّ اصبعه على طول الندبة . ووضع ابهاميه معا على رَضْفة الركبة ، وهزّ الركبة بأصابعه في رفق .

– « أهذا أقصى تَمَفْصُل * تقدِر عليه ؟ »

– « نعم . »

---

* articulation او مدى حركة المفاصل

ـ « من الاجرام ان يعيدوك الى القتال . كان ينبغي ان يتمّ لك قبل ذلك تَمَفْصُل" كامل . »

ـ « انها اليوم أحسن مما كانت بكثير . لقد كانت صلبة مثل لوح من خشب . »

ولواها رينالدي اكثر . وراقبت يديه . كانت له يدا جرّاح بارع . ونظرت الى أعلى رأسه . كان شعره لماعا ، مسرّحا تسريحا حسنا . ولوى ركبتي اكثر مما ينبغي .

فصرخت :

ـ « آي ! »

فقال رينالدي :

ـ « ينبغي ان تخضع لمعالجة اضافية بواسطة الآلات . »

ـ « انها اليوم افضل مما كانت . »

ـ « أرى ذلك ، ايها الطفل . هذا شيء أعرف عنه اكثر مما تعرف انت . »

ونهض ، وقعد على السرير ، ثم اضاف :

ـ « الركبة في ذات نفسها لا بأس بها . » (كان قد انتهى من الركبة)

« حدثني كل شيء عن كل شيء . »

فقلت :

ـ « ليس هناك ما اخبرك به . لقد عشت حياة هادئة . »

فقال :

ـ « انت تسلك مسلك رجل متزوج . ماذا جرى لك ؟ »

فقلت :

ـ « لا شيء . وانت ماذا جرى لك ؟ »

فقال :

ـ « ان هذه الحرب تقتلني . انها توقع في نفسي غما شديدا . »

وطوى يديه على ركبته . »

فقلت :

ـ « اوه ! »

ـ « ما بالك ؟ الا يجوز لي ان اعرف حتى بعض الحوافز البشرية ؟ »

ـ « لا ٠ استطيع ان ارى انك كنت تقضي وقتا طيبا ٠ هات حدثني عن ذلك ٠ »

ـ « لقد سلخت الصيف كله والخريف كله في اجراء العمليات الجراحية ٠ انا اعمل على نحو موصول ٠ انا انهض بأعمال الناس جميعا ٠ انهم يتركون لي جميع الجراحات الصعبة ٠ وحق الرب ، أيها الطفل ، انا في سبيلي الى ان اصبح جراحا مدهشا ٠ »

ـ « مثل هذا النبأ يسرني اكثر ٠ »

ـ « انا لا افكر ابدا ٠ لا ، وحق الاله ، انا لا افكر ٠ انا اجري عمليات جراحية ٠ »

ـ « هذا صحيح ٠ »

ـ « اما الان ، ايها الطفل ، فقد انتهى كل شيء ٠ انا لا اجري عمليات جراحية الان ، وهذا هو ما يضايقني الى ابعد حد ٠ ان هذه الحرب حرب فظيعة ، ايها الطفل ٠ صدقني عندما أقول لك ذلك ٠ انك ترفع من معنوياتي ٠ هل جئتني بالاسطوانات ؟ »

ـ « نعم ٠ »

كانت ملفوفة بالورق ضمن صندوق من الكرتون موضوع في جرابي ٠ وكنت من التعب بحيث تقاعست عن اخراجها منه ٠ »

ـ « وانت ، الست تستشعر النشاط والارتياح ، ايها الطفل ؟ »

ـ « اني استشعر الجحيم ! »

فقال رينالدي :

ـ « هذه الحرب فظيعة ٠ هيا ٠ سوف نسكر كلانا ، ونأخذ بأسباب الابتهاج ٠ وعندئذ نطرد الهموم ونستشعر النشاط ٠ »

وقلت :

ـ « لقد اصبت باليرقان ٠ انا لا استطيع ان اسرف في الشراب ٠ »

ـ « اوه ، ايها الطفل ، واذن فهكذا رجعت الي : رصيناً وذا كبد مريضة ٠ اقول لك ان هذه الحرب شيء رديء ٠ لماذا خضنا غمارها على أية حال ؟ »

ــ « سوف نشرب كأسا • انا لا اريد ان اسكر ولكني سأشرب كأسا • »
وعبر رينالدي الغرفة متجها نحو المنضدة وجاء بكأسين وزجاجة كونياك • وقال :

ــ « انه كونياك نمساوي • كونياك النجوم السبعة • ان هذا هو الشيء الوحيد الذي استولوا عليه في سان غابرييل • »

ــ « هل كنت معهم هناك ؟ »

ــ « لا • انا لم أكن في أي مكان • لقد كنت هناك طوال الوقت اجري عمليات جراحية • انظر ، ايها الطفل ، هذا كوب فرشاة اسنانك العتيقة • لقد احتفظت به هذه المدة كلها ليُذكرني بك • »

ــ « لكي يُذكرك بتنظيف اسنانك بالفرشاة • »

ــ « لا • ان عندي كوبي الخاص • لقد احتفظت به ليُذكرني بما كنت تفعله في الصباح • انه يريني اياك ، مقسما الايمان ، ملتهما الاسبرين ، لاعنا البغايا ، محاولا ان تمسح عن اسنانك آثار الـ « فيلا روسّا » • اني كلما رأيت هذا القدح فكرتُ في جهودك من اجل تنظيف ضميرك بفرشاة اسنان • »

قال ذلك واقترب من السرير ، ثم أضاف :

ــ « قبّلني مرة وقلْ لي انت لم تصبح رجلا رصينا • »

ــ « انا لن اقبلك ابدا • انت قرد • »

ــ « ادري • انت نموذج الفتى الانكلوسكسوني الطيب • أدري • انت فتى الندامة وتوبيخ الضمير ، أدري • سوف انتظر حتى ارى الانكلوسكسوني يمسح العهارة بفرشاة اسنان • »

ــ « صب قليلا من الكونياك في الكأس • »

وقرع كل منا كأسه بكأس صاحبه • وهزأ رينالدي بي •

ــ « سوف اسقيك حتى تسكر ، وانتزع كبدك ، واضع لك مكانها كبدا ايطالية جيدة تعيد اليك رجولتك • »

ورفعت الكأس التماسا لمقدار اضافي من الكونياك • وفي الخارج كان الظلام حالكا ، ومضيت ، والكأس في يدي ، وفتحت النافذة • كان المطر قد كف عن

التهطال • وكان الجو قد أمسى اكثر بردا في الخارج ، وكان الضباب يغشى الاشجـار •

وقال رينالدي :

ـ « لا تقذف بالكونياك من النافذة • اذا كنت لا تستطيع ان تشربه فأعطني ايـاه • »

ـ « غامِرٌ انت بنفسك • »

كنت سعيدا بأن أرى رينالدي من جديد • لقد سلخ سنتين وهو «ينكرزني» ويناكدني ، ولقد احببت ذلك منه دائما • ان كلا منا قد فهم الآخر جيدا •

وسألني من السرير :

ـ « هل انت متزوج ؟ »

كنت مستندا الى الجدار قرب النافذة •

ـ « لم أفعل بعد • »

ـ « هل انت عاشق ؟ »

ـ « نعم • »

ـ « لتلك الفتاة الانكليزية ؟ »

ـ « نعم • »

ـ « ايها الطفل المسكين ! وهل هي لطيفة معك ؟ »

ـ « طبعا • »

ـ « أعني هل هي معك على نحو عملي ؟ •• »

ـ « اخرس • »

ـ « سأخرس • سوف تـرى اني رجـل مهـذب الى ابعـد حـد اهي •••»

فقلت :

ـ « رينين • ارجوك ان تخرس • اذا اردت ان تكون صديقي فاخرس • »

ـ « انا لا اريد ان اكون صديقك • اني صديقك فعلا • »

ـ « اذن فاخرس • »

ـ « حسن • »

ومضيت الى السرير وقعدت الى جانب رينالدي • كان ممسكا بكأسه محدقا الى الارض •

ــ « لقد فهمت ، يا رينين ، اليس كذلك ؟ »

ــ « اوه ، نعم • لقد واجهت ، طول حياتي ، مسائل لا يجوز الخوض فيها• اما معك فلم يُتح لي ذلك الا قليلا • وأحسب انه لا بد أن يكون لديــك شيء منها ايضا • »

قال ذلك وعاود النظر الى الارض •

ــ « وانت اليس لديك مثل هذه المسائل ؟ »

ــ « لا • »

ــ « على الاطلاق ؟ »

ــ « لا • »

ــ « هل استطيع ان اقول كيت عن امك وان اقول كيت عن اختك ؟ »

فسارع رينالدي الى القول :

ــ « او عن اختك ! »

وانفجرنا كلانا بالضحك •

وقلت :

ــ « ياللسوبرمان العجوز ! »

فقال رينالدي :

ــ « لعلي استشعر الغيرة منك • »

ــ « لا • انت لا تستشعر ذلك • »

ــ « انا لا اعني هذا النوع من الغيرة • اني اقصد شيئا آخر • هــل لــك اصدقاء متزوجون ؟»

فقلــت :

ــ « نعم • »

فقال رينالدي :

ــ « انا ليس لي اصدقاء متزوجون • بل ليس لي اصدقاء عشاق • »

ــ « لماذا ؟ »

ـ « انهم لا يحبونني • »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « انا الافعى • انا افعى العقل • »

ـ « لقد التبس عليك الامر • كانت التفاحة هي العقل • »

ـ « لا • الافعى كانت العقل • »

قال ذلك وغدا اكثر ابتهاجا •

وقلـت :

ـ « انك تكون افضل بكثير حين لا تفكر تفكيرا عميقا الى هذا الحد • »

فقال :

ـ « انا احبك ، ايها الطفل • انك تزيل وَرَمي عندما اصبح مفكرا ايطاليا عظيما • ولكني أعرف اشياء كثيرة لا استطيع ان اقولها • انا اعرف اكثر مما تعرف انت • »

ـ « نعم ، هذا صحيح • »

ـ « ولكنك سوف تكون اسعد حالا • حتى مع تبكيت الضمير سوف تكون اسعد حالا • »

ـ « لست اظن ذلك • »

ـ « اوه ، بلى • هـذا صحيح • فأنا اليوم لا استشعر السعـادة الا حين انصرف الى العمل • »

وعاود النظر الى الارض من جديد •

ـ « سوف تتغلب على ذلك • »

ـ « لا • انا لا احب الا شيئين آخرين : أحدهما يضر بعملي والآخر ينقضي في نصف ساعة أو خمس عشرة دقيقة • وفي بعض الاحيان أقلّ • »

ـ « واحيانا اقل من ذلك بكثير • »

ـ « لعلي قد احرزت تقدما ، أيها الطفل • انت لا تدري • ولكن ليس هناك غير هذين الشيئين وعملي • »

ـ « سوف تكتشف اشياء جديدة • »

ـ « لا • ان المرء لا يكتشف اي شيء ابدا • اننا نولد مزوَّديـن بكل مـا

نبالك ، ونحن لا نتعلم شيئا البتة . اننا لا نكتشف ايما شيء جديد . نحن كلنا نبدأ كاملين . يجب أن تسرَّ لانك لست لاتينيا . »

ـ « ليس هناك شيء اسمه الرجل اللاتيني . أعني التفكير اللاتيني . انت شديد الاعتزاز بنقائصك . »

ورفع رينالدي بصره عن الارض ، وضحك .

ثم قال :

ـ « سوف نكف عن النقاش ، ايها الطفل . لقد تعبت من التفكير الى هذا الحد . » كان قد بدا متعبا عندما دخل الغرفة . « لقد حان وقت الطعام ، تقريبا . انا سعيد بعودتك . انت افضل اصدقائي ، وأخي في السلاح . »

فسألته :

ـ « ومتى يأكل الاخوة في السلاح ؟ »

ـ « في الحال . سوف نشرب كأسا اخرى اكراما لكبدك . »

ـ « مثل القديس بولس . »

ـ « هذا غير دقيق . ان ما تشير اليه كان يتصل بالخمر والمعدة . اشرب قليلا من الخمر اكراما لمعدتك . »

فقلت :

ـ « سوف اشرب أي شيء اشتملت عليه الزجاجة . اكراما لاي شيء تنص عليه . »

فقال رينالدي :

ـ « اكراما لفتاتك . »

ورفع كأسه .

ـ « حسن جدا . »

ـ « لن أقول بعد اليوم شيئا قذرا عنها . »

ـ « لا تجهد نفسك . »

وكرع الكونياك . وقال :

ـ « انا طاهر . انا مثلك ، أيها الطفل . سوف افوز بفتاة انكليزية ايضا . الواقع اني عرفت فتاتك قبل ان تعرفها انت ، ولكنها كانت طويلة بعض

الشيء ، بالنسبة الي • طويلة الى حد تصلح معه لان تكون اختا لي • »

فقلـت :

ـ « ان لك عقلا طاهرا الى حد فاتن • »

ـ « اليس كذلك ؟ من اجل هذا يدعونني رينالدو بوريسِّيمو • »

ـ « رينالدو سبورسيسِّيمو • »

ـ « هيا ، أيها الطفل ، سوف ننزل ونأكل ما دام عقلي طاهرا • »

وغسلت يديَّ ووجهي ، وسرَّحت شعري ، وهبطنا السلم • كان رينالدي مخمورا بعض الشيء • وفي الحجرة التي كنا نأكل فيها ، لم يـكن الطعـام جاهزا تماما •

وقال رينالدي :

ـ « سوف اذهب وأجيء بالزجاجة • »

وغادر الحجرة وارتقى السلم • ولم أكد اجلس الى المائدة حتـى رجـع بالزجاجة وصبَّ لكل منا كأسا من الكونياك •

فقلت :

ـ « هذا كثير • »

ورفعت الكأس ، ونظرت نحو المصباح الذي على المائدة •

ـ « ليس كثيرا بالنسبة الى معدة فارغة • انه شيء رائع • انه يحـرق المعدة حرقا كاملا • وليس ثمة ما هو اسوأ منه لك • »

ـ « حسن جدا • »

وقال رينالدي :

ـ « تدمير ذاتيُّ ، يوما فيوما • انه يدمر المعدة ويجعل اليـد ترتعش • وهو الشيء الذي يحتاج اليه الجرَّاح على وجه الضبط • »

ـ « هل تنصح به ؟ »

ـ « بكل حماسة • أنا لا أصطنع غيره • تـَجَرَّعه ، أيها الطفل ، وارتقبْ ان يلمَّ بك المرض عمَّا قريب • »

وشربت نصف الكأس • وفي الرواق سمعت النـادل يصيـح : الحساء ! الحساء جاهز ! »

ودخل المايجور ، وأومأ الينا برأسه ، وقعد • لقد بدا وراء المائدة ضئيـل

الجسم الى حد بعيد ٠

وتساءل :

ـ « ألسنا اكثر عددا من ذلك ؟ »

ووضع النادل وعاء الحساء على المائدة ٠ فملأ صحنه ٠

وقال رينالدي :

ـ « لا ٠ الا اذا جاء الكاهن ٠ لو عرف ان فيديريكو هنا لجاء في الحال ٠»

فسألته :

ـ « أين هو ؟ »

فقال المايجور :

ـ « انه في رقم ٣٠٧ » ٠

كان منهمكا بحسائه ٠ ومسح فمه ، مجففا في عناية شاربه الاشيب المعقوف ٠ ثم أضاف :

ـ « سوف يجيء في ما اعتقد ٠ لقد تلفنت لهم ، وسألتهم ان يخبروه انك هنا ٠ »

فقلت :

ـ « اني افتقد ضجة مطعمنا القديمة ٠ »

فقال المايجور :

ـ « اجل ٠ انه اليوم هادىء ٠ »

فقال رينالدي :

ـ « سوف أكون انا صخابا ٠ »

وقال المايجور :

ـ « اشرب شيئا من الخمر ، يا آنريكو ٠ »

وأترع كأسي ٠ وجيء بالسباغيتي (المعكرونة) وانهمكنا كلنا في التهامها٠ ولم نكد نأتي عليها حتى أقبل الكاهن ٠ كان هو هو ، ضئيل الجسم اسمر ، مكتنزا ٠ ونهضت ، وصافحته ٠ ووضع يده على كتفي وقال :

ـ « لقد جئت حالما سمعت بعودتك ٠ »

فقال المايجور :

ـ « اجلس • لقد تأخرتَ • »

وقال رينالدي :

ـ « مساء الخير ، أيها الكاهن Priest • »

واستعمل اللفظة الانكليزية • وكانت تلك عادة من العادات أطلقها الكابتن الشديد التندّر بالكاهن ، وكان الكابتن يعرف شيئا من الانكليزية •

فقال الكاهن :

ـ « مساء الخير ، رينالدي • »

وجاءه النادل بالحساء ، ولكنه قال انه يفضل ان يستهل طعامه بالسباغيتي (المعكرونة) •

وسألني :

ـ « كيف أنت ؟ »

فقلت :

ـ « في خير حال • وأنت ؟ »

وقال رينالدي :

ـ « ما رأيك في شيء من الخمر ، أيها الكاهن Priest ؟ أشرب قليلا من الخمر اكراما لمعدتك • سنّة سنّها القديس بولس ، كما تعرف • »

فقال الكاهن في كياسة :

ـ « أجل ، أعرف • »

وملأ رينالدي له كأسا ، وقال :

ـ « ذلك القديس بولس ! انه هو مصدر المتاعب كلها • »

ونظر الكاهن الي وابتسم • كان في ميسوري ان ارى ان المداعبة المريرة لم تمسّهُ الان •

وتابع رينالدي :

ـ « ذلك القديس بولس ! لقد كان فاسقا سكيرا ، حتى اذا فقد الحرارة قال ان هذا كله شرّ • عندما أصبح رجلا متهدما وضع القواعد لنا نحن الذين ما يزال الدم يجري حارا في عروقنا • أليس هذا صحيحا ، يا فيديريكو ؟ »

وابتسم المايجور • كنا نتناول الان صحننا من اللحم والخضر •

وقلـت :

ـ « من عادتي ان لا ابدي رأيي في قديس من القديسين بعد ان يهبـط الليل . »

فرفع الكاهن بصره عن صحنه وابتسم لي .

وقال رينالدي :

ـ « عجيب" ، انه يقف الان في صف الكاهن . أين مداعبو الكاهن القدماء الطيبون ؟ أين كافالكانتي ؟ أين بروندي ؟ أين سيزار ؟ هل كُتب عليَّ ان اداعب هذا الكاهن ، وحدي ، من غير نصير ؟ »

فقال المايجور :

ـ « انه كاهن طيب . »

فقال رينالدي :

ـ « اجل انه كاهن طيب . ولكنه كاهن على كل حال . اني احاول ان أعيد الى زمرتنا بهجة الايام الخالية . اني اريد ان اجعل فيديريكو سعيدا . الى الجحيم بك ، أيهاالكاهن . »

ورأيت المايجور ينظر اليه ويلاحظ انه سكران . كان وجهـه المهـزول شاحبا ، وكان شعره يبدو فاحما بالنسبة الى بياض جبينه .

وقال الكاهن :

ـ « حسن ، يا رينالدو . حسن . »

فقال رينالدي :

ـ « الى الجحيم بك . الى الجحيم بهذه المهنة اللعينة كلها . »

واستوى في كرسيه .

وقال لي المايجور :

ـ « انه مرهَق رازح تحت ثقل الاجهاد . »

وأتى على صحن اللحم ، ومسح الصلصة بقطعة من خبز .

وقال رينالدي للمائدة :

ـ « انا لا ابالي مثقال ذرة . الى الجحيم بالمهنة اللعينة كلها ! »

وأجال بصره حول المائدة ، في تحدّ . كانت عينـاه شاردتيـن ، وكان وجهه شاحبا .

فقلت :

ـ « حسن · الى الجحيم بالمهنة اللعينة كلها · »

وقال رينالدي :

ـ « لا·لا·لا تستطيع ان تفعل ذلك · لا تستطيع أن تفعل ذلك · أقول لا تستطيع أن تفعل ذلـك · انت جـاف ، وانـت فـارغ ، وليس ثمـة شيء آخر · أقول لك ليس هناك شيء آخر · ولا اقلّ شيء · انا اعـرف ذلك عندما أكفّ عن العمل · »

وهزّ الكاهن رأسه · وأقبل النادل واخذ صحن اللحم ·

والتفت رينالدي الى الكاهن وقال :

ـ « لماذا تأكل اللحم ؟ ألا تعرف ان اليوم الجمعة ؟ »

فقال الكاهن :

ـ « اليوم الخميس · »

ـ « هذا كذب · اليوم الجمعة · انت تأكل جسد الرب · انه لحم الله · انه لحم جندي نمساوي · ذلك هو ما تأكله · »

فقلت متمماً النكتة القديمة :

ـ « اللحم الابيض هو لحم ضبّاط · »

وضحك رينالدي · وأترع كأسه ·

وقال :

ـ « ارجو ان تغضوا الطرف عني · انا مخبول بعض الشيء · »

فقال الكاهن :

ـ « ينبغي ان تأخذ اجازة · »

وهز المايجور رأسه · وحدّق رينالدي الى الكاهن ·

ـ « تعتقد ان علي ان آخذ اجازة ؟ »

فهز المايجور رأسه للكاهن · وواصل رينالدي تحديقه اليه ·

وقال الكاهن :

ـ « كما تشاء · لا تأخذْ اجازة اذا كنت غير راغب في أخذها · »

فقال رينالدي :

ـ « الى الجحيم بك ! انت تحاول ان تتخلص مني · كل ليلة يحاولـون التخلص مني · ولكني اذودهم عن نفسي · وأي بأس اذا اخذت اجازة ؟ الناس كلهم يأخذون اجازات · اولا ··· »

واسترسل متخذا وضع المحاضر :

ـ « أولا ، يكون ثمة بثرة صغيرة ليس غير . وبعد ذلك نلاحظ طفحا بين الكتفين . ثم لا نلاحظ اي شيء على الاطلاق . اننا نضع ثقتنا في الزئبق . »

فاعترضه المايجور في هدوء :

ـ « او في السالفارسان ❋ ... » ..

فقال رينالدي ، وقد بدا شديد الاعتزاز الان :

ـ « نتاج زئبقي . انا اعرف شيئا افضل من ذلك كله. ايها الكاهن العجوز الطيب ، انت لن تصاب بذلك ابدا . الطفل سوف يصاب به . انه حادث عمل . حادث عمل بسيط . »

وجاء الخادم بالحلوى والقهوة . وكانت الحلوى ضربا من الكاتو المصنوع من لب الخبز . وكان المصباح يرسل دخانا ، وكان الدخان الاسود يرتفع صعُدا في داخل الزجاجة .

وقال المايجور :

ـ « ايتِ بشمعتين ، وارحنا من هذا المصباح . » .

فجاء الخادم بشمعتين مضاءتين كلٌ منهما في صحن ، واخرج المصباح ونفخ عليه ابتغاء اطفائه . كان رينالدي هادئا الان ، وكان يبدو سويًا وتحدّثنا ، وبعد القهوة قصدنا جميعا الى الرواق .

قال رينالدي :

ـ « انت تريد ان تتحدث مع الكاهن . اما انا فيجب ان اذهب الى المدينة. طاب مساؤك ايها الكاهن Priest . »

فقال الكاهن :

ـ « طاب مساؤك ، يا رينالدو . »

وقال رينالدي :

ـ « سوف اراك يا فريدي . »

فقلت :

❋ مستحضر طبي لمعالجة الامراض الزهرية .

ـ « نعم · لا تتأخر في العودة · »

فكشَّر ساخرا مني وشخص نحو الباب ·

وكان المايجور واقفا معنا ، فقال :

ـ « انه مرْهق جدا ، مُجْهَد جدا ·وهو يظن انه مصاب بالسفلس ايضا· ولست اصدق ذلك ، ولكنه قد يكون مصابا به · انه يعالج نفسه بما يعالَج به ذلك الداء · انت سوف تفارقنا قبل طلوع الشمس ، أليس كذلك يا آنريكو ؟ »

ـ « نعم · »

فقال :

ـ « وداعا أيها السيد المايجور · »

ـ « وداعا · انهم يتحدثون عن هجوم نمساوي ولكنني لا أصدق ذلك · أنا ارجو أن لا يحدث شيء مثل هذا · وعلى أية حال فانه لن يقع هنا · جينو سوف يخبرك بكل شيء · التلفون يعمل الان جيدا · »

ـ « سوف اتلفن لكعلى نحو نظامي · »

ـ « ارجوك ان تفعل · طاب مساؤك · لا تدع رينالدي يسرف في شرب البراندي الى هذا الحد · »

ـ « سوف احاول ذلك · »

ـ « طاب مساؤك ايها الكاهن · »

ـ « طاب مساؤك ، ايها السيد المايجور · »

ومضى الى مكتبه ·

الفصل السادس والعشرون

وتقدمت نحو الباب وأطللت منه ٠ كان المطر قد انقطع ، ولكن كان ثمــة ضباب ٠

وسألت الكاهن :

ــ « ما رأيك في الصعود الى الدور العلوي ؟ »

ــ « لن استطيع البقاء الا قليلا ٠ »

ــ « هيًا نصعد ٠ »

وارتقينا السلم ٠ ومضينا الى غرفتي ٠ واستلقيت على سرير رينالدي ٠ وقعد الكاهن على سريري الصغير الذي كان الخادم قد اقامه ٠

كان الظلام يهيمن على الغرفة ٠ وقلت :

ــ « حسنا ، كيت انت فعلا ؟ »

ــ « بخير ٠ انا متعب الليلة ٠ »

ــ « وانا متعب ايضا ، ولكن لغير ما سبب ٠ »

ــ « وما رأيك في الحرب ؟ »

ــ « أعتقد انها سوف تنتهي وشيكا ٠ لست ادري لماذا ، ولكنــي أحس ذلك ٠ »

ــ « كيف تحسه ؟ »

ــ « هل سبق لك ان رأيت المايجور على هذا اللطف ؟ ان كثيرا من الناس اصبحوا مثله الان ٠ »

فقلت :

ـ « أنا نفسي أستشعر مثل هذا التطور ايضا · »
وقال الكاهن :
ـ « لقد كان صيفا فظيعا »· كان اكثر وثوقا من نفسه الان منه يوم رحلت · « انت لا تستطيع ان تصدق كيف كان ذلك الصيف · ولكنك على أية حال كنت هناك وفي استطاعتك ان تتخيل على أي نحو انقضت تلك الايام · ان كثيرا من الناس لم يدركوا حقيقة الحرب الا هذا الصيف · وكثير من الضباط الذين حسبْتُ انهم لن يدركوا حقيقتها البتة أصبحوا يدركونها الان · »
ـ « ما الذي سيحدث ؟ »
قلت ذلك ورحت أربّت بيدي على البطانية ·
فأجاب :
ـ « لست ادري، ولكني لا اعتقد ان في امكانها ان تستمر اكثر مما استمرت بكثير · »
ـ « ما الذي سيحدث ؟ »
ـ « سوف يكفّون عن القتال · »
ـ « مَنْ ؟ »
ـ « كلا الفريقين · »
فقلت :
ـ « أرجو ذلك · »
ـ « ألا تعتقد هذا ؟ »
ـ « انا لا اعتقد ان كلا من الفريقين سوف يكف عن القتال في الحال · »
ـ « وانا ايضا لا اعتقد · فهذا اكثر مما يستطيع المرء ان يتوقعه · ولكني حين أرى التغيرات الطارئة على الناس يتبدّى لي ان الحرب لا يمكن ان تستمر · »
ـ « من الذي ربح الجولة هذا الصيف ؟ »
ـ « لا أحد · »
فقلت :
ـ « لقد ربحها النمساويون · لقد حالوا بينهم وبين الاستيلاء على سان

غابرييل • لقد كسبوا • انهم لن يكفوا عن القتال • »

ـ « اذا شعروا بمثل ما نشعر به نحن فقد يكفّون • لقد عانوا مثل مـا عانينا • »

ـ « لم يسجل التاريخ ان أحدا كفّ عن القتال وهو منتصر • »

ـ « انت توقع اليأس في نفسي • »

ـ « انا لا استطيع ان أقول الا ما أعتقده • »

ـ « واذن فأنت تعتقد انها سوف تستمر وتستمر ؟ وان شيئا لن يحـدث أبدا ؟ »

ـ « لست ادري • كل ما أعتقده هو ان النمساويين لن يكفّوا عـن القتال بعد ان أحرزوا نصرا • اننا لا نصبح مسيحيين الا في حال الهزيمة • »

ـ « النمساويون مسيحيون ، باستثناء البشناق • * »

ـ « انا لا اعني مسيحيين بالمعنى الحرفي • لقد قصدت مثل المسيح • »

فلم يقل شيئا •

ـ « نحن اكثر لطفا ، الان ، لاننا هُزِمنا • كيف كان يمكن للسيد المسيح ان يكون لو ان بطرس انقذه في « حديقة الزيتون » ؟

ـ « كان يظل كما نعرفه تماما • »

فقلت :

ـ « لست اظن ذلك • »

فقال :

ـ « انت توقع اليأس في نفسي • انـا اعتقد ان شيئا سـوف يحـدث ، واصلّي من اجل ذلك • ولقد احسست بأن حدوثه سيكون وشيكا • »

فقلت :

ـ « ان شيئا قد يحدث • ولكنه لن يحدث الا لنا • ولـو انهـم يحسّون بمثل احساسنا اذن لكان كل شيء حسنا • ولكنهم هزمونا • انهم يحسّون احساسا آخر • »

---

* البشناق هم سكان البوسنة •

ـ « ان كثيرا من الجند قد استشعروا دائما مثل هذا الشعور • وليس مرد ذلك الى انهم قد هزموا • »

ـ « لقد هزموا منذ البدء • لقد هزموا عندما انتزعوهم من مزارعهم وادخلوهم في الجيش • ذلك هو السبب الذي من اجله يتمتع الفلاح بالحكمة : لانه قد هُزِم منذ البداية • سلِّمهُ مقاليد السلطة وانظر مبلغ حكمته • »

ولم يقل شيئا • كان يفكر •

وقلت :

ـ « ان معنوياتي انا منحطة الان • وهذا ما يجعلني لا افكر في هذه الامور البتة • انا لا افكر ابدا ، ومع ذلك فحين اشرع في الحديث اقول ما اكتشفته بعقلي من غير تفكير • »

ـ « لقد كنت ارجو شيئا • »

ـ « الهزيمة ؟ »

ـ « لا • شيئا اكثر • »

ـ « ليس ثمة شيء اكثر من الهزيمة • ما عدا النصر • والنصر قد يكون اسوأ • »

ـ « لقد رجوت ، طوال فترة مديدة ، ان ننعم بالنصر • »

ـ « وانا ايضا • »

ـ « أما الان فلست ادري • »

ـ « لا بد من واحد منهما ، آخر الامر • »

ـ « انا لم اعد اؤمن بالنصر • »

ـ « وانا ايضا • ولكني لا اؤمن بالهزيمة • على الرغم من ان الهزيمة قد تكون افضل • »

ـ « ما الذي تؤمن به ؟ »

فقلت :

ـ « بالنوم • »

فنهض قائلا :

ـ « آسف جدا لبقائي هذه المدة كلها • ولكني احب ان اتحدث اليك حبا كثيرا • »

ـ « من الجميل جدا ان نتحدث كرة ثانية · لقد قلت ما قلته عن النوم من غير ان اعني شيئا · »

ونهضنا ، وتصافحنا في الظلام ·

وقال :

ـ « انا ابيت في رقم ٣٠٧ الان · »

ـ « سوف انطلق الى مراكز الاسعاف في ساعة مبكرة من صباح غد · »

ـ « سأراك عندما ترجع · »

ـ « ولسوف نتمشى ونتحدث معا · »

وسرت معه حتى الباب ·

ـ « لا تنزل · انا سعيد جدا بعودتك ، على الرغم من ان هـذه العودة لا تبعث الارتياح في نفسك · »

ووضع يده على عاتقي ·

فقلت :

ـ « سيان عندي · طاب مساؤك · »

ـ « طاب مساؤك ، سيياوو ! »

فقلت :

ـ « سيياوو ! »

كان النعاس يكاد يقتلني ·

الفصل السابع والعشرون

وأفقت عندما دخل رينالدي الغرفة ، ولكنه لم يتكلم ، فاستسلمت للرقاد من جديد · وفي الصباح ارتديت ملابسي ومضيت لسبيلي قبل ان تشرق الشمس · ان رينالدي لم يفق عندما غادرت الغرفة ·

لم اكن قد رأيت مقاطعة الـ « بينسيزا » من قبل ، ولقد وجدت ان من الغريب ان اصعّد في هذا المنحدر الذي كان يحتله النمساويون، وراء البقعة التي جُرحت فيها عند ضفة النهر · كان ثمة طريق جديدة شديدة الانحدار ، وكثير من الشاحنات · ووراء ذلك امست الطريق مستوية ، ورأيت وسط الضباب غابات وكثبانا شديدة الانحدار · كان ثمة غابات احتُلّت في سرعة فلم تُسْحَقْ سحقا · وابعد الى الوراء ، حيث الطريق غير مصونة بالكثبان ، كان يحجب هذه الطريق من جانبيها ومن اعلاها ضرب من البساط الكثيف · وكانت الطريق تنتهي بقرية مدمرة · وكانت خطوط القتال تمتد في مرتفع وراء ذلك بقليل · وحوالي هذه الخطوط انتثرت المدافع في كثرة · وكانت البيوت مدمرة تدميرا ماحقا ، ولكن كل شيء كان منظما تنظيما حسنا جدا ، وكان ثمة لوحات اعلانية في كل مكان · وعثرنا على جينو ، فجاءنا بشيء من القهوة ، وبعد ذلك ذهبت معه واجتمعت الى اناس مختلفين ، وتفقّدت مراكز الاسعاف · وقال جينو ان السيارات البريطانية كانت تعمل في الـ « رافن » ، تحت الـ « بينسيزا » بقليل · كان شديد الاعجاب بالبريطانيين · وقال انه لا يزال قَدْر معيّن من قصف المدافع ولكن عدد الجرحى قليل · ولسوف

يتكاثر عدد المرضى عما قريب بعــد ان شرع المطر في التهطال • وكان مــن المفروض انيشن النمساويون هجوما، ولكن جينو لميكن يعتقد انهم سيفعلون• وكان من المفروض ايضا ان نشن نحن هجوما ايضا،ولكنهم لم يجيئوا بأيةقوات جديدة ، وهذا ما جعله يعتقد ، كذلك ، ان هذا الهجوم لن يقع • كان الطعام نادرا ، وكان يُسعده ان يتناول وجبة طعام كاملة في غوريتزيا • أي نوع من العشاء كان العشاء الذي تناولته ؟ وأجبته عن سؤاله هذا ، فقال ان هذا خليق به ان يكون شيئا رائعا • ولقـد تأثر على نحو أخص بالـ « دولس » • ولم اصفه له في تفصيل ، بل اكتفيت بالقول انه يدعى « دولس » ، واحسب انه اعتقد ان هذا « الصحن » اللذيذ كان اكثر اناقة من « كاتو » لبّ الخبز •

هل كنت اعرف الى أين كان يعتزم ان يذهب ؟ فقلت لا ، ولكني اعرف ان بعض السيارات الاخرى كانت في كابوريتو • فقال انــه يرجو ان يصعد في ذلك الاتجاه • كانت بقعة صغيرة لطيفــة ، وكان يحب الجبل الشامخ القائم خلفها • كان فتى قريبا الى النفس ، وكان كل امرىء يحبه في ما يبدو • لقد قال ان الجحيم الفعلي كان في سان غابرييل ، وفي الهجوم الـذي شنّ وراء « لوم » والذي اخفق اخفاقا كبيرا • وقال ان للنمساويين قوات مدفعية ضخمة في الغابات ، على قمة تيرنوفا وراءنا وفوقنا ، وكانوا يقصفون الطريق قصفا عنيفا بعد ان يهبط الليل • وكانت ثمة بطارية مدافع بحرية اثارت اعصابه الى أبعد الحدود • كان في ميسور المرء ان يتبيَّنهـــا بسبب من خط سيرهـــا المنخفض • وكان دوي الانفجار يُسْمع اولا ثم يعقبه الصفير في الحال تقريبا• وكان من عادتهم ان يطلقوا النار من مدفعين في آن معا ، أحدهما في اثر الاخر، وكانت شظايا الانفجار هائلة • واراني واحدة منها ، قطعة معدنية مصقولـة مسنَّنة يزيد طولها على قدم • لقد بدت اشبه شيء بالمعدن المضاد للاحتكاك •

وقال جينو :

ــ « انا لا اعتقد انها ذات فعالية كبيرة ، ولكنها تلقي الرعب في فؤادي • انها كلها تبدو وكأنها قادمة مباشرة من اجـلك • انـك تسمع الهدير اولا ، وبعد ذلك في الحال تسمع الصفير والانفجار • أي فائـدة من عدم اصابتك بجرح ما ، اذا كانت تلك القنابل تروّعك حتى الموت ؟ »

وقال انه كان ثمة في الخطوط المواجهة لنا الان كرواتيون وبعض المجر ٠ وان قواتنا لا تزال في مواقع هجومية ٠ ولم يكن ثمة جهـاز اتصال لاسلكي يُذكر ، ولا مكان نستطيع ان نرتدَّ اليـه اذا ما قام النمسـاويون بهجوم ٠ كانت هناك مواقع دفاعية ممتازة على طول الجبال المنخفضة المنبثقة من النجّاد، ولكن أيما شيء لم يُعمَل من أجل اعدادها للدفاع ٠ وسألني جينو اخر الامر رأيي في مقاطعة بينسيزا على أية حال ٠

فأجبته اني كنت اتوقع ان اجدها اكثر استواء ، اشبه بنجد من النجاد ٠ انا لم أتصور من قبل انها مكسَّرة الى هذا الحد ٠ »

فقال جينو :

ـ « بيانو عال ، ولكن من غير بيانو ٠ »

ورجعنا الى حيث كان يقطن في قبو أحد المنازل ٠ وقلت اني كنت احسب ان سلسلة النجاد التي تستوي عند قمتهـا وذات العمـق الضئيل يمـكن ان يُدافع عنها على نحو اكثر سهولة مما يُدافعُ عن سلسلة من الجبال الصغيرة٠ واضفت قائلا ان الهجوم فوق جبل ما ليس اشد عسرا من الهجوم فوق الارض المستوية ٠ فقال :

ـ « ذلك يتوقف على طبيعة الجبال ٠ انظر الى سان غابرييل مثلا ٠ »

فقلت :

ـ « نعم، ولكن المتاعب بدأت على القمة حيث الارض مستوية ٠ لقد تسلـّقوا القمة في كثير من السهولة ٠ »

فقال :

ـ « لا ٠ لم يكن الامر سهلا الى هذا الحد ٠ »

فقلت :

ـ « انا معك ٠ ولكن هذه الحالة كانت حالة خاصـة ، لان سان غابرييل قلعة اكثر منه جبلا ، على اية حال ٠ لقـد سلخ النمساويون سنوات طويلة في تحصينه ٠ »

وكنت اعني انه من وجهة النظر التكتيكية وفي حرب تتميز ببعض الحركة لا تساوي سلسلة الجبال شيئا كخط يُدافع عنه لان من اليسير جدا الالتفاف

حولها • ينبغي ان يتمتع الجيش بالقدرة على شيء من الحركة ، والجبل ليس مَرِنا جدا • والى هذا فالمرء يطلق النار دائما على نحو مرتفع جدا عندما يكون هو في مكان منخفض • فاذا ما قام العدو بحركة التفاف فعندئذ تُترك خيرة المقاتلين في اشد القمم شموخا • انا ما كنت اؤمن بحرب تدور رحاها في الجبال • وقلت انني كنت قد فكرت في ذلك كثيرا • انك تنتزع من العدو جبلا ، وانهم ينتزعون منك جبلا ، ولكن ما ان يجدّ الجد حتى يضطرّ كل من الفريقين الى الهبوط الى السهل •

وسألني :

ـ « ماذا كنت تفعل لو كانت لديك حدود جبلية ؟ »

فقلت :

ـ « انا لم ادرس هذه المسألة بعد » • وضحكنا كلانا • « ولكن في الايام السالفة كان النمساويون يُهْزمون دائما في الاراضي شبه المربّعة المجاورة لفيرونا • كانوا يستدرجونهم الى السهل ويُنْزِلون بهم الهزيمة هناك • »

فقال جينو :

ـ « اجل • ولكن هؤلاء كانوا فرنسيين ، ومن اليسير على المرء حلّ المشاكل العسكرية حين يحارب في اراضي الاعداء • »

فوافقته على ذلك قائلا :

ـ « هذا صحيح • ولكن حين يحارب المرء في وطنه يعجز عن معالجة الاشياء معالجة علمية الى هذا الحد • »

ـ « لقد فعل الروس ذلك لكي يوقعوا نابوليون في الفخ • »

ـ « صحيح • ولكن بلادهم واسعة جدا • ولو انك حاولت التراجع لايقاع نابوليون في الفخ في ايطاليا اذن لوجدت نفسك في برنديزي • »

فقال جينو :

ـ « مدينة فظيعة • هل زرتها في يوم من الايام ؟ »

ـ « زيارة خاطفة • »

فقال جينو :

ـ « انا رجل وطني • ولكني لا استطيع ان احب برنديزي او تارانتو •

فسألته :

ـ « هل تحب البينسيزا ؟ »

فقال :

ـ « التربة مقدسة . ولكني اتمنى لو انها تُنبت مقدارا اعظم من البطاطا . هل تدري ؟ اننا عندما جئنا الى هنا وجدنا حقول بطاطا كان النمساويون قد زرعوها . »

ـ « هل كانت ثمة ازمة مواد غذائية فعلا ؟ »

ـ « انا شخصيا لم اجد قط كفايتي من الطعام . ولكني اكول ضخم ، ومع ذلك فلم أذق طعم الجوع . ان مقادير الطعام متوسطة . والجنود المقاتلون في خط النار ينعمون بتغذية جيدة . أما جنود الاحتياط فلا يفوزون بمثل تلك التغذية . ان ثمة خطأ ، في مكان ما . يجب ان يكون هناك طعام وفير . »

ـ « المضباط الخنازير يبيعونه في مكان اخر . »

ـ « نعم . انهم يقدمون الى الكتائب المقاتلة في خط النار كل ما يستطيعون ان يقدموه ، ويهملون الجنود العاملين في الخطوط الخلفية فهم يَشْكون نقصا كبيرا في الغذاء . لقد التهموا مقادير البطاطا النمساوية كلها ، وكستناء الغابات . ان عليهم ان يغذ وهم تغذية افضل . نحن أكولون من الطراز الاول . انا واثق من ان ثمة طعاما وافرا . وانه لمما يؤذي الجند الى ابعد الحدود أن يواجهوا نقصا في الغذاء . هل لاحظتَ في يوم من الايام الفرق الذي يُحدثه ذلك في طريقة تفكيرك ؟ »

فقلت :

ـ « اجل ، ان هذا ليس قادرا على ان يكسب حربا ، ولكنه قادر على ان يخسر حربا . »

ـ « لن نتكلم عن خسارة الحرب . كفانا ما يدور من حديث عنها . ان ما تمَّ عمله في هذا الصيف لا يمكن ان يذهب سدى . »

ولم انطق بكلمة . فقد كنت ارتبك دائما لدن سماعي هذه الكلمات : مقدَّس ، مجيد ، تضحية ، وتعبير « يذهب سدى » . لقد سبق لنا ان سمعناها ، ونحن واقفون احيانا تحت المطر ، بعيدا عن مجال السمع تقريبا ، بحث ما كان يبلغ آذاننا غير الكلمات المهتوف بها . وسبق لنا ان قرأناها في

البيانات الجدارية التي كان ملصقو الإعلانات يلصقونها منذ عهد بعيد فوق بيانات اخرى . ولم أكن قد رأيت أي شيء مقدّس . والاشياء التي كانت مجيدة ، لم يكن فيها شيء من المجد ، والتضحيات كانت اشبه بمسالخ شيكاغو ، مع هذا الفارق ، وهو ان اللحم هنا يُدفن في الارض ليس غير . لقد كان ثمة كلمات كثيرة ليس في استطاعتك احتمال سماعها ، وكانت اسماء الاماكن هي وحدها ذات شرف وكرامة في اخر الامر . والشيء نفسه كان يصح على بعض الارقام وبعض التواريخ ، وهذه بالاضافة الى اسماء الاماكن كانت كل ما تستطيع ان تقوله وانت واثق من انه ينطوي على معنى . ان الكلمات المجردة ، مثل المجد والشرف والشجاعة والقداسة ، كانت مقذعة بالقياس الى الاسماء العينية الخاصة بالقرى ، وارقام الشوارع ، واسماء الانهار ، وارقام الكتائب العسكرية ، وتواريخ الايام . ان جينو كان رجلا وطنيا ، ومن اجل ذلك كان يقول اشياء تفرّق ما بيننا ، ولكنه كان ايضا فتى لطيفا ، وكنت افهم وطنيّته . لقد وُلد وطنيا . وفارقني مستقلا السيارة مع بيدوزي لكي يرجع الى غوريتزيا .

كانت العواصف تهب طوال ذلك النهار . وساقت الريح الامطار بسياطها ، وفي كل مكان كان وحل ومياه راكدة . كان جصّ المنازل المهدمة رماديا نديّا . وفي ساعة متأخرة من الاصيل كفّ المطر عن التهطال، ومن مركز الاسعاف الثاني رأيت الريف وقد جعله الخريف عاريا نديّا . وكللت السحب قمم الكثبان ، والحُصُر تظلّل الطرق رطبة يقطر منها الماء . واطلت الشمس رأسها مرة من قبل ان تغرب ، والتمعت فوق الغابات العارية وراء الكثبان . وكانت ثمة مدافع نمساوية كثيرة في الغابات فوق تلك الكثبان . ولكن عددا قليلا منها فحسب كان يطلق النار . وراقبتُ هبّات الدخان المستديرة المنبعثة من قنابل الشّر بْنيل * والتي كانت تظهر في السماء ، فجأة ، فوق بيت ريفي متهدم ترب خط النار . كانت هبّات رخصة في وسطها وميض أبيض ضارب الى الصفرة . وكنت تلمح الوميض ، ثم تسمع الانفجار ، ثم ترى كُرة الدخان

---

* Shrapnel

وقد شوّهتها الريح وبدّدتها · وكانت انقاض البيوت حافلة بكُرات قنابل الشربنيل الحديدية ، وكذلك كانت الطريق المحاذية للبيت المهدّم ـ حيث كان مركز الاسعاف ـ حافلة بتلك الكرات ايضا ، ولكن النمساويين لم يصوبوا النار الى المركز في ذلك الاصيل · وحمّلنا سيارتين اثنتين ، وهبطنا الطريق المحجوبة بالحصر الندية ، واخترقت أشعة الشمس الاخيرة فجوات الحصر · وقبل ان ننتهي الى الطريق المكشوفة وراء التل ، كانت الشمس قد غربت · وهبطنا الطريق المكشوفة ، وحين انعطفت بنا عند زاوية قادتنا الى ساحة محجوبة بالحصر ، شرع المطر يهطل كرة اخرى ·

وهبت الريح في الليل ، وفي الساعة الثالثة صباحا ، وتحت وابل من المطر الغزير ، بدأ قصف المدافع ، وزحف الكرواتيون عبر المروج الجبلية وعبر الغابات الصغيرة ، حتى خط النار · لقد قاتلوا في الظلام ، تحت المطر ، ولكن هجوما معاكسا قام به رجال مذعورون من خط النار الثاني ، ردّهم على اعقابهم · كانت المدافع تقصف على نحو موصول ، وكانت الصواريخ تنطلق في المطر ، وكانت نيران الرشاشات والبنادق تدوي على طول الجبهة · ولم يعاود الكرواتيون الهجوم ، واصبحت الجبهة اهدأ من ذي قبل ، وبين عصَفات الريح والمطر كان في ميسورنا ان نسمع صدى قصف هائل منبعث من مكان بعيد في ناحية الشمال ·

كان الجرحى يفدون الى مركز الاسعاف ، وكان بعضهم يُحملون على نقالات ، وبعضهم يمشون ، وبعضهم يُنقلون على ظهور جنود تقدّموا بهم عبر الحقول · كانوا مبللين حتى البشرة ، وكانوا كلهم مروّعين · وملأنا سيارتين بجرحى محمولين على نقالات جيء بهم من قبو المركز · وفيما انا اوصد باب السيارة الثانية واحكم اغلاقه استشعرت المطر على وجهي يتحول الى ثلج · كانت رقاقات الثلج تتساقط ثقيلة وسريعة وسط المطر ·

وعندما اشرقت الشمس كانت العاصفة لا تزال تهبّ ، ولكن تساقط الثلج كان قد انقطع · كان قد ذاب حالَ سقوطه على الارض الندية ، وكان المطر قد بدأ يهطل من جديد · وبعد اشراق الشمس مباشرة شُنّ هجوم جديد ولكنه لم يكن ناجحا · وطوال النهار توقعنا هجوما آخر ، ولكنه لم يقع الا مع غروب

الشمس . وبدأ القصف من ناحية الجنوب نحت سلسلة الكثبان الطويلة الحافلة بالغابات ، حيث كانت مدافع النمساويين محتشدة في تركيز . وتوقعنا ان تمطرنا المدافع بنيرانها ، ولكن ذلك لم يحدث . كان الليل قد شرع يهبط . واطلِقت نيران المدافع في الحقل ، خلف القرية ، فكان للقنابل الساقطة بعيدا دويّ مُريع .

وسمعنا ان الهجوم في الجنوب كان مخفقا . انهم لم يهجموا تلك الليلة ، ولكننا سمعنا انهم قد أحدثوا ثغرة في خطوطنا الشمالية . وفي موهن من الليل جاءنا الامر بالاستعداد للتراجع . لقد اخبرني الكابتن بذلك ، في مركز الاسعاف . كان قد تلقى ذلك الامر من قيادة اللواء . وبعد فترة قصيرة فارق خط التلفون وقال ان ذلك كان كذبا . كان اللواء قد تلقى اوامر تطلب اليه الاحتفاظ بخط البينسيزا مهما كلف الامر . وسألت عن الثغرة التي احدثها النمساويون في خطوطنا ، فقال انه سمع في اللواء ان النمساويين اخترقوا مواقع الجيش السابع والعشرين قرب كابوريتو . كانت معركة" كبيرة" قد دارت رحاها في الشمال طوال النهار .

وقال :

ـ « اذا تركهم ابناء الزنا يمرّون حلّت بنا الهزيمة . »

فقال احد الضباط الاطباء :

ـ « الالمان هم الذين يقومون بالهجوم . »

وكانت كلمة « الالمان » شيئا يوقع الرعب في النفس . وكنا لا نريد ان تكون لنا اية صلة بالالمان .

وقال الضابط الطبيب :

ـ « ان ثمة خمس عشرة فرقة من الالمان . لقد اخترقوا خطوطنا ، ولسوف يقطعون علينا خط الرجعة . »

ـ « في اللواء يقولون ان علينا ان نحتفظ بهذا الخط . انهم يقولون ان العدو لم يخترق مواقعنا على نحو خطير ، واننا سوف نقيم خطا دفاعيا عبر الجبال ، ابتداء من مونت ماغيور . »

ـ « من قال لهم هذا ؟ »

ـ « قيادة الفرقه . »

ـ « ان الامر بالتراجع جاء من قيادة الفرقة . »

فقلت :

ـ « اننا نعمل بأمرة قائد الفيلق . اما هنا فاني اتلقـــى الاوامر منـك . وطبيعيّ اني سوف اذهب اذا سألتني ان اذهب ، ولكن حاوِل ان تحصل على اوامر واضحة لا لبس فيها . »

ـ « الاوامر تقضي بأن نبقى هنا . وعليك ان تنقل الجرحى من هنـــا الى مركز الجلاء . »

فقلت :

ـ « اننا في بعضُ الاحيـــان نجلو عن مركز الجلاء الى مستشفيـات الميدان ايضا . قل لي ، فأنا لم اشهد قط تراجعا ـ اذا ما اضطر جيش الى التراجع فكيف يُجْلى جميع الجرحى ؟ »

ـ « اننا لا نُجلي الجرحى كلهم . اننا ننقل اكبر عدد منهم نستطيع نقله ونخلّف الباقين وراءنا . »

ـ « وما الذي يتعيَّن عليَّ ان احمله في السيارات ؟ »

ـ « معدّات المستشفى . »

فقلت :

ـ « حسن . »

وفي الليلة التالية بدأ التراجع . كنا قد سمعنا ان الالمان والنمساويين قد اخترقوا خطوط دفاعنا في الشمال ، وانهم يهبطون اوديـــة الجبـــال نحو « سيفيدال » و « يودين » . كان التراجع نظاميا ، مأتميا ، نديًّا . ففي موهن من الليل ، ونحن نمضي وئيدا فوق الطرق الحاشدة ، مررنـــا بقوات تسير تحت المطر ، وبمدافع ، وخيول تجر بعض العربات ، وبغال وشاحنات ، وكان كل اولئك يتقهقر مبتعدا عن الجبهة . لم يعد ثمة فوضى واختلاط اكثر مما يكون في الزحف من فوضى واختلاط .

وتلك الليلة ساعَدْنا على اخلاء مستشفيات الميدان التي اقيمت في قرى النجد الاقل خرابا ، هابطين بالجرحى الى بلافا ، عند مجرى النهر . وفي اليوم التالي سلخنا النهار بطوله، تحت وابل المطر ، ونحن نكدح لاخلاء المستشفيات ومركز الاجلاء في بلافا . كانت الامطار تهطل على نحو موصول ، ولقد غـــادر

جيش البينسيزا النجد تحت مطر تشرين الاول (اكتوبر) ، وعَبَرَ النهر ، هناك حيث كانت الانتصارات الكبرى قد بدأت في ربيع تلك السنة نفسها . ووصلنا الى غوريتزيا في ظهيرة اليوم التالي . كان المطر قد انقطع ، وكانت المدينة خالية تقريبا . وفيما نحن نصعد في الشارع كان القوم يرحّلون بنات الماخور الخاص بالجند على متن احدى الشاحنات . كان عددهن سبعا ، وكنَّ يعتمرن بقبعاتهن ويرتدين معاطفهن ، ويحملن حقائب ثياب صغيرة . كانت اثنتان منهن تبكيان . ومن بين الاخريات ابتسمت واحدة لنا ، واخرجت لسانها . كانت لها شفتان غليظتان ممتلئتان وعينان سوداوان .

واوقفت السيارة ، ومضيت فتحدثت الى القيّمة . لقد قالت ان البنات العاملات في الماخور الخاص بالضباط غادرن المكان في ساعة مبكرة من ذلك الصباح . الى اين كن ذاهبات ؟ فأجابت : الى كونيغليانو . وأدير محرك الشاحنة . ومرة ثانية اخرجت الفتاة ذات الشفتين الغليظتين لسانها لنا . ولوّحت القيّمة بيدها . وواصلت البنتان عويلهما . أما الاخريات فنظرن الى المدينة في تطلع وشوق . وعدت انا الى السيارة .

وقال بونيلو :

ـ « يجب ان نذهب معهن . مثل هذه الرحلة خليقة بأن تكون رحلة جميلة . »

فقلت :

ـ « ورحلتنا سوف تكون جميلة ايضا ! »

ـ « لا ، انها ستكون مزعجة الى حد جهنمي . »

فقلت :

ـ « هذا ما اعنيه . »

واتخذنا سبيلنا الى الدارة .

وقلت :

ـ « كم اتمنى لو أكون هناك عندما يثب واحد من اولئك الغلمان الجُفاة الى الشاحنة ويحاول مغازلتهن . »

ـ « اتظن انهم سوف يفعلون ؟ »

ـ « من غير ريب . ان كل امرىء في الجيش الثاني يعرف تلك القيّمة . »

كنا قد انتهينا الى الجزء الخارجي من الدارة ·

وقال بونيلو :

– « انهم يدعونها الام العليا · البنات جديدات ، أما هي فكل امرىء يعرفها· لا ريب انهم قد جاءوا بالبنات قبل التراجع مباشرة · »

– « لا بد ان ينعمن بحظ افضل في وقت قريب · »

– « هذا صحيح · واني لاتمنى لو اهبط عليهن بدون مقابل · ان الرسم فاحش في ذلك الماخور ، على اية حال · ويخيَّل اليَّ ان الحكومة تستغلنا وتبتز اموالنا · »

وقلت :

– « اخرج السيارة وكلف الميكانيكيين ان يفحصوها · غيِّر الزيت ، وتأكد من سلامة جهاز توزيع القوة على العجلات (الدفيرانسيال) · املأها حتى الشفة ، واذهب ونم قليلا · »

– « حسن ، ايها السيد الملازم · »

كانت الدارة خالية · كان رينالدي قد انتقل مع المستشفى · وكان المايجور قد مضى مصطحبا هيئة المستشفى العاملة في السيارة الخاصة بتلك الهيئة · ووجدت على النافذة مذكرة موجَّهة اليَّ تكلفني بأن املأ السيارات بالمواد المركومة في الرواق وبأن اتوجه نحو بوردينون · كان الميكانيكيون قد غادروا المكان قبل ذلك · فرجعت ادراجي الى المرأب· وأقبلت السيارتان الاخريان وانا هناك ، وترجَّل سائقاهما منهما · كانت السماء قد بدأت تمطر من جديد ·

وقال بياني :

– « انا نعسان الى درجة جعلتني استسلم للرقاد ثلاث مرات منذ غادرنا بلافا · ما الذي نعتزم ان نفعله ، ايها الملازم ؟ »

– « سوف نغير الزيت ونشحِّم السيارات ، ونملأها حتى الشفة ، ثم نقودها الى مدخل الدارة لكي نحمِّلها بسقط المتاع الذي خلَّفوه وراءهم · »

– « عندئذ ننطلق ؟ »

– « لا · سوف ننام ثلاث ساعات · »

فقال بونيلو :

– « انا سعيد بأن انام ، وحق المسيح · لقد عجزت عن البقاء يقظان وانا

اقود السيارة • »

وسألت :

ـ « كيف سيارتك ، يا ايمو ؟ »

ـ « حسنة جدا • »

ـ « ايتني بسترة سعدان ※ • اريد ان اساعدك في تزيين السيارة • »

فقال ايمو :

ـ « لا تزعج نفسك بذلك ، أيها الملازم • انه ليس شيئا يستحق هذا العناء • اذهب واحزم امتعتك • »

فقلت :

ـ « امتعتي كلها محزومة • سوف اذهب واخرج ما تركوه لنا من سقط المتاع • قودوا السيارات الى مدخل الدارة حالما تصبح جاهزة • »

وقادوها الى مدخل الدارة ، فملأناها بمعدات المستشفى المركومة في الرواق • وحين تمّ لنا ذلك اصطفت السيارات الثلاث في المجاز المنحدر ، تحت الاشجار والامطار • ودخلنا الى الدارة •

وقلت :

ـ « اوقدوا نارا في المطبخ ، وجفّفوا ثيابكم • »

فقال بياني :

ـ « انا لا يهمني ان تكون ثيابي جافة • اريد ان انام • »

وقال بونيلو :

ـ « وانا سوف انام في سرير المايجور • »

فقال بياني :

ـ « اني لا ابالي اين انام • »

وفتحت الباب وقلت :

ـ « يوجد هنا سريران • »

فقال بونيلو :

※ Monkey Suit سترة ضيقة كان البحارة يرتدونها •

— « لقد طالما تساءلت ما الذي كان يوجد في هذه الغرفة • »

فقال بياني :

— « كانت هذه هي غرفة صاحب الوجه العجوز الشبيه بوجه السمكة • »

فقلت :

— « ناما انتما الاثنان هنا • اني سوف اوقظكما • »

فقال بونيلو :

— « النمساويون سوف يوقظوننا اذا نمتَ اكثر مما ينبغي ، ايها الملازم • »

— « انا لا انام اكثر مما ينبغي ابدا • اين ايمو ؟ »

— «ذهب الى المطبخ • »

فقلت :

— « اذهبا الى النوم • »

فقال بياني :

— « سوف انام • لقد سلخت النهار بطوله وانا نائم في مقعدي • كان الجزء الاعلى من رأسي يسقط فوق عينيَّ على نحو موصول • »

وقال بونيلو :

— « انزع حذاءك العالي • ان هذا سرير صاحب الوجه الشبيه بوجه السمكة • »

— « ان صاحب ذلك الوجه لا يساوي شيئا في نظري • »

قال ذلك واستلقى على السرير بحذائه الموحل ، ووضع رأسه على ذراعه • ومضيت الى المطبخ • كان ايمو قد اشعل نارا في الموقد ، ووضع فوقها غلاّية ماء •

وقال :

— « لقد خطر لي ان اشرع في صنع شيء من الـ « باستا آسسييوتا » • سوف نكون جائعين عندما نستيقظ • »

— « ألست نعسان ، يا بارتولوميو ؟ »

— « بعض الشيء فقط • وعندما يغلي الماء سوف اتركه • وبعد ذلك تخمد النار • »

فقلت :

ـ « من الافضل لك ان تأوي الى النوم ٠ في استطاعتنا ان نأكل شيئا من الجبن ولحم البقر المعلّب ٠ »

فقال :

ـ « هذا افضل ٠ ان الشيء الساخن سوف يكون مفيدا لهذين الفوضويين اذهب انت ونم ، ايها الملازم ٠ »

ـ « هناك سرير في غرفة المايجور ٠ »

ـ « نم انت هناك ٠ »

ـ « لا ٠ سوف اصعد الى غرفتي القديمة ٠ هل ترغب في شيء من الشراب ، يا بارتولوميو ؟ »

ـ « عندما نذهب ، ايها الملازم ٠ ان معاقرة الخمر لن تفيدني الآن شيئا ٠ »

ـ « اذا استيقظتَ في مدى ثلاث ساعات ووجدتني لا ازال نائما فايقظني ، هل عندك مانع ؟ »

ـ « ليس لديَّ ساعة ، ايها الملازم ٠ »

ـ « هناك ساعة معلقة على الجدار في غرفة المايجور ٠ »

ـ « حسن ٠ »

عندئذ اجتزت حجرة الطعام والرواق ، ثم ارتقيت السلم الرخامية الى الغرفة التي كنت ابيت فيها مع رينالدي ٠ كان المطر يهطل ٠ ومضيت الى النافذة ، ونظرت الى الخارج ٠ كان الليل قد بدأ يهبط ، ورأيت السيارات الثلاث مصطفة تحت الاشجار ٠ كانت الاشجار تقطر تحت المطر ٠ وكان الجو باردا ، وكانت القطرات تتدلى من الاغصان ، ورجعت الى سرير رينالدي، واستلقيت عليه ، واستسلمت للرقاد ٠

وأكلنا في المطبخ قبل أن ننطلق ٠ كان ايمو قد اعدَّ لنا طبقا من السباغيتي المضاف اليها بعض البصل واللحم المعلّب المفرومين ٠ وجلسنا حول المائدة وشربنا زجاجتين من الخمر كانتا قد خلّفتا في قبو الدارة ٠ كانت الظلمة سائدة في الخارج ، وكان المطر ما يزال يهطل ٠ وجلس بياني الى المائدة والنعاس يستبد به استبدادا عظيما ٠

وقال بونيلو :

ـ « انا احب التراجع اكثر مما احب الزحف · في التراجع يتاح لَنا ان نعاقر الباربيرا · »

فقال ايمو :

ـ « نحن نشربها الآن · اما غدا فقد نشرب ماء المطر · »

ـ « غدا سوف نكون في يودين · سوف نشرب الشامبانيا · ان يودين هي مدينة المتهربين من الخدمة العسكرية · استيقظ ، يا بياني ! سوف نشرب الشامبانيا غدا في يودين ! »

فقال بياني :

ـ « انا يقظان · »

وملأ طبقه بالسباغيتي واللحم · ثم اضاف :

ـ « ألم تستطع أن تجد شيئا من مرق البندورة المتبَّل ، يا بارتو ؟ »

ـ « لم يكن ثمة شيء من ذلك · »

وقال بونيلو :

ـ « سوف نشرب الشامبانيا في يودين · »

واترع كأسه بالباربيرا الحمراء الصافية · .

فقال بياني :

ـ « قد نشرب الـ ··· قبل ان نصل الى يودين · »

وسألني ايمو :

ـ « هل اكلت حتى الشبع ، ايها الملازم ؟ »

ـ « لقد امتلأت · اعطني الزجاجة ، يا بارتولوميو · »

فقال ايمو :

ـ « عندي لكل منا زجاجة ابقيتها الى حين ننطلق بالسيارات · »

ـ « هل نعمت بشيء من النوم ؟ »

ـ « انا لا احتاج الى كثير من النوم · لقد نمت قليلا · »

فقال بونيلو وقد استخفه الشراب وابهج فؤاده :

ـ « غدا سوف ننام في سرير الملك · »

فقال بياني :

ـ « بل قد ننام غدا في الـ ٠٠٠ »

فقال بونيلو :

ـ « سوف أنام مع الملكة ٠ »

ونظر اليّ ليرى صدى النكتة في نفسي ٠

فقال بياني والنعاس يداعب عينيه :

ـ « سوف تنام مع الـ ٠٠٠ »

فقال بونيلو :

ـ « هذه خيانة ، ايها الملازم ٠ أليست هذه خيانة ؟ »

فقلت :

ـ « اخرس ٠ ان قليلا من الخمر اضاع صوابك ٠ »

وفي الخارج كان المطر يهطل بغزارة ٠ ونظرت الى ساعتي ٠ كانت تشير الى التاسعة والنصف ٠

وقلت :

ـ « لقد آن لنا ان ننطلق ٠ »

ونهضت واقفا ٠ فسألني بونيلو :

ـ « مع من تعتزم ان تركب ، ايها الملازم ؟ »

ـ « مع ايمو ٠ ولسوف تتبعنـــا انت ٠ اما « بياني » فيمضي في اثرنـا جميعا ٠ سوف نسلك الطريق المؤدية الى كورمونس ٠ »

فقال بياني :

ـ « انا اخشى ان يغلبني النعاس فأنام ٠ »

ـ « حسن ٠ سوف اركب معك ٠ ويتبعنا بونيلو ، ثم ايمو ٠ »

فقال بياني :

ـ « هذه هي الطريقة الفضلى ٠ لاني نعسان جدا ٠ »

ـ « سوف اقود انا السيارة ، وعندئذ يصبح في استطاعتك أن تنام فترة قصيرة ٠ »

ـ « لا ٠ انا استطيع ان اقود السيارة ما دمت عارفا ان ثمة من سيعمد الى ايقاظي اذا استسلمت للنوم ٠ »

ـ « أنا سوف اوقظك ٠ اطفىء الانوار يا بارتو ٠ »

فقال بونيلو :

ـ « ولمَ لا تتركها مضاءة ؟ اننا لن نحتاج الى هذا المنزل بعد اليوم ؟ .

فقلت :

ـ « ان في غرفتي صندوق سفر عسكريا صغيرا • هل لـك ان تساعدني على انزاله ، يا بياني ؟ »

فقال بياني :

ـ « سوف نأخذه ، هيا ، يا آلدو • »

وانطلق الى الرواق مع بونيلو • وسمعتهما يرتقيان السلم •

وقال بارتولوميو ايمو :

ـ « لقد كان هذا مكانا رائعا • » ووضع زجاجتي خمر وقطعة من الجبن في كيسه • « اننا لن نجد مكانا مثله بعد اليوم • الى أين سوف ينسحبون أيها الملازم ؟ »

ـ « الى ما وراء التاغليامانتو ، كما يقولون • المستشفى وقطـاع القيـادة يجب ان يكونا في بوردينون • »

ـ « ان هذه البلدة أفضل من بوردينون • »

فقلت :

ـ « انا لا اعرف بوردينون • لقد مررتُ بها مجرد مرور • »

فقال ايمو :

ـ « انها ليست بالمكان الرائع • »

الفصل الثامن والعشرون

واجتزنا المدينة تحت المطر والظلام . كانت المدينة خالية مهجورة . ولم يكن هناك غير بعض القوات والمدافع التي تجوز بالشارع الرئيسي . كان ثمة كثير من الشاحنات ايضا وبعض العربات المنطلقة في الشوارع الاخرى والمتجهة نحو الطريق الرئيسية . وحين انتهينا الى الطريق الرئيسية بعد أن اجتزنا المدابغ ، كانت العساكر والشاحنات وعربات الخيل والمدافع تشكل خطا طويلا يتحرك في بطء . وتقدمنا في تؤدة ولكن في اطراد تحت المطر ، ومقدَّم سيارتنا يكاد يصطدم بمؤخرة شاحنة مثقلة باحمال عالية ، وقد غُطيت تلك الاحمال بقطع من الخيش الندي . ثم ان الشاحنة وقفت . فوقفت القافلة كلها . وانطلقت الشاحنة من جديد ، فتقدَّمنا بعض الشيء ، ثم توقفنا . وترجلت من السيارة ورحت اسير قُدُما في خط متعرج بين الشاحنات والعربات وتحت اعناق الخيل المبللة . كانت العقبة التي اعترضت سبيل القافلة لا تزال بعيدة . وفارقتُ الطريق ، وعبرت الخندق على لوح خشبي معترض ، واتخذت سبيلي عبر الحقول . وفيما انا امضي قُدُما عبر الحقول كان في ميسوري ان ارى القافلة المحتجزة ، بين الاشجار ، تحت المطر . واجتزت نحوا من ميل . ولم يتحرك خط السير ، ومع ذلك ، فمن الناحية الثانية وراء العربات المحتجزة ، استطعت ان ارى العساكر تتقدم . ورجعتُ الى السيارات . ان هذه العقبة التي تعترض سبيلنا قد تمتد حتى يودين نفسها . وكان بياني نائما فوق المقود . فصعدت وقعدت الى جانبه واستسلمت للرقاد ايضا . وبعد بضع ساعات سمعت الشاحنة التي

امامنا تهدر هدير الانطلاق ٠ فايقظت بياني ، وانطلقنا ، متقدّمين بضع ياردات ، ثم متوقفين ، ثم منطلقين من جديد ٠ كان المطر لا يزال يهطل ٠

وتعطل سير القافلة كرة اخرى في موهن من الليل ، فلم تستطع بعد تقدما ٠ وترجلت من السيارة وارتددت لارى ايمو وبونيلو ٠ كان يقعد الى جانب بونيلو في سيارته مهندسان برتبة رقيب ٠ ولم يكادوا يرون اليّ مقبلا نحوهم حتى تصدّروا في جلستهم ٠

وقال بونيلو :

ــ « لقد تُركا ليفعلا شيئا لاحد الجسور ٠ ولكنهما عجزا عن اللحاق بوحدتهما فأركبتهما معي ٠ »

ــ « اذا سمح سيدي الملازم ٠ »

فقلت :

ــ « لا بأس ٠ »

وقال بونيلو :

ــ « الملازم اميركي ٠ انه مستعد لان يسمح لاي امرىء بالركوب ٠ »

وابتسم احد الرقيبين ٠ أما الاخر فسأل بونيلو ما اذا كنت ايطاليا من اميركا الشمالية او اميركا الجنوبية ٠

ــ « انه ليس ايطاليا ٠ انه اميركي شمالي من اصل انكليزي ٠ »

كان الرقيبان لطيفين ولكنهما لم يصدقا ما قاله بونيلو ٠ وفارقتهم ورجعت الى ايمو ٠ كان الى جانبه على المقعد فتاتان ، وكان هو جالسا في الزاوية الخلفية يدخن ٠

وقلت :

ــ « بارتو ! بارتو ! »

فانفجر ضاحكا وقال :

ــ « تحدّث اليهما ايها الملازم ٠ انا لا استطيع ان افهمهما ٠ هاي ! »

ثم انه قرص الفتاة قرصة ودية ٠ فما كان من الفتاة الا ان احكمت وضع « شالها » حول جسمها ، وردّت يده عنها ٠

وقال :

ــ « هاي ! قولي للملازم ما اسمك وما الذي تعملينه هنا ٠ »

ونظرت الفتاة اليّ في ضراوة ٠ اما الفتاة الاخرى فأطرقت ولم ترفع

عينيها . وقالت الفتاة التي نظرت اليّ كلاما ما في لهجة لم افهم كلمة منها . كانت مكتنزة الجسم ، سمراء ، وكانت تبدو في نحو السادسة عشرة .

وقلت واشرت الى الفتاة الاخرى :

ـ « سوريلا ؟ »

فأومأت برأسها وابتسمت .

وقلت :

ـ « حسن . »

وربّتُّ على ركبتها . واستشعرت انهـا تصلبت حين مسَسْتُها . امـا اختها فلم ترفع عينيها المطرقتين قط . ومن يدري ، فلعلها كانت تبدو اصغر من اختها بسنة واحدة . وراح ايمو يداعب الفتاة الكبرى ، ولكنّها ردّتـــه عنها . وسخر منها وقال مشيرا الى ذاته :

ـ « رجل طيب . »

ثم اضاف مشيرا اليّ :

ـ « رجل طيّب . لا تقلقي . »

ونظرت الفتاة اليّ نظرة ضارية . كانت كل من الفتاتين اشبه بطائر برّي غير مستأنس .

وتساءل ايمو :

ـ « وعلام ركبت معي اذا كانت لا تحبني ؟ لقد صعدتا الى السيارة فـي اللحظة التي دعوتهما فيها . » والتفت الى الفتاة واضاف : « لا تقلقي. لا خوف من ... » واستعمل كلمة غير لائقة ، « لا مجال لـ ... »

كان في ميسوري ان ارى انها فهمت الكلمـة ، وكـان ذلـك كل شيء . وتطلعت عيناها اليه في ذعر بالغ . واحكمت لفّ نفسها بالشال .

وتابع ايمو :

ـ « السيارة ملأى . لا خوف من ... لا مجال لـ ... »

كانت الفتاة تجفل بعض الشيء كلما لفظ تلك الكلمة . ثم انها قعـدت متصلبة ونظرت اليه وشرعت تبكي . لقد رأيت شفتيها ترتعشان ، والدموع تنحدر بعد ذلك على وجنتيها المكتنزتين . ومن غير ان ترفع اختها عينيها ، امسكت بيدها ، وظلّتا هكذا قاعدتين جنبا الى جنب . ثم ان الكبرى ، التي

كانت جدّ ضارية ، شرعت تنتحب ٠
وقال ايمو :
ـ « يخيّل الي اني قد روّعتها ٠ انا لم اقصد الى ترويعها ٠ »
واخرج بارتولوميو حقيبته وقطع قطعتين من الجبن ، وقال :
ـ « خذي ٠ اقلعي عن البكاء ! »
وهزت الاخت الكبرى رأسها وواصلت بكاءها ، ولكن الصغرى اخذت الجبن وانشأت تأكل ٠ وبعد برهة وجيزة قدّمت الصغرى الى اختها قطعة الجبن الثانية ، فأكلت الاختان معا ٠ وظلت الاخت الكبرى تنتحب بعض الشيء ٠
وقال ايمو :
ـ « لا بد ان يزايلها الاضطراب بعد قليل ٠ »
وخطرت له فكرة فسأل الفتاة التي الى جانبه :
ـ « عذراء ؟ »
فهزت برأسها في قوة ٠ واشار الى اختها قائلا :
ـ « عذراء ايضا ؟ »
فأومأت الفتاتان برأسيهما ، وقالت الكبرى كلاما ما باللغة العامية ٠
فقال بارتولوميو :
ـ « حسن جدا ٠ حسن جدا ٠ »
وبدت كلتا الفتاتين وقد داخلها الابتهاج ٠
وتركتهما جالستين معا وقد قعد ايمو في الزاوية الخلفية ، ورجعت الى سيارة بياني ٠ ولم تتحرك قافلة السيارات والعربات ، ولكن الجنود واصلوا تقدمهم الى جانب الطريق ٠ كان المطر لا يزال يهطل مدرارا ، وتراءى لي ان توقف القافلة مرّة بعد مرة ناشىء عن الاثر الذي احدثته المياه في المحركات ٠ وارجح الظن انه ناشىء عن استسلام الخيل أو الرجال للنوم ٠ ومع ذلك فان السير قد يتعرقل في المدن عندما يكون كل امرىء مستيقظا ٠ لقد كان مردّ ذلك الى تمازج الخيل والسيارات ٠ لقد تعارضا ولم يُسعف اي منهما الاخر ٠ وزادت عربات الفلاحين الطين بلة ٠ والفتاتان اللتان مع بارتو كانتا فتاتين رائعتين ٠ ان الجيش المتقهقر لا يتسع لفتاتين عذراوين ٠ فتاتين عذراوين حقا ٠ ومن يدري فلعلهما كانتا شديدتي التديّن ايضا ٠ واغلب الظن انه لولا

الحرب لكنا جميعا في السرير • في السرير حيث اريح رأسي على وسادة • فراش ولوح خشب • متصلب مثل لوح خشب في فراش • لقد كانت كاثرين الان في فراشها بين بطانيتين اثنتين ، احداهما فوقها والثانية تحتها • على اي جانب كانت نائمة ؟ لعلها لم تكن نائمة • لعلها كانت مستلقية في سريرها تفكر بي • اعصفي ، اعصفي ، ايتها الرياح الغربية • حسنا ، لقد عصفت • ولم يكن ذلك الذي هطل هو المطر الصغير • لا • كان هو المطر الكبير • لقد امطرت السماء طوال الليل • وايُ مطر كان ذلك ! ايّ مطر ! انظر اليه • آه ، يا الهي ، ليتني كنت وحبيبتي بين ذراعيّ في السرير ، حبيبتي كاثرين • ليت حبيبتي الحلوة كاثرين تستطيع ان تتحول الى مطر • احمليها ايتها الرياح اليّ • حسنا لقد كنا فيه • كان كل امرىء اسيره ، ولم يستطع المطر الصغير ان يُسوّي الاشياء • وقلت بصوت عال ، « طاب مساؤك يا كاثرين • ارجو ان تنامي نوما عميقا • واذا لم يكن ذلك مزعجا كثيرا ، ايتها الحبيبة ، فاني اسألك ان تنامي على الجانب الاخر • سوف آتيك بشيء من الماء البارد • بعد فترة قصيرة يطلع الصبح ، ولن يكون الحال على هذا السوء كله • يؤسفني ان تكوني منزعجة الى هذا الحد • حاولي ان تنامي ، يا حبيبتي • »

فقـالت :

– « كنت نائمة طوال الوقت • ولقد كنت تتكلم وانت نائم • هـل انت بخير ؟ »

– « أأنت هنا حقا ؟ »

– « طبعا انا هنا • انا لن ابتعد عنك • ان هذا لن يعكّر حبنا ابدا • »

– « انت رائعة وحلوة الى ابعد الحدود • انـتِ لن تمضي لسبيلـك في الليل ، اليس كذلك ؟

– « طبعا ، انا لن امضي لسبيلي ، انا هنا دائما • سوف اجيء كلما اردت انت ان اجيء • »

وقال بياني :

– «• • • • لقد انطلقت القافلة من جديد • »

وقلت :

ـ « لقد كنتُ مستسلما للرقاد · »

ونظرتُ الى ساعتي · كانت الساعة الثالثة صباحا · ومددت يدي الى ما وراء المقعد بحثاعن زجاجة من الباربيرا ·

فقال بياني :

ـ « لقد تكلمت بصوت عال · »

فقلت :

ـ « كنت ارى مناما باللغة الانكليزية · »

كان المطر قد تراخى ،وكنّا نتخذ سبيلنا قُدُما · وقبل انبلاج الفجر سُمِّرت القافلة كرة اخرى · وحين ارسلت الشمس اولى اشعتها وجدنا أنفسنا في مرتع من الارض ، ووقع بصري على طريق الانكفاء ممتدّة امامنا على مدى النظر ، وكان كل شيء مسمّرا في مكانه ، ما عدا قوات المشاة التي كانت تواصل سيرها · وانطلقنا من جديد ، ولكنني ادركت ـ بعد ان رأيت سرعة التقدم في ضوء النهار ـ اننا سوف نضطر الى تنكّب تلك الطريق الرئيسية ، ونمضي عبر الحقول اذا كنا نطمع في الوصول الى يودين ·

وفي هوهن من الليل انضمّ الى القافلة كثير من الفلاحين تدفقوا من مختلف انحاء الريف ، فاذا بنا نرى في القافلة عربات مثقلة بالادوات المنزلية · كان ثمة مرايا ناتئة بين الفُرش والحشايا ، ودجاج وبط مشدودة الى العربات · وكان ثمة ماكينة خياطة في العربة التي أمامنا ، تحت المطر · كانوا قد استنقذوا اثمن الاشياء · وفي بعض العربات قعدت النسوة محتشدات حَذَرَ المطر ، ومشى بعضهن الى جانب العربات غير مبتعدات عنها الا قليلا · كان في القافلة الان عدد من الكلاب · وكانت هذه الكلاب تمشي بين عجلات العربات كانت الطريق موحلة ، وكانت الخنادق المحاذية ملأى بالماء · ووراء الاشجار التي تنكشف الطريق من جانبها بَدت الحقول ندية جدا ومبتلة جدا الى حد يجعل محاولة اجتيازها أمرا بالغ العسر · وترجلتُ من السيارة ، وصعّدت في الطريق بعض الشيء ، متطلعا الى مكان استطيع أن أرى فيه الى بعيد بحثا عن طريق فرعية نستطيع أن نجتازها عبر الحقول · كنت اعرف ان هناك كثيرا من الطرق الفرعية ، ولكنني لم أكن راغبا في طريق مسدود لا يقود

الى شيء . وما كان في أستطاعتي أن أتذكر تلك الطرق لاننا كنا نجتازها دائما بالسيارة ، منطلقين على الطريق الرئيسية بأقصى السرعة ، وكانت كلها تبدو متشابهة الى حد بعيد . وكنت على مثل اليقين الان من أن علينا أن نعثر على احدى تلك الطرق أذا ما طمعنا في الوصول الى المكان الذي نقصد . ولم يكن أحد يدري أين كان النمساويون ، ولا كيف كانت الحال في جبهة القتال ، ولكنني كنت واثقا من أنه اذا كف المطر عن التهطال وأقبلت الطائرات وقذفت تلك القافلة بقنابلها فعندئذ ينتهي كل شيء . ولن يقتضينا الموقف غير مغادرة بضعة جنود لسياراتهم ومصرع عدد من الخيل حتى تتعطل الحركة على الطريق تعطلا كاملا .

لم يكن المطر يهطل في غزارة بالغة ، الان ، ولقد خُيِّل اليَّ أن السماء سوف تصحو . وتابعت سبيلي على حافة الطريق ، حتى اذا وجدت دربا يقود الى الشمال بين حقلين يكتنفهما من كل جانب سياج من الاشجار بدا لي أن من الخير لنا أن نسلكه ، وأسرعتُ عائدا الى السيارات . وطلبت الى بياني أن ينعطف في الاتجاه الاخر . ورجعت لاخبر بونيلو وأيمو .

وقلت :

ـ « أذا ظهر لنا ان الطريق غير نافذة ففي ميسورنا أن نستدير من جديد ونعاود اللحاق بالقافلة . »

وسألني بونيلو :

ـ « وماذا نفعل بهذين ؟ »

كان الرقيبان جالسين الى جانبه على المقعد . كان شعر لحيتهما قد نبت ، ومع ذلك فقد كان سَمْتُهما عسكريا في ذلك الصباح الباكر .

فقلت :

ـ « سوف يساعداننا في دفع العربات الى امام . »

ورجعت الى ايمو وقلت له أننا سنحاول الانطلاق عبر الحقول .

فسألني أيمو :

ـ « وما الذي سأفعله بفتاتيَّ العذراوين ؟ »

كانت الفتاتان مستسلمتين للرقاد .

فقلت :

ـ « انهما لن تفيدانا كثيرا • كان من الخير لك أن تنقلّ بسيارتك اشخاصا يستطيعون أن يدفعوها • »

فقال ايمو :

ـ « في استطاعتنا أن نضعهما في المقعد الخلفي • هناك متسع لهما في السيارة • »

فقلت :

ـ « لا بأس في ذلك اذا كنت راغبا فيهما • ولكن حاول أن تتلقف شخصا عريض الظهر قادرا على مساعدتك في دفع السيارة الى امام • »

فابتسم أيمو وقال :

ـ « سأتلقف واحدا من البيرساغليري • ان لهم أعرض الظهور • ذلك أن السلطات العسكرية تقيس ظهورهم • كيف أنت أيها الملازم ؟ »

ـ « ممتاز •وأنت ؟ »

ـ « ممتاز • ولكني جائع جدا • »

ـ « لا بد أن نجد شيئا في نهاية هذه الطريق ، ولسوف نقف هناك ونأكل • »

ـ « وكيف رجلك أيها الملازم ؟ »

فقلت :

ـ « ممتازة • »

ووقفت على موطىء السيارة ، وتطلّعت الى بعيد ، فكان في استطاعتي أن أرى سيارة بياني تستدير وتبتعد في الطريق الفرعي الصغير • لقد بَدت سيارته وهي تنطلق خلال الاشجار الجرداء القائمة على الجانبين • واستدار بونيلو بسيارته ولحق به • ثم ان ايمو استدار ، بدوره ، سالخا نفسه من القافلة سلخا ، وتبعنا سيارتَي الاسعاف على الطريق الضيقة ، وسط سياج الاشجار • وانتهت بنا تلك الطريق الى مزرعة • وهناك وجدنا بياني وبونيلو وقد توقفا في الفناء • كان البيت منخفضا وطويلا • وكانت تعلو الباب شُباكة خشبية امتدت عليها أغصان الكرمة • وكان في الفناء بئر ، وكان بياني يمتح الماء منه لكي يملأ مشعاع السيارة (الرادياتور) • ان اضطراره الى الاكثار من السير محتفظا بناقل السرعة في الموضع الذي يكون فيه عادة

عند الانطلاق ، قد بخّرَ كل ما كان في المشعاع من ماء · وكان البيت مهجورا · ونظرت الى وراء · كان البيت قائما على مرتفع يسير فوق السهل ، وكان في ميسورنا أن نشرف على الريف كله ، فرأينا الطريق ، والاسيجة ، والحقول ، وخط ألاشجار الممتد على طول الطريق الرئيسية حيث كانت قواتنا تتراجع · كان الرقيبان قد دخلا الى البيت مستكشفَيْن · وكانت الفتاتان قد استيقظتا وراحتا تنظران الى الفناء ، والى البئر ، والى سيارتي الاسعاف الواقفتين أمام البيت ، والى السائقين الثلاثة المجتمعين حول البئر · وخرج واحد من الرقيبين وفي يده ساعة حائط ·

وقلت :

ــ « أعدْها الى مكانها · »

فنظر اليّ وارتدَّ الى المنزل ، ثم رجع من غير أن تكون تلك الساعة في يده ·

وسألته :

ــ « أين رفيقك ؟ »

ــ « لقد ذهب الى المرحاض · »

ووثب فاتخذ لنفسه مكانا في السيارة · كان يخشى أن نخلّفه وراءنا ·

وتساءل بولينو :

ــ « وفطور الصباح ، أيها الملازم ؟ في أستطاعتنا أن نأكل شيئا ما · ان ذلك لن يستغرق وقتا طويلا · »

ــ « هل تعتقد أن هذه الطريق الممتدة في الجانب الاخر سوف تنتهي بنا الى مكان ما ؟ »

ــ « من غير شك · »

ــ «حسن · فلنأكل · »

ومضى بياني وبونيلو فدخلا البيت ·

وقال ايمو للفتاتين :

ــ « هلمّا ! »

وبسط يده اليهما لكي يساعدهما على الترجل من السيارة ·

وهزّت الاخت الكبرى رأسها · لقد رفضتنا الذهاب الى بيت مهجور · ولقد اكتفت كل منهما بأن أتبَعتْنا نظرَها · »

وقال آيمو :

ـ « أنهما صعبتا المراس · »

ودخلنا البيت الريفي معا · كان بيتا واسعا قاتما · انطباعة موحشة · كان بونيلو وبياني في المطبخ ·

فقال بياني :

ـ « ليس لدينا شيء كثير نأكله · لقد « نظفوا » البيت تنظيفا · »

وانشأ بونيلو يقطّع قرصا كبيرا من الجبن الابيض فوق طاولة المطبخ الثقيلة ·

ـ « واين كان هذا الجبن ؟ »

ـ « في القبو · لقد وجد بياني خمرا ايضا وتفاحا · »

ـ « هذا فطور صباحيٌ جيد · »

كان بياني ينتزع السدادة الخشبية عن دنّ خمر مغطىً بأغصان مجدولة · امال الدنّ وملأ بالخمر قدرا نحاسية ·

وقال :

ـ « أن رائحتها زكية · ايتنا ببعض الكؤوس يا بارتو · »

ودخل الرقيبان ·

وقال بونيلو :

ـ « دونكما بعض الجبن ، ايها الرقيبان · »

وقال احد الرقيبين ، وهو يأكل شيئا من الجبن ويشرب كأسا من الخمر :

ـ « ينبغي أن نذهب · »

فقال بونيلو :

ـ « سوف نذهب · لا تقلق · »

فقلت :

ـ « الجيش يزحف على معدته · »

فتساءل الرقيب :

ـ « مـاذا ؟ »

ـ « من الافضل أن نأكل . »

ـ « أجل ، ولكن الوقت ثمين . »

فقال بياني :

ـ « أعتقد أن ابنـَيْ الزنا قد أكلا من قبل . »

ونظر الرقيبان اليه . كانا يكرهاننا كلنا .

وسألني احدهما :

ـ « هل تعرف الطريق ؟ »

فقلت :

ـ « لا . »

وتبادلا النظرات .

وقال اولهما :

ـ « من الافضل لنا أن ننطلق . »

فقلت :

ـ « نحن منطلقون . »

وتجرعتُ كأسا أخرى من النبيذ . كان مذاقـهُ ممتازا بعد الجبن والتفاح .

وقلت :

ـ « احملوا الجبن . »

وخرجتُ . وخرج بونيلو حاملا دنّ النبيذ .

وقلت :

ـ « هذا اكبر مما ينبغي . »

ونظر اليه في أسف ، وقال :

ـ « أظن ذلك . اعطني حافظات الماء المعدنية حتى املأها . »

وملأ تلك الحافظات ، فسال بعض النبيذ على حصباء الفناء . ثم انه تناول الدنّ ووضعه وراء الباب مباشرة .

وقال :

ـ « في استطاعة النمساويين أن يجدوه من غير أن يكسروا الباب . »

وقلت :

ـ « فلننطلق . أنا وبياني سوف نمضي في المقدمة . »

كان المهندسان قد اخذا مكانهما الى جانب بونيلو · وكانت الفتاتان تأكلان جبنا وتفاحا · اما ايمو فكان يدخن · وانطلقنا هابطين الطريق الضيقة · والتفتت الى السيارتين اللاحقتين بنا والى البيت الريفي · كان بيتا حجريا جميلا ، منخفضا ، متينا ، وكان الجزء الحديدي من البئر جيدا جدا · وامامنا امتدت الطريق ضيقة موحلة ، وكان ثمة سياج عال يكتنف كلا الجانبين · وخلفنا ، كانت السيارات تتبعنا وكأنها لاصقة بنا ·

الفصل التاسع والعشرون

عند الظهر تورّطنا في طريق موحلة تبعد ، على قَدْر ما استطعنا ان نتصوّر ، نحوا من عشرة كيلو مترات عن يوديسن . كان المطر قد كف عن التهطال خلال الاصيل ، وثلاث مرات كنا قد سمعنا الطائرات مُقبلة ، ورأيناها تمرّ فوق سَمْت الرأس ، وراقبناها تمضي بعيدا الى اليسار وسمعناها تقصف الطريق الرئيسية بقنابلها . واتخذنا سبيلنا في عسر ، عبر شبكة من الطرق الثانوية . والواقع اننا وجدنا انفسنا امام كثير من الطرق غير النافذة ، ولكنا كنا في هذه الحال نرتدّ الى الوراء فنعثر على طريق جديدة ، وهكذا كنا نقترب من يوديسن على نحو موصول . وفيما كانت سيارة ايمو ترتد على هذا النحو للخروج من احد الدروب المسدودة انتهت الى ارض ليّنة بالوحل على جانب الطريق ، فاذا بالدواليب تنزلق وتغرز في التربة اعمق فأعمق حتى لقد استقرت السيارة على « الديفيرانسيال » . ولم يكن امامنا الان الا ان نحفر حول الدواليب وان نضع ثمة اغصانا يابسة حتى يكون في امكان السلاسل ان تَمْسك ، وعندئذ ندفع السيارة حتى نعيدها الى الطريق . كنا كلنا قد ترجّلنا ووقفنا حول السيارة . ونظر الرقيبان اليها وتفحّصا العجلات ثم هبطا الطريق منصرفين من غير ان يقولا كلمة . ولحقتُ بهما .

وقلت :

— « تعالا . اقطعا بعض الاغصان . »

فقال احدهما :

— « ان علينا ان نذهب . »

فقلت :

ـ « شمّرا عن سواعدكما ، واقطعا بعض الاغصان • »

فقال واحد منهما :

ـ « علينا ان نذهب • »

اما الاخر فلم يقل شيئا • كانا يتعجّلان المضيّ • ولم يجرآ على النظر السيء •

وقلت :

ـ « اني آمركما بالعودة الى السيارة وبقطع الاغصان • »

فاستدار احد الرقيبين وقال :

ـ « يتعين علينا ان نمضي في سبيلنا • فما هي الا فترة يسيرة حتى تطوّقوا • انك لا تستطيع ان تأمرنا • انت لست ضابطنا • »

فقلت :

ـ « اني آمركما بقطع الاغصان • »

فاستدارا ، وهبطا الطريق •

فصحت :

ـ « قفا ! »

فواصلا هبوط الطريق الموحلة ، بين السياجين المحيطين بها من الجانبين •

ـ « آمركما بان تقفا ! »

فأسرعا في مسيرهما بعض الشيء • وفتحتُ حافظة الغدارة الجلدية ، واخرجت الغدارة ، وسدّدتها الى ذلك الذي كان اكثرهما كلاما ، واطلقت النار • وأخطأتهُ ، وعندئذ اطلق الاثنان ساقيهما للريح • واطلقت النار ثلاث مرات ، فجندلتُ واحدا منهما • في حين ولّى الثاني عبر السياج وغاب عن البصر • وصوبت اليه النار من خلال السياج فيما كان يعدو عبر الحقل • وفرغتِ الغدارة ، فزوّدتها بمخزن خراطيش جديد • ورأيت ان الرقيب الثاني أمسى ابعد من ان تصوّب اليه النار • كان يعدو بعيدا عبر الحقل ، مطأطئا رأسه • وبدأت اشحن مخزن الخراطيش عندما برز بونيلو امامي وقال :

ـ « دعني اجهز عليه • »

فناولته الغدارة ، فهبط الى حيث كان الرقيب الهندي منطرحا عبر الطريق مستقبلا الارض بوجهه • وانحنى بونيلو فوقه ، ووضع فم الغدارة على رأس الرجل ، وضغط على الزناد • ولكن الغدارة ابت ان تعمل •

وقلت :

ـ « يتعين عليك أن تردّ الزناد الى وراء • »

فردّه الى الوراء ، واطلق النار مرتين • وامسك برجليْ الرقيب ، وسحبه الى جانب الطريق حتى أمسى في محاذاة السياج • ثم أنه رجع واعاد الغدّارة الـــيّ •

وقـــال :

ـ « ابن الزنا ! »

ونظر الى الرقيب ، ثم اضاف :

ـ « لقد رأيتني أجهز عليه ، اليس كذلك أيها الملازم ؟ »

فقلت :

ـ « يتعين علينا ان نقطع الاغصان في سرعة • هل اصابت ناري الرقيب الاخر ؟ »

فقال أيمو :

ـ « لست اعتقد ذلك • كان أبعد من ان يصاب بغدارة من الغدارات • »

فقال بياني :

ـ « يا للوغد القذر ! »

كنا كلنا نقطع افناناً واغصاناً • كان كل شيء قد أخرج من السيارة • وكان بونيلو يحفرامام الدواليب • وحين انجزنا استعدادنا هذا ادار أيمــو المحرك ووضع ناقل السرعة في الموضع الذي يكون فيه عند الانطلاق • ودارت الدواليب على نفسها مُطلقة وحولا واغصانا • ودفعت السيارة انا وبونيلو حتى شعرنا وكأن مفاصلنا تطقطق • ولكن السيارة أبت ان تتحرك •

وقلت :

ـ « هزّها الى وراء والى امام ، يا بارتو • »

فرجع بالسيارة الى وراء ثم تقدّم بها الى امام • فما كان من الدواليب الا

ان أمعنت في الوحـــل غرزا • وعندئذ عـــادت السيارة فاستقرت علـى « الديفيرانسيال » من جديد ، واخذت الدواليب تدور دورانا حرا في الحفر التي سبق لها ان احدثتْها •

وتصدَرتُ وقلت :

ــ « فلنجرب ان نسحبها بحبل • »

ــ « لا اعتقد ان ذلك سوف يفيدنا شيئا ، ايها الملازم • اننا لن نستطيـع سحبها في خط مستقيم • »

ــ « يتعين علينا ان نجرّب ذلك • انها لن تخرج من الوحل بأيــة طريقــة اخـرى • »

ولم تستطع سيارتا بياني وبونيلو شيئــا اكثر من المضي قُدُما هابطتَين الطريق الضيقة • وشددنا احدى السيارتين الى الاخرى بحبل، ورحنا نشد•• فلم يكن من الدواليب الا أن ضغطت على جوانب الاثلام ليس غير •

وصحت :

ــ « كفى • لقد اخفقت التجربة • »

وترجَل بياني وبونيلو من سيارتيهما ، وارتدّا نحونا • وترجل ايمو • اما الفتاتان فكانتا جالستين على جدار حجري ، عند حافة الطريق ، على بُعدْ اربعين ياردة تقريبا •

وسألني بونيلو :

ــ « ما قولك ، ايها الملازم ؟ »

فقلت :

ــ « سوف نحفر حــول الدواليب ، ونجرّب الافادة من الاغصان كـــرة اخرى • »

ونظرت الى الطريق • لقد كانت الغلطة غلطتي • فأنا الذي قُدْتهم الى هنا • وكانت الشمس على وشك أن تنبثق من وراء السحب ، وكانت جثـة الرقيب مطروحة الى جانب السياج •

ــ « سوف نضع سترته ومعطفه تحت الدواليب • »

ومضى بونيلو ليأتي بهما • وقطعت بعض الاغصان ، وراح ايمو وبيانـي يحفران امام الدواليب وبينها • وقطعت المِعطف ثـــم شَرطتُه قسمين ،

ووضعتهما تحت الدواليب في الوحل ، ثم كوّمت الاغصان لكي تتمكن الدواليب من الجري فوقها . كنا على استعداد للانطلاق ، وصعد ايمو الى مقعد السيارة ودفعنا . ولكنْ على غير طائل .

وقلت :

– « قضي الامر . هل ثمة ايما شيء تريد اخذه من السيارة ، يا بارتو ؟ »

وامتطى ايمو متن السيارة – حاملا الجبن وزجاجتين من خمر ومعطفه – الى جانب بونيلو . وكان بونيلو ، الجالس وراء المقود ، يتحرّى جيوب سترة الرقيب .

وقلت :

– « من الافضل لك ان تطرح هذه السترة . اين فتاتا بارتو العذراوان ؟ »

فقال بياني :

– « في استطاعتهما ان تقعدا في الجزء الخلفي . انا لا اعتقد أن رحلتنا ستكون طويلة بعد الان . »

وفتحتُ باب السيارة الخلفي .

وقلتُ :

– « هلمّا ! ادخلا ! »

وصعدت الفتاتان الى السيارة وقعدتا في الزاوية . لقد بدا انهما لم تنتبها الى اطلاق النار . واستدرت لكي القي نظرة على الطريق . كان الرقيب منطرحا بقميصه التحتي القذر الطويل الردنين . وامتطيت متن السيارة الى جانب بياني ، وانطلقنا . كنا نعتزم ان نحاول اجتياز الحقل . وحين أمتدت الطريق في الحقل ترجّلت ، ومشيت امام السيارتين . اننا اذا وُفّقنا الى اجتياز الحقل وجدنا طريقا جديدة على الجانب الاخر . ولكننا لم نستطع أن نعبر الحقل . كانت ارضه ليّنة جدا ، وكانت موحلة الى حد جعل ذلك امرا متعذرا على السيارتين . وحين سُمِّرت السيارتان نهائيا وعلى نحو كامل ، بعد ان غرزت دواليبهما حتى محاوِرِها ، تركناهما في الحقل ومضينا على اقدامنا في اتجاه يودين .

وحين انتهينا الى الطريق المؤدية الى الطريـق الرئيسية اشرتُ اليها لافتا نظر الفتاتين بقولي :

ـ « اسلكا تلك الطريق . انكما لا بدَّ ان تلقيا اناسا . »

ونظرتا اليَّ . واخرجتُ حافظة نقودي واعطيت كلا منهما ورقة نقدية من فئة الليرات العشرة . ثم أضفت مشيرا بأصبعي :

ـ « اسلكا تلك الطريق . اصدقاء . أسْرَة ! »

ولم تفهما ، ولكنهما ضغطتا اصابعهما على الورقتين النقديتين ، وراحتا تهبطان الطريق . والتفتتا الى الوراء وكأنهما كانتا تخافان أن أسترجع المال منهما . وراقبتهما وهما تهبطان الطريق ، وقد طوقتْ كل منهما نفسها بشالها تطويقا محكما ، واخذت تتلفت نحونـا في ذعر . كان السائقون الثلاثـة يضحكون .

وسألني بونيلو :

ـ « كم تعطيني اذا ذهبت في ذلك الاتجاه ، ايها الملازم ؟ »

فقلت :

ـ « من الخير لهما ، اذا قُبض عليهما ، ان لا تكونا وحدهما بل أن تكونا وسط جمهرة من الناس . »

فقال بونيلو :

ـ « اعطني مئتي لير ارجع سائرا على قدميَّ نحو النمسا . »

فقال بياني :

ـ « ولكنهم سوف ينتزعون ذلك المبلغ منك . »

فقال ايمو :

ـ « من يدري ؟ لعل الحرب ان تنتهي . »

كنا نصعّد في الطريق بأسرع ما نستطيع التصعيد . وكـانت الشمس تحاول أن تطل من وراء السحب . وعلى جانب الطريـق انتصبت شجرات توت . ومن خلال الاشجار كـــان في ميسوري ان ارى سيارتينا الكبيرتين غارزتين في تراب الحقل . والتفت بياني الى الوراء أيضا .

وقال :

ـ « سوف يتعيّن عليهم ان ينشئوا طريقا لكي يخرجوهما . »
وقال بونيلو :
ـ « اتمنى ، وحق المسيح ، لو كان عندنا دراجات هوائية . »
فسألني ايمو :
ـ « هل يركبون الدراجات الهوائية في اميركة ؟ »
ـ « كانوا يفعلون ذلك في الماضي . »
فقال ايمو :
ـ « انها شيء عظيم هنا . الدراجة شيء رائع . »
وقال بونيلو :
ـ « اتمنى ، وحق المسيح ، لو كان عندنا دراجات . انا لست ممن يصبرون على المشي . »
وتساءلت :
ـ « أيكون هذا اطلاق نار ؟ »
لقد بدا لي اني سمعت صدى نار تطلق من مكان بعيد .
فقال ايمو :
ـ « لست ادري . »
واصغى :
فقلت :
ـ « اظن انه اطلاق نار . »
فقال بياني :
ـ « ان ما سنراه هو سلاح الفرسان . »
ـ « لست اظن ان عندهم سلاح فرسان البتة . »
فقال بونيلو :
ـ « اتضرع الى المسيح ان لا يكون عندهم مثل ذلك السلاح . انا لا اريد ان أُطعن برمح فارس من الفرسان . »
فقال بياني ، وكنا نغذُّ الخطى :
ـ « انك انت الذي قتلت ذلك الرقيب من غير شك ، ايها الملازم . »
فقال بونيلو :
ـ « انا الذي قتلته . انا لم اقتل احدا قط في هذه الحرب ، ولقد تمنيت

طوال عمري أن أقتل رقيبا ٠ »

فقال بياني :

ـ « لقد قتلتهُ في هدوء ٠ انه لم يكن يعدو بسرعة عندما قتلتهُ ٠ »

ـ « لا بأس ٠ هذا شيء لن انساه في حياتي ابدا ٠ لقد قتلتُ ذلك الرقيب الوغد ٠ »

فسأله ايمو :

ـ « وماذا ستقول في الاعتراف امام الكاهن ؟ »

ـ « سوف اقول : باركني ، يا ابتاه ، لقد قتلتُ رقيبا ٠ »

فضحكوا جميعا ٠

وقال بياني :

ـ « انه فوضوي ٠ انه لا يذهب الى الكنيسة ٠ »

فقال بونيلو :

ـ « وبياني فوضوي ايضا ٠ »

وسألتهم :

ـ « هل انتم فوضويون فعلا ؟ »

ـ « لا ، ايها الملازم ٠ نحن اشتراكيون ٠ نحن من ايمولا ٠ »

ـ « ألم تذهب الى هناك في يوم من الايام ؟ »

ـ « لا ٠ »

ـ « وحق المسيح ، انها موطن جميل ، ايها الملازم ٠ يجب ان تذهب الى هناك بعد الحرب ، ولسوف نريك شيئا جديرا بالمشاهدة ٠ »

ـ « هل انتم كلكم اشتراكيون ؟ »

ـ « كلنا ٠ »

ـ « أهي مدينة جميلة ؟ »

ـ « رائعة ٠ انك لم ترَ مدينة في مثل روعتها ٠ »

ـ « وكيف اتفق لكم ان اصبحتم اشتراكيين ؟ »

ـ « نحن كلنا اشتراكيون ٠ كل امرىء هو اشتراكي ٠ لقد كنا دائما اشتراكيين ٠ »

— « تعال ايها الملازم . سوف نجعلك اشتراكيا ايضا . »

وامامنا ، انعطفت الطريق الى اليسار ، وكان ثمة كثيب صغير . ووراء سور حجري كانت حديقة تفاح . وفيما الطريق تصعّد في الكثيب ، كفّوا عن الكلام . لقد مشينا معا ، في سرعة بالغة ، وكأننا نسابق الزمن .

الفصل الثلاثون

وبعد ذلك بلغنا طريقا تؤدي الى نهر · وكان ثمة على هذه الطريــق ، المصعّدة الى الجسر ، صف طويل من الشاحنات والعربات المهجورة · لم يكن من حولنا احد · وكان النهر فائضا ، وكان الجزء الاوسط من الجسر قد نُسِف · كانت القنطرة الحجرية قد سقطت فـي النهر ، وكانت المياه السمراء تجري فوقها · وصعّدنا في الضفة باحثين عن مكان نستطيع العبور عنده · وكنت اعلم أن أمامنا ، اذا واصلنا التصعيد ، جسر سكة حديديــة ، ولقد بدا لي اننا قد نوفق الى العبور هناك · وكان الممر نديا موحلا · ولم يقع بصرنا على جنود البتة ، لقـد رأينا شاحنات وذخائر مهجورة ليس غير · وعلى طول ضفة النهر لم يكن شيء غير الاغصان النديّة والتربة الموحلة · وواصلنا تصعيدنا في الضفة ، واخيرا بَصُرْنا بجسر السكة الحديدية ·

وقال ايمو :

ـ « يا له من جسر جميل ! »

كان جسرا حديديا بسيطا طويلا يمتد عبر ما كان في العادة حوضا جافا من احواض الانهار ·

وقلت :

ـ « من الخير لنا ان نستعجل ، ونعبر قبل ان ينسفوه · »

فقال بياني :

ـ « ليس هناك من ينسفه · لقد رحلوا كلهم · »

فقال بونيلو :

- « اغلب الظن انه ملغوم · اعبرْ انت اولا ، ايها الملازم · »

فقال ايمو :

- « اسمع الى الفوضوي · أطلبْ اليه ان يعبر هو اولا · »

فقلت :

- « سوف اعبر · ليس من المعقول ان يُلْغَم على نحو يجعله ينفجر اذا مسَّته قدما رجل واحد · »

فقال بياني :

- « أسمعت ؟ هذا دماغ · اليس عندك دماغ أيها الفوضوي ؟ »

فقال بونيلو :

- « لو كان عندي دماغ لما كنتُ هنا · »

فقال ايمو :

- « هذا جواب جميل ، ايها الملازم · »

فقلت :

- « أجل ، انه جواب جميل · »

كنا في تلك اللحظة قد حاذينا الجسر · وكانت السحب قد تراكمت في السماء ، كرة اخرى ، وهطل المطر رذاذا · لقد بدا الجسر طويلا صلبا · وصعدنا الى رصيف الجسر ·

وقلت :

- « تقدَّموا واحدا واحدا · »

وبدأت اعبر الجسر · لقد راقبتُ العوارض الخشبية والخطوط الحديدية بحثا عن ايما اسلاك او امارات تدل على وجود متفجرات ولكني لم ارَ شيئا البتة · وتحت قدميَّ ، بين فجوات العوارض الخشبية ، جرى النهر موحلا متعجلا · والى الامام ، عبر الريف الندي ، كان في استطاعتي ان ارى يودين وقد جادها الغيث · ونظرتُ من الناحية الاخرى من الجسر · كان في عالية النهر ، غير بعيد عني ، جسر اخر · وفيما انا اتأمل ذلك الجسر عَبَرَتْهُ سيارة صفراء ملونة بلون الوحل · كان جانبا الجسر عاليين ، ولم تكد السيارة تنطلق حتى غاب هيكلها عن البصر · ولكني رأيتُ رأسَيْ السائق والرجل الجالس الى جانبه ، ورأسَيْ الرجلين الجالسين في المقعد الخلفي ·

كانو كلهم يعتمرون بخوذ المانية • ثم ان السيارة اجتازت الجسر وغابت عن البصر خلف الاشجار وخلف العربات المهجورة • ولوّحت بيدي الى ايمو ، وكان قد امسى فوق الجسر ، والى الاخرين بان ينقدموا • ثم اني انطرحت على الارض وجثمت في محاذاة رصيف الخط الحديدي • وجثم ايمو معي ايضا • وسألته :

— « هل رأيت السيارة ؟ »

— « لا • كنا نراقبك • »

— « ان سيارة من سيارات القيادة الالمانية قد عبرت الجسر الاعلى • »

— « سيارة من سيارات القيادة ؟ »

— « نعم • »

— « باسم مريم العذراء ! »

واقبل الاخرون ، وجثمنا كلنا في الوحل خلف الرصيف ، ناظرين عبر الخط الحديدي الى الجسر ، والى صف الاشجار ، والخندق ، والطريق •

— « هل تعتقد ، اذن ، انهم قطعوا علينا خط الرجعة ، ايها الملازم ؟ »

— « لست ادري • كل ما ادريه هو ان سيارة من سيارات القيادة الالمانية قد اجتازت تلك الطريق • »

— « ألا تشعر انك مضحك بعض الشيء ، ايها الملازم ؟ اليس في رأسك احاسيس عجيبة ؟ »

— « لا تمزح ، يا بونيلو • »

وتساءل بياني :

— « ما رأيكم في كأس من الشراب ؟ اذا كنا قد حوصرنا حقا فعندئذ يكون من الخير لنا ان نحتسي كأسا • »

وفتح حافظة شرابه ونزع الفلينة عنها •

وقال ايمو مشيرا الى الطريق :

— « انظر ! انظر ! »

وعلى طول حواجز الجسر الحجري ، كان في ميسورنا أن نرى خوذا المانية تتحرك • كانوا منحنين الى إمام ، وكانوا يتقدمون في بطء يكاد يكون خارقا

للعادة · حتى اذا اجتازوا الجسر بَصُرْنا بهم · كانوا كتيبة من ركـــاب الدراجات الهوائية ، ولقد رأيت وجهي الجنديين اللذين كانا يتقدمانهم جميعا · كانوا متوردي الخـدود ناضحَيْن بالعافيـة · وكانت خوذتاهما منخفضتين ، فوق الجبين ، وفوق جانب من الوجه · وكـانت قربينتاهما * مُعلّقتين بهيكلَيْ دراجتيهما · وكانت قنابلُ عصَويّةٌ تتدلى ، ومقابضها الى ادنى ، من حزاميهما · كانت خوذتاهما وملابسهما العسكرية الرمادية نديّة · وكانا ينطلقان في رشاقة متطلّعين الى امام والى اليمين والشمال · كان ثمـة اثنان ــ ثم صف مؤلف من اربعة ثم اثنان ، ثم دزينة تقريبا ، ثم دزينة اخرى ــ ثم واحد ليس غير · انهم لم يتكلموا قط · والى هذا فقد كان خرير النهر خليقا بان يحول بيننا وبين سماعهـم · كانوا الان قد بلغوا اعلى الطريـق وغابوا عن الانظار ·

وقال ايمو :

ــ « باسم السيدة العذراء ! »

وقال بياني :

ــ « لقد كانوا المانا · انهم لم يكونوا نمساويين · »

فقلت :

ــ « ولكن لماذا لم يكن ههنا احدٌ ليوقفهم ؟ لماذا لم ينسفوا الجسر ؟ لماذا لم ينصبوا المدافع على طول هذا الرصيف ؟ »

فقال بونيلو :

ــ « هذا سؤال يحسن بك انت ان تجيب عنه · »

وكنت مغضبا جدا · فقلت :

ــ « المسألة كلها حماقة في حماقة · هناك ، في سافلـة النهر ، نسفوا جسرا صغيرا · وهنا يتركون جسرا قائما على الطريق الرئيسية · الى اين ذهبوا ؟ لماذا لا يحاولون ان يوقفوا زحفهم ؟ »

فقال بونيلو :

---

* التربينة Carbine ضرب من القدارات او البنادق ·

ـ « اجبْنا انت ايها الملازم . »

والتزمتُ الصمت . فلم يكن ذلك الامر يعنيني على اية حال . كل ما كان عليَّ ان افعله هو ان اصل الى بوردينون مع ثلاث من سيارات الاسعاف . وكنت قد اخفقت في ذلك . وكل ما كان عليَّ ان افعله الان هو ان ابلغ بوردينون . ومن يدري ، فمن المحتمل ان لا اتمكن من الوصول حتى الى بودين . واي بأس في ذلك ؟ المهم الان ان احتفظ بهدوئي ، وان اجتنب الموت برصاص العدو او الوقوع في اساره .

وسألتُ بياني :

ـ « ألم تفتح حافظة شراب ؟ »

وقدّمها اليَّ ، فأخذت جرعة طويلة ، وقلت :

ـ « من الخير لنا ان ننطلق . ومع ذلك ، فليس ثمة ما يدعو الى العجلة . هل تريدون ان تأكلوا شيئا ؟ »

فقال بونيلو :

ـ « ليس ثمة مكان نستطيع البقاء فيه . »

ـ « حسنا . سوف ننطلق . »

ـ « هل نلتزم هذا الجانب ؟ بعيدا عن مدى البصر ؟ »

ـ « من الافضل أن نمشي فوق . انهم قد يعرّجون على هذا الجسر ايضا . نحن لا نريد ان يبرزوا فوقنا قبل ان نراهم . »

ومشينا في محاذاة السكة الحديدية . وعلى جانبينا امتد السهل الندي . وامامنا ، عبر السهل ، كان كثيب يودين . لقد انهارت سقوف القصر على الكثيب . ولقد كان في ميسورنا ان نرى برج الاجراس وبرج الساعة . وفى الحقول كان عدد وافر من شجرات التوت . وامامنا رأيت مكانا نُزعت منه خطوط السكة الحديدية . كانت العوارض لخشبية التي تدعّم السكة قد نُزعت ايضا وطرحت على الرصيف .

وقال ايمو :

ـ « انطرحوا ارضا ! انطرحوا ارضا ! »

وانطرحنا في محاذاة الرصيف . كان ثمة عدد اخر من ركاب الدراجات الهوائية يجتازون الطريق . وأطللتُ من وراء الحافة ، ورأيتهم يمضون قُدُما .

وقال ايمو :

ـ « لقد رأونا ولكنهم تابعوا سبيلهم • »

فقال بونيلو :

ـ « سوف نلقى حتفنا هناك ، ايها الملازم • »

فقلت :

ـ « انهم لا يريدوننا • انهم يبحثون عن شيء اخر • ولسوف نكون في خطر اذا ما فاجأونا • »

فقال بونيلو :

ـ « انا افضل ان امشي هنا ، بعيدا عن الانظار • »

ـ « حسن • سوف نمشي في محاذاة الخط الحديدي • »

فتساءل ايمو :

ـ « هل تعتقد ان في ميسورنا ان ننجو ؟ »

ـ « من غير ريب • ان عددهم لم يتكاثر حتى الان • سوف ننجو في الظلام • »

ـ « أي شيء كانت تفعله سيارة القيادة تلك ؟ »

فقلت :

ـ « الله أعلم • »

وواصلنا تقدمنا في محاذاة الخط الحديدي • وتعب بونيلو من السير في وحل الرصيف فاقبل ليسير معنا • كان الخط الحديدي يتجه الان نحو الجنوب مبتعدا عن الطريق الرئيسية ، ولم يعد في ميسورنا ان نرى ما الذي كان يجري على طول الطريق • وانتهينا الى جسر صغير فوق احدى القنوات • كان ذلك الجسر قد نُسف ، ولكنا تابعنا طريقنا عبر ما بقي من العقْد • لقد سمعنا النار تطلق امامنا •

وعدنا فالتزمنا السير في محاذاة الخط الحديدي من جانب القناة الاخر • لقد اتجه الخط الى المدينة مباشرة ، عبر الحقول المنخفضة • وتجاهنا كان في ميسورنا ان نرى خط السكة الحديدية الاخر • والى الشمال كانت الطريق الرئيسية حيث سبق لنا ان رأينا راكبي الدراجات • والى الجنوب

كانت طريق فرعية صغيرة تمتد عبر الحقول وقد اكتنفتها الاشجار الكثيفة من جانبيها الاثنين · وخطر لي ان من الافضل ان نتجه نحو الجنوب ، وان نتقدم عبر الريف ـ بعد ان ندور حول المدينة ـ الى كامبوفورميو والى طريق تاغلیامانتو الرئيسية · وكان في امكاننا ان نجتنب طريق الانسحاب الرئيسية بالتزام الطرق الثانوية الجانبية · وهكذا هبطت رصيف السكة الحديدية ·

وقلت :

ـ « هيّـا ! »

اننا سوف نتجه نحو الطريق الجانبية ونحاول الوصول الى جنوب المدينة · وهبطنا كلنا رصيف السكة الحديدية · واطلقت علينا النار من ناحية الطريق الجانبية · ولكن الرصاصة غارت في وحل الرصيف ·

وصحت :

ـ « ارتدوا الى الوراء · »

ورحت اصعّد في الوحل الزلق · كان السائقون يتقدمونني · وارتقيت الرصيف بأسرع ما استطعت الانطلاق · وأقبلت رصاصتان أخريان من وراء الدغل الكثيف · وفيما كان ايمو يعبر الخط الحديدي ، ترنّح وزلت قدمه وخرّ مستقبلا الارض بوجهه · وسحبناه من جانب الخط الاخر وقَلّبْناه على ظهره · وقلت « ينبغي ان نجعل رأسه الى أعلى » · فما كان من بياني الا أن عدّل وضعه وفقا لما اشرتُ به · كان منطرحا في الوحل ، في جانب الرصيف ، ورجلاه مسددتان الى ادنى الكثيب · كان تنفسه غير منتظم · وكان كلما تنفس جرى الدم من أنفه · وقَرْفَصْنا ثلاثتنا حوله ، تحت المطر · لقد اصابته الرصاصة في الجزء الادنى من مؤخر العنق ، وكانت الرصاصة قد ارتفعت الى أعلى ، ثم خرجت من تحت العين اليمنى · لقد مات فيما كنت احاول وقف النزف الدموي من جرحيه · وخفض بياني رأس القتيل ، ومسح وجهه بقطعة من ضمادات النجدة ، ثم تركه وشأنه ·

وقال :

ـ « اللئام ! »

فقلت :

ـ « انهم لم يكونوا المانا · ليس ممكنا أن يكون ههنا أي الماني · »

فقال بياني مستعملا الكلمة كنعت او صفة :

ـ « ايطاليون · ايطالياني ! italiani · »

ولم يقل بونيلو شيئا • كان قاعدا الى جانب ايمو غير ناظر اليه • والتقط بياني قبعة ايمو التي كانت قد تدحرجت بعيدا عن الرصيف ووضعها على رأس ايمو • ثم اخرج حافظة شرابه •

– « هل تريد ان تأخذ جرعة ؟ »

وقدّم بياني الحافظة الى بونيلو •

فقال بونيلو :

– « لا • »

واستدار نحوي ، وقال :

– « كان من الجائز ان يصيبنا مثل ذلك عند خط السكة الحديدية في اي لحظة من اللحظات • »

فقلت :

– « لا • لقد حدث هذا لاننا بدأنا نعبر الحقل • »

وهز بونيلو رأسه ، وقال :

– « لقد مات ايمو • ترى ، دور اي منا سوف يجيء ، بعده ، أيها الملازم ؟ ما الذي سوف نفعله الان ؟ »

فقلت :

– « الذين اطلقوا النار كانوا ايطاليين • انهم لم يكونوا المانا • »

فقال بونيلو :

– « يخيل الي انهم لو كانوا المانا اذن لقتلونا جميعا • »

فقلت :

– « ان الخطر ليتهددنا من جانب الايطاليين اكثر مما يتهددنا من جانب الالمان • ذلك ان حرس المؤخرة يخشى كل شيء • اما الالمان فيعرفون ماذا يريدون • »

فقال بونيلو :

– « هذا منطق صائب ، أيها الملازم • »

فتساءل بياني :

– « الى أين سنذهب الان ؟ »

– « من الافضل لنا ان نختبيء في مكان ما الى ان يهبط الظلام • اذا

استطعنا ان ننتهي الى الجنوب كان ذلك حسنا جدا • »

فقال بونيلو :

ـ « قد يتعين عليهم ان يقتلونا جميعا لكي يثبتوا انهم كانوا على صواب في المرة الاولى • انا لن اعرّض نفسي لرصاصهم ابدا • »

ـ « فلنحاول ان نجد مكانا نختبىء فيه ، وليكن أقرب ما يكون الى يودين ، ثم ننطلق بعد أن يهبط الظلام • »

فقال بونيلو :

ـ « فلنذهب اذن • »

وهبطنا الجانب الشمالي من الرصيف • ونظرت الى الوراء • كان ايمو منطرحا في الوحل عند منحدر الرصيف • لقد بدا صغيرا جدا • وكانت ذراعاه ممددتين الى جانبيه • وكانت ساقاه مطوقتين بعصابتين جلديتين • ان كل فردة من حذائه العالي الساق كانت تواجه الفردة الاخرى ، وعلى وجهه كانت قبعته • لقد بدا وكأنه ميّت منذ زمن بعيد • وكان المطر ينهمر • وكنت قد احببت ايمو كما لم أحب احدا ممن قدّر لي أن اعرفهم في أيما وقت مضى • وكانت اوراقه في جيبي • ولسوف اكتب الى اسرته • وتجاهنا ، عبر الحقول ، كان بيت ريفي • كانت تحيط به الاشجار ، وكانت ابنية المزرعة مشيدة على مقربة دانية جدا من البيت • وكان للدور الثاني شرفة تقوم على عدة اعمدة •

وقلت :

ـ « من الافضل ان يبتعد بعضنا عن بعض ابتعادا طفيفا • سوف أمضي انا في المقدمة • »

وتقدمت نحو المنزل الريفي • كان ثمة مجاز يمتد عبر الحقل •

وفيما كنت اجتاز الحقل بدا لي أن شخصا ما قد يطلق علينا النار من وراء الاشجار المحيطة بالبيت الريفي أو من البيت الريفي نفسه • ومشيت نحو ذلك البيت ، ورأيته في وضوح شديد • كانت شرفة الدور الثاني تتصل بمخزن العلف ، وكانت حزم التبن تنبثق من بين الاعمدة • كان الفناء مبلّطا ، وكانت جميع الاشجار تَقْطُرُ مطرا • وكان ثمة عربة ضخمة فارغة ذات دولابين ، وكانت يدا هذه العربة مرفوعتين الى اعلى في وجه المطر • وتقدمت

فدخلت . ودخل بونيلو وبياني في اثري . كان البيت مظلما . وشخصت الى المطبخ . كان ثمة رماد في الموقد الكبير المفتوح . وكانت القدور تعلو الرماد ، ولكنها كانت فارغة . واجلت البصر في ما حولي ، ولكني لم استطع ان أجد شيئا يؤكل .

وقلت :

ـ « ينبغي ان نختبىء في مخزن العلف . هل تعتقد ان في استطاعتنا ان نجد شيئا نأكله ، يا بياني ، وان تجيئنا به الى هناك ؟ »

فقال بياني :

ـ « سأبحث . »

وقال بونيلو :

ـ « وانا سوف ابحث ايضا . »

فقلت :

ـ « حسن . سوف اصعد والقي نظرة على مخزن العلف . »

ووجدت سلما حجرية ترتفع درجاتها الاولى عند الاصطبل . كانت تنبعث من الاصطبل رائحة جافة وسائغة في المطر . وكانت الماشية قد ولّت ، واغلب الظن ان القوم ساقوها امامهم عندما ركنوا للفرار . وكان مخزن العلف نصف مليء بالتبن . كان ثمة نافذتان في السطح ، واحدة كانت مسدودة بألواح خشبية ، والأخرى لم تكن غير كوة مستديرة ضيقة في الجانب الشمالي . وكان ثمة منحدر يمكّن القوم من قذف التبن الى الماشية . وكانت روافدُ خشبية ضخمة تعترض الباب الذي يُرفع باليد والذي كانت العربات تقف تحته عندما كان يُرفع الى اعلى المخزن . وسمعت وقع المطر على السطح ، وشممت رائحة التبن ، وعندما هبطت السلم شممت رائحة الروث الجاف النظيفة في الاصطبل . واستطعنا ان ننزع احد الالواح الخشبية ، وان نطل من النافذة الجنوبية على فناء البيت . كانت النافذة الاخرى تطل على الحقل نحو الشمال . وكان في ميسورنا ان نخلُص من أي من النافذتين الى السقف ومن ثم نهبط الى الارض ، او ان نهبط منحدر التبن اذا كانت السلم غير قابلة للاستعمال .

كان مخزنَ علف كبيرا ، وكان في ميسورنا ان نختبىء في التبن اذا ما سمعنا صوت امرىء ما . لقد بدا وكأنه مكان صالح . وكنت واثقـا من انه كان في استطاعتنا ان نصل الى الجنوب لو لم يطلقوا النار علينا. لقد كان من المستحيل ان يكون هناك جنود ألمان . كانوا يَفِدون من الشمال ويهبطون الطريق مـن سيفيدال . انهم ما كان يمكن ان يفدوا من ناحيـة الجنوب . والواقـع ان الايطاليين كانوا أشد علينا خطرا . لقد كانوا مذعورين يطلقون النار على أيما شيء يقع تحت أبصارهم . والبارحة خلال التراجع ، سمعنـا ان كثيرا من الالمان المرتدين ملابس عسكرية ايطالية اندسـوا في صفوف المنسحبين . ولم اصدق انا ذلك . فقد كان هذا اشاعة من تلك الاشاعات التي يسمعهـا المرء دائما . انك لم تسمع ان احدا من الجند المرتدين ثيابا عسكرية ألمانية قد اندس بينهم ليوقع الاضطرب في صفوفهم . ولعل بعضهم قد فعل ، ولـكن ذلك بدا – في نظري – شيئا عسيرا . انا لم اصدّق ان الالمان قد اقدموا على ذلك ، بل لم أكن اؤمن انهم كانوا مضطرين الى هذا الصنيع . فلم تكن ثمة حاجة الى زرع الفوضى في تراجعنا . ان ضخامة الجيش وقلة الطرق تكفّلتا بذلك . ان احدا لم يُصدر أية اوامر ، فلنترك الالمان وشأنهم . ومع هذا ، فقد كانوا يطلقون النار علينا وهم يحسبوننا ألمانا . لقد صرعوا ايمو . كانت رائحة التبن مستطابة ، وكان الاختباء في مخزن للعلف ، وسط التبن ، كافيا لان يجعلـك تنسى جميـع السنوات السالفة . وكم من مرة اختبأنـا في التبن وتحدثنـا واصطدنا عصافير الدوري ببنادقنا العاملة بالهواء المضغوط عندما كانت تغطّ على المثلث المفتوح في الجزء الاعلى من جدار مخزن العلف . كان ذلك المخزن قد زال الان ، وفي احدى السنوات كانوا قد قطعوا غابة الشوكران ، فلم يبق فيها غير الارومات ، ورؤوس الاشجار اليابسة ، والاغصان ، والاعشاب التي تنبت في المواطن المحترقة حديثا . لم يكن في ميسورنا ان نعود من حيث اتينا . واذا لم نتقدم الى امام ما الذي سوف يحدث ؟ ان علينا ان لا نفكر بالعودة الى ميلانو . واذا ما رجعنا الى ميلانو ما الذي سوف يحدث ؟ واصختُ الى اطلاق النار ، في الشمال ، في اتجاه يودين . كان في ميسوري ان اسمع طلقـات المدافع الرشاشة . لم يكن ثمة قصف مدافع . وكان هذا شيئا ذا مغزى . لا

ريب في انهم قد وجدوا بعض القوات على الطريق · وحدّقت في ضياء المخزن النصفي ، فرأيت بياني واقفا على الباب الافقي الذي يُفتح باليد · كان يحمل تحت ذراعه قطعة نقانق (سجق) طويلة ، وابريقا مليئا بشيء ما ، وزجاجتي خمر ·

وقلت :

ـ « اصعد · هذه هي السلم · »

ثم ادركت ان علي ان اساعده في حمل تلك الاشياء ، فنزلت · كان دوار طفيف قد أصاب رأسي بسبب من استلقائي على التبن · كنت نائما تقريبا ·

وسألته :

ـ « أين بونيلو ؟ »

فقال بياني :

ـ « سوف اخبرك · »

وارتقينا السلم · وهناك فوق التبن وضعنا ما كان معنا من اشياء · واخرج بياني مدية ذات نازعة للسدادات ، ونزع السدادة عن احدى زجاجتي الخمر ·

وقال :

ـ « ان عليهما خاتما شمعيا ايضا · لا بد ان تكونا من صنف جيد · »

وابتسم ·

وسألته :

ـ « أين بونيلو ؟ »

فنظر الي ، وقال :

ـ « لقد ذهب · انه يريد ان يستسلم للعدو · »

ولم اقل شيئا ما ·

ـ « كان يخشى ان نُقتل · »

وتناولت زجاجة الخمر ولم أقل أي شيء ·

ـ « وهكذا ترى اننا لا نؤمن بالحرب على أية حال ، أيها الملازم · »

سألته :

ـ « ولماذا لم تذهب انت ؟

ـ « لم ارد ان افارقك • »

ـ « الى اين ذهب ؟ »

ـ « لست ادري ، ايها الملازم • لقد ولى • »

فقلت :

ـ « حسنا • ارجو ان تقطّع النقانق • »

فحدق اليَّ بياني في ذلك الضياء النصفي ، وقال :

ـ « لقد قطّعته ونحن نتحدث • »

وجلسنا وسط التُبن ، واكلنا النقانق ، واحتسينا الخمر • انها من غير شك خمر احتفظوا بها لعُرس من الاعراس • كانت عتيقة جدا حتى لقد بدأ لونها يَنْصُل •

وقلت :

ـ « اطلَّ انت من هذه النافذة ، يا لويجي • ولسوف اذهب انا واطل من النافذة الاخرى •

كان كل منا قد شرْع يحتسي الخمر من احدى الزجاجتين• فاخذت زجاجتي معي ، ومضيت فاستلقيت على التبن وأطللت من النافذة الضيقة على الريف الندي • ولست ادري ما الذي توقعتُ ان أراه ، ولكني لم أرَ غير الحقول ، وشجرات التوت الجرداء ، والمطر المنهمر • وشربت الخمر ، ولكنها لم توقع في نفسي اثرا ما • كانوا قد احتفظوا بها منذ عهد طويل ، وكانت قد أمست اشلاء وفقدت جودتها ولونها • وراقبت الظلمة وهي تخيم في الخارج ، لقد هبطَتْ في سرعة بالغة • وكان خليقا بتلك الليلة ان تكون مظلمة جدا بسبب المطر • حتى اذا هيمنت الدجنة لم تبق فائدة تُرْجى من المراقبة • فمضيت نحو بياني • كان نائما • ولم اوقظه ، بل قعدت الى جانبه فترة من الزمن • كان رجلا ضخم الجسم ، ولقد نام نوما عميقا • وبعد برهة يسيرة ايقظته ، وانطلقنا •

كانت تلك ليلة غريبة جدا • انا لا أدري اي شيء توقعتُه ، ولعلي توقعت الموت او اطلاق النار في الظلام ثم الفرار • ولكن شيئا لم يحدث • وانتظرنا ، منطرحين على طولنا وراء الخندق المحاذي للطريق الرئيسية ريثما مر فوج

ألماني · حتى اذا توارى الفوج عن الانظار ، عبرنا الطريق واتجهنا نحو الشمال · ومرتين متواليتين ، تحت المطر ، وجدنا انفسنا على مقربة دانية من بعض الجنود الالمان ، ولكنهم لم يرونا · واجتزنا المدينة في اتجاه الشمال من غير ان نرى أي جندي ايطالي ، وبعد فترة يسيرة انتهينا الى خطوط التراجع الرئيسية ، وسلخنا الليل بطوله ونحن نمشي نحو تاغلياماتتو · والحق اني لم أكن قد ادركت من قبل مبلغ ضخامة التراجع · كانت البلاد كلها تولي الادبار ، لا الجيش وحده · ومشينا طوال الليل ، مسْرعين اكثر من العربات · وآلمتني رجلاي وكنت مرهقا ، ومع ذلك تقدمنا في خطى ثابتة · لقد كان بونيلو على حماقة بالغة عندما قرر الاستسلام للعدو · فلم يكن ثمة أي خطر · كنا قد شققنا طريقنا عبر جيشين اثنين من غير ان يصيبنا حادث ما · ولو ان ايمو لم يُقتل ، اذا لما شعرنا بأن ثمة أي خطر · ان أحدا لم يتعرض لنا عندما سرنا على نحو مكشوف في محاذاة الخط الحديدي · لقد حدث القتل فجاءة ولغير ما سبب · وتساءلت أين كان بونيلو ·

وسألني بياني :

– « كيف انت ايها الملازم ؟ »

كنا نتقدم في جانب من طريق ازدحمت بالعربات والجنود ·

– « ممتاز · »

– « حسن · كل ما علينا ان نفعله الان هو المشي · لا داعي بعد للقلق · »

– « لقد كان بونيلو معتوها · »

– « كان معتوها الى أبعد الحدود · »

– « ما الذي ستفعله في شأنه ايها الملازم ؟ »

– « لست ادري · »

– « الا تستطيع ان تقول بكل بساطة ، ان العدو قد أسره ؟ »

– « لست ادري · »

– « لانه اذا استمرت الحرب انزلوا بعائلته اذى كبيرا · »

فقال أحد الجند :

– « الحرب لن تستمر · نحن عائدون الى بيوتنا · لقد انتهت الحرب · »

ـ « الناس جميعا عائدون الى بيوتهم · »

ـ « نحن كلنا عائدون الى بيوتنا · »

وقال بياني :

ـ « هيا أيها الملازم · »

كان يريد ان يتخطَّاهم ·

ـ « ملازم ؟ من يحمـــل رتبـة ملازم ؟ A basso gli ufficiali (فليسقط الضباط) · »

وجذبني بياني من ذراعي وقال :

ـ « من الخير ان اناديك باسمك · انهم يحاولون ايذاءك · لقد اطلقوا النار على بعض الضباط · »

واسرعنا فتخطَّيناهم ·

وتابعت الحديث فقلت :

ـ « انا لن أضع تقريرا يؤدي الى انزال الاذى بعائلته · »

فقال بياني :

ـ « اذا انتهت الحرب فلن يكون لذلك ايما أثر · ولكني اعتقد انها انتهت · ان انتهائها شيء صالح اكثر مما ينبغي · »

فقلت :

ـ « سوف نتحقق من ذلك قريبا جدا · »

ـ « لست اعتقد انها انتهت · انهم كلهم يعتقدون انهـا انتهـت ولكني لا اصدق ذلك · »

وهتف أحد الجند :

ـ « Viva la pace (فليحي السلم) · نحن عائدون الى بيوتنا ! »

فقال بياني :

ـ « انه لرائع جدا ان نرجع كلنا الى بيوتنـا · الا تحب ان ترجـع الى بيتـك ؟ »

ـ « بلى · »

ـ « اننا لن نرجع ابدا · انا لا اعتقد انها انتهت · »

وهتف جندي :

ـ « Andiamo a casa (نحن ذاهبون الى بيوتنا) » •
وقال بياني :
ـ « انهم يطرحون بنادقهم • انهم ينزعونها عن اكتافهم ويطرحونها ارضا فيما هم يسيرون ، وبعد ذلك يهتفون • »
ـ « يجب ان يحتفظوا ببنادقهم • »
ـ « هم يعتقدون انهم اذا طرحوا بنادقهم فلن تستطيع السلطة حملهم على القتال • »
وفي الظلمة والمطر ، وفيما نحن نتخذ سبيلنا في جانب الطريق ، استطعت ان ارى ان قوات كثيرة لا تزال تحتفظ ببنادقها • لقد رأيناها منتصبة فوق معاطفهم •
وصاح احد الضباط :
ـ « من أي لواء انت ؟ »
فأجابه احدهم :
ـ « Brigata di pace (لواء السلم !) »
ولم يقل الضابط شيئا •
ـ « ماذا يقول ؟ ماذا يقول الضابط ؟ »
ـ « فليسقط الضابط • viva la pace (فليحي السلم !) »
فقال بياني :
ـ « هيا ! »
وتخطّينا سيارتي اسعاف بريطانيتين مهجورتين بين جمهرة من العربات •
وقال بياني :
ـ « انهم من غوريتزيا • انا اعرف السيارتين • »
ـ « لقد اجتازتا مسافة أبعد من تلك التي اجتزناها • »
ـ « ولكن أين سائقاهما ! »
ـ « أغلب الظن انهما يتخذان سبيلهما امامنا • »
فقلت :
ـ « لقد توقف الزحف الالماني خارج يودين • وهؤلاء الناس سوف يوفقون كلهم الى عبور النهر • »

فقال بياني :

ـ « أجل · وهذا ما يجعلني اعتقد ان الحرب سوف تستمر · »

فقلت :

ـ « كان في استطاعة الالمان ان يتقدموا · اني لاتعجب لماذا لم يتقدموا · »

ـ « لست ادري · انا لا اعرف شيئا عن هذا الضرب من الحرب · »

ـ « اظن انهم مضطرون الى انتظار وسائط النقل · »

فقال بياني :

ـ « لست ادري · »

كان كثير اللطف بطبعه · ولكنه ما ان يتحدث مع احد حتى يغدو جافيا ·

ـ « هل انت متزوج يا لويجي ؟ »

ـ « انت تعلم اني متزوج » ·

ـ « أهذا هو السبب الذي من اجله لم ترد ان تقع في الاسر ؟ »

ـ « هذا أحد الاسباب · هل انت متزوج ايها الملازم ؟ »

ـ « لا · »

ـ « وبونيلو غير متزوج ايضا · »

فقلت :

ـ « ان كون المرء متزوجا لا يدل على شيء · ولكني اميل الى الاعتقاد ان الرجل المتزوج يرغب دائما في العودة الى زوجته ·»

لقد كنت اجد متعة في التحدث عن الزوجات ·

فقال بياني :

ـ « هذا صحيح · »

ـ « كيف قدماك ؟ »

ـ « انهما تؤلمانني ألما شديدا · »

وقبل ان يرتفع الضحى بلغنا ضفة الـ « تاغليامانتو » ، وهبطنا في محاذاة النهر الفائض الى الجسر حيث كانت حركة المواصلات على اشدها ·

وقال بياني :

ـ « يتعيَّن عليهم ان يكونوا قادرين على الصمود وراء هذا النهر . »

وفي الظلام بدت مياه النهر عالية جدا . لقد دوَّمت المياه ، وانبسطتْ الى مدى بعيد . كان الجسر الخشبي على مبعدة ثلاثة ارباع الميل تقريبا ، وكان النهر ـ الذي كان يجري عادة في مجار ضيقة في الحوض المفروش بالحصى تحت الجسر بكثير ـ يكاد يمسُّ خشب الجسر . وتابعنا سبيلنا على الضفة ، ثم انضممنا الى الحشود التي كانت تعبر الجسر . وتقدمتُ في بطء ، تحت المطر ، على بضعة اقدام من الماء ، وقد شعرت بالازدحام يعصرني عصرا. وفجأة وجدت نفسي امام صندوق المدفعية . واطللت من جانب الجسر ، وراقبت النهر . والان وقد اصبحنا عاجزين عن السير بسرعتنا الطبيعية استشعرت اني تعب جدا . لم يكن ثمة ابتهاج ما في عبور الجسر . ولقد تساءلت بيني وبين نفسي ما الذي يحدث لو ان طائرة قصفته بقنابلها في وضح النهار .

وناديت :

ـ « بياني . »

ـ « ها انا ذا ايها الملازم . »

كان يتقدَّمني بعض الشيء ، وسط الزحام . ان احدا لم يكن يتكلم . وكان القوم كلهم يحاولون ان يعبروا الجسر باسرع ما يستطيعون . تلك كانت هي الفكرة الوحيدة المسيطرة عليهم . وكنا قد وصلنا الى الضفة الاخرى تقريبا . وفي الطرف الاقصى من الجسر كان عدد من الضباط والكارابينيري واقفين على الجانبين وفي ايديهم اضواء كشافة . لقد رأيت ظلالهم الداكنة مرتسمة على صفحة الماء . وفيما نحن نقترب منهم رأيت أحد الضباط يشير الى رجل من الحشد المصطف هناك . فاندفع احد الجنود الكارابينيريين نحوه ، ثم عاد ممسكا به من ذراعه . لقد ازاحه من الطريق. وكنا قد اصبحنا امامهما وجها لوجه ، تقريبا . كان الضباط يتفرسون في وجه كل فرد من افراد القافلة ، وكانوا يتبادلون بعض الكلمات احيانا ، ويتقدمون الى أمام لكي يشعلوا ضوءا كشافا في وجه شخص ما . وكانوا قد اخرجوا رجلا اخر قبل ان نبلغ تلك النقطة مباشرة . ورأيت الرجل . كان ضابطا برتبة عقيد ، لقد رأيت النجوم تلتمع على كمه عندما صوَّبوا اليه الضوء الكشاف . كان أشيب الشعر ، وكان قصيرا وبدينا . وجذبه الكارابينيري الى ما وراء خط الضباط.

وفيما نحن نمر ، لمحت واحدا او اثنين منهم ينظران الي ٠ ثم ان احدهم اشار الي وراح يتحدث الى جندي من الكارابينيري ٠ ورأيـت الكارابينيري يتقدم نحوي ٠ لقـــد شق لنفسه طريقا وسط الحشـــد ، ثم امسك بي مـن طوق قميصـي ٠

وقلت :

ـ « ماذا دهاك ؟ »

ولطمته على وجهه ٠ لقد رأيت وجهه تحت القبعة ، ورأيت شاربيه المعقوفين والدم يسيل من خده ٠ واندفع جندي اخر نحوي ٠

وقلت :

ـ « ماذا دهاك ؟ »

ولم يجب ٠ كان ينتظر الفرصة للقبض عليّ ٠ ووضعت يدي خلف ظهري لكي اخرج غدارتي ٠

ـ « ألا تعلم انه ليس في ميسورك ان تمسّ ضابطا ؟ »

وامسك بي الجنـدي الاخر من خلاف ، وجذب ذراعي الى اعلى جذبا عنيفا حتى لقد التوت في مفصلها ٠ واستدرت معه ، واخذ الجندي الاخر بخناقي ٠ ورفسته على قصبَتي ساقيه ، وضربته على اربيّة وركه باحدى ركبتي ٠

وسمعت احدهم يقول :

ـ « اطلقوا النار عليه اذا قاوم ٠ »

وحاولت ان اصيح :

ـ « ما معنى هذا كله ؟ »

ولكن صوتي لم يكن عاليا جدا ٠ ووجدت نفسي الآن على حافة الطريق ٠

وقال ضابط :

ـ « اطلقوا النار عليه اذا قاوم ٠ ابعدوه الى الوراء ٠ »

ـ « مَنْ انت ؟ »

ـ « سوف تعرف ٠ »

ـ « مَنْ انت ؟ »

فقال ضابط آخر :

ـ « بوليس الجيش • »

ـ « لماذا تسألونني التقدم نحوكم بدلا من تكليف واحد من هذه «الطائرات» بايقافي »

« ولم يجيبوا • انهم لم يكونوا ملزمين بالاجابة • لقد كانوا ينتسبوّن الى شرطة الجيش • »

وقال الضابط الاول :

ـ « ارجعوه الى الوُراء مع الاخرين • انه يتكلم الايطاليـة برطانـة ، كما تـرى • »

فقلت :

ـ « وكذلك انت ، ايها الـ • • • • »

فكرر الضابط الاول :

ـ « ارجعوه الى الوراء مع الآخرين • »

وقادوني الى ما وراء صف الضباط تحت الطريـق ، نحو جمع من النـاس احتشدوا في حقل محاذ لضفة النهر • وفيما نحن نتقدم نحوهم سمعنا طلقات نار • لقـد رأيـت وميض الغدارات وسمعـت دوي رصاصها • واخيرا بلغنا الحشد • كان ثمة اربعة إضباط واقفين معا وامامهم رجل يقف الى جانب مـن جانبيه جندي من الكارابينيري • وكان جمع من النـاس واقفين يحرسهم عدد من الكارابينيري • ووقف قرب الضباط المستجوبين اربعة منجنود الكارابينيري ايضا ، منحنين عـلى غداراتهـم • كانوا يعتمرون بقبعـات عراض • ودفعني الجنديان الممسكان بي الى الحشد الواقـف في انتظار الاستجواب • ونظرت الى الرجل الذي كان الضباط يستجوبونه • كان هو العقيد البدين القصـير الاشيب الذي انتزعوه من قافـلة الهاربين • كان المستجوبون يتمتعون بكامل الفعالية ، والبرود ، ورباطة الجأش التي يتمتع بها الايطاليون المطلقون للنار من غير ان يطلق النار عليهم احد •

ـ « من أي فوج انت ؟ »

فأجابهم •

ـ « من أي فرقة ؟ »

واجابهم •

ـ « ما الذي جعلك تنفصل عن فرقتك ؟ »

واجابهم ·

ـ « هل تعلم ان على الضابط ان يكون الى جانب رجاله ؟ »

فقال انه يعلم ·

وكان ذلك كل شيء · وتكلم ضابط آخر :

ـ « انك انت وامثالك الذين سمحتم للبرابرة بتدنيس ثرى الوطن المقدس · »

فقال العقيد :

ـ « ارجوك ··· »

ـ « ان خيانتك وخيانة امثالك هي التي جعلتنا نخسر ثمرات النصر · »

فسأله العقيد :

ـ « هل قدّر لك ان قمت بعملية تراجع ؟ »

ـ « ينبغي لايطاليا ان لا تتراجع ابدا · »

لقد وقفنا هناك تحت المطر واستمعنا الى هذا · كنا نواجه الضباط ، وكان الاسير يقف تجاههم ، بعيدا عنا بعض الشيء ·

وقال العقيد :

ـ « اذا كنتم تعتزمون قتلي رميا بالرصاص فأرجو ان تفعلوا ذلك من غير ما استجواب اضافـــي · ان الاستجواب احمق · »

ورسم اشارة الصليب · وتشاور الضباط · وكتب احدهم شيئا على رزمة من الورق ·

وقال

ـ « فارقَ جنوده · حكم بالموت رميا بالرصاص · »

وقاد جنديان من الكارابينيري العقيـد الى ضفـة النهر · لقد مشى تحت المطر ، عجوزا حاسر الرأس ، يحيط به جندي كارابينيري عن يمينه وآخر عن يساره · ولم اشهدهما يعدمانه رميا بالرصاص ولكني سمعت الطلقات النارية · كان الضباط يستجوبون اسيرا آخر · وكان هذا ايضا ضابطا فارقَ جنوده ، انهم لم يسمحوا له باعطاء أي تفسير لذلك · ولقد انتحب عندما تلي الحكم

الصادر بحقه كما هو مدوّن على رزمة الورق . وكانوا يستجوبون رجلا آخر عندما اعدموه رميا بالرصاص . كانوا يحرصون على الانهماك في استجواب الرجل الآخر فيما تسدد النار الى صدر المستجوب السابق . وبهذه الطريقة يحسمون الامر ولا يدعون أيما مجال للتردد . ولم ادر ما الذي ينبغي ان افعله : أأنتظر حتى استجوب أم اركن الى الفرار في الحال ؟ لقد كنت في نظرهم من غير ريب المانياً في بزة عسكرية ايطالية . لقد قرأت ما كان يجول في عقولهم ، اذا كان عندهم عقول يجول فيها شيء . لقد كانوا شبانا في ميعة العمر ، وكانوا ينقذون بلادهم . وكان الجيش الثاني يعاد تشكيله وراء الـ « تاغلياماتنو » ، وكانوا ينفذون حكم الموت بالضباط من رتبة عقيد فما فوق لمفارقتهم جنودهم . وكانوا يحاكمون في سرعة بالغة ايضا جميع المهيّجين الالمان المرتدين بزات عسكرية ايطالية . كانوا يعتمرون خوذا فولاذية . وكان اثنان منا فقط يعتمرون مثل تلك الخوذ . وكان بعض الجنود الكارابينيري يعتمرون مثلها ايضا . اما الكارابينيري الآخرون فكانوا يعتمرون قبعات عراضا . وكنا ندعوهم « الطائرات » . لقد وقفنا تحت المطر ، وكانوا يستدعوننا واحدا اثر واحد لكي نُستجوب ثم نقتَل رميا بالرصاص . وكان المستجوبون يتمتعون بذلك التعلق الجميل بالعدالة الصارمة وبذلك التعبد لها اللذين يتمتع بهما رجال يوزّعون الموت من غير ان يتعرّضوا هم لايما خطر من اخطاره . كانوا يستجوبون زعيما (كولونيل) من جند المشاة . وكان ثلاثة ضباط آخرين قد اضيفوا الينا في تلك اللحظة .

ــ « اين كان فَوْجُه ؟ »

ونظرتُ الى الكارابينيري . كانوا ينظرون الى الوافدين الجدد . وكان الآخرون ينظرون الى الزعيم (الكولونيل) . فانحنيت نحو الارض وشققت طريقي بين اثنين من الرجال وعدوت الى النهر ، منكّس الرأس . واندفعت في محاذاة الضفة ثم غطست في النهر مثيرا رشاشا صارخا . كانت المياه باردة جدا ، ولقد بقيت تحتها اطول ما استطعت ان ابقى . كان في ميسوري ان استشعر التيّار يعصف بي ، وبقيت تحت الماء حتى خيّل الي اني لن ارتفع فوقه بعد ابدا . ولم اكد ارتفع فوق الماء حتى اخذت نفسا وعاودت الغوص من

جديد . كان من اليسير عليّ ان ابقى تحت الماء ما دمت ألبس كل هذه الملابس وانتعل حذائي العسكري الطويل الساق . وحين ارتفعت كرة ثانية فوق الماء رأيت أمامي قطعة من خشب فبسطت يدي نحوها ، وتعلقت بها بيد واحدة . وابقيت رأسي خلف الخشبة ، ولم احاول قط ان انظر من فوقها . انا لم اكن راغبا في رؤية الضفة . كان ثمة طلقات نارية عندما فررت وطلقات نارية عندما انبثقت من تحت الماء اول مرة . لقد سمعتها عندما اصبحت فوق سطح الماء تقريبا ، ولم يكن هناك طلقات نارية الآن . ودوّمت قطعة الخشب وسط التيار ، وامسكت بها بيد واحدة . ونظرت الى الضفة . لقد تراءت وكأنها تعدو في سرعة بالغة . وكان في التيار كثير من الخشب . وكان الماء باردا جدا . واجتزنا نباتات خفيضة اطلعت رؤوسها فوق الماء في احدى الجزر . وتمسكت بقطعة من الخشب بيديّ الاثنتين . واجزْت لها ان تسوقني سوقا. كان الشاطيء قد غاب الآن ، عن البصر .

الفصل الحادي والثلاثون

انك لا تدري كم قضيت في مياه النهر عندما يندفع التيار في سرعة بالغة انه يبدو لك وقتا طويلا ، وقد يكون قصيرا جدا • كان الماء باردا ومرتفعا جدا ، وكان قد حمل من الضفتين عند ارتفاع النهر اشياء كثيرة تطفو على سطحه • وكنت محظوظا بعثوري على قطعة خشب ضخمة اتعلق بها ، فكنت اغوص في الماء المثلوج ، وذقني مُسندة الى الخشبة ، ممسكا بها ، ايسرَ ما استطعت ان امسك بيديَّ الاثنتين • وخشيت آلام المغص وتمنيت لو امضي نحو الشاطىء • وهبطنا النهر في منعطف طويل • كانت الشمس قد ارسلت طلائع اشعتها ، وبذلك اصبح في ميسوري ان أرى القصب الملتف على طول الشاطىء • كان ثمة امامنا جزيرة مخضوضرة الاعشاب • وكان التيار يندفع نحو الشاطىء • وتساءلت هل يتعيَّن عليَّ ان اخلع حذائي وملابسي واحاول السباحة حتى الشاطىء ام لا ، ولكنني صممت آخر الامر على الاحجام عن ذلك • ولم تكن تسيطر عليَّ غير فكرة واحدة هي ان ابلغ الشاطىء بطريقة او بأخرى ، وأني سوف اكون في وضع سيء اذا وطئت البر حافي القدمين • كان عليَّ ان اصل الى ميستر بأية طريقة •

وراقبتُ الشاطىء يقترب مني ، ثم يبتعد ، ثم يقترب كرة اخرى • كنا نطفو في بطء شديد • وكان الشاطيء قريبا جدا الآن • كان في ميسوري ان ارى الاغصان على اجمة الصفصاف • وتذبذبت قطعة الخشب في تؤدة حتى لقد اصبح الشاطىء خلفي ، وادركت اننا كنا في دوَّامة • واستدرنا في بطء• وحين رأيت الضفة كرة اخرى ، وكانت قد أمست على مقربة دانية جدا • حاولت التمسك بيد واحدة ودفع الخشبة الى الضفة الاخرى ، مستعينا على

ذلك برجليَّ وبيدي الثانية ، ولكن جهودي ذهبت ادراج الرياح • كنت اخشى الخروج من الدوامة • ورفعت قدميَّ ، وانا متعلق بيدٍ واحدة ، حتى حاذتنا جانب الخشبة دفعَتْهُا في عنف نحو الضفة • كان في ميسوري ان ارى القصب والنباتات • ولكن التيار كان يُقصيني على الرغم من زخمي وسباحتي باقصى سرعة قدرْتُ عليها • وحسبتُ آنذاك اني سوف اغرق بسبب من حذائي الطويل الساق ، ولكني اندفعت ضد التيار وشققت طريقي عبر الماء ، وحين رفعت بصري كانت الضفة تتقدم نحوي ، فواصلت الاندفاع ضد التيار والسباحة في ذعر ثقيل القدمين حتى بلغْتُها • وتعلقتُ بغصن الصفصاف ، ولم تكن لي بقية من قوة تمكنني من ان ارفع نفسي ، ولكني عرفت اني لن اغرق بعد الآن • والواقع انه لم يخطر لي قط ، وانا متشبث بالخشبة ، اني قد اغرق • لقد شعرت بالجوع وبألم في المعدة والصدر نتيجة الجهد الذي بذلْتُ ، وتعلّقت بالاغصان وانتظرت • وحين فارقني انحراف المزاج تقدمتُ عبر دغل الصفصاف ، واسترحت من جديد ، وذراعاي تطوّقان بعض النباتات الصغيرة ، ويداي متشبثتان بالاغصان • ثم اني زحفت على بطني عبر الصفصاف حتى بلغت الضفة • كان ظلام نصفي يخيم على الكون ، ولم تقع عيناي على احد • وانطرحت متمددا على الضفة ، وسمعتُ خرير النهر وانهمار المطر •

وبعد لحظات ، نهضتُ ورحت امشي على طول الشاطىء • وكنت اعرف انه لم يكن ثمة جسر عبر النهر حتى لاتيسانا • وخيّل اليَّ اني اواجه الآن سان فيتو • وبدأت اقلّب الرأي متسائلا ما الذي ينبغي ان افعله • لقد كان امامي خندق يمتد عبر النهر • فتقدمت نحوه • لم اكن قد رأيت حتى تلك اللحظة شخصا ما ، وقعدت على مقربة من بعض النباتات عند حافة الخندق، وخلعت نعليَّ وافرغتهما في الماء • ثم اني نزعت سترتي ، واخرجت محفظتي فاذا بأوراقي ونقودي كلها مبللة • وعصرت سترتي • ونزعت بنطلوني ، وعصرته ايضا ، ثم اني فعلت الشيء نفسه بقميصي وثيابي التحتية • وبعد ان صفعْتُ نفسي عدة مرات وفركت جسدي ارتديت ملابسي من جديد • كنت قد اضعت قبعتي •

وقبل ان ارتدي سترتي نزعت النجوم القماشية عن ردنيَّ ، ووضعتها في جيبي الداخلية مع نقودي • كانت اوراقي المالية مبللة ولكنها كانت سليمة •

وعَدَدْتها ، فاذا هي ثلاثة آلاف لير ونيف • واستشعرتُ ملابسي رطبة ولزجة • وربَّتُ على ذراعيَّ في عنف رغبةً مني في الابقاء على الدورة الدموية • كانت ثيابي التحتية صوفية ، وكنت ادرك اني لن اصاب بالزكام اذا واصلتُ الحركة • كانوا قد استولوا على غدارتي في الطريق ، ووضعت حافظة الغدارة الجلدية تحت سترتي • لم يكن لديَّ معطف ، وكان الجو الممطر باردا • ورحتُ اصعّد في ضفة القناة • كانت الشمس قد اشرقت • وكانت ارض الريف نديَّة ، خفيضة ، كئيبة • وكانت الحقول جرداء، نديَّة• وعند الافق البعيد ، كان في ميسوري ان ارى برج اجراس مرتفعا فوق السهل • ووصلت الى طريق ما • وتجاهي ، رأيت بعض القوات العسكرية تهبط الطريق • وطلَعْتُ على جانبي الطريق ، فتجاوزتني تلك القوات من غير ان تلقي اليَّ بالا • كانت فصيلة من جنود المدفعية تصعّد متجهة نحو النهر • وتابعت سيري هابطا الطريق •

في ذلك اليوم عبرتُ السهل البندقي (الفينيسي) • انها منطقة خفيضة ولقد بدت تحت المطر اشد تسطُّحا ايضا • وكانت ثمة في جانب البحر ، مستنقعات ملحية ، وعدد قليل جدا من الطرق • كانت جميع الطرق تحاذي مصبَّ النهر حتى البحر • ولكي تعبر الريف كان عليك ان تسلك المجازات على طول القنوات• وانما كنت اجتاز المنطقة من الشمال الى الجنوب ، وكنت قد عبَرْت خطين من خطوط السكة الحديدية وكثيرا من الطرق ، واخيرا وصلت عند نهاية احدى الطرق الى خط حديدي يمتد ، في تلك البقعة ، بمحاذاة احد المستشفيات • كان هو الخط الحديدي الرئيسي الممتد من البندقية الى تريبستا ، وكان ذا رصيف عال صلب ، وسطح صلب ، واتجاه مزدوج • وعلى مسافة ما ، كانت راية" تشير الى ان ثمة محطة ، وكان في ميسوري ان ارى بعض الحرس • وفي الناحية الاخرى كان جسر" يمتد فوق جدول يصب في المستنقع • وكان في ميسوري ان ارى على الجسر حرسا ايضا • وفي خلال اجتيازي الحقول ، الى الشمال ، كنت قد رأيت قطارا يمر فوق هذا الخط الحديدي ، على نحو مرئيٍّ من بعيد عبر السهل المسطح ، وخيِّل اليَّ ان ذلك القطار ربما كان قادما من بورتوغروارو • وراقبتُ الحرس ، وانطرحت على رصيف السكة الحديدية بحيث كان في استطاعتي ان ارى الطريق من كلا الجانبين • وتقدَّم حرس الجسر مصعّدا نحو المكان الذي انطرحت فيه ، ثم استدار وانقلب متجها نحو الجسر • وظللت مستلقيا في مكاني ، وكنت جائعا ، وانتظرت القطار • وكان القطار

الذي رأيته من الطول بحيث لم تستطع القاطرة ان تجرّه الا في بطء شديد ، وكنت واثقا من انني قادر على التعلق به • وبعد ان كدت ايأس من الفوز بقطار ، رأيت قطارا مقبلا • وكانت القاطرة ، وهي تندفع الى امام ، تكبُرُ شيئا بعد شيء • ونظرتُ الى حارس الجسر • كان يمشي على الجانب الاقرب من الجسر ، ولكن على الجانب الآخر من خط السكة الحديدية • وكان ذلك خليقا بأن يجعله لا يراني عند مرور القطار • وراقبت القاطرة وهي تقترب • كانت تسير متثاقلة مرهقة • وكان في ميسوري ان ارى انها تقطر عددا كبيرا من الحافلات • وكنت اعلم ان على متن القطار حرسا ، وحاولت ان ارى أين كانوا ، ولكني وقد اضطررت الى البقاء بعيدا عن الانظار لم استطع ان المح احدا منهم • وانتهت القاطرة الى حيث كنت منطرحا ، تقريبا • وحين امست في محاذاتي ، لاهثة مبهورة حتى في السهل ، ورأيت الميكانيكي قد تخطاني انتصبت واقفا ووثبت الى مقربة دانية من الحافلات المنطلقة • ان وقوفي امام الخط الحديدي اقل اثارة لشكوك الحرس ، اذا كان الحرس يراقبون الخط • ومرّت عدة شاحنات مقفلة • ثم رأيت عربة خفيضة مفتوحة من النوع الذي يدعوه الايطاليون « غندولا » • كانت مغطّاة بالخيش • وانتظرت حتى تخطتني او كادت ، ثم وثبتُ وتعلقت بقضبان التسلق الخلفية • فاذا بي على متن القطار • ودببْتُ بين « الغندول » وبين افريز الشاحنة العالية المقطورة بها • وكنت على مثل اليقين من ان أحدا لم يرني • كنت ازحف متعلقا بقضبان التسلق ، ورجلاي على مِصَدّ ※ الشاحنة • وكنا قد بلغنا الجسر تقريبا • وتذكرتُ الحرس • وحين تخطّيناه ، نظر الي • كان شابا صغيرا ، وكانت خوذته اكبر من ان تلائمه • وحدّقتُ اليه في ازدراء ، فأشاح ببصره عني • لقد حسب اني واحد من رجال السكة الحديدية •

وابتعد بي القطار عنه • ورأيت علائم الانزعاج بادية عليه ما تزال ، فهو يراقب الشاحنات الاخرى اثناء مرورها • وانحنيت لارى كيف كان الغطاء

※ استعملنا هذه اللفظة مقابل ما يدعوه العامة « تابونيه » tampon وهو الحاجز الحديدي الذي يخفف من وقع الاصطدام على السيارة او الحافلة الحديدية •

الخيشي مشدودا الى الشاحنة . كانت ثمة عرى معدنية ، وكان موثقا عند الحافة بحبل . واخرجت مديتي ، وقطعت الحبل ، ومددتُ يدي متحسسا . كانت ثمة اشياء قاسية ناتئة تحت الغطاء الخيشي الذي توتّر من جراء المطر . ونظرت الى اعلى والى امام . كان في الشاحنة التي تجاهي حرس ، ولكنه كان ينظر الى امام . وافلتُ قضبان التسلق ، وغُصتُ تحت الخيش . وارتطم جبيني بشيء ما . وكانت الصدمة عنيفة ، واستشعرت الدم يجري على وجهي ، ولكني دببْتُ وبقيتُ منطرحا على طولي . ثم اني استدرت وأوثقت الغطاء الخيشي .

كنت الان تحت الغطاء الخيشي ، بين المدافع . كانت تفوح منها رائحة زيت وشحم سائغة . ولقد استلقيت هناك وأصخْتُ الى المطر يتساقط على الغطاء الخيشي ، والى صوت انسياب العربة على الخط الحديدي . وتسرّب اليّ ضوء ضئيل . ورحت انظر الى المدافع . كانت قد ألْبِسَتْ ستراتها الخيشية . وخيّل الي انها لا بد مُرْسَلَة من الجيش الثالث . وكان جبيني قد تورّم من اثر الصدمة ، ولقد اوقفت النزف بالتزام السكينة وعدم الحركة وبتَرْك الدم يتخثّر ، ثم نزعت الدم المتجمّد الا عن الجرح نفسه . لم يكن الجرح شيئا ذا بال . ولم يكن لدي منديل ، ولكني كنت اتحسّسه بأصابعي واغسل مواضع الدم الجاف بماء المطر المتساقط من الغطاء الخيشي ، وانظفها برُدْن سترتي . كنت حريصا على ان لا أبدو مُريبا . وكنت اعلم ان علي ان اترجل من القطار قبل وصوله الى ميستر ، لانهم سوف ينصرفون عندئذ الى الاهتمام بأمر المدافع . فلم يكن لديهم مدافع يستطيعون ان يفقدوها او ينسوها . كنت جائعا الى حد مروع .

الفصل الثاني والثلاثون

واذ استلقيت على ارض الشاحنة، والمدافع الى جانبي تحت الغطاء الخيشي، فقد اصابني البلل ، والبرد ، واستشعرت اني أكاد أموت من الجوع . واخيرا انفتلت على نفسي وتمددت على معدتي واضعا رأسي عــلى ذراعيّ . كانت ركبتي متصلبة ، ولكنها كانت في حال مُرْضية جدا . كان الدكتور فالانتيني قد اجرى لها جراحة موفقة . وكنت قد قمت بنصف عملية الانسحاب مشيــا على قدميّ ، وسبحتُ بر ُكبته جزءا من الـ « غاليبيامنتو » . كانت هي ر ُكبته من غير ريبٌ . اما الركبة الاخرى فكانت ركبتي انا . ان الاطباء يصنعون لك اشياء وعندئذ لا يعود جسدك ملكا خالصا لك . كان الرأس رأسي ، وكذلك كانت احشائي . وكنت استشعر هناك جوعا شديدا . ولقد كان في ميسوري ان احسّ بها تنقلب على نفسها . وكان الرأس رأسي ولكن لا لكي استعمله ، ولا لكي افكر به ، بل لكي اتذكرّ فحسب ، ولكي اتّذكر من غير اسراف ايضا ...

كان في استطاعتي ان اتذكر كاثرين ، ولكني كنت اعرف اني خليق بأن اجَنّ اذا فكرت فيها وانا لا ازال غير واثق من اني سأراها . وهكذا ما كان ينبغي لي ان افكر فيها ... الا قليلا ، والا فيها ، في الشاحنة التي تجري في تؤدة ، والتي كانــت عجــلاتها تحدث ضجة خاصة في انطلاقهــا فوق الخط الحديدي ، وقد تسرّبت بضعة خيوط من الضياء عبر الغطاء الخيشي ، وفي استلقائي مع كاثرين على ارض الشاحنة . ان اضطرارك الى الاستلقاء مــن غير تفكير ، مكتفيا بالشعور والاحساس ، اقسى من ارض الشاحنــة ، وقد طال الفراق عليك اكثر مما ينبغي ، وتبللت ثيابك ، وأبتِ الارض التي تتمدد

عليها الا السير في بطء ، واستشعرت الوحشة فليس لك رفيق غير ثياب ندية وارض صلبة اتخذت منها زوجة ٠

انك لم تحب ارض الشاحنة ، او المدافع ذات السترات الخيشية ، او رائحة المعدن المشحم ، او رائحة غطاء خيشي يرشح منه المطر ، على الرغم من ان الاقامة تحت الغطاء الخيشي وبين المدافع عذبة جدا ٠ ولكنك احببت شخصا آخر كنت تعرف الان انه لا يمكن ان يكون هناك ، وقد اصبحت الان ترى في وضوح كثير وفي برود ـ والوضوح والفراغ اغلب على تلك الرؤية من البرود ٠ لقد رأيت على نحو فارغ لا طائل تحته ، وانت مستلق على معدتك بعد ان شهدت جيشا يتراجع وجيشا يتقدم ٠ لقد خسرت سيارتك، ورجالك، كما يفقد ملاحظ في مخزن من مخازن البيع بضائع فرعه بسبب من اندلاع النار فيها ٠ بيد انه لم يكن ثمة ، في حالتك انت ، سند تأمين ٠ لقد خسرت عملك الان ، ولم تعد لديك مسؤولية ما ٠ واذا ما قتلوا رميا بالرصاص ملاحظي مخزن كبير بعد ان شبت النيران فيه بسبب من انهم يتكلمون بالنبرة التي اعتادوا الكلام بها دائما فعندها لا يكون من المتوقع ان يعود اولئك الملاحظون عندما تُفتح المخازن التجارية من جديد ٠ ان في امكانهم ان يبحثوا عن عمل اخر ـ اذا كان ثمة عمل اخر ، واذا لم يلقِ رجال الشرطة القبض عليهم ٠

كان النهر قد ذهب بغضبي كما ذهب بجميع مسؤولياتي ٠ على الرغم من ان ذلك الغضب كان قد زال عندما اخذ الجندي الكاربينيري بخناقي ٠ وتمنيت لو أتخلى عن بذلتي العسكرية على الرغم من قلة مبالاتي بالمظاهر الخارجية ٠ كنت قد نزعت النجوم عن سنترتي ، ولكن ذلك كان بدافع من الفطنة وبعد النظر ٠ انه لم يكن امرا متعلقا بالشرف ٠ فلم يكن لدي أي اعتراض عليها ، من حيث المبدأ ٠ ولكني كنت قد انتهيت ٠ ولقد تمنيت لها حظا طيبا ٠ فهناك الصالحون ، وهناك الشجعان ، وهناك الهادئون ، وهناك الاذكياء ، وكلهم يستحقونها ٠ أما انا فلم أعد واحدا من ممثلي المسرحية ، ولم أكن اتمنى غير شيء واحد ، هو ان يصل هذا القطار اللعين الى ميستر لكي استطيع ان آكل واكف عن التفكير ٠ ان علي ان اتوقف ٠

ان بياني سوف يخبرهم انهم قتلوني رميا بالرصاص ، حتى اذا فتشوا الجيوب واخرجوا اوراق الاشخاص الذين قتلوهم ، لم يجدوا اوراقي ٠وعندئذ

سوف يعتبرونني غريقا . وتساءلت ما الـذي سيقال لاهلي في الولايات المتحدة ؟ قضى متأثرا بجراحه وغير ذلك من الاسباب . لقد كنت جائعا وحقّ يسوع الطيب . وتساءلت ما الذي حلّ بكاهن زمرتنا . وبرينالدي . لعله كان في بوردينون . اذا لم يكونوا قد تراجعوا الى أبعد من ذلك . وعلى أية حال ، فاني لن اراه بعد اليوم . لا ، انا لن ارى أيا منهم أبد الدهر . كانت حياتنا تلك قد انتهت . ولم أكن اعتقد انه مصاب بالسفلس ، ولم يكن السفلس داء خطيرا على أية حال ، اذا ما عالجتَه في الوقت المناسب ، كما يزعمون. ولكن ذلك كان يثير قلقَه . لقد كان خليقا بي ان أقلق لو أصِبْتُ انا به أيضا ان كل امرىء خليق به ان يقلق .

انا لم اخلق للتفكير . لقد خُلقت لالتهام الطعام . أي وربي . خُلقت لكي آكل وأشرب وأنام مع كاثرين.هذه الليلة ربما.لا، لقد كانذلك مستحيلا . ولكن غدا مساء ، وان انعم بوجبة طعام دسمة ، وغطاء سرير ، وان لا نمضي بعد اليوم الا معا . لعلنا مضطران الى ان نمضي في أسرع وقت ممكن . انها سوف تمضي معي . أنا اعلم انها سوف تمضي . ولكن متى سنمضي ؟ لقد كان ذلك موضوعا للتفكير . كان الليل يهبط . ولقد استلقيت على طولي وفكّرت الى أين ينبغي ان نذهب . لقد كان ثمة مواطن كثيرة .

الكتاب الرابع

الفصل الثالث والثلاثون

وترجلت من القطار في ميلانو ، عندما تمهل في سبيله الى المحطة • كان ذلك في ساعة مبكرة ، ولم تكن الشمس قد أشرقـــت • وعَبَرْتُ الخط الحديدي وانسللْتُ بين بنايتين ، وهبطت الى الشـارع • كان ثمة خمارة مفتوحة الابواب ، فدخلتها رغبة في ارتشاف شيء من القهوة • كان يسـود الخمارة جو عابق بالصباح الباكر ، وبالغبار المكنوس ، والملاعق المغموسة في فناجين القهوة ، والحلقات النديَّة التي تركتها كؤوس الخمر • كان صاحب الحانة واقفا خـلف المشرب • وكان جنديان يجلسان الى احدى الطاولات • ووقفت عند المشرب واحتسيت فنجانا من القهوة واكلـت قطعـة من الخبز • كانت القهوة رمادية بالحليب ، فنزعـت قشدة الحليـب بقطعة من الخبز • ونظر صاحب الخمارة الي ، وقال :

- « هل تريد زجاجة من الغرابّا ؟ »
- « لا • شكرا • »
- « على حسابي • »

قال ذلك وملأ كأسا صغيرة ثم دفعها نحوي • وأضاف :

- « ما الذي يجري في الجبهة ؟ »
- « لست أدري • »

فقال ، مشيرا الى الجنديين :

- « انهما ثملان • »

كان في وسعي ان اصدّقه • لقد بَدَوَا ثملَيْن •

وقال :

- « اخبرني ، ما الذي يجري في الجبهة ؟ »
- « لست أعرف شيئا عن الجبهة ؟ »

ـ « لقد رأيتك تهبط الجدار · لقد ترجلت من القطار · »

ـ « ان ثمة انسحابا كبيرا · »

ـ « لقد قرأت الصحف · ما الذي يجري ؟ هل انتهى كل شيء ؟ »

ـ « لست أظن ذلك · »

وأترع الكأس بالغرابًا من زجاجة قصيرة · وقال :

ـ « اذا كنتَ في خطر فان في استطاعتي ان اخبئك · »

ـ « أنا لا أستشعر أي خطر · »

ـ « اذا كنتَ في خطر فابْقَ هنا معي · »

ـ « أين ؟ »

ـ « في هذا البيت · ان كثيرا من الناس ينزلون هنا · ان جميع الذين يتهددهم الخطر ينزلون هنا · »

ـ « وهل ثمة كثير من الناس المهددين بالخطر ؟ »

ـ « يتوقف ذلك على نوع الخطر الذي تتحدث عنه · هل انت من ابناء اميركا الجنوبية ؟ »

ـ « لا · »

ـ « هل تتكلم الاسبانية ؟ »

ـ « بعض الشيء · »

ومسح المشْرَب ، وقال :

ـ « من العسير على المرء ، الان ، ان يغادر البلاد · ولكن ذلك ليس مستحيلا بأية حال · »

ـ « ليس لدي رغبة في مغادرة البلاد · »

ـ « في استطاعتك ان تبقى هنا ما شئتَ · ولسوف ترى أي رجل أنا · »

ـ « يتعيَّن علي ان اذهب هذا الصباح ، ولكنني سوف اتذكر عنوانك وارجع اليك · »

وصافحته ، وقال :

ـ « حين يتكلم المرء هكذا فانه لا يعود · لقد حسبت انك في خطر حقيقي · »

ـ « لست استشعر أي خطر • ولكني أقدر عنوان الصديق حق قدره •
ووضعت على المشرب ورقة نقدية قيمتها عشرة ليرات ❋ ثمنا للقهوة •
فقال :
ـ « أشرب معي كأسا من الغرابثا • »
ـ « ليس ذلك ضروريا • »
ـ « أشرب كأسا • »
وأترع الكأسين • وقال :
ـ « تذكر جيدا • ارجع الى هنا • لا تدع أناسا آخرين يخدعونك عن نفسك • سوف تكون ههنا في مأمن • »
ـ « انا واثق من ذلك • »
ـ « أنت واثق ؟ »
ـ « نعم • »
ـ « كانت امارات الجد بادية عليه • وقال :
ـ « أذن دعني اقول لك شيئا • لا تتجول وانت لابس هذا المعطف • »
ـ « لماذا ؟ »
ـ « ان في استطاعة المرء ان يرى في كثير من الوضوح اثر النجـــــوم المنزوعة عن ردنيك • ان لون القماش أمسى متفاوتا • »
ولم انبس ببنت شفة •
ـ « اذا لم يكن عندك اوراق ففي استطاعتي ان اقدم اليك اوراقا • »
ـ « أية اوراق ؟ »
ـ « اوراق الاجازة • »
ـ « لست في حاجة الى اوراق • ان لدي اوراقا • »
وقال :
ـ « حسنا • ولكن اذا احتجت الى اوراق ففي ميسوري ان اقدم اليك ما تشاء • »
ـ « وما ثمن هذه الاوراق ؟ »
ـ « هذا يتوقف على ماهيتها • ان الثمن معقول • »

❋ جمع لير •

ـ « لست في حاجة الى أي منها الان • »

وهز كتفيه •

وقلت :

ـ « انا في خير • »

وحين غادرت الحانة قال :

ـ « لا تنسَ أني صديقك • »

ـ « لا ، لن انسى • »

فقال :

ـ « سوف اراك مرة ثانية • »

فقلت :

ـ « حسن • »

وفــي الخارج اجتنَبْتُ المحطــة ، حيث كان عدد من رجال البوليس الحربي ، حتى اذا بلغتُ حافة الحديقة العامة الصغيرة امتطيت متن احــدى العربات ، واعطيت السائق عنوان المستشفى • وحين وصلنا الــى هناك شخصت الى كوخ البوّاب • وعانقتني زوجته • وصافحني هو •

ـ « لقد رجعْتَ • أنت سالم لَم تصب بأذى • »

ـ « نعم • »

ـ « هل تناولت طعام الصباح ؟ »

ـ « نعم • »

وسالتني زوجته :

ـ « كيت أنت أيها الملازم ؟ كيف أنت ؟ »

ـ « رائع • »

ـ « ألا تود ان تتناول طعام الصباح معنا ؟ »

ـ « لا • أشكرك • أخبريني ، مس باركلي موجودة هنا في المستشفى الان ؟ »

ـ « مس باركلي ؟ »

ـ « الممرضة الانكليزية • »

فقالت الزوجة :

ـ « فتاتُه • »

وربَّتت على ذراعي وابتسمت ٠
فقال البواب :
ـ « لا ٠ لقد رحلت ٠ »
وغار قلبي ٠ وقلت :
ـ « انت واثق ؟ انا اعني السيدة الشابة الانكليزية الطويلة الشقراء ٠ »
ـ « انا واثق ٠ لقد ذهبتْ الى ستريزا ٠ »
ـ « متى ذهت ؟ »
ـ « ذهبت منذ يومين مع السيدة الانكليزية الاخرى ٠ »
فقلت :
ـ « حسن ٠ ارجوك ان تقدّم الي خدمة ٠ لا تُخبر احدا انـك رأيتني ٠ هذا هام جدا ٠ »
فقال البواب :
ـ « لن أخبر أحدا »
واعطيته ورقة نقدية قيمتها عشرة ليرات ٠ فردّها وقال :
ـ « أعدك بأن لا اخبر احدا ٠ انا لا احتاج الى مال ٠ »
فسألتني زوجته :
ـ « ما الذي نستطيع ان نخدمك به ، ايها السيد الملازم ؟ »
فقلت :
ـ « هذه الخدمة فقط ٠ »
فقال البواب :
ـ « نحن أبكمان ٠ ارجو ان تخبرني عن أي شيء استطيع ان افعله من اجلك ٠ »
فقلت :
ـ « لك ذلك ٠ سوف اراك مرة اخرى ٠ »
ووقفا لدى الباب ، وأتبعاني نظراتهما ٠
وامتطيتُ متن العربة ، واعطيت السائق عنوان سيمونز ، وهو احد الذين كنت اعرفهم ، وكان يدرس فن الغناء ٠
كان سيمونز يسكن في مكان ناء من المدينة ، قرب « البورتا ماغانتا » ٠

وقال :

ـ « انت تفيق باكرا الى حد رهيب ، يا هنري . »

ـ « لقد اقبلت على متن القطار الاول . »

ـ « ما هذا الانسحاب كله ؟ هل كنت في الجبهة ؟ ما رأيك في سيكارة ؟ هي ذي السكاير في تلك العلبة على الطاولة . »

كانت حجرة واسعة فيها سرير قائم في محاذاة الجدار ، وبيانو في الجانب الاخر منها ، وميزْينة * وطاولة . وجلست على كرسي مجاور للسرير . وجلس سيمونز متكئا على الوسائد وانشأ يدخن .

وقلت :

ـ « انا في ورطة ، يا سيمونز . »

فقال :

ـ « وانا كذلك . انا دائما في ورطة . الا تدخن ؟ »

فقلت :

ـ « لا . ما الاجراءات التي لا بدّ من اتخاذها للذهاب الى سويسرا ؟ »

ـ « انت تريد الذهاب الى سويسرا ؟ ان الايطاليين لن يمكّنوك من مغادرة البلاد . »

ـ « أجل ، اعرف ذلك . ولكني اسأل عن السويسريين . أي موقف سيكون موقفهم ؟ »

ـ « انهم سوف يأسرونك . »

ـ « ادري . ولكن علامَ ينطوي ذلك الاسر ؟ »

ـ « انه لا ينطوي على شيء . الامر بسيط جدا . سوف يكون في ميسورك ان تذهب حيث شئت . واعتقد انهم لن يطلبوا اليك اكثر من اثبات الوجود بين الفينة والفينة او شيئا مثل ذلك . لماذا ؟ هل تحاول الفرار من وجه البوليس ؟ »

ـ « ليس هناك شيء محدَّد حتى الان . »

ـ « لا تقل لي اذا كنت غير زاغب في ذلك . ومع هذا فلا ريب في ان من الممتع الاستماع لمثل هذا الحديث . ان شيئا لا يَحدُث هنا . لقد اخفقتُ اخفاقا فظيعا في بياسنتزا . »

---

* المزينة dresser قمطر ذو مرآة للتزيين .

ـ « أنا آسف أعظم الاسف لذلك · »
ـ « أوه ، أجل · لقد مُنيتُ بفشلٍ فاضح · ومع ذلك ، فقد اجـدت في الغناء · ولسوف احاول مرة ثانية هنا في « الليريكو · »
ـ « أرجو ان اوفق الى سماعك هناك · »
ـ « انت لطيف الى حد مروّع · ولكنك لست في مـــأزق حرج ، أليس كذلـك ؟ »
ـ « لست ادري · »
ـ « لا تخبرني اذا كنت غير راغب في ذلك · كيف جاز لك ان تكون بعيدا عن الجبهة اللعينة ؟ »
ـ « أحسب اني قد نفضتُ يدي منها · »
ـ « يا لك من فتى طيب · لقد كنتُ دائما اعتقد انك ذو عقل راجح · هل أستطيع ان اساعدك بطريقة ما ؟ »
ـ « انت مشغول الى حد رهيب · »
ـ « لا ، ابدا ، يا عزيزي هنري · لا ، لست مشغولا البتة · سوف أكون سعيدا بأن أعمل ايّ شيء · »
ـ « ان لك قواما هو اقرب ما يكون الى قوامي · فهل لك ان تمضي وتشتري لي بذلة مدنية كاملة ؟ ان لديّ بعض الملابس ، ولكنها كلها في رومة · »
ـ « لقد عشتَ هناك ، أليس كذلك ؟ انها موطنٌ قذر · هل أطقتَ الحياة فيهـــا ؟ »
ـ « لقد اردتُ ان أكون مهندسا معماريا · »
ـ « ليس هذا هو المكان الملائم لذلك · لا تشترِ اية ملابس · سوف اقدم اليك جميع الملابس التي ترغب فيها · سوف تخرج من بين يديّ رجلا بالغ الاناقة · انطلقْ الى حجرة اللبس · ان ثمة خزانة · خذ منها مـــا تشاء ، يا صديقي ، لستَ في حاجة الى شراء الملابس · »
ـ « ومع ذلك فأني افضل ان اشتريها ، يا سيمونز · »
ـ « يـــا صديقي العزيز ، انه لأيسر عليّ ان اقدمها اليك مـــن ان اخرج واشتريها · أعندك جواز سفر ؟ انك لن تستطيع الذهاب الى بعيد بـــدون جواز سفر · »
ـ « اجل · انا لا ازال محتفظا بجواز سفري · »

— « اذن ، فارتدِ تلك الملابس ، يا صديقي العزيز ، وانطلقْ الى هلفيتيا ❊ العتيقة • »

— « المسألة ليست سهلة الى هذا الحد • يتعيَّن عليَّ ان اذهب الـــى ستريزا ❊❊ اولا • »

— « شيء مثاليّ ، يا صديقي العزيز • ليس عليك الا ان تجـدّف وتعبر البحيرة • ولولا اني احاول الغناء كرة اخرى لرافقتك الى هناك • أنا لا بدّ ان اذهب في يوم من الايام • »

— « في ميسورك ان تتعلم الغناء ❊❊❊ على الطريقة التيرولية هناك • »

— «من غير ريب ، يا صديقي العزيز • سوف أتعلم الغناء على الطريقــة التيرولية في يوم من الايام • ومع ذلك ، فان في استطاعتي فعلا ان أغني • ذلك هو الجزء العجيب من المسألة • »

— « اراهن على ان في استطاعتك ان تغني • »

فاستلقى على السرير مدخنا لفافة •

— « لا تراهن اكثر مما ينبغي • ولكني برغم ذلك أستطيع ان أغني • هذا شيء مضحك الى حد لعين ، ولكني استطيع • أنا احب ان أغني • اسمع • »

وانشأ يهدر بـ « الآفريقانا » وقد انتفخت اوداجه ، وقال :

— « في استطاعتي ان أغني • سواء احبوا أم لم يحبوا • »

واطللت من النافذة ، وقلت :

— « سوف أنزل وأصرف العربة التي جاءت بي الى هنا • »

— « اصرِفها ثم ارجعْ ، يا صديقي العزيز ، ولسوف نتناول طعام الصباح معــا • »

ووثب من السرير • ووقف منتصب القامة ، واخذ نَفَسا عميقا ، وشرع يقوم ببعض التمرينات الانشائية • وهبطت السلم ، ودفعتُ الى الحوذي اجرته وصرَفْتهُ •

❊ Helvitia أسم شعري يطلق على سويسرا • (المعرب)

❊❊ Stresa .. مدينة في شمال غربي ايطاليا ، وتقع على بحيرة ماغيور • (المعرب)

❊❊❊ يقصد بالغناء على الطريقة التيرولية الانتقال المتكرر من الصوت العادي الـى الصوت الناشز (النشاز) على طريقة الجبليين السويسريين والتيروليين • (المعرب)

الفصل الرابع والثلاثون

واستشعرت ، وانا في تلك الثياب المدنية ، اني مُقَنَّع في كرنفال . لقد ارتديت الملابس العسكرية دهرا طويلا حتى لقد اصبحت أضيق بالملابس المدنية . لقد بدا لي وكأن بنطلوني فضفاض اكثر مما ينبغي . وكنت قد اشتريت في ميلانو تذكرة سفر الى ستريزا . وكنت قد اشتريت قبعة جديدة ايضا . أنا لم استطع الاعتمار بقبعة سيمونز ، ولكن ملابسه كانت رائعة . كانت رائحة التبغ تفوح منها ، ولحظة اتخذت مكاني في مقصورة القطار واطللت من النافذة بدت قبعتي بالغة الجدة وبدت ملابسي بالغة العتق . إما أنا فاستشعرت اني محزون مثل ريف لومبارديا الندي الذي كان ينبسط امام ناظري من خلال النافذة . كان في المقصورة بعض الطيارين الذين لم يلقوا الي بالا . لقد تحاموا النظر الي ، وكانوا يزدرون أعظم الازدراء مدنيا في مثل سني . ولم أشعر اني أهينت . ولو قد فعلوا ذلك في الايام الخالية اذن لأهنتهم ولافتعلت معركة بيني وبينهم . وغادروا القطار عند غالارات ، فسعدت بأن اجد نفسي وحيدا . وكانت لدي صحيفة ، ولكني لم أقرأها لاني ما كنت راغبا في قراءة شيء عن الحرب . كنت راغبا في نسيان الحرب . وكنت عقدت صلحا منفردا . لقد شعرت بوحدة موحشة ، ومن هنا كان سروري عظيما بوصول القطار الى ستريزا .

وفي المحطة توقعت ان أرى بعض بوابي الفنادق ، ولكني لم أجد منهم أحدا . كان الموسم قد انتهى منذ عهد بعيد ، ولم يعد البوابون يقبلون الى المحطة . وترجلت من القطار وفي يدي حقيبتي . كانت حقيبة سيمونز وكانت خفيفة الحمل جدا ، اذ لم يكن فيها غير قميصين اثنين ، ووقفت تحت سقف المحطة اتقاء للمطر ، فيما كان القطار يمضي لسبيله . ووجدت رجلا في المحطة ،

وسألته ايّ الفنادق لا يزال مشرع الابواب ؟ فعرفت منه ان « الغران اوتيل ودي زيل بوروميه » كان مشرع الابواب ، وكذلك كان حال عدد من الفنادق الصغيرة التي تعمل طوال العام · فانطلقت تحت المطر ، قاصدا الى فندق الـ « ايل بوروميه » ، وحقيبتي في يدي · وبَصُرْتُ بعربـة تهبط الشارع ، فأومأت الى الحوذي · لقد كان من الافضل ان ابلغ الفندق على متن عربـة · وانتهت بنا العربة الى باب العربات في ذلك الفندق الضخم · فخرج البواب حاملا مظلته ، وكان بالغ اللطف ·

واحتللت غرفة صالحة · كانت غرفة واسعة جدا ، نيرة جدا ، وكانـت تطل على البحيرة · كانت السحب شديدة الانخفاض فهي تكاد تمس وجـه البحيرة ، ولكن المشهد خليق به ان يكون رائعا في الايام المشمسة · وقلت للمشرفين على الفندق : اني أترقب ان تصل زوجتي في أقرب وقت · وكان ثمة سرير واسع مزدوج ذو غطاء من الاطلس (الساتان) · وكان الفندق فخما جدا · واتخذت سبيلي عبر الاروقة الطوال ـ هابطا السّلم العريضة ، مجتازا عددا من الغرف ـ الى المشرب (البار) · وعرفت القيّم على المشرب ، وقعدت على كرسي عالٍ لا ظهر له ، وأكلت شيئا من اللوز المملّح ومن البطاطا المقلية · وكان مذاق المارتيني * غضـّا نقيـّا ·

وسألني القيّم على المشرب بعد ان مزج لي كأسا اخرى من المارتيني :

ـ « ما الذي تفعله هنا في بورغيز ؟ »

ـ « انا في اجازة · في اجازة نقاهة · »

ـ « ليس ههنا احد · انا لا ادري لماذا لا يغلقون ابواب الفندق · »

ـ « هل كنت تصطاد السمك ؟ »

ـ « لقد اصطدت بعض الاسماك الجميلة · ان من يخرج للصيد في هـذا الفصل يفوز بأشياء جميلة · »

ـ « هل استلمت التبغ الذي بعثت به اليك ؟ »

ـ « أجل · ألم تتلقَّ بطاقتي ؟ »

وضحكت · فأنا لم اوفق الى الفوز بذلك التبغ · فقد كان القيم علـى المشرب يريد تبغا اميركيا خاصا بالبيبة (الغليون) ، ولكن انسبائي كانوا قد

---

* شراب مسكر معروف ·

كفّوا عن ارساله ، او لعل السلطات صادرت ما ارسلوه اليّ منه • وعلى أية حال ، فان ذلك التبغ لم يأتِ قط •

وقلت :

– « سوف اعثر على شيء من ذلك التبغ في مكان ما • قل لي ، هل رأيت فتاتين انكليزيتين في البلدة ؟ لقد وصلنا الى هنا أول أمس • »

– « انهما ليستا في الفندق • »

– « انهما ممرضتان • »

فقال :

– « لقد رأيت ممرضتين • انتظر دقيقة • سوف اكتشف اين هما • »

– « ان احداهما زوجتي • لقد وفدتُ الى هنا لألقاها • »

– « والاخرى زوجتي • »

– « أنا لا أمزح • »

فقال :

– « اغفر لي نكتتي البلهاء • أنا لم أفهم • »

ومضى لسبيله ، وبقيت وحدي فترة قصيرة • واكلت شيئا من الزيتون ، واللوز المملّح ، والبطاطا المقلية ، ونظرت الى نفسي في الملابس المدنية في المرآة القائمة خلف المشرب • ثم ان القيم على المشرب انقلب راجعا وقال :

– « انهما في الفندق الصغير المجاور للمحطة • »

– « هل استطيع ان افوز ببعض السندويشات ؟ »

– « سوف اطلب لك بعضها تلفونيا • أنت تعلم انه ليس لدينا شيء لانه ليس في الفندق احد • »

– « أليس ههنا ، حقا ، احد على الاطلاق ؟ »

– « أجل • هناك بضعةُ نفر ليس غير • »

وأقبلتِ السندويشات • والتهمت ثلاثا منها ، واحتسيت كأسين اخريين من المارتيني • أنا لم اذق من قبل أيما شيء في مثل هذه الغضارة والنقاء • لقد أشعرَتْني اني رجلٌ متمدن • ذلك اني كنت قد سئمت النبيذ ، والخبز والجبن ، والقهوة الرديئة ، والغرابّا • وجلست على المقعد العالي الذي لا ظهر له ، تجاه الخشب الماهوغاني الجميل ، والنحاس ، والمرايا ، ولم افكر في شيء • ووجه اليّ القيِّم على المشرب سؤالا •

فقلت :

– « لا تحدّثني عن الحرب • »

كانت الحرب نائية جدا · ولعله لم يكن ثمة حرب البتة · وأيا ما كان ، فلم يكن ههنا حرب · عندئذ ادركت ان الحرب قد انتهت بالنسبة اليّ · ولكني لم اكن استشعر انها انتهت فعلا · لقد استشعرت مثل شعور غلام يفكر في الذي يجري ، خلال ساعة ما ، في المدرسة التي غاب عنها ذلك اليوم لغير ما عذر شرعي·

***

كانت كاثرين وهيلين فيرغوسون تتناولان طعام العشاء عندما وصلت الى فندقهما · لقد رأيتهما جالستين الى المائدة وانا واقفٌ في الرواق · كانت كاثرين لا تنظر في اتجاهي ، فرأيت خط شعرها ووجنتها وجيدها الجميل وكتفيها · كانت فيرغوسون تتحدث · ولقد كفت عن الحديث عندما دخلتُ · وقالت :

ـ « يا الهي ! »

فقلت :

ـ « هالو ! »

فقالت كاثرين :

ـ « ولكنْ هذا أنت ! »

وأشرق وجهها بالبهجة · لقد بدت وكأنها تستشعر من السعادة قدرا اكبر مما ينبغي ، قدرا يوقع في نفسها الشك في صحة ما ترى · وقبّلتُها · وشاع الدم في وجه كاثرين · وجلستُ معهما الى المائدة ·

وقالت فيرغوسون :

ـ « ما الذي تفعله هنا ؟ هل تناولت طعام العشاء ؟ »

ـ « لا · »

ودخلت الفتاة التي كانت تقدم الطعام اليهما ، فسألتها ان تحمل اليّ طبقا · كانت كاثرين تنظر اليّ على نحو موصول · وكانت عيناها تشعّان بشرا وسعادة ·

وسألتني فيرغوسون :

ـ « ما الذي تفعله هنا وأنت في اللباس المدني ؟ »

ـ « أنا عضو في الوزارة · »

ـ « انت في مأزق ما · »

ـ « ابتهجي يا فيرغي ! ابتهجي ولو قليلا ! »

ـ « أنا لا أستشعر الابتهاج حين اراك · اني اعرف الورطة التي اوقعت هذه الفتاة فيها · أنت لست مشهدا بهيجا في ناظري · »

وابتسمت كاثرين لي ، ومستني بقدميها من تحت الطاولة ·

ـ « ان احدا لم يوقعني في ورطة ، يا فيرغي·اني اورط نفسي بنفسي · »

فقالت فيرغوسون :

ـ « أنا لا استطيع احتماله · انه لم يفعل شيئا غير الباسنك ثوب الخزي والعار بحيله الايطالية الحقيرة · ان الاميركيين اسوأ من الايطاليين · »

فقالت كاثرين :

ـ « الاسكتلنديون قوم اخلاقيون جدا · »

ـ « ليس هذا ما قصدت اليه · أنا اعني اساليبه الايطالية الحقيرة · »

ـ « هل أنا حقير ، يا فيرغي ؟ »

ـ « أجل ، انت حقير · انت أسوأ من حقير · انت كالافعى · انت أفعى في بذلة عسكرية ايطالية · افعى يطوق عنقها وشاح · »

ـ « أنا لا ارتدي بذلة عسكرية ايطالية الان · »

ـ « وهذا ليس الا مثلا آخر على مسلكك الحقير · لقد مثلت طوال الصيف دور المحب العاشق ، والقيت في احشاء هذه الفتاة جنينا ، واغلب الظن انك سوف تنسل الآن انسلالا · »

وابتسمت لكاثرين وابتسمت كاثرين لي ·

وقالت :

ـ « سوف ننسل نحن الاثنين انسلالا · »

فقالت فيرغوسون :

ـ « انتما كلاكما من معدن واحد · أنا خجلة بك ، يا كاثرين باركلي · انت امرأة بلا حياء ، بلا شرف · وانك لا تقلين عنه حقارة · »

فقالت كاثرين وهي تربت على يدها :

ـ « لا ، يا فيرغي · لا تتهميني · انت تعلمين اننا نحب بعضنا بعضا · »

فقالت فيرغوسون ، وقد شاع الدم في وجهها :

ـ « ابعدي يدك عني · لو كان في وجهك ذرة من خجل لكنت غير ما انت الآن · ولكنك حامل منذ اشهر لا يعلمها الا الله ، وانت تحسبين ذلك مزحة او نكتة ، وان وجهك ليطفح بالبشر والابتسام لان الذي اغواك قد عاد · أنت

امرأة بلا حياء وبلااحساس • »

وشرعت تبكي • فمضت كاثرين نحوها ، وطوّقتها بذراعها • وفيما هي واقفة تسرّي عن فيرغوسون لم استطع ان المح أي تغيّر في قوامها •

وتنهدت فيرغوسون وقالت :

ـ « لست ابالي • أنا اعتقد ان ذلك رهيب • »

فواستْها كاثرين قائلة :

ـ « كفى ، كفى ، يا فيرغي • سوف اعتصم بالخجل • لا تبكي ، يا فيرغي • يافيرغي الطيبة • »

فتنهدت فيرغوسون وقالت :

ـ « أنا لا ابكي • أنا لا ابكي • الا بسبب من الهاوية الفظيعة التي تردّيْتِ فيها • »

ونظرتْ اليّ ثم اضافت :

ـ « أنا اكرهك • انها لا تستطيع ان تحول بيني وبين كرهك ، ايها الاميركي الايطالي الحقير القذر • »

كانت عيناها حمراوين وكان انفها احمر ايضا من اثر البكاء •

وابتسمت كاثرين لي •

فقالت فيرغوسون موجهةً الخطاب اليها :

ـ « لا تبتسمي له وذراعك تطوّقني • »

ـ « ليس هذا تصرفا عاقلا ، يا فيرغي • »

فتنهدت فيرغوسون وقالت :

ـ « اعرف ذلك • ينبغي ان لا تؤاخذاني كلاكما • انني منفعلة الى ابعد الحدود • وأني لأتصرف تصرفا غير عاقل • أنا اعرف ذلك • أنا اريد ان تكونا كلاكما ، سعيدين • »

فقالت كاثرين :

ـ « نحن سعيدان • انت لطيفة ، يا فيرغي • »

واستأنفت فيرغوسون بكاءها ، وقالت :

ـ « أنا لا احب لكما ان تكونا سعيدين على هذه الشاكلة • لماذا لا تتزوجان ؟ أنت ليس لديك زوجة اخرى ، أليس كذلك ؟ »

فقلت :

ـ « أجل ، ليس لديَّ زوجة اخرى . »
وضحكت كاثرين .
فقالت فيرغوسون :
ـ « ليس ثمة ما يُضحك . انَّ لدى كثير منهم زوجاتٍ اخرى . »
فقالت كاثرين :
ـ « سوف نتزوج ، يا فيرغي ، اذا كان هذا يرضيك . »
ـ « لا . ليس من أجل ارضائي . ينبغي لكما ان تكونا انتمـا راغبيـن في الزواج . »
ـ « لقد كنا مشغولين اكثر مما يجب . »
ـ « أجل . ادري . كنتما مشغولين في انجاب الاولاد . »
وحسبتُ انها سوف تستسلم للبكاء من جديد ، ولكنها اخذت بأسباب السخرية والتهكم ، بدلا من ذلك ، فقالت :
ـ « احسب انكِ سوف تذهبين معه هذه الليلة ؟ »
فقالت كاثرين :
ـ « نعم . اذا رغب هو في ذلك . »
ـ « وأنا ، أأبقى هنا وحدي ؟ »
ـ « وهل تخافين البقاء وحدك ؟ »
ـ « أجل . انا خائفة . »
ـ « اذن ، فسوف ابقى معكِ . »
ـ « لا ، اذهبي معه . اذهبي معه في الحال . لقد سئمت رؤيتكما كليكما . »
ـ « من الافضل ان نَفْرغَ من عشائنا اولا . »
ـ « لا . اذهبا في الحال . »
ـ « كوني منطقية . يا فيرغي . »
ـ « اقول اذهبا في الحال . اذهبا كلاكما . »
فقلت :
ـ « فلنذهب اذن . »
كان صدري قد ضاق بفيرغي .
ـ « انتما تتحرقان الى الذهاب . وانكما لترَيان جيدا انكما راغبان حتى في تركي اتناول طعام العشاء وحدي . لقد كنت دائما تواقة للذهاب الـى

البحيرات الايطالية ، فانظرا الان على اية صورة قُدّر لي ان ارى تلك البحيرات ! أوه ، أوه ! »
وانتحبتْ ، ونظرت الى كاثرين ، وغصّت بالدمع .
فقالت كاثرين :
ـ « سوف نبقى الى ما بعد العشاء . ولن اتركك وحدك اذا رغبت في بقائي . لا ، لن اتركك وحدك يا فيرغي . »
فكفكفت من عبراتها وقالت :
ـ « لا . لا . انا احب ان تذهبي . انا احب ان تذهبي . لقد فقدت منطقي . ارجوك ان لا تؤاخذيني . »
وكانت النادلة قد ارتبكت لدن رؤيتها الى هذا البكاء كله . حتى اذا عادت حاملة الصنف الثاني من الطعام سرّى عن نفسها ما لا حظته من التحسّن الذي طرأ على الموقف .
وفي ذلك المساء كانت غرفة الفندق التي احتللناها ، الغرفة ذات الرواق الطويل الفارغ ، وكان حذاءانا الموضوعان خارج الباب ، وكانت السجادة الغليظة المنشورة في ارض الغرفة ، والمطر المنهمر خارج النوافد ، والضياء الخارجي ، والانس بغطاء السرير الناعم وبالسرير المريح ، وشعور العائد الى بيته بعد غيبة ، واحساسه بأنه لم يعد وحيدا ، واستيقاظه في حواشي الليل ليجد المحبوب الى جانبه ، لا غائبا في مكان قصي ـ كان ذلك كله اشبه بحلم . ونمنا حين المّ بنا النصب ، حتى اذا أفاق أحدنا أفاق الاخر ايضا لكي لا يستشعر أي منا وحشة التوحد ولو لحظة . ان الفتى كثيرا ما يستشعر الرغبة في ان يخلو الى نفسه ، وان الفتاة كثيرا ما تستشعر الرغبة في ان تخلو الى نفسها ، واذا كانا عاشقين حرصا على تحقيق هذه النزعة المتبادلة، ولكني استطيع ان اقول مخلصا ، اننا لم نعرف مثل هذا الشعور قط . . كنا نستشعر الوحدة حين يخلو احدنا الى الاخر ، نستشعر الوحدة ازاء الاخرين . ولم يتفق لي ذلك الا مرة واحدة . كنت استشعر الوحدة وانا مع فتيات كثيرات ، وتلك هي الطريقة القاذرة على ان تجعلك متوحدا اقوى ما يكون التوحد . ولكنا لم نكن نستشعر الوحدة البتة ، ولم نكن نحس بالخوف قط ونحن مجتمعان . ان الليل لا يستوي مع النهار ، وان الاشياء كلها متباينة ، وان اشياء الليل لا سبيل الى تفسيرها في النهار ، اذ ليس من وجود لها

آنذاك ، وان الليل قد يكون وقتا رهيبا بالنسبة الى المتوحدين من الناس بمجرد استشعارهم تلك الوحدة . اما مع كاثرين فلم يكن ثمة ، اذا جاز التعبير ، فرق بين الليل والنهار باستثناء ان الليل كان خيرا من النهار . وحين يواجه الناس العالم بقدر وافر من الشجاعة فان على العالم ان يقتلهم لكي يكسرهم . وهكذا فانه يقتلهم . ان العالم يكسر الناس جميعا ، وبعد ذلك ينشىء كثير منهم ، في مواطن الكسر ، أنسجة عظمية جديدة . أما اولئك الذين يستعصون على الكسر فانه يقتلهم . انه يقتل ذوي الصلاح البالغ ، واللطف البالغ ، والبسالة البالغة على حد سواء . فاذا لم تكن واحدا من هؤلاء ففي ميسورك ان تثق انه سوف يقتلك ، ولكن لن يكون ثمة ايما داع للعجلة .

***

واذكر اني أفقت في الصباح . كانت كاثرين نائمة ، وكانت أشعة الشمس تتسرب من خلال النافذة . كان المطر قد كف عن التهطال ، فوثبتُ من السرير ومضيت الى النافذة . وهناك ، تحت ، تراءت الحدائق عارية من اوراق الشجر ، ولكنها جميلة في نظاميّتها ، وتراءت المجازات المفروشة بالحصباء ، والاشجار ، والجدار الحجري الممتد على طول البحيرة ، والبحيرة متألقة تحت اشعة الشمس ، والجبال من ورائها . ووقفت عند النافذة ، وسرّحت البصر منها ، حتى اذا برحت موقفي ذاك الفيتُ كاثرين مستيقظة تراقبني .

وقالت :

– « كيف انت ايها الحبيب ؟ انه نهار بديع ، اليس كذلك ؟ »

– « أجل ، وكيف أنت ؟ »

– « ممتازة . لقد قضينا ليلة رائعة . »

– « هل ترغبين في تناول طعام الصباح ؟ »

كانت راغبة في تناول طعام الصباح . وكذلك كنت أنا . فتناولناه في السرير ، واشعة شمس نوفمبر تنفذ من خلال النافذة ، وصينية الطعام في حجري .

– « الا تريد الجريدة ؟ كنت دائما راغبا في قراءة الجريدة في المستشفى . »

فقلت :

– « لا . لست اريد الجريدة الان . »

ـ « أكانت رديئة الى هذا الحد حتى لتأبى ان تقرأ شيئا عنها ؟ »
ـ « انا لا اريد ان اقرأ شيئا عنها . »
ـ « كم اتمنى لو كنت معك لكي اطلع على واقعها ايضا . »
ـ « سوف احدثك عنهـــا اذا ما قُدِّر لي يوما ان انظـــم فكراتي بعض التنظيم . »
ـ « ولكن ألا تخشى ان يعتقلوك اذا ما الفَوْك مرتديا الملابس المدنية ؟ »
ـ « من الجائز جدا ان يطلقوا عليَّ النار . »
ـ « اذن فلن نبقى هنا . سوف نخرج من هذه البلاد . »
ـ « لقد فكرت بشيء من هذا . »
ـ « سوف نغادر هذه الديار . أيها الحبيب ، يجب ان لا تعرِّض حيـــاتك للخطر على غير طائل . أخبرني كيف ذهبت من ميستر الى ميلانو ؟ »
ـ « لقد جئت بالقطار . وكنت ارتدي الملابس العسكرية آنئذ . »
ـ « ألم تكن في خطر آنذاك ؟ »
ـ « لم أكن في خطر كبير . كانت لدي رخصة مرور عتيقة . ولقد زتبت تواريخها في ميستر . »
ـ « أيها الحبيب ، انت معرَّض للاعتقال هنا في كل لحظة . انا لا اريـــد شيئا من ذلك . ومن السخف الاقدام على شيء كهذا . ما الذي سيحـــل بنا اذا ما اعتقلوك ؟ »
ـ « فلنقلع عن التفكير في هذا . لقد سئمت التفكير في هذا . »
ـ « أي شيء ستفعله اذا ما اقبلوا لاعتقالك ؟ »
ـ « سوف اقتلهم بالرصاص . »
ـ « أترى مبلغ سخافتك ! انا لن ادعك تخرج من الفندق الا لنغادر البلاد نهائيا . »
ـ « الى اين سوف نذهب ؟ »
ـ « ارجوك ان لا تكون هكذا ، أيهـــا الحبيب . سوف نذهب الى حيـــث تشاء . ولكن ارجوك ان تختار مكانا نستطيع ان نذهب اليه في الحال . »
ـ « ان سويسرة تقع على طرف البحيرة . في استطاعتنـــا ان نذهب الى هناك . »
ـ « سوف يكون ذلك رائعا . »
كانت الغيوم تتلبَّد في السماء ، وكان الظلام قد شرع يرين على البحيرة .

وقلت :

– « أتمنى ان لا نضطر دائما الى العيش كالمجرمين • »

– « لا تكن هكذا أيها الحبيب • انك لم تعش كالمجرمين دهرا طويلا • ونحن لا نعيش ابدا كالمجرمين • اننا سوف نقضي وقتا ممتعا • »

– « انا اشعر وكأني مجرم • لقد فررت من الجيش • »

– « ارجوك ، أيها الحبيب • كن عاقلا • انت لا تستطيع ان تدعو ذلك فرارا من الجيش • ثم انك لم تفر الا من الجيش الايطالي على اية حال • »

وضحكتُ وقلت :

– « انت فتاة رائعة • فلنأوِ الى السرير • انا لا استشعر الراحة الا حين آوي الى السرير • »

* * *

وبعد قليل قالت كاثرين :

– « انت لا تستشعر وكأنك مجرم ، أليس كذلك ؟ »

فقلت :

– « لا • ليس حين أكون معك • »

فقالت :

– « انت فتى بارد جدا • ولكني سوف اعنى بك • اليس من الرائع ، ايها الحبيب ، اني لا احس بشيء من غثيان الصباح ؟ »

– « هذا عظيم • »

– « انت لا تدرك اية زوجة رائعة عندك ! ولكني لا ابالي • سوف اذهب الى مكان لا يستطيعون ان يعتقلوك فيه ، وعندئذ ننعم بالسعادة • »

– « فلنذهب الى هناك في الحال • »

– « سوف نفعل ، ايها الحبيب • سوف أذهب الى ايما مكان في ايما وقت تشاء • »

– « دعينا لا نفكر في أي شيء • »

– « حسن • »

الفصل الخامس والثلاثون

اتخذت كاثرين سبيلها في محاذاة البحيرة الى الفنـدق الصغير لكي ترى فيرغوسون، وقعدت أنا في المشرب وقرأت الصحف. كان في المشرب كراسي جلدية مريحة فجلست على واحد منها، وقرأت حتى اقبل القيِّم على المشرب. لقد واصل الجيش تراجعه من غير ان يتوقف عند الـ « تاغلييامانتو » . كان يرتد الى نهر الـ «بيياف» . وتذكرت الـ «بيياف» . كانت سكة الحديد التي تقود الى جبهة القتال تجتازه قرب «سان دونا» . وفي تلك النقطة كان النهر عميقا بطيئا ، وكان ضيقا جدا . وفي موطن اكثر انخفاضا كانت مستنقعات مـلأى بالبعوض وقنوات. وكانت ثمة بعض الدارات الجميلة. وذات مرة، قبل الحرب، كنت اصعّد نحو الـ « كورتينا دامبيزو » فلزمْتُ مجراه ساعات عديدة عبر الكثبان . وفي تلك المرتفعات بدا وكأنه نهر اطروط ※ يجري في رشاقة ، نهر ذو امتدادات ضحلة ومياه راكدة في ظل الصخور . وانعطفت الطريـق مفترقة عنه عند كادور . وتساءلت كيف يستطيع الجيش المعسكر على تلك المرتفعات ان يهبط منها . واقبل القيِّم على المشرب .

وقال :

ـ « كان الكونت غريفيّ يسأل عنك . »

ـ « من ؟ »

※ الاطروط trout نوع من السمك .

ـ الكونت غريفّي · انت تذكر الرجل العجوز الذي كان هنا يوم كنت انت في المرة الماضية · »

ـ « أهو هنا ؟ »

ـ « أجل · هو هنا مع ابنة اخيه · لقد قلت له انك هنا · انه يريد ان يلاعبك بالبليارد · »

ـ « أين هو ؟ »

ـ « انه يتنزه سيرا على القدمين · »

ـ « كيف حاله ؟ »

ـ « انه انضر شبابا من ايما وقت مضى · لقد شرب ثلاثة اقداح من الشامبانيا البارحة قبل العشاء · »

ـ « وكيف لعبُه بالبليارد ؟ »

ـ « حسن · لقد غلبني ، ولقد سرّ سرورا عظيما عندما اخبرته انك هنا · فليس ههنا احد حتى يلاعبه · »

كان الكونت غريفي في الرابعة والتسعين · ولقد عاصر ميترنيخ ، وكان عجوزا ذا شعر ابيض ، وشاربين ، وكان رفيع التهذيب· لقد عمل في السلك السياسي في كل من النمسا وايطاليا ، وكانت السهرات التي يقيمها احتفالا بذكرى ميلاده هي الحدث الاجتماعي الاكبر في ميلانو · كان خليقا به ان يحيا حتى تبلغ سنه مئة عام، وكان يلعب البليارد في سلاسة تتغاير مع هشاشته* البالغة من العمر الرابعة والتسعين · وكنت قد لقيته يوم قصدت الى ستريزا ذات مرة سابقة ، وكان ذلك في غير ايام الموسم ، وفيما كنا نلعب البليارد احتسينا الشامبانيا · لقد كانت عادة رائعة ، ولقد تساهل معي فتبرع لي بخمس عشرة نقطة من أصل مئة ، ومع ذلك فقد غلبني ·

ـ « لماذا لم تخبرني انه هنا ؟ »

ـ « لقد نسيت · »

ـ « ومَن هنا أيضا ؟ »

ـ « ليس هناك احد تعرفه · ان نزلاء الفندق كلهم لا يزيدون على ستة · »

ـ « ماذا تفعل الان ؟ »

ـ « لا شيء · »

ـ « هيا بنا نصطَدِ السمك · »

ـ أستطيع ان أقضي في ذلك ساعة واحدة · »

---

* الهشاشة : سرعة الانقصاف والانكسار

ـ « هيا . ايتِ بالصنارة . »

وارتدى القيم على المشرب سترة ، وانطلقنا . لقد هبطنا ضفة البحيرة واخذنا مركبا . وجذّفتُ أنا ، بينما جلس المشربي عند مؤخر المركب ، ودلّى صنارته في الماء . كانت صنارة خاصة بصيد سمك الاطروط في البحيرة ، وكانت ذات طُعم دوّار ومُرسِّب ثقيل . وجذفنا في محاذاة الشاطىء ، وقد أمسك المشربي بالصنارة في يده ، وأنشأ يَنْتُرُها بين الفينة والفينة . ومن جانب البحيرة ، بدت ستريزا مدينة مهجورة . كان ثمة صفوف طويلة من الاشجار الجرداء ، وكانت ثمة الفنادق الكبيرة ، والدارات الموصدة . وجذّفت في اتجاه الـ « ايزولا بيلا » ، وحاذيتُ الجدران حيث تعاظم عمق المياه وحيث كنت ترى الجدار الصخري ينحدر في المياه الرائقة . ثم انني جذّفت الى جزيرة الصيادين . كانت الشمس محجوبة خلف سحابة ضخمة ، وكانت المياه قاتمة ، مستوية ، باردة جدا . ولم نوفق الى صيد ما ، على الرغم من اننا رأينا بعض الدوائر التي رسمها السمك في ارتفاعه الى سطح الماء .

وجذّفت في اتجاه جزيرة الصيادين حيث كانت مراكب مشدودة الى الشاطىء ، وحيث كان رجال يصلحون شباك الصيد .

ـ « ما رأيك في قليل من الشراب ؟ »

ـ « لا بأس . »

وقدت المركب حتى الرصيف الحجري ، وسحب المشربي صنارته من الماء ولفّها في قعر المركب ، وعلّق الطعم على حافة المركب . ووثبت مترجلا من المركب وربطته بحبل . ثم اننا مضينا الى مقهىً صغير وجلسنا الى طاولة خشبية عارية ، وطلبنا كأسين من الفيرموت .

ـ « هل تعبت من التجذيف ؟ »

ـ « لا . »

فقال :

ـ « سوف أجذّف في العودة . »

ـ « أنا أحب التجذيف . »

ـ « اذا أمسكت انت بالصنارة فقد يتغير الحظ . »

ـ « حسن . »

ـ « حدثني عن الحرب كيف تسير ؟ »

ـ « من سيء الى أسوأ . »

ـ « لست مضطرا الى الذهاب الى الجبهـة · انا عجوز اكثر مما ينبغي ، مثل الكونت غريفي · »

ـ « قد يتعيَّن عليك ان تذهب في وقت قريب · »

ـ « في العام القادم سوف يدعون أترابي الى الخدمة· ولكني لن أذهب · »

ـ « ما الذي ستفعله ؟ »

ـ « سوف اغادر البلاد · أنا لن أذهب الى الحرب · لقد خضت الحرب مرة في الحبشة · لا ، لا · لماذا ذهبت انت ؟ »

ـ « لست ادري · لقد كنت مجنونا · »

ـ « أتريد كأسا اخر من الفيرموت ؟ »

ـ « لا بأس · »

وجذَّف المشربي في العودة · وحاولنا الصيد في موضع مرتفع من البحيرة، وراء ستريزا ، ثم في موضع اكثر انخفاضا على مقربة من الشاطىء· وامسكت انا بالصنارة ، واستشعرت نبضات الطعم الخافتة وهو يدور ويدور ، بينـا كنت أنظر الى مياه نوفمبر القاتمة ، والى الشاطىء المهجور · وجذف المشربي في خطى واسعة ، وعند كل اندفاعـة من اندفاعات المركـب كانت الصنـارة تختلج · وذات مرة احسست بسمكة تعض الشص · فتصلب الخيط وارتد الى الوراء · وجذبته فاستشعرت ثقل السمكة الحي ، ثم اختلج الخيط مـن جديد · كانت السمكة قد أفلتت ·

ـ « هل بدا لك انها ضخمة ؟ »

ـ « ضخمة جدا · »

ـ « ذات يوم كنت اصطاد وحدي ، وكنـت امسـك بالخيط بأسناني · واقبلت سمكة اطروط وعضَّت على الشص ، فكادت تقتلع فمي اقتلاعا · »

فقلت :

ـ « الطريقة الفضلى هي ان تضع الخيط فوق رجلك ، وبذلك تحس بـه جيدا وتصون اسنانك من الضياع · »

ووضعت يدي في الماء · كان الماء باردا جدا · وكنا قد اصبحنا تجاه الفندق تقريبا ·

وقال المشربي :

ـ « يتعيَّن علي ان ادخل · يجب ان اكون هناك في الساعة الحادية عشرة، ساعة الكوكتيل · »

ـ « حسن · »

ورفعت الصنارة ولففتها على عصا مثلومة الطرفيـــن . ووضـــع الشربي المركب في مُنْزلَق صغير في الجدار الحجري ، وربطه بسلسلة ذات قُفل . وقال :

ـ « كلما احتجت الى المركب أعطيتك المفتاح . »

ـ « شكرا . »

وصعدنا الى الفندق واتجهنا الى المشرب . واذ لم أكن راغبـــا في كأس اخرى ، في تلك الساعة من الصباح ، فقد تابعت سبيلي الى غرفتنا . كانت الخادمة قد انتهت اللحظة من تنظيف الغرفة وترتيبها ، ولم تكن كاثرين قد رجعت بعد . واستلقيت على السرير وحاولت ان اذود التفكير عن ذهني .

وحين رجعت كاثرين استشعرت الارتيـــاح من جديد . وقالـــت لي ان فيرغوسون في الدور السفلي . كانت قد اقبلت لتناول طعام الغداء معنا . فقالت كاثرين :

ـ « أنا اعلم انك لن تمانع في ذلك . »

فقلت :

ـ « لا . »

ـ « ما بك ، أيها الحبيب ؟ »

ـ « لست أدري . »

ـ « أنا أدري . ليس لديك ما تعمله . كنت أنا كل ما تملكه ، ولقد مضيت أنا لسبيلي . »

ـ « هذا صحيح . »

ـ « أنا آسفة ، أيها الحبيب . أنا أعلم ان شعور المرء فجأة بأن ليس لديه ما يعمله هو شعور رهيب . »

فقلت :

ـ « لقد كانت حياتي حافلة دائما بكل شيء . اما الان فحين لا تكونيـــن معي افقد كل شيء في العالم . »

ـ « ولكنني سوف أكون معك دائما . انا لم اغب عنك الا ساعتين . أليس ثمة شيء تستطيع ان تعمله ؟ »

ـ « لقد ذهبت لصيد السمك مع القيم على المشرب . »

ـ « ألم تستمتع بذلك ؟ »

ـ « بلى . »

ـ « لا تفكّر فيّ حين لا أكون هنا . »

ـ « ذلك ما كنت أفعله في الجبهة · ولكن كان لدي ما أفعله آنذاك · »
فقالت مناكدة :
ـ « عُطَيّل من غير عمل ·. »
فقلت :
ـ « لقد كان عطيل زنجيا · والى هذا فأنا لا اعرف الغيرة · كل ما في الامر اني أحبك حبا انعدم معه وجود كل شيء · »
ـ « هل لك ان تكون فتى صالحا وان تعامل فيرغوسون بلطف ؟ »
ـ « أنا لطيف دائما مع فيرغوسون الا اذا شتمتني · »
ـ « كن لطيفا معها · فكّر في كل هذا الذي ننعم به وفي مدى الحرمان الذي تعانيه هي · »
ـ « ما كنت أحسب انها تبغي ما ننعم به نحن · »
ـ « بالنسبة الى ذكائك البالغ استطيع ان اقول ، أيها الحبيب ، انك لا تعرف شيئا كثيرا · »
ـ « سوف أكون لطيفا معها · »
ـ « أعلم أنك ستكون كذلك · انت عذب الى أبعد الحدود · »
ـ « انها لن تبقى بعد هذا ، اليس كذلك ؟ »
ـ « لا · سوف أتخلص منها · »
ـ « وعندئذ نعود الى هنا · »
ـ « طبعا · أي شيء تحسبني سأفعله ؟ »

وهبطنا الى الدور السفلي لنتناول طعام الغداء مع فيرغوسون · كانت شديدة الاعجاب بالفندق وبأناقة حجرة الطعام وفخامتها · وتناولنا غداء شهيا مع زجاجتين من شراب الـ « كابري » الابيض · ودخل الكونت غريفي الى حجرة الطعام وحيّانا بانحناءة · وكانت ابنة أخيه الشبيهة بعض الشيء بجدتي ، ترافقه · وحدثتُ كاثرين وفيرغوسون عنه ، فكان تأثر فيرغوسون عظيما · كان الفندق فخما جدا ، وضخما جدا ، وفارغا ، ولكن الطعام كان جيدا ، وكانت الخمر طيبة المذاق جدا ، وأخيرا أوقعت الخمر في جوانحنا نشاطا وابتهاجا · ولم تكن كاثرين في حاجة الى مزيد من النشاط والابتهاج · لقد كانت بالغة السعادة ، وغَدَت فيرغوسون مبتهجة جدا · واستشعرت انا الخفة والنشاط · وبعد الغداء رجعت فيرغوسون الى فندقها · لقد قالت انها راغبة في الاستلقاء على السرير ، فترة قصيرة ، بعد الغداء ·

وفي ساعة متأخرة من الاصيل قرع شخص باب غرفتنا :

ـ « من الطارق ؟ »
ـ « الكونت غريفي يود ان يسأل : هل تستطيع ان تلعب البليارد معه ؟ »
وألقيت نظرة على ساعتي . كنت قد نزعتها ووضعتها تحت الوسادة .
فهمست كاثرين :
ـ « أأنت مضطر الى الذهاب ، أيها الحبيب ؟ »
ـ « أظن ان من الافضل ان أذهب . »
كانت الساعة الرابعة والربع . وفي صوت عال قلت :
ـ « قل للكونت غريفي اني سأكون في قاعة البليارد عند الساعة الخامسة . »

وحين بلغت الساعة الخامسة الا ربعا قبّلت كاثرين مودّعا وذهبت الى الحمام لارتدي ملابسي . وفيما انا أعقد رباط عنقي وأنظر الى المرآة بدَوْت غريبا في عينَيْ نفسي في الملابس المدنية . يتعيَّن علي ان لا اغفل عن شراء بعض القمصان والجوارب الاضافية .

وسألتني كاثرين ، وقد بدت رائعة وهي مستلقية على السرير :
ـ « وهل سيطول غيابك ؟ ارجو ان تناولني الفرشاة . »

وراقبتها وهي تمرّ الفرشاة على شعرها ، حانية رأسها لكي يجتمع ثقل شعرها كله في جانب واحد . كانت العتمة قد هبطت ، وكان النور المنبعث من فوق مقدّم السرير يتلألأ على شعرها ، وعلى جيدها ومنكبيها . وتقدّمت نحوها ، وقبلتها ، وأخذت بيدها الممسكة بالفرشاة ، وارتدّ رأسها وأرتمى على الوسادة . وقبلت جيدها وكتفيها . واحسست لفرط حبي اياها اني على وشك ان يغمى علي .

ـ « أنا لا أريد ان أذهب . »
ـ « وأنا لا أريدك ان تذهب . »
ـ « اذن فلن أذهب . »
ـ « لا . اذهب . انك لن تغيب غير برهة يسيرة ، وبعد ذلك ستعود . »
ـ « سوف نتناول طعام العشاء ، هنا في الغرفة . »
ـ « اذهب ، وارجع في سرعة . »

ووجدتُ الكونت غريفي في قاعة البليارد . كان يتدرب ، وقد بدا قَصِيما سهل المكسر تحت الضياء المنصب على مائدة البليارد . وعلى احد موائد اللعب بالورق ، بعيدا عن النور بعض الشيء ، كان دلوُ تثليج فضي يحتضن زجاجتي شمبانيا ، وقد بدا عنقاهما وسدّاداتاهما فوق قطع الثلج التي فيه .

وتصدّر الكونت غريفي عندما اقتربت من المائدة وتقدم نحوي · وبسط يده الي وقال :

– « يسعدني الى ابعد الحدود ان ألقاك هنا · لقد كان لطفا عظيما منك ان تجيء لتلعب معي · »

– « لقد كان لطفا عظيما منك ان تدعوني الى ذلك · »

– « هل انت بخير ؟ لقد انبأوني انك جُرحتَ عند نهر ايزونزو · أرجو ان تكون استعدت عافيتك · »

– « أنا في صحة ممتازة · وانت ؟ »

– « أوه ، أنا بخير دائما · ولكني أتخذ سبيلي نحو الشيخوخة · لقد بدأت الحظ امارات السن العالية · »

– « انا لا استطيع ان اصدّق ذلك · »

– « حسن · هل تريد ان اقدم اليك مثلا على ذلك ؟ من الايسر علي ان اتحدث باللغة الانكليزية · أنا أفرض على نفسي نظاما قاسيا ، ولكني أجد حين أتعب انه من الايسر علي ان اتحدث باللغة الايطالية · وهكذا إعلم اني أتخذ سبيلي الى الشيخوخة · »

– « في استطاعتنا ان نتحدث بالايطالية ، انا مُتعب بعض الشيء ايضا · »

– « أوه ، ولكنك حين تتعب يكون منالايسر عليك انتتحدث بالانكليزية · »

– « تعني بالاميركية · »

– « نعم · بالاميركية · ارجوك ان تتحدث بالاميركية · انها لغة رائعة · »

– « اني نادرا ما التقي بعض الاميركيين · »

– « ولا ريب في انك مشوق اليهم · فالمرء يشتاق الى مواطنيه ، ويشتاق بخاصة الى مواطناته · لقد خبرتُ ذلك بنفسي · هل نبدأ في اللعب ام انك متعب اكثر مما ينبغي ؟ »

– « انا لست متعبا على الاطلاق · لقد قلتُ ذلك على سبيل الدعابة · ما عدد النقط التي تعتزم ان تسلّفني اياها ؟ »

– « هل لعبت كثيرا في المدة الاخيرة ؟ »

– « لم ألعب قط · »

– « أنت بارع في اللعب · سوف امنحك عشر نقط من اصل مئة · »

– « انت تطريني · »

– « خمس عشرة نقطة ؟ »

– « سوف يكون هذا شيئا رائعا · ولكنك ستغلبني · »

ـ « هل نتراهن على شيء ؟ لقد كنت ترغب ، دائما ، في التراهن على شيء يدفعه المغلوب الى الغالب • »

ـ « أعتقد ان هذا أفضل • »

ـ « حسن • سوف أمنحك ثماني عشرة نقطة ، ولسوف ندفع فرنكا مقابل كل نقطة • »

ولعب لعبا ساحرا • ورغم النقاط التي منحني اياها لم أكن أتقدمه ، حين أحرزت خمسين نقطة ، بأكثر من نقاط اربع • وضغط الكونت غريفي على زر في الجدار لكي يستدعي القيم على المشرب •

وقال :

ـ « افتح احدى الزجاجتين من فضلك • »

ثم التفت الي وقال :

ـ « سوف نأخذ منبهًا صغيرا • »

كانت الخمر باردة كالثلج ، وكانت مُزّاء الى حد بعيد ، ممتازة الى حد بعيد •

ـ « هل نتحدث بالايطالية ؟ ان ذلك لن يزعجك كثيرا ، أليس كذلك ؟ تلك هي نقطة ضعفي الكبرى الان • »

وواصلنا اللعب ، مرتشفين الخمر بين الضربة والضربة ، متحدثين بالايطالية ، ولكن في اقتصاد ، مركّزين اهتمامنا على اللعب • وحين سجّل الكونت غريفي نقاطه المئة كنت أنا قد سجلت ، برغم النقاط التي منحني اياها منذ البدء ، اربعا وتسعين نقطة ليس غير • وابتسم الكونت ، وربّت على كتفي •

ـ « سوف نشرب الزجاجة الاخرى ، سوف تحدثني حديث الحرب • »

وانتظرني حتى جلست ، فجلس •

وقلت :

ـ « سأحدثك عن ايما شيء اخر • »

ـ « ألا تريد ان تحدثني عن الحرب ؟ حسن • ما الذي طالعته في الفترة الاخيرة ؟ »

فقلت :

ـ « لم اطالع شيئا • يخيل اليّ اني خامل جدا • »

ـ « أوه ، ولكن عليك ان تطالع • »

ـ « وهل ثمة في ايام الحرب انتاج ادبي جدير بالقراءة ؟ »

ـ « هناك كتاب « النار » للكاتب الفرنسي باربوس ، و « مستر بريتلنغ يرى من خلالها ٠ » *

ـ « لا ٠ انه لا يرى شيئا ٠ »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « انه لا يرى شيئا ٠ هذان الكتابان كانا في المستشفى ٠ »

ـ « اذن فقد كنت تطالع ؟ »

ـ « أجل ، ولكن ما طالعته لم يكن صالحا البتة ٠ »

ـ « لقد وجدتُ « مستر بريتلنغ » دراسة جيدة لروح الطبقة الوسطى ٠ »

ـ « أنا لا أعرف شيئا عن الروح ٠ »

ـ « يا لك من فتى مسكين ٠ ان أحدا منا ، نحن الاثنين ، لا يعرف شيئا عن الروح ٠ هل انت مؤمن ؟ »

ـ « في الليل فقط ٠ »

وابتسم الكونت غريفي ٠ وأدار الكأس بأصابعه ، وقال :

ـ « كنت قد توقعت ان أصبح اكثر تقوى كلما تقدَّمت بي السن ولكن ذلك لم يتم ٠ ان هذا مؤسف جدا ٠ »

وسألته :

ـ « هل تُرغب في ان تحيا بعد الموت ؟ »

واستشعرت في الحال ان اشارتي هذه الى الموت كانت حماقة ٠ ولكن الكلمة لم تزعجه ٠

وقال :

ـ « يتوقف ذلك على الحياة ٠ هذه الحياة حلوة جدا ٠ واني لاتمنى لو أعيش الى الابد ٠ »

وابتسم ثم أضاف :

ـ « ولقد كدت احقق ذلك في الواقع ٠ »

كنا جالسين على كرسيين جديدين عميقين ، وكانت الشامبانيا في دلو الثلج وكأسانا بيني وبينه على المائدة ٠

ـ « لو قُدِّر لك ان تبلغ من السن مبلغي اذن لالفَيت كثيرا من الاشياء بالغة الغرابة ٠ »

ـ « انت لا تبدو عجوزا البتة ٠ »

---

* احد مؤلفات هـ٠ج٠ ويلز ٠ (المعرب)

ـ « ان جسدي هو الذي أمسى عجوزا ٠ واني لاخشى فى بعض الاحيان ان أكسر اصبعا من أصابعي كما يكسر المرء اصبع طباشير ٠ ولكن روحي ليست أعلى سنا ، ولا أكثر حكمة ٠ »

ـ « أوه ، ولكنك رجل حكيم ٠ »

ـ « لا ٠ تلك هي المغالطة العظمى : حكمة الشيوخ ٠ ان السن لاتجعلهم حكماء ٠ انها تجعلهم اكثر حذرا ٠ »

ـ « لعل هذا هو الحكمة بعينها ٠ »

ـ « انها حكمة مستهجنة ٠ ما الذى يستأثر بأعظم حظ من تقديرك ؟ »

ـ « شخص أحبه ٠٠ »

ـ « وانا مثلك ٠ هذه ليست حكمة ٠ هل تقدّر الحياة ؟ »

ـ « نعم ٠ »

ـ « وكذلك أنا ٠ لانها كل ما أملكه ٠ ولانها تمكنني من احياء السهرات احتفالا بذكرى ميلادي ٠ »

وضحك ثم اضاف :

ـ « لعلك اكثر حكمة مني ٠ انت لا تقيم السهرات احتفالا بذكرى ميلادك ٠ »

ورشف كل منا شيئا من الخمر ٠

وسألته :

ـ « وما رأيك في الحرب ، بصراحة ؟ »

ـ « أنا أعتقد أنها حماقة ٠ »

ـ « ومن سيكسبها ؟ »

ـ « ايطاليا ٠ »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « انها أمة اكثر فتاء وانضر شبابا ٠ »

ـ « وهل تكسب الامم الفتية الحروب دائما ؟ »

ـ « انها خليقة بأن تكسبها طوال فترة من الزمن ٠ »

ـ « وبعد ذلك ما الذي يحدث ؟ »

ـ « انها تصبح أمماً عالية السن ٠ »

ـ « وتزعم انك لست حكيما ٠٠٠ »

ـ « هذه ليست حكمة ، أيها الفتى العزيز ٠ هذه سخرية ٠ »

ـ « انها تبدو لي حافلة بالحكمة ٠ »

ـ « ليس كثيرا · وفي استطاعتي ان أعطيك أمثلة معاكسة · ولكنها ليست رديئة · هل أتينا على الشامبانيا ؟ »

ـ « تقريبا · »

ـ « هل نشرب قدْرا اضافيا ؟ يتعيَّن علي بعد ذلك انارتدي ملابسي · »

ـ « من الخير لنا ان لا نشرب قدْرا اضافيا الان · »

ـ « أواثق انت من انك لا ترغب في قَدْر اضافي ؟ »

ـ « أجل · »

ونهض · فقلت :

ـ « أتمنى لك حظا طيبا وسعادة عظيمة ، وصحة موفورة الى أبعد الحدود · »

ـ « شكرا · لقد فزتُ بذلك · واذا ما قُدِّر لك ذات يوم ان تصبح تقيًا فصلِّ من اجلي حين اموت · اني اسأل كثيرا من اصدقائي ان يفعلوا الشيء نفسه · ولقد توقعت في يوم من الايام ان اغدو انا تقيًا ولكن ذلك لم يتمَّ · »

وخُيِّل الي انه ابتسم ابتسامة محزونة ، ولكنني لم أكن واثقا · فقد كان هرما متغضِّن الوجه الى درجة جعلت الابتسامة تشوّه كثيرا من اساريره وتضيع ظلال المعنى كلها ·

وقلت :

ـ « قد أصبحُ تقيًا جدا · وعلى كل حال ، فسوف أصلي من أجلك · »

ـ « لقد توقَّعتُ دائما ان أصبح تقيا · لقد مات افراد أسرتي كلهم بعد ان بلغوا مرتبة عالية من التقى · ولكنني لم اوفق الى شيء من ذلك لسبب من الاسباب · »

ـ « اعتقد ان الوقت لمَّا يحن بعد · »

ـ « بل لعلَّ الاوان قد فات · لعلي اجتزت سن الاحاسيس الدينية · »

ـ « ان عواطفي الدينية لا تستيقظ الا في الليل · »

ـ « اذن فانت عاشق ايضا · لا تنسَ ان الحب عاطفة دينية · »

ـ « هل تعتقد ذلك ؟ »

ـ « طبعا · »

وخطا خطوة نحو المائدة وقال :

ـ « لقد كان لطفا منك ان تلاعبني · »

ـ « لقد فزتُ بمتعة بالغة · »

ـ « سوف نرتقي السلم معا · »

الفصل السادس والثلاثون

وفي تلك الليلة ، هبت عاصفة ، وافقت على صوت المطر وهو يجلد زجاج النافـذة بسياطه · كان يتسرب من خلال النافذة المفتوحـة · وقـرع شخص الباب ، ومضيت الى الباب في رفق ، لكي لا اوقظ كاثرين ، وفتحته · كان المشربي واقفا هناك · وكان مرتديا معطفه ، ممسكا بقبعته الندية في يده ·

ـ « هل استطيع ان اقول كلمة ، ايها الملازم ؟ »

ـ « ماالمسألة ؟

ـ « انها مسألة خطيرة جدا · »

وأجلت البصر في ما حولي · كانت الغرفة مظلمة · ورأيت الماء على ارضها قرب النافذة · وقلت :

ـ « أدخل · »

وامسكت به من ذراعه وقدْتُه الى الحمام ، واوصدت الباب ، واشعلت النور · ثم اني جلست على حافة المغطس ·

ـ « ما المسألة يا اميليو ؟ هل انت في خطر ؟ »

ـ « لا · ولكنك انت في خطر ، ايها الملازم · »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « سوف يعتقلونك صباحا · »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « لقد جئت لاخبرك · كنت في المدينة وسمعتهم يتحدثون في احـد المقاهي · »

ووقف هناك ، مبلّل المعطف ، ممسكا بقبعته الندية في يده ، ولم يقل شيئا .

ـ « لماذا يريدون ان يعتقلوني ؟ »

ـ « الامر متعلق بالحرب . »

ـ « اتعرف ما هو ؟ »

ـ « لا . لكني اعرف انهم يعلمون انك كنت هنا من قبل في بزة ضابط وانك الآن هنا في الملابس المدنية . لقد اخذوا بعد هذا الانسحاب يعتقلون كل انسان . »

وفكرت لحظة .

ـ « ومتى سيأتون لاعتقالي ؟ »

ـ « في الصباح . لست ادري في اية ساعة على وجه الضبط . »

ـ « بمَ تشير عليَّ ؟ »

ووضع قبعته في المغسل . كانت ندية جدا ، وكان الماء يقطر منها على الارض .

ـ « اذا لم يكن لديك ما تخافه فعندئذ لا يكون الاعتقال شيئا ذا بال . ولكن الاعتقال بغيض الى النفس دائما ، وبخاصة في هذه الايام . »

ـ « انا لا اريد ان اعتقَل . »

ـ « اذهب اذن الى سويسرة . »

ـ « كيف ؟ »

ـ « في مركبي . »

فقلت :

ـ « هناك عاصفة . »

ـ « لقد هدأت العاصفة . البحيرة هائجة ولكنك سوف تكون في نجوة من الخطر . »

ـ « ومتى يتعين علينا ان ننطلق ؟ »

ـ « في الحال . قد يقبلون لاعتقالك في ساعة مبكرة من الصباح . »

ـ « وحقائبنا ؟ »

ـ « أعدَّها في سرعة . واطلب الى السيدة ان ترتدي ملابسها . سوف أتولى انا نقل الحقائب . »

ـ « واين سلنقاك ؟ »

ـ « سوف انتظركما هنا . انا لا اريد انيراني احد هناك ، في الرواق . »
وفتحت الباب ، ثم اوصدته ، ومضيت الى الحجرة . كانت كاثرين قد استيقظت .
ـ « ما المسألة ، ايها الحبيب ؟ »
فقلت :
ـ « خير ، يا كاثرين . هل لك ان ترتدي ملابسك في الحال وتذهبي الى سويسرة على متن مركب ؟ »
ـ « وانت ؟ »
فقلت :
ـ « انا ؟ اني افضل العودة الى السرير . »
ـ « ولكن ما الذي جرى ؟ »
ـ « يقول المشربيّ انهم سوف يعتقلوننى في الصباح . »
ـ « هل المشربي مخبول ؟ »
ـ « لا . »
ـ « اذن ارجوك ان تعجل ، ايها الحبيب ، وان ترتدي ملابسك لكي يكون في امكاننا ان ننطلق . »
ونهضت قاعدة على جانب السرير . كان النعاس لا يزال يداعب عينيها . واضافت :
ـ « هل المشربيّ في الحمام ؟ »
ـ « نعم . »
ـ « اذن ، فلن اغتسل . ارجوك ان توجّه وجهك الى الناحية الاخرى ، ايها الحبيب ، ولسوف ارتدي ملابسي في دقيقة واحدة ليس غير . »
وحين خلعت منامتها وقع بصري على بياض ظهرها ، وما لبثت ان اشحت بوجهي عنها لانها ارادت ان افعل ذلك . كان الجنين قد ضخّم جسمها بعض الشيء ، ولم تكن راغبة في ان اراها . وارتديت ملابسي على وقع المطر المنهمر على النوافذ . ولم يكن لديّ اشياء كثيرة اضعها في حقيبتي .
وقلت :
ـ « ان في حقيبتي متسعا كبيرا ، يا كاثرين ، اذا كنت في حاجة الى ذلك . »

فقالت :

ـ « كدتُ انتهي من حزم امتعتي . ايها الحبيب ، سوف تجد اني بلهاء الى حد فظيع ، ولكن ما الذي يفعله المشربيّ في الحمام ؟ »

ـ « هش ! انه ينتظرنا ليحمل حقيبتنا الى تحت . »

ـ « انه رجل لطيف جدا . »

فقلت :

ـ انه صديق قديم . ولقد ارسلت اليه ، تقريبا ، مقدارا من تبغ البيبة في يوم من الايام . »

واطللت من النافذة المشرعة وسرّحت بصري في الظلام الدامس . ولم استطع ان ارى البحيرة . كل ما رأيته كان الظلام والمطر ، ولكن الريح كانت قد امست اكثر هدوءا .

وقالت كاثرين :

ـ « انا على استعداد ، ايها الحبيب . »

ـ « حسن . »

ومضيت الى باب الحمام .

وقلت :

ـ « دونك الحقيبتين يا اميليو . »

وحمل المشربي الحقيبتين .

وقالت كاثرين :

ـ « ان مساعدتك ايانا تنمّ عن طيبة بالغة . »

فقال المشربيّ :

ـ « هذا شيء لا يستحق الذكر ، أيتها السيدة . انا سعيد بأن اساعدكما ضمن النطاق الذي لا يورّطني بأيّ بلاء . اسمعْ » . والتفت اليّ ، سوف احمل الحقيبتين واهبط بهما السلم الخاص بالخدم . ثم امضي الى المركب . وليس عليكما الا ان تغادرا الغرفة وكأنكما تعتزمان التنزّه سيرا على الاقدام . »

فقالت كاثرين :

ـ « انها ليلة رائعة جديرة بنزهة . »

ـ « بل انها ليلة بغيضة في الواقع . »

فقالت كاثرين :

ـ « يسعدني ان يكون معي مظلة . »

واجتزنا الرواق وهبطنا السلم العريضة المكسوة ببساط كثيف ٠ وفي ادنى السلم ، قرب الباب ، كان البواب جالسا الى مكتبه ٠

وما ان رآنا حتى استبد به الذهول ، وقال :

ـ « انت لا تعتزم الخروج من الفندق الآن ، يا سيدي ؟ »

فقلت :

ـ « بلى نحن نعتزم ان نشهد العاصفة وقد هبّت على سطح البحيرة ٠ »

ـ « أليس عندك مظلة يا سيدي ؟ »

فقلت :

ـ « لا ٠ هذا المعطف يذود عني المطر ٠ »

فنظر اليّ في ارتياب وقال :

ـ « سوف آتيك بمظلة ، يا سيدي ٠ »

وانطلق ثم رجع حاملا مظلة كبيرة وقال :

ـ « انها كبيرة بعض الشيء ، يا سيدي ٠ »

فاعطيته عشرة ليرات ايطالية وقلت :

ـ « اوه ، انت رجل طيب جدا ٠ اشكرك كثيرا ٠ »

وفتح الباب ، وابقاه مفتوحا حتى انطلقنا تحت المطر ٠ وابتسم لكاثرين ، وابتسمت له ٠ وقال :

ـ « لا تقفا في وجه العاصفة ٠ انكما ان فعلتما تبللت ملابسكما ، يا سيدي ويا سيدتي ٠ »

انه لم يكن غير البواب الثاني ٠ وكانت انكليزيته مترجمة ترجمة حرفية ٠ وقلت :

ـ « سوف نرجع عما قريب ٠ »

وهبطنا المجاز مستعينين بالمظلة العملاقة ، وتقدّمنا عبر الحدائق الندية المظلمة الى الطريق ، واجتزنا الطريق الى المجاز لمعرّش * على طول البحيرة ٠ كانت الريح تهب الآن بعيدا عن الشاطىء ٠ وكانت ريحا باردة ندية من رياح نوفمبر ، ولقد ادركت ان الثلج كان يتساقط على الجبال ٠ واجتزنا المراكب المقيدة بالسلاسل في مزالقها القائمة على طول الرصيف ، حتى وصلنا الى حيث كان مركب المشربيّ ٠ كانت المياه داكنة ازاء الحجارة ٠ ووثب المشربيّ من وراء صف الاشجار ٠

---

* الذي تكتنفه العرائش ٠

وقال :

– « الحقيبتان في المركب · »

فقلت :

– « اريد ان ادفع اليك ثمن المركب · »

– « ما مقدار ما معك من النقود ؟ »

– « شيء قليل · »

– « في استطاعتك ان تبعث اليّ بالمال في ما بعد · لا بأس · »

– « كم ؟ »

– « ما تشاء · »

– « قل لي كم · »

– « اذا وُفقتما الى النجاة فأرسل اليّ خمسمئة فرنك · انك لن تستكثر ذلك اذا وفّقت الى النجاة · »

– « حسن · »

– « خذ هذه الساندويشات · » وقدّم اليّ رزمة ، « هذا كل ما كان في المشرب · لقد امسى كله بين يديك · وهذه زجاجة براندي وهذه زجاجة خمر · »

ووضعتهما في حقيبتي وقلت :

– « دعني ادفع اليك ثمن هاتين · »

– « حسنا · اعطني خمسين ليرا · »

واعطيته ما طلب ·

وقال :

– « البراندي جيدة · لا داعي لان تخشى تقديمها الى زوجتك · ومن الخير لها الان ان تمتطي متن المركب · »

وامسك بالمركب ، وكان يرتفع وينخفض في محاذاة الجدار الحجري ، وساعدتُ كاثرين على امتطاء متنه · لقد جلسَت في مؤخرة المركب ، وتدثَّرت بمعطفها ·

– « انت تعرف الاتجاه ؟ »

– « أجل · يتعيَّن علينا ان نصعِّد في البحيرة · »

– « وتعرف حتى أية نقطة ؟ »

– « الى ما وراء لُوينو · »

ـ « الى ما وراء لوينو ، وكانّيرو ، وكانثوبيو ، وترانزانو • انك لن تبلغ سويسرة حتى تنتهي الى بريسّاغو • ان عليك ان تجتاز مونت تامارا • »

وسألتني كاثرين :

ـ « كم الساعة ؟ »

فقلت :

ـ « الحادية عشرة ليس غير • »

ـ « اذا جذفت على نحو موصول فعندئذ تصل الى هناك حوالي الساعة السابعة صباحا • »

ـ « أهي بعيدة الى هذا الحد ؟ »

ـ « انها تقع على مسافة خمسة وثلاثين كيلومترا • »

ـ « وكيف نضمن الا نضل السبيل ؟ كان ينبغي ان يكون معنا ، في هذا المطر ، بوصلة • »

ـ « لا • جذّف الى ايزولا بيلا • حتى اذا بلغت الجانب الاخر من « ايزولا مادر » تعيَّن عليك ان تساير الريح في اتجاهها • ان الريح سوف تقودك الى بالانتزا • وهناك سترى الاضواء • وبعد ذلك لن يكون عليك الا التجذيف في محاذاة الشاطىء • »

ـ « واذا غيَّرت الريح اتجاهها ؟ »

فقال :

ـ « لا • هذه الريح سوف تحتفظ باتجاهها ذاك ثلاثة ايام • انها تهب من ماتارون مباشرة • ان لديك هنا صفيحة تستطيع ان تصطنعها لتحرير المركب من الماء • »

ـ « دعني ادفع اليك شيئا من ثمن المركب الان • »

ـ « لا • انا أؤثر ان أغامر • اذا وفقت الى النجاة فادفع الي كل ما تستطيع ان تدفعه • »

ـ « حسن • »

ـ « يخيل الي انك لن تغرق • »

ـ « هذا شيء جيد • »

ـ « اتجه مع الريح دائما • »

ـ « حسن • »

ووثبتُ الى المركب •

ـ « هل تركتَ شيئا من المال تسديدا لفاتورة الفندق ؟ »

ـ « أجل · طي ظرف في الغرفة · »

ـ « حسن · أتمنى لك حظا سعيدا ، أيها الملازم · »

ـ « حظا سعيدا · نحن نشكرك كثيرا · »

ـ « انكما لن تشكراني اذا ابتلعتكما اللجة · »

وسألتني كاثرين : « ماذا يقول ؟ »

ـ « انه يتمنى لنا حظا سعيدا · »

فقالت كاثرين :

ـ « حظا سعيدا · اشكرك شكرا جزيلا · »

ـ « هل انتما على استعداد ؟ »

ـ « نعم · »

وانحنى ، ودفع المركب الى الماء · وأغرقت المجذافين في الماء ، ثم لوّحت له باحدى يدي · فلوّح لي المشربي مستنكرا · وبصُرْت بأضواء الفندق ، ورحت اجذف مبتعدا عن الشاطىء ، في خط مستقيم ، حتى غابت عن ناظري · كانت البحيرْة هائجة · ولكنّا كنا ننطلق في اتجاه الريح ·

الفصل السابع والثلاثون

وجذفت في الدجنة مسايرا الريح على نحو موصول · كان المطر قد انقطع فهو لا يهطل الا في دفقات موجزة بين الفينة والفينة · كانت الظلمة دامسة ، وكانت الريح باردة · وكان في ميسوري ان ارى كاثرين جالسة في مؤخرة المركب · ولكنني لم أكن قادرا على رؤية المياه التي خوّض فيها نصلا المجذافين · وكان المجذافان طويلين ، ولم يكن ثمة أطواق من الجلد تقيهما شر الانزلاق · وجذفت ، وتصدّرت ، وانحنيت الى امام ، وتبيّنت الماء ، وغطست المجذافين ، ورحت أجذف أيسر ما استطعت التجذيف · ولم أكلف نفسي عناء رفع نصلي المجذافين على نحو أفقي لان الريح كانت تجري بما نشتهي · كنت أعلم ان يديّ سوف تتقرّحان ، وكنت اطمع في ارجاء ذلك اطول مدة ممكنة · كان المركب خفيفا ، وكان يتقدم في يسر · وخضتُ غمار المياه المظلمة · لقد عميت فلست أرى شيئا ، وكنت ارجو ان ننتهي وشيكا الى بالانتزا ·

ولكنا لم نرَ بالانتزا قط · كانت الريح تهب مصعّدة في البحيرة ، واجتزنا الرأس الذي يُخفي بالانتزا في الظلام ، ولم نرَ الاضواء قط · حتى اذا رأينا اخر الامر بعض الاضواء ، على مقربة دانية من الشاطىء ، كانت تلك هي انترا · ولكنا لم نعد نرى ، طوال فترة غير قصيرة ، أيما أضواء ، ولم نعد نرى الشاطىء ايضا ، بل جذفنا في غمرة من الظلام تجذيفا موصولا ، وقد حملتنا الامواج على متونها · وفي بعض الاحيان ، كنت اخطيء المياه بمجذافيّ ، وسط الدجنة ، فيما كانت موجة ترفع المركب وتحمله على

متنها . كانت البحيرة هائجة جدا ، ولكني واصلت التجذيف حتى اصبحنا ، فجاءة ، على مقربة دانية من البحيرة عند رأس صخرة ارتفعت الى جانبنا . كانت الامواج تتلاطم فوقها ، واثبة الى أعلى ، ثم ترتد عنها خائبة . وركزت جهدي على المجذاف الايمن ، وردَدْت المياه بالايسر ، واندفعنا الى البحيرة من جديد . لقد غاب الرأس عن أنظارنا ، وكنا نصعّد في البحيرة تصعيدا .

وقلت لكاثرين :

ـ « لقد أمسينا في وسط البحيرة . »

ـ « أما كان من المفروض ان نرى بالانتزا ؟ »

ـ « لقد اخطأناها . »

ـ « كيف انت ، أيها الحبيب ؟ »

ـ « عظيم . »

ـ « في استطاعتي ان اجذف عنك بعض الشيء . »

ـ « لا . انا ما زلت نشيطا . »

فقالت كاثرين :

ـ « مسكينة فيرغوسون ! سوف تفدُ في الصباح على الفندق وتكتشف اننا قد مضينا لسبيلنا . »

فقلت :

ـ « ان هذا لا يشغل بالي بقدر ما يشغله امر الوصول الى الجزء السويسري من البحيرة قبل انبلاج الصبح ، وقبل ان تقع اعين الحرس الجمركي علينا . »

ـ « وهل لا يزال ذلك الجزء من البحيرة بعيدا ؟ »

ـ « انه يبعد ثلاثين كيلومترا تقريبا عن هذه النقطة . »

* * *

وجذفت طوال الليل . واخيرا تقرحت يداي الى درجة كاد يتعذَّر علي معها ان اطبقهما على المجذافين . وكدنا نصطدم بالشاطىء مرات عديدة اصطداما يسحقنا سحقا . وانما حاولت التزام الشاطىء ، جهد الطاقة ، لاني كنت اخشى ان أتيه في البحيرة وان اضيع الوقت . ولقد اقتربنا ، في بعض الاحيان ، من الشاطىء بحيث كان في ميسورنا ان نرى صفا من الاشجار ، والطريق الممتدة على طول الشاطىء وقد انتصبت الجبال خلفها . وكف المطر عن التهطال ، وساقت الريح الغيوم حتى لقد شعَّ القمر من خلالها . والتفتُّ

الى الوراء فرأيت رأس كاستانيولا الطويل المظلم ، والبحيرةَ مزبدة الامواج ، والقمرَ فوق الجبال الشامخة المعتمرة بالثلج ٠ ثم ان الغيوم حجبت القمر كرة أخرى ، وغابت الجبال وغابت البحيرة عن البصر ، ولكن الظلمة كانت أضأل من ذي قبل بكثير ، فكان في ميسورنا ان نرى الشاطىء ٠ لقد رأيته في وضوح بالغ ، فانطلقت الى حيث لا يستطيعون ان يروا المركب اذا ما كان جماعة من رجال الحرس الجمركي يراقبون طريق بالانتزا ٠ وحين برز القمر من وراء الحجاب ، كرة اخرى ، غدا في استطاعتنا ان نرى على الشاطىء ، عند سفوح الجبال ، دارات بيضاء ، وان نرى الطريق البيضاء حيث تبدّت من خلال الإشجار ٠ وطوال الوقت كنت أجذف على نحو موصول ٠

واتسعت البحيرة ، وعَبْرَها على الشاطىء، عند سفوح الجبال من الجانب الاخر ، رأينا بضعة اضواء ٠ انها لوينو من غير ريب ٠ ورأيت الفجوة الوتدية بين الجبال على الضفة الاخرى وقلت ان هذه هي لوينو من غير ريب ايضا ٠ فاذا كانت هي لوينو فمعنى ذلك اننا اجتزنا مسافة واسعة٠ ورفعت المجذافين واستلقيت على المقعد ٠ كنت متعبا من التجذيف الى حد لا يوصف ٠ كان الألم يعصف بذراعيَّ وكتفيَّ وظهري ٠ وكانت يداي متقرحتين ٠

وقالت كاثرين :

ـ « في استطاعتي ان احمل المظلة ٠ وفي ميسورنا ان نتخذ منها شراعا وننطلق مع الريح ٠ »

ـ « هل تستطيعين ادارة الدفة ؟ »

ـ « أظن ذلك ٠ »

ـ « خذي هذا المجذاف ، وضعيه تحت ذراعك على مقربة دانية من جانب المركب ، وأديري الدفة ٠ ولسوف احمل انا المظلة ٠ »

وارتددت الى مؤخر المركب وأريْتُها كيف تمسك بالمجذاف ٠ وتناولت المظلة الضخمة التي كان البواب قد قدَّمها الي ، وقعدتُ مواجها صدر المركب ، وفتحتها ٠ فانفتحت محدثة صوتا حادا ٠ وأمسكت بها من جانبيها ، مباعدا ما بين قدميَّ ، وقد علَّق مقبضها بالمقعد ٠ وانتفخت المظلة بالريح ، واستشعرت ان المركب ينطلق الى أمام فيما كنت أمسك بجانبي المظلة بأقصى ما استطعت من الاحكام ٠ كانت الريح تدفع المركب دفعا عنيفا ٠ ولقد جرى المركب في خفة ورشاقة ٠

وقالت كاثرين :

ـ « لا ٠ انا لا أزال نشيطا ٠ لقد تقرحت يداي ليس غير ٠ »
ـ « نحن ننطلق انطلاقا رائعا ٠ »

كان كل ما رأيته هو اضلاع المظلة٠ وتوترت المظلة، ودفَعَت، واستشعرت انها تسوقنا سوقا ٠ وجمعت ما بين قدميَّ وحاولت التشبث بها ٠ وفجأة ، التوت واصبح باطنها ظاهرها ٠ واستشعرت أحد اضلاعها يصدم جبيني ٠ وحاولت التقاط الجزء الاعلى الملتوي مع الريح ، ولكنه كان منقلبا تماما ، ووجدت نفسي مباعدا ما بين ساقيَّ عند مقبض مظلة ممزقة تمزيقا ، هناك حيث امسكت قبل لحظة شراعا منتفخا بالريح ٠ وحررت المقبض من المقعد ، ووضعت المظلة في مقدم المركب ، وارتددت الى كاثرين التماسا للمجذاف ٠ كانت تضحك ٠ وأمسكت بيدي ، وواصلت ضحكها ٠

وتناولت المجذاف وقلت :

ـ « ما بالكِ ؟ »
ـ « لقد بدوتَ مضحكا جدا وانت ممسك بتلك المظلة ٠ »
ـ « أحسب ذلك ٠ »
ـ « لا تغضب ، أيها الحبيب ٠ لقد كان ذلك مضحكا الى حد رهيب ٠ لقد بَدَوْت وكأن عرْضك يبلغ عشرين قدما ، وكنت شفيقا جدا وانت تمسك المظلة من طرفيها ٠٠٠ »

وغَصَّت بريقها ٠

ـ « سوف اجذف ٠ »
ـ « استرح قليلا واشرب كأسا ٠ انها ليلة ساحرة ، ولقد اجتزنا مسافة صالحة ٠ »
ـ « يتعين علي ان اجنب المركب غائلة منخسفات الموج ٠ »
ـ « سوف آتيك بكأس ٠ اذن استرحْ قليلا ، ايها الحبيب ٠ »

ورفعت المجذافين الى أعلى متخذا منهما شراعين ٠ كانت كاثرين تفتح الحقيبة ٠ وقدَّمتْ الي زجاجة البراندي٠ ونزعت السدادة بمديتي الجيبية، وأخذت جرعة طويلة ٠ كانت عذبة وحارة ، ودبَّت الحرارة في اوصالي واستشعرت الدفء والبهجة ٠ وقلت :

ـ « انها براندي رائعة ! »

كان القمر قد احتجب من جديد ، ولكني استطعت ان ارى الشاطىء ٠ لقد بدا وكأن ثمة ، أمامنا ، رأسا اخر بعيدا جدا ٠

ـ « هل تنعمين بقَدْر كاف من الدفء ؟ »

ـ « انا في حال ممتازة . اني استشعر التصلب بعض الشيء . »
ـ « أفرغي اذن هذه المياه من جوف المركب ، وفي استطاعتكِ ان تمدي رجليك . »

ثم اني جذفت ، وأصخت الى ركيزتَيْ المجذافين والى صوت الصفيحة وهي تغرف المياه من تحت المقعد القائم في مقدم المركب .

وقلت :

ـ « هل تسمحين لي بهذه الصفيحة ؟ انا اريد ان اشرب . »
ـ « ولكنها قذرة الى حد رهيب . »
ـ « لا بأس . سوف أغسلها . »

وسمعت كاثرين تغسلها من فوق حافة المركب . ثم انها قدّمتها الي ملأى بالماء . كنت ظمئا بعد البراندي ، وكان الماء ثلجيَّ البرودة . كان باردا جدا حتى لقد أوقع الالم في اسناني . وتطلعتُ الى الشاطىء . كنا قد أمسينا اكثر قربا الى الرأس الطويل . ولم يكن ثمة اضواء في الخليج الذي امامنا .

وقلت وانا اعيد اليها الصفيحة :

ـ « شكرا . »

فقالت كاثرين :

ـ « في خدمتك دائما . ان ثمة مقدارا اضافيا اذا شئت . »
ـ « ألا تريدين ان تأكلي شيئا ؟ »
ـ « لا . سوف استشعر الجوع عما قريب . يجب ان نحتفظ بزادنا الى تلك اللحظة . »
ـ « حسن . »

ان ما بدا لنا وكأنه رأس لم يكن غير أكمة بحرية طويلة شاهقة . وامعنت في الابتعاد عن الشاطىء اجتنابا لها . وكانت البحيرة قد ضاقت الان اكثر بكثير . وبرز القمر من وراء الحجاب كرة أخرى ، وكان في ميسور الحرس ان يروا مركبنا على نحو واضح اذا ما كانوا يراقبون الشاطىء .

وسألتها :

ـ « كيف انت ، يا كات ! »
ـ « بخير . أين نحن ؟ »
ـ « احسب انه لم يبق أمامنا غير ثمانية اميال أخرى . »
ـ « يعني انه سوف يتعين عليك ان تجذف هذه المسافة الطويلة كلها ، ايها

الحبيب البائس • ألم تمت من التعب ؟ »

ـ « لا • انا لا ازال نشيطا • لقد تقرحت يداي ليس غير • »

وتابعنا تقدمنا مصعدين في البحيرة • كان ثمة انقطاع في سلسلة الجبال القائمة على الضفة اليمنى ، وانبساطٌ في الارض مع خط ساحلي منخفض قدَّرتُ انه كانتُوبيو من غير ريب • وحرصت على البقاء بعيدا عن الشاطىء جهد الطاقة ، لان خطر التقائنا بالحرس كان قد أمسى على اشده • وعلى الضفة الاخرى ، تجاهنا ، انتصب جبل شامخ ذو قمة اشبه بالقبة • وألمَّ بي التعب • ان المسافة التي كان علي ان اجتازها مجذفا لم تكن طويلة ، ولكن حين يكون المرء في مثل البلاء الذي كنا نعانيه تتراءى له طويلة حقا • وادركت ان علي ان اجتاز ذلك الجبل وأصعد في البحيرة خمسة أميال أخرى على الاقل قبل ان نبلغ المياه السويسرية • كان القمر قد غاب الان ، تقريبا، ولكن قبل غيابه تلبَّدت الغيوم في السماء كرة أخرى ، وأمست الظلمة دامسة • وبقيتُ في عرض البحيرة • وبين الفينة والفينة كنت أكفُ عن التجذيف ، واستريح ، ممسكا بالمجذافين على نحو جعل الريح تلطم نصليهما •

وقالت كاثرين :

ـ « دعني أجذف فترة قصيرة • »

ـ « لستُ أظن ان ذلك يناسبك • »

ـ « هراء• ان التجذيف سوف ينفعني• وخليق به ان يقيني من التصلب• »

ـ « اعتقد ان من الخير لك ألا تقدمي على ذلك • »

ـ « هراء • التجذيف في اعتدال مفيد جدا للسيدة الحامل • »

ـ « حسن • جذفي اذن في اعتدال • بسوف أمضي الى مؤخر المركب ، وعندئذ تتقدمين انت الى أمام • تمسَّكي بحافتي المركب وانت تتقدمين • »

وقعدتُ في مؤخر المركب ، مرتديا معطفي ، وقد التوى طوق قميصي الى أعلى ، وراقبت كاثرين وهي تجذف • لقد جذفت تجذيفا حسنا جدا ، ولكن المجذافين كانا أطول مما ينبغي ، وكانا يزعجانها • وفتحتُ الحقيبة والتهمت ساندويشتين ، واخذت جرعة من البراندي • وسرعان ما عاودني النشاط ، فتجرعت جرعة أخرى •

وقلت :

ـ « عندما تتعبين اخبريني بذلك • »

ثم أضفت بعد قليل :

ـ « حذار ان يصدم المجذاف بطنك . »
فقالت كاثرين بين تجذيفتين :
ـ « اذا حدث ذلك فعندئذ قد تصبح الحياة اكثر بساطة . »
وتجرعتُ جرعة ثالثة من البراندي .
ـ « كيف انتِ الان ؟ »
ـ « على خير حال . »
ـ « انبئيني حين ترغبين في الكف عن التجذيف . »
ـ « حسن . »

واخذت جرعة اخرى من البراندي ، ثم استعنتُ بحافتي المركب وتقدمت الى أمام .

ـ « لا . انا استمتع بذلك كثيرا . »
ـ « ارجعي الى مؤخر المركب . لقد فزتُ بحظ كبير من الراحة . »

وبفضل البراندي جذفت ، فترة يسيرة ، في يسر واطراد . ثم شرعت اضرب المجذاف ضربات خرقاء ، وسرعان ما عاودت التجذيف في سرعة وقوة ، وفي حلقي مذاق صفراء * رقيق اسمر ناشيء عن مغالاتي في التجذيف بعنف بعد الذي تجرعته من البراندي .

وقلت :

ـ « اعطيني شيئا من الماء ، من فضلكِ . »

فقالت كاثرين :

ـ « ذلك شيء يسير . »

وقبل انبلاج الصبح شرعت السماء ترسل المطر رذاذا . كانت الريح قد همدت ، او لعلنا كنا قد اتّقيناها بالجبال التي طوقت مُنْحَرَف البحيرة . وحين ادركت ان الضحى على وشك ان يرتفع حشدت كامل قواي وجذفت في عنف وثبات . ولم اكن أعلم أين نحن ، وكنت تواقا للوصول الى الجانب السويسري من البحيرة . حتى اذا آذن الصبح بالانبلاج كنا على مقربة دانية من الشاطيء . لقد أصبح في ميسوري ان ارى الصخور والاشجار .

وقالت كاثرين :
ـ « ما هذا ؟ »

وارحت جسدي على المجذافين واصغيت . كان زورقا بخاريا يشق طريقه

* الصفراء : السائل الذي يفرزه الكبد

في البحيرة على نحو مدوٍّ . واقتربت من الشاطىء ، ولزمتُ الهدوء . وغدا الدوي أقرب الينا من ذي قبل ، ثم اننا بَصُرنا بالزورق البخاري وراءنا ببعض الشيء ، تحت المطر . كان في الجزء الخلفي منه اربعة من حرس الشواطىء . كانت قبعاتهم « الالبينية » تغطي جزءا كبيرا من رؤوسهم ، وكانت اطواق معاطفهم مائلة الى أعلى ، وكانت بنادقهم على مناكبهم . لقد بَدوا كلهم انصاف نائمين في تلك الساعة المبكرة من النهار . وكان في ميسوري ان ارى اللون الاصفر على قبعاتهم ، والعلامات الصفراء على اطواق معاطفهم . وتابع الزورق البخاري تقدمه المدوي ، وغاب وسط المطر عن العيان .

وجذفت مبتعدا عن الضفة . ذلك بأني ما كنت اريد ، وقد اصبحنا على هذا القرب كله من الحدود ، ان يوقفني احد حراس الطرق . وبقيت حيث كان في ميسوري ان ارى الشاطىء ، وواصلت التجذيف ثلاثة ارباع الساعة تحت المطر المنهمر . وسمعنا دوي أحد الزوارق البخارية كرة أخرى، واعتصمت بالهدوء حتى تلاشت ضجة المحرك عبر البحيرة .

وقلت :

ــ « أعتقد اننا في سويسرة ، يا كات . »

ــ « حقا ؟ »

ــ « لن نستطيع ان نتأكد من ذلك الا بعد ان نرى القوات السويسرية . »

ــ « او الاسطول السويسري . »

ــ « الاسطول السويسري ليس ، بالنسبة الينا ، فكاهة يُتندَّر بها . لعل الزورق البخاري الثاني الذي سمعناه جزء من الاسطول السويسري . »

ــ « اذا كنا في سويسرة فينبغي ان ننعم بفطور عظيم . ان لديهم رقاقات رائعة وزبدة ومربَّى في سويسرة . »

* * *

كانت الشمس قد اشرقت الان ، وكانت السماء ترسل مطرا رقيقا . كانت الريح لا تزال تهب فوق البحيرة ، وكان في استطاعتنا ان نرى قمم الامواج المزبدة تبتعد عنا وتتجه الى طرف البحيرة . لقد أصبحت واثقا اننا في سويسرة . كان ثمة كثير من المنازل القائمة بين الاشجار ، على مَبعدة من الشاطىء . وفي نقطة أعلى ، كانت قرية ذات بيوت حجرية ، وبضع دارات ، وكنيسة . وكنت قد راقبت الطريق المحاذية للشاطىء بحثا عن الحرس ، ولكني لم أجد أحدا . واصبحت الطريق على مقربة دانية جدا من البحيرة ،

الان • وبصُرتُ بجنــدي يغادر أحد المقاهي • كان يرتــدي بذلة عسكريــة خضراء ضاربا لونها الى الرمادي ، وخوذة فولاذية مثل الالمان • وكان ذا وجه ناضر بالعافية ، وشارب صغير هو بفرشاة الاسنان أشبه •

والتفت الجندي الينا •

ـ « لوّحي له بيدكِ • »

فلوحَتْ له ، فابتسم مرتبكا ، وردّ التحية بمثلها • وجذّفتُ في تؤدة • كنا نجتاز بواجهة القرية المائية •

وقلت :

ـ « لا ريب في اننا اجتزنا مسافةً واسعة داخل الحدود • »

ـ « نريد ان نتأكد، ايها الحبيب• نحن لا نريد ان يعيدونا الى ايطالية • »

ـ « لقد خلّفنا الحدود وراءنا منذ برهة • وانا اعتقد اننا الان في المدينة الجمركية • واني لعلى مثل اليقين ان هذه هي بريسَّاغو • »

ـ « ألن يكون هناك ايطاليون ؟ ان المدينة الجمركية تحفل عادة بجنود من الفريقين • »

ـ « ليس في ايام الحرب • انا لا اعتقد انهم يجيزون للايطاليين ان يعبروا الحدود • »

كانت مدينة صغيرة بهية الطلعة • وكانت تنتشر على طول الخليج قوارب صيد عديدة ، وكانت الشِباك منشورة على رفوف خاصة • كانــت السمــاء ترسل مطرا نوفمبريا ناعما ، ولكنّ كل شيء بدا، برغم المطر ، مبتهجا صافيا•

ـ « هل نهبط البر هنا ونتناول طعام الصباح ؟ »

ـ « لا بأس • »

وركزت جهدي على المجذاف الايسر ، واقتربت من الضفة، حتى اذا امسينا في محاذاة الرصيف جعلتُ المركبَ في وضع مستقيم لكي يكون في ميسورنا ان ننتقل الى اليابسة • ورفعت المجذافين ، وامسكتُ بحلقة حديدية، ووثبت الى الحجارة الندية • كنت قد اصبحت الان في سويسرة • واوثقت المركب ، وبسطتُ يدي الى كاثرين •

ـ « هيا ، اصعدي يا كات • ان بهجة غامرة لتضج في جوانحي • »

ـ « والحقيبتان ؟ »

ـ « اتركيهما في المركب • »

ووثبت كاثرين الى اليابسة ، فاذا بنا معا في سويسرة • »

وقالت :

– « يا لها من بلاد جميلة ! »

– « أليس هذا رائعا ؟ » ·

– « فلنذهب ونتناول طعام الصباح ! »

– « أليست بلادا عظيمة ؟ انا احبُ مَلْمَسها تحت حذائي · »

– « انا من التصلب بحيث لا استشعر ذلك في وضوح · ولكن يبدو لي انها بلاد رائعة ، ايها الحبيب · هل تدرك اننا هنا ، واننا نجونا من ذلك المكان اللعين ؟ »

– « انا ادرك ذلك · ادرك حقا · انا لم ادرك ايما شيء من قبل · »

– « انظرْ الى البيوت · اليست هذه الساحة رائعة ؟ ههنا مكان نستطيع ان نتناول فيه طعام الصباح · »

– « أليس المطر رائعا ؟ ان ايطالية لم تعرف في يوم من الايام مثل هذا المطر · هذا المطر بهيج · »

– « اننا في سويسرة ، ايها الحبيب ! هل تدرك اننا في سويسرة ؟ »

ودخلنا المقهى ، وجلسنا الى مائدة خشبية نظيفة ، وقد عصف بنا ابتهاج مجنون · واقبلت علينا امرأة بهيّة تبدو عليها سمات النظافة الفائقة ، امرأة ترتدي مئزرا ، وسألتنا أيّ شيء نريد ؟

فقالت كاثرين :

– « رقاقات ومربى وقهوة · »

– « آسفة · ليس عندنا رقاقات في ايام الحرب · »

– « ايتينا بشيء من الخبز ، اذن · »

– « في استطاعتي ان اعدّ لكما بعض الخبز المحمّص · »

– « لا بأس · »

– اريد بعض البيض المقلي ايضا · »

– « كم بيضة يريد السيد ؟ »

– « ثلاث · »

– « خذ اربعا ، ايها الحبيب · »

– « اربع بيضات · »

ومضت المرأة لسبيلها · وقبّلت كاثرين وضغطت على يدها في احكام · ونظر كل منا الى الاخر ، والى المقهى ·

ـ « ايها الحبيب ، ايها الحبيب ، أليس هذا رائعا ؟ »
فقلت :

ـ « انه عظيم · »
فقالت كاثرين :

ـ « ليس يسوؤني ان لا يكون لديهم رقاقات · لقد فكرت في الرقاقات طوال الليل · ولكن ذلك لا يسوؤني · انه لا يسوؤني على الاطلاق · »

ـ « يخيّل اليّ انهم سوف يعتقلوننا عما قريب · »

ـ « لا بأس ، ايها الحبيب · دعنا نتناول طعام الصباح اولا · انك لن تجد بأسا في الاعتقال بعد طعام الصباح · والى هذا ، فليس في استطاعتهم ان يفعلوا بنا شيئا · فأنت مواطن اميركي وانا مواطنة انكليزية ، ونحن نسلك مسلكا قانونيا · »

ـ « انتِ تحملين جواز سفركِ ، أليس كذلك ؟ »

ـ « طبعاً · اوه ، فلنكفَّ عن التحدث في هذا الموضوع · فلنأخذ بأسباب البهجة والسعادة · »

فقلت :

ـ « ليس في ميسوري ان اكون اعظم سعادة مني الان · »

وتقدمت نحو مائدتنا هرة رمادية بدينة ذات ذَنَب منتصب وكأنه ريشة زينة ، ومسَّت قدمي مسًّا رفيقا ، وانشأت تموء · وانحنيت وأمررت يدي على وبرها مداعبا · وابتسمت كاثرين لي في بهجة غامرة · وقالت :

ـ « دونك القهوة · »

* * *

واعتُقلنا بعد طعام الصباح · لقد قمنا بنزهة صغيرة في القرية ، سعيا على الاقدام ، ثم هبطنا الى الرصيف للأتيان بحقيبتنا · كان احد الجنود يقوم بالحراسة قرب المركب ·

ـ « أهذا مركبكما ؟ »

ـ « نعم · »

ـ « من اين اقبلتما ؟ »

ـ « من اقصى البحيرة · »

ـ « في هذه الحال يتعين عليَّ ان اسألكما المضيَّ معي · »

ـ « وحقيبتانا ؟ »

ـ « في استطاعتكما ان تحملا الحقيبتين . »

وحملت الحقيبتين ، ومشت كاثرين الى جانبي ، ومشى الجندي خلفنا الى مركز الجمرك العتيق . وفي مركز الجمرك استجوبنا ملازم اول ، مهزول جدا ، عسكري الروح الى حد بعيد .

ـ « ما جنسيتكما ؟ »

ـ « اميركي وبريطانية . »

ـ « اسمحا لي بأن ارى جوازَيْ سفركما . »

وقدمت اليه جوازي واخرجت كاثرين جوازها من حقيبتها اليدوية .

ودرسَهما فترةً طويلة .

وقال :

ـ « لماذا دخلتما الى سويسرة ، بهذه الصورة ، على متن مركب ؟ »

فقلت :

ـ « انا رجل رياضي . والتجذيف رياضتي المفضلة . اني اجذف كلما اتيحت لي الفرصة . »

ـ « لماذا جئت الى سويسرة ؟ »

ـ « من اجل رياضة الشتاء . نحن سائحان ، ونحن نريد ان نُسهم في رياضة الشتاء . »

ـ « ان الرياضة الشتوية لا تجري في هذا المكان . »

ـ نحن نعرف ذلك . اننا نريد الذهاب الى حيث تُجرى الرياضة الشتوية . »

ـ « ما الذي كنتما تفعلانه في ايطالية ؟ »

ـ « كنت ادرس فن العمارة . اما ابنة عمي فكانت تدرس فن الرسم . »

ـ « لماذا غادرتما تلك البلاد ؟ »

ـ « لقد اردنا التمتع بالرياضة الشتوية . انّ المرء لا يستطيع دراسة الفن المعماري ما دامت الحرب دائرة . »

فقال الملازم الاول :

ـ « ارجوكما ان تبقيا حيث انتما . »

ومضى حاملا جوازينا .

وقالت كاثرين :

ـ « انت رائع . الزَم هذه الطريق . انت تريد التمتع بالرياضة الشتوية . »

ـ « هل تعرفين شيئا عن فن الرسم ؟ »
فقالت كاثرين :
ـ « روبنز . »
فقلت :
ـ « رجل ضخم بدين . »
فقالت كاثرين :
ـ « تيتيان . »
فقلت :
ـ « شعر اشقر . تيتيان الاشقر . وماذا تعرفين عن مانتيغنا ؟ »
فقالت كاثرين :
ـ « لا تسأل اسئلة صعبة . انا اعرفه برغم ذلك . رجل فظ . »
فقلت :
ـ « فظ جدا . كثير من خروق المسامير . »
فقالت كاثرين :
ـ « وهكذا ترى اني سوف اكون زوجة رائعة . سوف اكون قادرة على التحدث في الفن مع زبائنك . »
فقلت :
ـ « ها هو قد اقبل . »
واجتاز الملازم الاول المهزول مركز الجمرك وجوازا سفرنا في يده . وقال :
ـ « يتعين علي ان ارسلكما الى لوكارنو . في استطاعتكما ان تركبا عربة ، ولسوف يصحبكما احد الجنود الى هناك . »
فقلت :
ـ « حسن . والمركب ؟ »
ـ « المركب مصادر . ماذا في هاتين الحقيبتين ؟ »
وفتح الحقيبتين والقى نظرة على محتوياتهما ، واخرج زجاجة البراندي . فسألته :
ـ « أتحب ان تشرب معي كاسا ؟ »
فتصدر وقال :
ـ « لا . شكرا . كم تحمل من المال ؟ »

ـ « الفين وخمسمئة لير · »

وعطفته رقة · واضاف :

ـ « وابنة عمك ، ما مبلغ المال الذي معها ؟ »

وكانت كاثرين تحمل الفا ومئتي لير او يزيد · وسُر الملازم الاول · وغدا مسلكه معنا اقل تشامخا ·

وقال :

ـ « اذا كنتما تلتمسان الرياضة الشتوية فافضل مواطنها « وينغن » · ان لأبي فندقا رائعا جدا في «وينغن» · وهو يستقبل الضيف على مدار السنة· »

فقلت :

ـ « هذا شيء عظيم · هل تستطيع ان تعطيني اسمه ؟ »

ـ « سوف اكتبه لك على بطاقة · »

وقدم الي البطاقة في كثير من الكياسة ·

ـ « ان الجندي سوف يرافقكما الى لوكارنو · انه سوف يحتفظ بجوازيكما · انا آسف لهذا ، ولكنه ضروري · وان املي لكبير بانهم سوف يمنحونكما سمة (فيزا) او بطاقة اقامة في لوكارنو · »

ودفع الجوازين الى الجندي · فحملنا الحقيبتين وانطلقنا الى القرية بحثا عن عربة ·

ونادى الملازم الاول الجندي :

ـ « هاي ! »

وقال له شيئا ما بالالمانية · فتنكب الجندي بندقيته وحمل الحقيبتين ·

وقلت لكاثرين :

ـ « انها بلاد عظيمة · »

ـ « وبلاد عملية جدا · »

وقلت للملازم الاول :

ـ « اشكرك شكرا كثيرا · »

فلوح لي بيده ، وقال :

ـ « خدمة ! »

وتبعنا حارسنا الى القرية ·

وانطلقنا الى لوكارنو في عربة ، وقد احتل الجندي المقعد الامامي مع السائق · وفي لوكارنو جرى كل شيء على ما يرام · لقد استجوبونا، ولكنهم

كانوا لطفاء لاننا كنا نملك جوازَيْ سفر ومالا كثيرا . ولست اظن انهمْ صدّقوا كلمة واحدة من قصتي ، ولقد وجدتُ انا كل ذلك سخفا وحماقة ، ولكن الموقف كان اشبه بالذي يجري في المحاكم حيث لا يتطلب المرء شيئا منطقيا معقولا ، ولكن شيئا تقْنيا ، وحيث يتعين عليه ان يتشبث به من غير ايما تفسير . ولكننا كنا نحمل جوازي سفر ، ونحمل مالا ننفقه . وهكذا منحونا سمةً موقتة . كانت هذه السمة عرضة للالغاء في أيّ لحظة . وكان علينا ان نتصل بمركز الشرطة حيثما ذهبنا .

هل كان في ميسورنا ان نذهب حيث شئنا ؟ اجل . الى اين كنا نريد ان نذهب ؟

– « الى أين تريدين ان تذهبي ، يا كاث ؟ »

– « الى مونترو . »

فقال الموظف :

– « انها موطن رائع جدا . وانا اعتقد انكما سوف تعجبان به . »

فقال موظف آخر :

– « ولوكارنو هذه ، حيث انتما الان ، رائعة جدا ايضا . وانا واثق انكما سوف تحبان الحياة هنا في لوكارنو حبا عظيما . ان لوكارنو مدينة جذابة جدا . »

– « نريد مكانا يستطيع المرء فيه الاستمتاع بالرياضة الشتوية . »

– « ليس في مونترو رياضة شتوية . »

فقال موظف آخر :

– « عفوا . انا من ابناء مونترو . وليس من ريب في ان ضروب الرياضة الشتوية تجري عند سكة حديد مونترو – اوبرلاند – بيرنوا . انت لا تستطيع ان تنكر ذلك . »

– « انا لا انكره. كل ما قلته هو هذا : ليس في مونترو رياضة شتوية . »

فقال الموظف الاخر :

– « انا اشك في هذا . انا اشك في صحة هذا الحكم . »

– « وانا اتمسك بذلك الحكم . »

– « اني اشك في ذلك الحكم . فأنا نفسي تزلّجت بالزلاّقة * في شوارع مونترو . لقد نعمتُ بذلك ، لا مرةً واحدة ، ولكنْ مراتٍ عديدة . والتزلج

* اصطنعنا هذا التعبير مقابل فعل luge بالانكليزية و luger بالفرنسية ويختلف هذا النوع عن التزلج العادي بان المتزلج يقوم به قاعدا لا واقفا . (المعرب)

بالزلاقة رياضة شتوية من غير ريب • »

– « أيكون التنزلج بالزلاقة هو مفهومك من رياضة الشتاء ؟ اؤكد لك انك ستنعم بمتعة بالغة ، هنا في لوكارنو • سوف تجد المناخ صحيا ، ولسوف تجد الضواحي جذابة • انك ستعجب بها اعجابا عظيما • »

– « لقد ابدى السيد رغبته في الذهاب الى مونترو • »

فسألت :

– « وما التزلج بالزلاقة ؟ »

– « أرأيت ؟ انه لم يسمع حتى بالتزلج بالزلاقة ! »

لقد عنى سؤالي شيئا كثيرا بالنسبة الى الموظف الثاني • فقد سرّ به سرورا عظيما •

وقال الموظف الاول :

– « التزلج بالزلاقة luge-ing هو التزلق tobogganing • »

فهز الموظف الثاني رأسه وقال :

– « اسمح لي ان اخالفك • يتعين عليّ ان اخالفك مرةً اخرى • ان الـ toboggan تختلف اختلافا كبيرا عن الـ luge • فالاولى تصنع في كندا من رقائق خشبية مسطحة • اما الثانية فزلاقة عادية تجري على مزالق • يجب على المرء ان يكون دقيقا • »

فسألت :

– « اليس في استطاعتنا التزلق ؟ »

– « طبعا ، تستطيع ان تتزلق • تستطيع ان تتزلق احسن ما يكون التزلق • ففي مونترو تباع « توبوغانات » كندية ممتازة • ان محل « الاخوان اوتشنز » يبيع « التوبوغانات » • انه يستورد « توبوغاناته » الخاصة • »

فاعرض الموظف الثاني وقال :

– « التزلق tobogganing يحتاج الى مضمار pistc خاص • ليس في استطاعتك ان تتزلق في مونترو • اين تعتزمون ان تنزلوا هنا ؟ »

فقلت :

– « لسنا ندري • لقد جئنا بالعربة من بريسّاغو • العربة تنتظرنا في الخارج • »

فقال الموظف الاول :

ـ « انكما لن تخطئا اذا ذهبتما الى مونترو • سوف تجدان المناخ بهيجا جميلا • ولسوف تجدان رياضة الشتاء على مقربة دانية منكما • »

فقال الموظف الثاني :

ـ « اذا كنتما ترغبان في رياضة الشتاء حقا فاقصدا الى اينغادين او الى مورّين • يتعين عليّ ان احتج على اغرائك بالذهاب الى مونترو التماسا لرياضة الشتاء • »

ـ « في « ليه زافان » ، فوق مونترو ، سوف تقعان على مختلف ضروب الرياضة الشتوية • »

قال نصير مونترو ذلك ، وحدج زميله بنظرة مغضبة •

فقلت :

ـ « ايها السيدان ، يخيّل اليّ ان علينا ان نمضي • ان ابنة عمي متعبة جدا • ولسوف نذهب الى مونترو على سبيل التجربة • »

فصافحني الموظف الاول وقال :

ـ « اني اهنئكما • »

فقال الموظف الثاني :

ـ « اعتقد انكما سوف تندمان على مغادرة لوكارنو • وعلى أية حال ، فيتعين عليكما ان تقصدا الى دائرة الشرطة في مونترو • »

فقال الموظف الاول :

ـ « اؤكد لكما انكما لن تجدا في دائرة الشرطة مضايقات ما • ولسوف تجدان جميع السكان هناك اصحاب كياسة وودّ • »

فقلت :

ـ « اشكركما كليكما شكرا جزيلا • اننا نقدر نصيحتكما حد قدرها • »

وقالت كاثرين :

ـ « وداعا • اني اشكركما كليكما شكرا كثيرا • »

ورافقانا حتى الباب ، وهنا انحنيا لنا احتراما ، وان تكن انحناءة نصير لوكارنو باردة بعض الشيء • وهبطنا السلم وامتطينا متن العربة •

وقالت كاثرين :

ـ « يا الهي ، ألم يكن في ميسورنا ان ننصرف باسرع مما فعلنا ، ايها الحبيب ؟ »

واعطيت الحوذيَّ اسمَ واحد من الفنادق التي نصحني بها احد الموظفين •

وامسك الحوذي بعنان الفرس ٠
وهنا قالت كاثرين :
ـ « لقد نسيتَ الجيش ٠ »
كان الجندي واقفا في جانب العربة ٠ فقدمت اليه ورقة نقدية من فئة العشرة ليرات ، وقلت :
ـ « انا لا املك حتى الان شيئا من العملة السويسرية ٠ »
فشكرني ، وادّى لنا التحية ، ومضى لسبيله ٠ وانطلقت العربة بنا ، متجهة نحو الفندق ٠
وسألتُ كاثرين :
ـ « كيف اتفق لك ان اخترتِ مونترو ؟ هل ترغبين في الذهاب الى هناك فعلا ؟ »
فقالت :
ـ « لقد كانت اول مكان خطر لي ببال٠ انها ليست رديئة٠ وفي استطاعتنا ان نجد مكانا ما في الجبال ٠ »
ـ « هل انتِ ناعسة ؟ »
ـ « انا على وشك الاستسلام للرقاد ٠ »
ـ « سوف ننعم بنوم عميق ٠ مسكينة انتِ يا كاث ، لقد قضيتِ ليلة طويلة مضنية ٠ »
فقالت كاثرين :
ـ « بل لقد قضيتُ فترةً ممتعة وبخاصة عندما اتخذتَ من المظلة شراعا٠ »
ـ « هل تصدّقين اننا في سويسرة ؟ »
ـ « لا ٠ انا اخشى ان استيقظ ويثبت لديّ ان هذا غير صحيح ٠ »
ـ « وانا ايضا ٠ »
ـ « ولكنه صحيح ، أليس كذلك ، ايها الحبيب ؟ انا لست متجهةً الان الى محطة القطار في ميلانو لتوديعك ٠ »
ـ « ارجو ان لا يكون الامر كذلك ٠ »
ـ « لا تقل هذا ٠ انه يوقع الرعب في نفسي ٠ من الجائز ان نكون ذاهبين الى هناك ٠ »
ـ « انا ثمل الى حدّ يتعذر عليّ معه ان اعرف ٠ »
ـ « ارني يديك ٠ »
وبسطتهما لها ٠ كانتا كلتاهما متقرحتين ٠

وقلت :

– « ان جنبي غير مصاب بجرح ما . »

– « لا تمزح مزاحا ينطوي على سخرية بالمقدّسات . »

واستشعرت تعبا شديدا ودُوارا في الرأس. كان ابتهاجي كله قد تلاشى. وكانت العربة تنطلق بنا في الشارع .

وقالت كاثرين :

– « يا لليدين البائستين ! »

فقلت :

– « لا تمسّيهما . وحق الاله ، انا لا ادري اين نحن . الى اين نحن ذاهبون ايها الحوذي ؟ »

فأوقف الحوذي فرسه .

– « الى اوتيل متروبول . الا تريد ان تذهب الى هناك ؟ »

فقلت :

– « بلى . حسن جدا ، يا كاث . »

– « حسن جدا ، ايها الحبيب . لا تقلق . سوف ننعم بنوم عميق ، ولن تشعر غدا انك ثمل . »

فقلت :

– « اني احسُّ الان اني ثمل الى حد بعيد . لقد كان ما شاهدناه اليوم اشبه بمغنّاة هزلية . لعلي جائع . »

– « انت متعَب ليس غير ، ايها الحبيب . ولا بد ان تستعيد نشاطك . »

ووقفت العربة امام الفندق . وأقبل احد الخدم ليخمل حقيبتنا . »

وقلت :

– « احس اني بخير . »

كنا على الرصيف نتخذ سبيلنا الى الفندق .

وقالت :

– « انا واثقة انك ستكون بخير . انت متعَب ليس غير . لقد وقفتَ على قدميك فترة طويلة . »

– « مهما يكن من أمر ، فالشيء الثابت هو اننا هنا . »

– « اجل نحن هنا حقا . »

وتبعْنا الخادمَ الذي حمل الحقيبتين ، ودخلنا الفندق .

الكتاب الخامس

الفصل الثامن والثلاثون

ذلك الخريف أقبل الثلج في موعد متأخر جدا . لقد نزلنا في بيت خشبي اسمر تحيط به اشجار الصنوبر ، على كتف الجبل . وفي الليل كان الصقيع يُلمّ بالارض ، فكنا نفيق صباحا لنجد طبقة جليدية رقيقة تعلو الابريقين الموضوعين على الخزانة ذات الادراج. وكانت السيدة غوتنجن تفدُ على غرفتنا في ساعة مبكرة من الصباح لكي توصد النوافذ وتضرم النار في الموقد الخزفي الطويل . كانت اغصان الصنوبر الجافة تطقطق وترسل الشرر . ومن ثم كانت النار تهدر في الموقد . وكانت السيدة غوتنجن تحمل في زيارتها الثانية الى الغرفة قطعا من الحطب ضخمة لاذكاء النار وابريق ماء حار . حتى اذا شاع الدفء في الغرفة حملت الينا طعام الصباح . وكنا نتناول طعام الصباح ونحن قاعدان في السرير نكحّل العين بمشهد البحيرة والجبال القائمة في الناحية الاخرى على الضفة الفرنسية . كانت قمم الجبال مكللة بالثلج ، وكانت البحيرة زرقاء ، كالفولاذ ، ضاربا لونها الى الرماذي .

وفي الخارج ، تجاه البيت الخشبي ، كانت طريق تصعّد الى الجبل . وكانت ممرات العربات قاسية كالحديد من اثر الجليد ، وكانت الطريق تصعّد في اطراد خلال الغابة وحول الجبل الى حيث كانت مروج ، وعنابر قمح واكواخ في المروج عند حافة الغابة المطلة على الوادي . وكان الوادي سحيقا ، وكان في قعره جدول يجري الى البحيرة . حتى اذا هبت الريح في الوادي كان في ميسورك ان تسمع خرير الجدول بين الصخور .

وفي بعض الاحيان كنا نتنكّب الطريق لنسلك مجازا يمتد عبر غابة الصنوبر . كانت تربة الغابة ناعمة تحت أقدامنا، ولم يكن الصقيع قد قسّاها كما فعل بالطريق . ولكنا ما كنا نبالي بقَسْوة الطريق لان نعالنا واعقاب

حذاءينا الطويلي السّاق كانت مزوّدة بالمسامير ، وكانت المسامير تَغْرُزُ في الممرات المتجمدة ، وكانت الاحذية ذات المسامير تجعل السير على الطريق سائغا منعشا للنفس . ولكن السير في الغابة كان فاتنا .

وتجاه البيت الذي نزلنا فيه انحدر الجبل على نحو شبه عمودي الى السهل الصغير المحاذي للبحيرة ، وكنا نجلس على شرفة البيت ، تحت اشعة الشمس ، ونتأمل تعرّج الطريق الهابطة سفحَ الجبل الادنى ، وكروم العنب المدرّجة ، والعرائش الميتة كلها الان بسبب من برد الشتاء وصقيعه ، والحقول التي تفصل ما بينها جدران حجرية ، وبيوت المدينة المنتشرة تحت الكروم في السهل الضيق المتاخم لشاطىء البحيرة . وكانت في البحيرةجزيرة فيها شجرتان ، وكانت الشجرتان تبدوان كأنهما شراعا مركب من مراكب الصيد . كانت الجبال وعرة شديدة الانحدار عند الضفة الاخرى من البحيرة، وهناك عند اقصى البحيرة كان سهل وادي الرون المنبسط بين السلسلتين الجبليتين . وفي أعلى الوادي، حيث كانت الجبال تضع حدا له ، كان الـ « دان دو ميدي » . كان جبلا شامخا مكسوا بالثلج ، وكان يشرف على الوادي ، ولكنه كان نائيا الى درجة جعلته لا يلقي ايما ظل من الظلال .

وكنا ، كلما كانت اشعة الشمس قوية ، نتناول طعام الغداء على الشرفة ، اما في سائر الاحوال فكنا نتناول الطعام في الدور العلوي في غرفة صغيرة ذات جدران خشبية ساذجة وموقد ضخم في الزاوية . واشترينا من المدينة كتبا ومجلات ونسخة من كتات « هوْيْل » Hoyle ، وتعلّمنا كثيرا من العاب الورق المخصصة للمناسبات التي يدور فيها اللعب بين لاعبين اثنين ليس غير . وكانت الغرفة الصغيرة ذات الموقد هي غرفة جلوسنا . وكانت تنتظم كرسيين مريحين وطاولة للكتب والمجلات ، وكنا نلعب الورق على مائدة الطعام حين تُرفع عنها الاطباق . وكان السيد والسيدة غوتنجن يسكنان الدور الاسفل ، وكنا نسمعهما يتحدثان أحيانا في المساء ، ولقد كانا سعيدين جدا ايضا . كان هو في وقت مضى رئيس نُدُل * ، وكانت هي قد عملت خادمة في الفندق نفسه ، ولقد اقتصدا شيئا من المال اشتريا به ذلك المنزل . وكان لهما ولد يتدرّب على مهمّة رئيس الندل . كان يعمل في فندق زوريخ . وفي الدور السفلي كان بهو تباع فيه الخمر والجعة ، وفي بعض الاحيان كنا نسمع – في حواشي الليل – عربات تقف على الطريق ، ورجالا يرتقون

---

* جمع نادل وهو الخادم في مقهى او فندق ، والمقصود برئيس الندل ما يعرف عادة بـ « الميتر دوتيل » .

درجات السلم ويمضون الى البهو ليحتسوا الخمر .

كان في الرواق ، خارج غرفة الجلوس ، صندوق حطب ، فكنت اذكي النار بمحتوياته . ولكننا لم نسهر طويلا . لقد أوينا الى الرقاد ، في حجرة النوم الكبيرة ، يلفنا الظلام . وحين نزعت ملابسي فتحت النوافذ ورأيت الى الليل والى النجوم الباردة والى شجرات الصنوبر تحت النافذة ، ثم اندسست في الفراش بأسرع ما استطعت . كان الايواء الى السرير ماتعا في تلك اللحظات التي كان الهواء فيها باردا جدا، نقيا جدا . والتي كان فيها الليل ساجيا خارج النافذة . ونمنا نوما عميقا . واذا كنت قد افقت في موهن من الليل فلم يكن ذلك الا لسبب وحيد اعرفه . وعندئذ كنت ارد لحاف الزغب علي في كثير من الرفق لكي لا تفيق كاثرين ، ثم استسلم للرقاد من جديد ، ناعما بالدفء تحت هذه الخفة الجديدة التي تميّز الاغطيــة الرقيقة . لقــد بدت الحرب نائية جــدا كمباريات كرة القدم التي تجري في جامعة ما ليس لك بها صلة، جامعة ينتسب اليها شخص اخر . ولكني عرفت من الصحف انهم كانوا لا يزالون يقاتلون في الجبال لان الثلج لم يشأ ان يتساقط .

* * *

وفي بعض الاحيان كنا نهبط الجبل الى مونترو . كان ثمة مجاز يمتد الى ادنى الجبل ولكنه كان شديد الانحدار ، وهكذا كان من دأبنا ان نؤثر الطريق العريضة القاسية المنسابة بين الحقول ، والمتغلغلة ، عند نقطة ادنى ، بــين جدران الكروم الحجرية ثم بين بيوت القرى القائمة على جانبيها . كانت ثمة قرى ثلاث : تشيرنيكس ، وفونتانيفان ، وثالثة نسيت اسمها . وعلى الطريق كنا نجتاز بقصر حجري عتيق . وكان ذلك القصر ينتصب مربّع الشكل فوق سَطيحة على كتف الجبل ومن حوله حقول الكرمة المدرَّجة ، وقد شُدَّت كل عريشة الى عصا تتكيء عليها ، وجفت العرائش واسمرَّت ، وأمست الارض على استعداد لاستقبال الثلج ، والبحيرة المنبسطة تحت ذلك كله مستويــة رمادية كالفولاذ . وهبطت الطريق مسافة طويلة تحت القصر ، ثم انعطفتْ الى اليمين وانتهت اخرالامر الى مونترو بمنحدر رهيب معبَّد بالحصى الضخام .

ولم نكن نعرف أحدا في مونترو . لقد مشينا في محاذاة البحيرة . ورأينا البجع وكثيرا من النورس وخطاطيــف البحر التي كانــت تولّي طائرة كلما اقتربتَ منها وتصيح فيما هي تخفض أبصارها نحو الماء . وهناك في البحيرة كانت أسراب من الطائر المعروف بالغطاس، صغيرة داكنة، تخلّف حين تسبح

آثارا متطاولة في الماء • وفي المدينـة تمشّينا في الشـارع الرئيسي ووقفنا نتأمل في واجهات المحال التجارية • كان ثمة عـدد كبير من الفنادق الكبيرة التي اوصدت ابوابها ، ولكن معظم المحال التجارية كانـت مشرعة الابواب ، وكان الناس سعداء جدا برؤيتها • وكان ثمة صالـون حـلاقة ممتاز فدخلته كاثرين لتسوّي شعرها • وكانت المرأة التي تدير ذلك الصالون بهيجة جدا ، وكانت هي الشخص الوحيد الذي عرفناه في مونترو • وبينا كانت كاثرين هناك شخصتُ الى محل لبيع الجعة وشربت من جعة مونيخ الداكنة ، وطالعت الصحف • لقد قرأت الـ « كورير ديلاسيرا » والصحف الانكليزية والاميركية الوافدة من باريس • كان قلم الرقيب قد حذف جميع الاعلانات ، ولعله فعل ذلك للحؤول دون أي اتصال مع العدو من هذه الطريـق • وكانت مطالعـة الصحف تبعث الاسى في النفس • فقد كانت الاحوال رديئة جدا في كل مكان• لقد جلستُ في الزاوية ، وقد انتصب امامي قدح ضخم مليء بالجعة الداكنة ، وعلبة مفتوحة من البسكويت المملح ذات غـلاف مزجّج مصقول • وأكلـت البسكويتات لمذاقها المالح ، ولانها كانت تخلع على الجعة نكهة طيبة ، وقرأت عن الكارثة • وتوقعت ان تكون كاثريـن في طريقها الي ، ولكنها لم تأت • وهكذا اعدت الصحف الى الرف ، ودفعت ثمن الجعة ، ورحـت اصعّد في الشارع بحثا عنها • كان النهار باردا ، قاتما ، عاصفا ، وكانت حجارة المنازل تبدو باردة • كانت كاثرين لا تزال في صالون التجميل وكانت المرأة تموّج لها شعرها • وجلست في المقصورة الصغيرة وانشأت اراقبهما • كان مشهدا مثيرا ، وابتسمت كاثرين ، وتحدّثت الي ، وغدا صوتي أجش بعض الشيء بسبب من التأثر • كانت الملاقط تُحدث طقطقة عذبة ، وكان في استطاعتي ان ارى كاثرين في ثلاث مرايا وكانت المقصورة انيسة دافئة • ثم ان المرأة رفعت شعر كاثرين ، فنظرت كاثرين في المرآة واحدثت فيه تغييرات بسيطة نازعـة بعض الملاقط واضعة بعضها الاخر • ثم انها وقفت وقالت :

ـ « انا آسفة لاني اضعت وقتك الى هذا الحد • »

فابتسمت المرأة وقالت :

ـ « ولكنك يا سيدي كنتَ تتابع العملية في اهتمام بالغ أليس كذلك يا سيدي ؟ »

فقلت :

ـ « أجل ، هذا صحيح • »

وخرجنا ، وانشأنا نصعّد في الشارع · كان الجو باردا ، غائما ، وكانت الريح تعصف · وقلت :

ـ « اوه ، يا عزيزتي ، انا احبك حبا عظيما · »

فقالت كاثرين :

ـ « السنا نقضي وقتا ممتعا ؟ اسمع ، دعنا نذهب الى مكان ما ، ونشرب الجعة بدلا من الشاي · الجعة صالحة جدا لكاثرين الصغيرة · انها تحــول بينها وبين البدانة · »

فقلت :

ـ « كاثرين الصغيرة · يا لها من متسكعه متكاسلة ! »

فقالت كاثرين :

ـ « لقد كانت عاقلة جدا · انها لا تورثني ازعاجا كثيرا · والطبيب يقول ان الجعة سوف تفيدني وتحول بينها وبين البدانة · »

ـ « اذا أبقيتِها نحيلة وكانت غلاما فقد يصبح في المستقبل راكب خيل في السباق ! »

فقالت كاثرين :

ـ « أحسب ان علينا ان نتزوج ، اذا ما أبصر هذا الطفل النور · »

كنا جالسين الى مائدة الزاوية نحتسي الجعــة في أحد المحال الخاصــة ببيعها · وكانت العتمة تهبط في الخارج · لم تكن الشمس عــلى وشــك الغروب ، ولكن النهار كان قاتما وكان الظلام يُقبل مبكرا ·

وقلت :

ـ « فلنتزوج الان · »

فقالت كاثرين :

ـ « لا · ان هذا مُربك اكثر مما ينبغي ، الان · ان حالتي جلية للعيان الى حد بعيد · واني لن أظهر امام أحد وأتزوج وانا في هذا الوضع · »

ـ « كم أتمنى لو اننا تزوجنا من قبل · »

ـ « لو فعلنا اذن لكان ذلك افضل ، في ما اعتقد · ولكن متى سنوفق الى ذلك ، ايها الحبيب ؟ »

ـ « أنا ادري شيئا واحــدا ، وهو انني لن أتزوج وانا في هذا الوضــع الامومي الرائع · »

ـ « انت لا تبدين حاملا على نحو واضح · »

ـ « أوه ، على العكس ، أيها الحبيب · لقد سألتني المزينة أيكون هذا هو

حملي الاول ؟ فكذبت وقلت : لا ، ان لنا صبيين وبنتين • »

ـ « ومتى سنتزوج ؟ »

ـ « حالما أستعيد رشاقتي • انا نريد ان نقيم عرسا بهيا ، وان نحمل كل امرىء على القول : يا لهما من عروسين شابين جميلين • »

ـ « الست مغتمة معذبة النفس ؟ »

ـ « وما الذي يدعوني الى ذلك ، أيها الحبيب ؟ ان المرة الوحيدة التي خجلت بها من نفسي هي يوم شعرت ، في ميلانو ، وكأنني بنت من بنات الهوى، ولم يدم ذلك غير سبع دقائق ! والى هذا فقد كان ذلك بسبب من اثاث الغرفة • ألم أثبت اني زوجة صالحة ؟ »

ـ « انت زوجة رائعة : »

ـ « اذن لا تعلق كثيرا من الاهمية على التفاصيل الفنيَّة • سوف أتزوج منك حالما استعيد رشاقتي • »

ـ « حسن • »

ـ « هل تعتقد ان من الخير لي ان احتسي كأسا اخرى من الجعة ؟ لقد قال الطبيب ان حوضي ضيق بعض الشيء ، وان افضل ما افعله هو ان ابقي كاثرين مهزولة الجسم • »

واستبد بي القلق فقلت :

ـ « وماذا قال ايضا ؟ »

ـ « ان ضغط الدم عندي رائع ايها الحبيب • لقد أعجب بضغط دمي اعجابا عظيما • »

ـ « وماذا قال عن مسألة ضيق الحوض هذه ؟ »

ـ « لا شيء • لا شيء على الاطلاق • لقد قال ان علي ان لا اتزلج • »

ـ « انه لعلى حق • »

ـ « لقد قال ان الاوان قد فات اذا كنت لم ابدأ بعد • وذهب الى ان في استطاعتي ان اتزلج اذا كنت واثقة من اني لن اقع على الثلج • »

ـ « انه ساخر ذو قلب كبير • »

ـ « الواقع انه كان ظريفا جدا • سوف نعهد اليه بمهمة التوليد عندما يجيئني المخاض • »

ـ « هل سألته أيتعيَّن عليك ان تتزوجي أم لا ؟ »

ـ « لا • لقد قلت له اننا متزوجان منذ اربع سنوات • اترى، ايها الحبيب، انني اذا تزوجت منك اصبحت اميركية • وايًّا كان موعد الزواج فان الطفل

سوف يكون شرعيا في نظر القانون الاميركي ٠ »

- « وأين عثرت على ذلك ؟ »

- « في تقويم نيويورك العالمي ، في المكتبة ٠ »

- « انت فتاة عظيمة ٠ »

- « سوف أكون سعيدة جدا باكتساب الجنسية الاميركية٠ ولسوف نذهب الى اميركا ، أليس كذلك أيها الحبيب ؟ انا اريد ان ارى شلالات نيياغارا ٠ »

- « انت فتاة رائعة ٠ »

- « هناك شيء اخر اريد ان اراه ، ولكني لا استطيع ان أتذكره ٠ »

- « مرابط الماشية ؟ »

- « لا ٠ انا لا استطيع ان أتذكره ٠ »

- « بناية وولوورث ؟ »

- « لا ٠ »

- « الغَوْر الكبير ؟ »❋

- « لا ٠ ولكني أحب ان ارى هذا ايضا ٠ »

- « حسنا ٠ حاولي ان تتذكري ٠ »

- « الباب الذهبي ! ذلك ما اريد ان أراه ٠ أين يقع هذا الباب الذهبي؟ »

- « في سان فرنسيسكو ٠ »

- « اذن فلنذهب الى هناك ٠ انا اريد ان ارى سان فرنسيسكو على أية حال ٠ »

- « والان فلنرتقِ الجبل ٠ ما رأيك؟ هل نستطيع ان ندرك الـM.O.B. ؟ »

- « هناك قطار بعد الساعة الخامسة بقليل ٠ »

- « فلنحاول ان نمتطي متنه ٠ »

- « حسن ٠ سوف اشرب كأسا اخرى اولا ٠ »

وحين خرجنا لنصعّد في الشارع ونرتقي سلّم المحطة كان الجو باردا جدا ٠ كانت ريح باردة تهب من وادي الرون٠ وكانت واجهات المحال التجارية مضاءة ، وارتقينا السلم الحجري الشديد الانحدار الى الشارع الاعلى ، ثم ارتقينا سلما اخر انتهى بنا الى المحطة ٠ وكان القطار الكهربائي ينتظر هناك، وقد اضيئت مصابيحه كلها ٠ وكان ثمة وجه ساعة يشير الى موعد الانطلاق٠

❋ يقصد حديقة الغور الكبير العامة Grand Canyon National Park في اريزونا الشمالية ٠

(المعرب)

وكان عقرباه يشيران الى الخامسة والدقيقة العاشرة · ونظرت الى ساعة المحطة فاذا بها تشير الى الخامسة والدقيقة الخامسة · وحين امتطينا متن القطار رأيت السائق والمفتش يخرجان من حانة المحطة · وجلسنا وفتحنا النافذة ، كان القطار ينعم بتدفئة كهربائية وكان الهواء حبيسا غير نقيّ ، ولكن الهواء الطلق البارد كان يُقبل من خلال النافذة ·

وسألتها :

ـ « هل انت متعبة يا كاث ؟ »

ـ « لا · انا احسّ اني في أحسن حال · »

ـ « ان المسافة ليست طويلة · »

ـ « انا أحب السفر بالقطار · لا تقلق علي ، أيها الحبيب · انا استشعر نشاطا بالغا · »

ولم يسقط الثلج الا قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام · وأفقنا ذات صباح فالفينا الثلج يتساقط · ومكثنا في السرير والنار تتأجج في الموقد ، وراقبنا الثلج وهو يتساقط · واخرجت السيدة غوتنجن اطباق الفطور ، ووضعت في الموقد مقدارا اضافيا من الحطب · كانت عاصفة ثلجية ضخمة · ولقد قالت السيدة غوتنجن ان تلك العاصفة انطلقت حوالي منتصف الليل · ومضيت الى النافذة، وأطللت منها ولكنني لم استطع ان ألمح الناحية الاخرى من الطريق · كانت العاصفة تهب في ضراوة ، وكان الثلج يسقط في عنف ، وانقلبتُ الى السرير فاستلقيت عليه واخذنا بأطراف الحديث ·

فقالت كاثرين :

ـ « أتمنى لو كان في امكاني ان اتزلج · انه لمما يثير الاشمئزاز ان يكون المرء عاجزا عن التزلج · »

ـ « سوف نأخذ زُلَيْقة ٭ ونهبط الطريق · ان ذلك ليس اسوأ من الركوب في عربة · »

ـ « الن ينطوي ذلك على ارتجاج كثير ؟ »

ـ « في استطاعتنا ان نرى · »

ـ « ارجو ان لا ينطوي على ارتجاج كثير · »

ـ « بعد قليل سوف نتمشّى على الثلج · »

٭ الزليقة bob-sled عبارة عن سطح على دواليب من حديد او خشب ولها محول او موجه للانزلاق على السفوح الثلجية ·

فقالت كاثرين :

ــ « قبل طعام الغداء · ان هذا سوف يقوي شهيّتنا · »

ــ « انا جائع دائما · »

ــ « وكذلك انا · »

وخرجنا نتمشى على الثلج ، ولكنه كان متكوّما كتلا كتلا فلم يكن في ميسورنا ان نجتاز مسافة طويلة · وتقدّمتُ كاثرين وشققت لها طريقا حتى المحطة · ولكن ما ان وصلنا الى هناك حتى رغبنا عن الذهاب الى أبعد · كان الثلج يتساقط في قوة وعنف ، فتعذّر علينا ــ او كاد ــ ان نرى شيئا · وهكذا دخلنا النُزُل الصغير المجاور للمحطة · ونفض كل منا الثلج عن ثياب الاخر ، مستعينا على ذلك باحدى المكانس ، وجلسنا على مقعد خشبي ، ورحنا نحتسي كأسين من الفيرموت ·

وقالت النادلة :

ــ « انها عاصفة هائلة · »

ــ « لقد تأخر الثلج كثيرا ، هذه السنة · »

ــ « أجل · »

وسألتني كاثرين :

ــ « هل استطيع ان آكل لوحا من الشوكولا ؟ أم اننا اوشكنا على تناول طعام الغداء ؟ انا جائعة على نحو موصول · »

فقلت :

ــ « طبعا ، في استطاعتك ان تأكلي لوحا · »

فقالت كاثرين :

ــ « سوف آخذ واحدا محشوا بالبندق · »

فقالت النادلة :

ــ « هذا الصنف طيب جدا · انا أفضله على سائر الاصناف · »

وقلت :

ــ « أما انا فسأشرب كأسا أخرى من الفيرموت · »

وحين خرجنا لنصعّد عائدين كان الثلج قد طمس سبيلنا ، ولم يكن قد بقي منها غير بضعة ثلوم غامضة · وصَفَعَتْنا الثلج في وجهينا فكدنا نعجز عن الرؤية · ثم اننا نفضنا الثلج عن ملابسنا · ودخلنا لنتناول طعام الغداء ، وقد قدمه الينا السيد غوتنجن · وقال :

ــ « غدا سوف يكون في الامكان التزلج على الثلج · هل تحسن التزلج يا مستر هنرى ؟ »

ـ « لا • ولكني أريد ان أتعلّم • »
ـ « سوف تتعلم ذلك في سهولة بالغة • ان ولدي سوف يقضي عيد الميلاد هنا ، ولسوف يقوم هو بتعليمك • »
ـ « هذا رائع • ومتى سيأتي ؟ »
ـ « غدا مساء • »
وفيما نحن جالسان قرب الموقد ، في الغرفة الصغيرة ، وكنا قد تناولنا طعام الغداء وأنشأنا نتأمل الثلج المنهمر قالت كاثرين :
ـ « ألا تود ان تذهب بمفردك ، أيها الحبيب ، فتتنزه في مكان ما مع بعض الرجال ، وتنعم بالتزلج ؟ »
ـ « لا • وما الذي يدعوني الى ذلك ؟ »
ـ « يخيّل الي احيانا انك ترغب في ان ترى اناسا اخرين • »
ـ « وهل ترغبين أنتِ في ان تري اناسا اخرين ؟ »
ـ « لا • »
ـ « وكذلك انا • »
ـ « أدري • ولكن وضعك مختلف • اني حامل ، وهذا ما يجعلني ارتضي الامتناع عن القيام بأي عمل • انا أعلم انني الان بلهاء ، الى أبعد الحدود ، واني لاسرف في الثرثرة ، واعتقد ان عليك ان تبتعد عني بعض الشيء لكي لا تملّني وتسأمني • »
ـ « هل تريدين ان ابتعد عنك ؟ »
ـ « لا • انا اريدك ان تبقى الى جانبي • » •
ـ « هذا ما سأفعله • »
وقالت :
ـ « أدنُ مني • اريد ان أتحسس التورّم الذي في رأسك • انه تورم كبير • »
وأمرّت اصبعها فوقه ، ثم أضافت :
ـ « هل لك ان تُرسل لحيتك ، أيها الحبيب ؟ »
ـ « أو تريدين مني ان افعل ذلك ؟ »
ـ « احسب ان ذلك سوف يكون طريفا • اني احب ان اراك بلحية مُرْسَلة • »
ـ « حسن • سوف أربي لحية • سوف ابدأ منذ اللحظة • هذه فكرة جيدة • انها تتيح لي فرصة للقيام بعمل ما • »
ـ « وهل يقلقك ان لا يكون لديك عمل تقوم به ؟ »

ـ « لا · انا احب ذلك · انا أحيا حياة بديعة · وكذلك انتِ · أليس هذا صحيحا ؟ »

ـ « انا أحيا حياة بديعة ايضا · ولكني خشيت ان أكون قد اصبحتُ مدعاة لسأمك بعد ان نما الجنين في بطني نموا كبيرا · »

ـ « أوه ، يا كات · أنتِ لا تعرفين مبلغ هيامي بك · »

ـ « حتى وانا في هذه الحالة ؟ »

ـ « كما انتِ تماما · أنا سعيد جدا · ألسنا نتمتع بحياة طيبة ؟ »

ـ « من غير ريب ، ولكني اعتقدتُ ان شيئا من القلق قد استبدَّ بك · »

ـ « لا · اني لاتساءل ما الذي حلَّ بالجبهة وبالناس الذين اعرفهم ، ولكني لست قلقا · انا لا افكر بأي شيء أكثر مما ينبغي · »

ـ « من هم أولئك الذين تفكر فيهمْ ؟ »

ـ « رينالدي ، والكاهن ، وكثير من الناس الذين أعرفهم · ولكني لا أفكر فيهم كثيرا · انا لا اريد ان أفكر في الحرب · لقد انتهت بالنسبة الي · »

ـ « فيم تفكر الان ؟ » ·

ـ « في لا شيء · »

ـ « بل كنت تفكر في شيء · قل لي · »

ـ « كنت أتساءل أيكون رينالدي مصابا بالسفلس ؟ »

ـ « أكان هذا كل شيء ؟ »

ـ « نعم · »

ـ « وهل هو مصاب بالسفلس حقا ؟ »

ـ « لست ادري · »

ـ « انا سعيدة لعدم اصابتك به · هل اصِبت ذات يوم بأيما شيء مثل هذا ؟ »

ـ « كنت مصابا بالسيلان · »

ـ « انا لا اريد ان اسمع شيئا عن ذلك · هل كان مؤلما جدا أيها الحبيب ؟ »

ـ « جدا · »

ـ « ليتني اصبتُ انا به · »

ـ « لا · »

ـ « اني أتمنى لو اني أصبت به لكي أكون مثلك · واني لاتمنى لو عرفت جميع محبوباتك لكي اسخر منهنَّ أمامك · »

ـ « انها لصورة فنية ساحرة ! »

ـ « أما اصابتك بالسيلان فليست صورة فنية ساحرة ! »

ـ ادري • أنظري كيف يتساقط الثلج الان • »

ـ « اني أؤثر ان انظر اليك • لماذا لا تترك شعرك ينمو ؟ »

ـ « كيف ذلك ؟ »

ـ « اتركه ينمو حتى يصبح أطول مما هو قليلا • »

ـ « انا ارى ان طول شعرى حسن الان • »

ـ « لا • دعـه ينمو بعض الشيء • وفي استطاعتي انا ان اقصَّ شعري ، وعندئذ نصبح متماثلين تماما ، باستثناء ان أحدنا أشقر والاخر اسمر • »

ـ « انا لن ادعك تقصين شعرك • »

ـ « خليق" به ، اذا قصصتنه ، ان يصبح شيئا طريفا • لقد سئمت' منه • انه ليورثني ازعاجا بالغا حين آوي الى السرير ليلا • »

ـ « انا أحبه • »

ـ « ألن تحبه قصيرا ؟ »

ـ « ربما • ولكني أحبه كما هو الان • »

ـ « انه قد يكـون جميلا وهــو قصير • وعندئذ نكــون ـ انا وانت ـ متماثلين • أوه ، يا عزيزي ، اني احبـك الى درجـة تجعلني ارغب في ان اكون انا انت • »

ـ « انك لكذلك فعلا • نحن شخص واحد • »

ـ « أعرف هذا • نحن شخص واحد في الليل • »

ـ « ان الليالي شيء عظيم • »

ـ « اريد ان يمتزج أحدنا بالاخر امتزاجا كاملا • انا لا اريد ان تذهب • لقد قلت' ذلك مجرد قول • في استطاعتـك ان تذهب اذا شئت • ولكــن شريطة ان ترجع عاجــلا • اني ، أيها الحبيب ، لا استشعر الحيــاة الا حين تكون الى جانبي • »

فقلت :

ـ « انا لن أبتعد عنك أبدا • اني لا اعرف معنى السعادة حين لا تكونين معي • لم تعد لي أيما حياة على الاطلاق • »

ـ « انا اريد ان تكون لك حياة • اريد ان تكون لك حياة جميلة • ولكنــا سوف نحياها معا ، أليس كذلك ؟ »

ـ « والان ، أتريدين مني ان اكف عن ارسال لحيتي ام ان ارسلها ؟ »

ـ أرسلها • انها سوف تكون رائعة • ومن يـدري فلعلك ان تستقبــل

العام الجديد بها . »

ـ « والان ، هل تريدين ان تلعبي الشطرنج ؟ »

ـ « اني اؤثر ان ألعب معك . »

ـ « لا . دعينا نلعب الشطرنج . »

ـ « وبعد ذلك نلعب معا ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « حسن . »

واخرجتُ رقعة الشطرنج ، ورتبت البيادق * . كان الثلج لا يزال يتساقط ، في الخارج ، عنيفا قويا .

* * *

وذات مرة افقت في موهن من الليل . فعرفت ان كاثرين كانت مستيقظة ايضا . كان القمر يلتمع على النافذة ، وكان يلقي ظلالا على السرير من خلال قضبان النافذة .

ـ « لقد استيقظتَ ، يا حبيبي ؟ »

ـ « نعم . ألا تستطيعين ان تنامي ؟ »

ـ « لقد استيقظتُ وانا افكر كيف استبد بي الهيام عندما لقيتُك اول مرة . هل تذكر ؟ »

ـ « أجل ، لقد بدت عليكِ امارات الهيام بعض الشيء . »

ـ « انا لم أعد كذلك . انا رصينة الان . قل رصينة في عذوبة بالغة . قل رصينة . »

ـ « رصينة . »

ـ « اوه ، انك ظريف . لقد تحررتُ من الهيام الان . ولقد اصبحتُ سعيدة جدا ، جدا ، جدا ، ليس غير . »

فقلت :

ـ « اوه ، عودي الى النوم . »

ـ « حسن . فلينم كل منا في نفس اللحظة التي ينام فيها الاخر . »

ـ « حسن . »

ولكننا لم نفعل . لقد بقيت يقظان فترة طويلة ، مفكرا في مختلف الاشياء ، متأملا كاثرين وهي نائمة ، وقد ترقرق ضوء القمر على وجهها . ثم اني استسلمت للرقاد أيضا .

---

* البيادق (والبياذق) حجارة الشطرنج .

الفصل التاسع والثلاثون

وحوالي منتصف كانون الثاني كانت لي لحية ، وكان الشتاء قد أمسى كناية عن سلسلة متعاقبة من النهارات الباردة المشرقة ، والليالي المثلوجة القاسية · لقد اصبح في ميسورنا ان نمشي في الطرق كرة أخرى · كان الثلج صقيلا متلبدا تلبدا قويا حيث كانت عربات التبن ، وزلاقات الخشب، وجذوع الاشجار الضخام تهبط الجبل · وكان الثلج يغمر الريف كله حتى مونترو تقريبا · وكانت الجبال القائمة عند الضفة الاخرى من البحيرة بيضاء كلها ، وكذلك كان سهل وادي الرون مغمورا ايضا · كنا نخرج في نزهات طويلة،مشيا على الاقدام عند الجانب الاخر من الجبل، الى ال «بان دو لالياز» · كانت كاثرين تنتعل حذاء ذا مسامير عريضة الرؤوس ، وتطرح على كتفيها رداء ، وتتوكأ على عصا ذات رأس فولاذي حاد · انها لم تبدُ عالية البطن في ذلك الرداء · ولم نكن نمشي في سرعة بالغة ، ولكننا كنا نقف بين الفينة والفينة ونقعد على جذوع الاشجار الملقاة على جانب الطريق لنستريح كلما تعبَتْ كاثرين ·

كان ثمة في الـ « بان دو لالياز » نُزُل قائم وسط الاشجار يقف الحطّابون عنده ليطفئوا ظمأهم · وكنا نلمّ بهذا النزل فننعم بدفء الموقد ، ونشرب خمرة حمراء ساخنة ممزوجة بالتوابل وعصير الليمون الحامض · وكانوا يسمون ذلك الشراب « غلوهفاين » Gluhwein · ولقد كان شرابا يوقع في نفس المرء دفئا وحبورا · وكان النزل مغتما عابقا بالدخان ، حتى اذا غادَرْتَهُ اقتحم الهواء رئتيك في قوة وعنف ، وخدَّرَ ارنبة أنفك وانت تستنشقه · والتفتنا ذات مرة الى الوراء فرأينا النزل وقد انبعث النور من خلال نوافذه ، ورأينا خيول الحطابين تضرب الارض بقوائمها الامامية وتحرّك

رؤوسها التماسا للدفء . كان ثمة جليد على شعر خُطومها * ، وكانت أنفاسها ترسم في الهواء خطوطا من بخار . وكانت الطريق التي نصعد فيها الى منزلنا صقيلة زلقة في الجزء الاول منها ، حتى اذا انعطفنا الى مجاز الاحطاب امسى الجليد بلون البرتقال بسبب من الخيل التي كانت تسلكه . أما بعد ذلك ، فكانت الطريق مغطاة بثلج نظيف متلبّد ، وكانت تخترق الغابة . ومرتين اثنتين شاهدنا بعض الثعالب ونحن عائدان الى المنزل في موهن من الليل .

لقد كانت بلادا جميلة ، وكنا نجد في كل نزهة من نزهاتنا متعة بالغة . وقالت كاثرين :

– « لقد أصبحت لك لحية رائعة الان . انها اشبه ما تكون بلحى الحطابين . هل رأيت الرجل الذي يتدلى من اذنيه قرطان ذهبيان صغيران جدا ؟ »

فقلت :

– « انه قانص شَمّوَه ** انهم يعلقون هذه الاقراط في اذانهم لاعتقادهم انها تجعل سمعهم مرهفا . »

– « فعلا ؟ انا أصدق ذلك . انا اعتقد انهم يعلقونها لكي يظهروا انهم قنّاص شموة . هل توجد شموات على مقربة من هذا المكان ؟ »

– « نعم ، وراء ال « دانت دو جامان . »

– « لقد كان من الممتع ان نرى ذلك الثعلب . »

– « انه جين ينام يلف ذيله ذاك حوله التماسا للدفء . »

– « لا ريب في انه يستشعر عند ذاك احساسا لطيفا . »

– « لقد تمنيت دائما ان يكون لي ذيل كذيله . تخيلي لو كان لنا اذناب كالذئاب ، ألا تجدين ذلك ممتعا ؟ »

– « ولكن هذا خليق بأن يجعل ملابسنا اكثر تعقيدا واشد عسرا . »

– « في استطاعتنا ان نرتدي ملابسَ فُصّلت خصيصا لهذا الغرض ، او ان نحيا في بلاد لا تعلق كبير أهمية على هذه الامور . »

– « نحن نحيا في بلد لا أهمية فيه لشيء . أليس من الرائع اننا لا نرى احدا على الاطلاق ؟ انت لا تريد ان تقع عينك على احد من الناس ، أليس كذلك ، أيها الحبيب ؟ »

---

* جمع خطم وهو مقدم انف الدابة وفمها .

** chamois جنس من الانعام شبيه بالماعز يتخذ منه جلد الشموة المشهور .

– « لا • لست أريد • »

– « ما رأيك في القعود هنا دقيقة واحدة ؟ انا متعبة بعض الشيء • »

وجلسنا شبه متلاصقين على جذوع الاشجار اليابسة • وأمامنا ، كانت الطريق تمتد تائهة وسط الغابة •

– « ان الطفلة الصغيرة المدللة لن تفصل ما بيننا ، أليس كذلك ؟ »

– « لا • لن ندعها تفصل ما بيننا • »

– « وحالتنا المالية ، كيف هي ؟ »

– « ان لدينا مالا كثيرا • لقد قبلت اخر حوالة من حوالاتي • »

– « ألن تحاول اسرتك ان تستردك حين تعرف انك الان في سويسرة ؟ »

– « ربما •• سوف اكتب اليهم شيئا • »

– « ألم تبعث اليهم بأية كلمة حتى الان ؟ »

– « لا • لقد طلبت منهم الحوالة فقط • »

– « أحمدُ الله على اني لست جزءا من اسرتك • »

– « سوف ابعث اليهم ببرقية • »

– « ألست تستشعر عاطفة ما نحوهم ؟ »

– « بلى • ولكنا تشاجرنا كثيرا حتى لقد بليَت تلك العاطفة • »

– « يخيل الي اني سوف احب أسرتك • ولعلي ان احبها ، في أغلب الظن ، حبا عظيما • »

– « فلنقلع عن الحديث عن الاسرة • والا ساورني القلق عليها • »

قلت هذا ، ثم اضفت بعد برهة قصيرة :

– « فلنذهب اذا كنت قد استعدتِ نشاطكِ • »

– « لقد استعدتُ نشاطي • »

وهبطنا الطريق • كانت العتمة قد رانت ، وكان الثلج يَصِرّ تحت حذاءينا صريرا • وكان الليل جافا ، باردا ، وكانت السماء صافية جدا • وقالت كاثرين :

– « انا احب لحيتك • لقد أحسنت صنعا في ارسالها • انها تبدو صلبة جدا ، وضارية جدا ، ومع ذلك فهي ناعمة الى أبعد الحدود ، سائغة الى ابعد الحدود • »

– « أتحبينني هكذا اكثر من حبك لي وانا حليق ؟ »

– « اظن ذلك • انت تدري ، أيها الحبيب ، انني لن أقص شعري الا بعد

ان اضع كاثرين الصغيرة · انا ابدو الان ضخمة البطن وقورا اكثر مما ينبغي · اما بعد ولادتها ، حين استعيد رشاقتي ، فسوف أقصه ، وعندئذ أبدو في عينيك امرأة صغيرة جميلة · سوف نذهب معا ونقصه ، وقد اذهب وحدي ثم ارجع وافاجئك به مقصوصا · » ولم أقل شيئا ·

ـ « انت لن تمنعني من قصه ، أليس كذلك ؟ »

ـ « لا · يخيل الي انه سوف يكون رائعا · »

ـ « اوه ، ما اعظم لطفك · ولعلي ان ابدو جميلة ، أيها الحبيب ، وان اغدو رشيقة مثيرة لاعجابك ، فتقع في غرامي كرة أخرى · »

فقلت : « يا للجحيم ! انا احبك الان حبا عظيما · ما الذي تريدين ان تفعليه ؟ أتريدين ان تهلكيني ؟ »

ـ « اجل ، انا اريد ان اهلكك · »

فقلت : « حسن · هذا ما اريده انا ايضا · »

الفصل الاربعون

لقد عشنا حياة رائعة ٠ فقد قضينا هناك شهري كانـون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) ، وكان الشتاء رائعا جدا ، وكنا نحن سعيدين جـدا ٠ كان الجليد يذوب بعض الشيء كلما هبّت الريح الحارة ، وكان الثلج يرقّ ويلين ، ويبدو الهواء وكأنه هواء الربيع ، ولكن البرد القارس كان يعود في كل مرة ، وفصل الشتاء كان يتجدد في كل حين ٠ وفي شهر اذار (مارس) عرفنا اول ثغرة في ذلك الشتاء ٠ وذات ليلة ، بدأ المطر يهطل ٠ لقد هطـل طوال الصباح ، فأحال الثلج الى وحل ، وجعل سفح الجبال موحشا كئيبا ٠ كانت السحب تعلو البحيرة والوادي ، وكان الغيث يجـود قمة الجبـل ٠ ولبست كاثرين جرموقاً * ثقيلا ، ولبست انا « جزمـة » مستر غوتنجـن المطاطية ، ومشينا الى المحطة مستعينين باحدى المظلات ، عبر الثلج الذائب والمياه الجارية التي كانت تجرف جليد الطرق ٠ ثم اننا وقفنـا عنـد النزُل لكي نحتسي كأسا من الفيرموت قبل الغداء ٠ كان في ميسورنا ان نسمـع المطر يهطل في الخارج ٠

ـ « ألا تعتقدين ان علينا ان ننتقل الى المدينة ؟ »

فقالت كاثرين :

ـ « ما رأيك انت ؟ »

ـ « اذا انحسر الشتاء واستمر المطر في التهطال فلن تكون الاقامة هنـا ممتعة جدا ٠ متى ستبصر كاثرين الصغيرة النور ؟ »

ـ « بعد شهر تقريبا ٠ وربما أكثر قليلا ٠ »

ـ « في امكاننا ان نهبط الى مونترو ونسكن فيها ٠ »

---

* الجرموق ما يلبس فوق الحذاء ٠ وقد استعملناه مقابل overshoes

– « لمَ لا نذهب الى لوزان ؟ ان المستشفى هو في تلك المدينة • »

– « حسن • ولكني اعتقدتُ ان لوزان ربما كانت مدينة كبيرة اكثر مما ينبغي • »

– « في استطاعتنا ان ننعم في المدينة بمثل التوحد الذي ننعم به هنا • ولا بد ان نستسيغ العيش في لوزان • »

– « ومتى سنذهب ؟ »

– « لا فرق عندي • عندما تشاء أيها الحبيب • لست راغبة في مغادرة هذا المكان اذا كنت انت غير راغب في ذلك • »

– « فلننتظر لنرى عن أي شيء ستتكشف الاحوال الجوية • »

وأمطرت السماء طوال ايام ثلاثة • كان الثلج كله قد ذاب ، الان ، على سفح الجبل ، تحت المحطة • وكانت الطريق تغصُّ بسيل من ذائب الثلج الموحل • وكانت الارض ندية اكثر مما ينبغي ، قذرة اكثر مما ينبغي ، فلم يكن في ميسورنا ان نخرج • وصباح ثالث الايام المطيرة قررنا ان نهبط الى المدينة •

فقال غوتنجن :

– « حسن جداً ، يا مستر هنري • لستَ في حاجة الى ان تُخْطرني قبل الرحيل • فما كنتُ لاعتقدُ انكما سوف تبقيان هنا بعد ان ساءت الاحوال الجوية • »

فقلت :

– « يجب ان نكون على مقربة من المستشفى على أية حال ، بسبب من السيدة • »

فقال :

– « ادري • هل لكما ان ترجعا في يوم من الايام وتنزلا عندنا مع المولود الصغير ؟ »

– « اجل ، اذا كان لديك متسع • »

– « في استطاعتكم ان تجيئوا في الربيع ، حين يعتدل الجو ، وتستمتعوا بأيامه الحلوة • ولسوف يكون في ميسورنا ان ننزل المولود الصغير والممرضة في الغرفة الكبيرة الموصدة الان ، وان ننزلكما انت والسيدة في غرفتكما هذه نفسها المشرفة على البحيرة • »

فقلت :

ـ « سوف اكتب اليك حول مسألة العودة . »

وحزمنا امتعتنا ، وامتطينا متن القطار الهابط بعد ان تناولنا طعام الغداء . ورافقـنا مستر ومسز غوتنجن الى المحطة . وانزل مستر غوتنجن امتعتنا على ظهر زلاّقة انطلقت وسط الثلج الذائب . ثم انهما وقفا قرب المحطة ، تحت وابل المطر . ولوّحا لنا بيديهما مودّعيْن .

وقالت كاثرين :

ـ « لقد كانا ظريفين جدا . »

ـ « اجل ، لقد كانا لطيفين معنا . »

وركبنا القطار من مونترو الى لوزان . وأطللنا من النافذة في اتجاه المنزل الـذي كنا نسكنه ، ولكننا لم نستطع ان نـرى الجبال بسبب من السحـب الكثيفة . وتوقف القطار عند « فيفي » ، ثم تابع انطلاقه ، بين البحيرة من جانب ، والحقول النديّة السمراء والغابات الجرداء والبيوت النديـــة مـن جانب اخر . حتى اذا بلغنا لوزان قصـــدْنا الى فنـــدق ليس بالكبير ولا بالصغير . كان المطر لا يزال يهطل فيما نحن نجتاز الشـوارع بعربتنـا ، وندخل باب الفندق الخاص بالعربات . وبدا البواب ، وقد تدلت مفاتيحـه النحاسية من ثنايا سترته العليـا ، وبدا المصعد ، والسجاد الممدود على ارض الفنـدق ، واحواض الغسل البيضاء ذات الحنفيات اللماعـــة ، والسريـــر النحاسي ، وحجرة النوم الواسعة المريحة ـ بدا ذلك كله ترفا مغالى فيه بعد اقامتنا في منزل مستر ومسز غوتنجن . كانت نوافذ الغرفة تطل على جنينة ندية ، يحيط بها سور في أعلاه سياج حديدي . وعَبْر الشارع المنحـــدر انحدارا حادا ، كان فندق اخر يحيط به سور مماثل وجنينة . وأطللت لارى المطر يهطل على نافورة الجنينة .

واضاءت كاثرين الاضواء كلها ، وشرعت تخرج الامتعة من حقائبـــها . وطلبتُ كأسا من الويسكي والصودا ، واستلقيت على السرير ، وأنشـأت أقرأ الصحف التي كنت قد اشتريتها في محطة القطار . كان ذلـك في اذار (مارس) عام ١٩١٨ ، وكان الهجوم الالماني قد بدأ في فرنسة . واحتسيت الويسكي والصودا ، وقرأت فيما كانت كاثرين تفرغ الحقائب وتطوّف في الحجرة .

وقالت :

ـ « انت تدري ما الذي يتعيّن علي ان أعيدهُ . »

ـ « ما هو ؟ »

ـ « ثياب الطفل . فمعظم النساء لا يجتزن من مراحل الحمل ما اجتزته انا من غير ان يُعْدِدْنَ ملابس الطفل . »

ـ « في استطاعتك ان تشتريها . »

ـ « ادري . ذلك ما سوف افعله غدا . سوف اسأل أي الملابس يتعيَّن علي شراؤه . »

ـ « ولكن هذا شيء ينبغي ان تعرفيه . لقد كنتِ ممرضة . »

ـ « ولكن عدد الجنود الذين رُزقوا اولادا في المستشفيات قليل الى ابعد الحدود ! »

ـ « اما انا فسوف ارزق طفلا . »

ورمتني بالوسادة ، فسفحت الويسكي والصودا على الارض . وقالت :

ـ « سوف اطلب لك كأسا اخرى . انا آسفة لسفحي اياها على الارض . »

ـ « لم يكن فيها بقية تستحق الذكر . تعالي واستريحي قليلا . »

ـ « لا . ينبغي ان اسعى لجعل هذه الغرفة تبدو شبيهة بشيء ما . »

ـ « شبيهة بماذا ؟ »

ـ « شبيهة ببيتنا . »

ـ « أنشُري رايات الحلفاء . »

ـ « اوه ، اخرَسْ ! »

ـ « قوليها مرة ثانية . »

ـ « اخرس ! »

ـ « انتِ تقولينها في كثير من الحذر ، وكأنك تخافين ان تسيئي الى أحد . »

ـ « لا . »

ـ « اذن ، تعالي واستريحي قليلا . »

ـ « حسن . »

واقبلَتْ وقعدت على السرير . ثم اضافت :

ـ « انا اعلم انك لم تعد تستلطفني كثيرا ، أيها الحبيب . اني أشبه ما أكون بكيس طحين ضخم . »

ـ « لا ، لستِ كذلك . انتِ جميلة ولطيفة . »

ـ « انا شيء فظ جدا قُدِّرلك ان تتزوجه . »

ـ « لا ، على الاطلاق . ان الايام لا تزيدكِ الا جمالا . »

ـ « ولكني سوف استعيد رشاقتي ، أيها الحبيب • »
ـ « انتِ رشيقة الان • »
ـ « لقد اسرفتَ في الشراب • »
ـ « انا لم اشرب غير كأس من الويسكي والصودا • »
فقالت :
ـ « هناك كأس اخرى في الطريق • وبعد ذلك ، فهل تطلب اليهم ان يُحضروا العشاء الى هنا ؟ »
ـ « هذه فكرة جيدة • »
ـ « واذن ، فنحن لن نخرج الى مكان ما ، أليس كذلك ؟ اننا سوف نبقى في الفندق هذه الليلة • »
فقلت : « سوف نبقى ، ونلعب • »
فقالت كاثرين :
ـ « سوف اشرب قليلا من الخمر • ان ذلك لن يؤذيني • ولعل في استطاعتنا ان نفوز بشيء من شرابنا القديم ، شراب الكابري الابيض • »
فقلت : « من غير ريب • ان فندقا في مثل هذه الضخامة لا يمكن ان يخلو من الخمور الايطالية • »
وقرع النادل الباب • لقد جاء بالويسكي في كأس حافلة بالثلج • وكانت على الصينية ، الى جانب الكأس ، زجاجة صودا صغيرة •
وقلت : « شكرا • ضعها هناك • هل لك ان تأتينا الى هنا بعشاء لشخصين ، وبزجاجتين مثلوجتين من خمر كابري البيضاء غير الحلوة ؟ »
ـ « هل ترغبان في ان تستهلاّ طعامكما بالحساء ؟ »
ـ « هل تريدين حساء ، يا كات ؟ »
ـ « اذا سمحت • »
ـ « ايتِ بطبق حساء لشخص واحد • »
ـ « شكرا ، يا سيدي • »
قال ذلك ، وخرج موصدا الباب خلفه • ورجعتُ انا الى الصحف ، والى انباء الحرب في الصحف ، وصببْتُ الصودا ، في تؤدة ، فوق الثلج السابح في الويسكي • كان ينبغي ان أقول له ان لا يضع الثلج في الويسكي ، ان يجيء بالثلج على حدة • فبهذه الطريقة يستطيع المرء ان يعرف مقدار الويسكي في الكأس ، ويكون في نجوة من امكانية تخفيفها اكثر مما ينبغي ـ وعلى نحو مفاجئ ـ بالصودا • سوف اشتري في المرة القادمة زجاجة من الويسكي ،

وأسألهم ان يحملوا الي شيئا من الثلج والصودا! · تلك هي الطريقة الفضلى· ان الويسكي الجيدة سائغة جدا ، انها متعة من متع الحياة ·

ـ في أي شيء تفكر ، ايها الحبيب ؟ »

ـ « في الويسكي · »

ـ « وفي أية ناحية من نواحيها ؟ »

ـ « في مقدار ما تنطوي عليه من لذة · »

ولوَتْ كاثرين وجهها في سُخر ، وقالت :

ـ « حسن جدا · »

* * *

ولبثنا ثلاثة أسابيع في ذلك الفندق · وكانت اياما لا بأس بها · كانت حجرة الطعام فارغة ، عادة، وكنا نتناول طعام العشاء في غرفتنا ، في كثير من الاحيان · كنا نتمشَّى الى المدينة ونمتطي متن القطار المسنَّن هابطين الى اوتشي حيث نتنزه على ضفة البحيرة · وكان الجو قد امسى دافئا جدا ، فهو اشبه ما يكون بالربيع · وتمنينا لو رجعنا الى الجبال ، ولكن جو الربيع هذا لم يدم غير بضعة ايام ، عاد بعدها ذلك الجو الرطب البارد الذي يميِّز الشتاء المحتَضر ·

واشترت كاثرين من اسواق المدينة ما كانت في حاجة اليه من ملابس الطفل · ومضيت انا الى معهد من معاهد الرياضة البدنية لكي اتمرَّن على الملاكمة · وكان من دأبي ان اذهب الى هناك صباحا ، بينما تكون كاثرين ما تزال في سريرها · ولقد كان من الجميل ، في ايام الربيع الزائف ذاك وبعد الملاكمة والابتراد بالدُشِّ ، ان تتمشى في الشوارع وتستروح الربيع في الهواء ، وتجلس في أحد المقاهي وتراقب الناس ، وتقرأ الصحيفة وتشرب كأسا من الفيرموت ، ثم ترجع الى الفندق وتتناول طعام الغداء مع كاثرين · وكان الاستاذ في معهد الرياضة البدنية ذا شاربين ، وكان دقيقا جدا ، وعصبيا جدا ، وكان يفقد صوابه اذا ما بدأت بعده · ولكن الساعات التي قضيتها في معهد الرياضة كانت ممتعة · كان ثمة هواء نقي وضياء موفور ، ولقد بذلتُ جهدا كبيرا : لقد قفزتُ فوق الحبل ، ولاكمتُ ظلِّي في المرآة ، وقمت ببعض تمرينات البطن وانا مستلق على ارض المعهد في رقعة من أشعة الشمس المتسربة من خلال النافذة المفتوحة ، وبين الفينة والفينة كنتُ أروِّع الاستاذ اثناء تلاكُمنا · ولم يكن في ميسوري ، بادىء الامر ، ان الاكم ظلي امام المرآة الطويلة الضيقة اذ بدا لي ان من أغرب الغريب ان يرى المرء رجلا

ذا لحية يتمرن على الملاكمة • ولكني وجدت اخر الامر ان ذلك شيء مضحك • لقد رغبتُ في حلق لحيتي حالما بدأتُ دروس الملاكمة تلك ، ولكن كاثرين ابت عليّ ذلك •

وفي بعض الاحيان كنت امتطي انا وكاثرين متن احدى العربات وننطلق الى الريف • كانت هذه النزهات جميلة في الايام الصاحية ، وكان ثمة موطنان صالحان اعتدنا ان نقصد اليهما لتناول الطعام • كانت كاثرين عاجزة الان عن السير مسافات بعيدة ، وكنت احب ان اركب العربة معها لنطوف في طريق الريف • وكنا نعلم ان ساعة الميلاد امست الان قريبة جدا ، وكان ذلك يوقع في نفس كل منا ان علينا ان نتعجل الاشياء ، وان من واجبنا ان لا نضيع لحظة من لحظات التلاقي •

الفصل الحادي والاربعون

ذات صباح ، افقتُ حوالي الساعة الثالثة وقد سمعت كاثرين تتخرك في السرير .

ــ « هل تشعرين بشيء ، يا كات ؟ »

ــ « اني احس ببعض آلام الولادة ، أيها الحبيب . »

ــ« على نحو موصول ؟ »

ــ « لا . ليس على نحو موصول جدا . »

ــ « اذا كنت تحسِّين بذلك في غير انقطاع فعندئذ يتعين علينا ان نذهب الى المستشفى . »

وغلبني النعاس فاستسلمت للرقاد . وبعد برهة قصيرة استيقظت من جديد .

وقالت كاثرين :

ــ « لعل من الخير لي ان استدعي الطبيب . انا احسب ان المخاض قد جاء . »

ومضيت الى التلفون ، واستدعيت الطبيب .

وسألها :

ــ « ما الفترة التي تفصل ما بين كل طَلْقة وطلقة ؟ »

ــ « ما المدة التي تفصل ما بين كل فترة من فترات الالم ، يا كات ؟ »

ــ « يخيل الي ان الطَلْق ينتابني مرة كل ربع ساعة . »

فقال الطبيب :

ــ « يجب ان تذهبي الى المستشفى . سوف ارتدي ملابسي واذهب بنفسي الى هناك ، في الحال . »

ورفعتُ سماعة التلفون ، لاطلب الى المرأب القريب من المحطة ان يبعث

الي بسيارة اجرة • ولم يجب أحد باديء الامر • وانقضت فترة غير قصيرة ، واخيرا ردّ علي رجل ما ، ووعدني بان يوجه الي سيارة اجرة في الحال • كانت كاثرين ترتدي ملابسها • وكانت حقيبتها ملأى بكل ما ستحتاج اليه في المستشفى وبملابس المولود • وفي الرواق قرعتُ الجرس التماسا للمصعد • بيد اني لم الق جوابا • وهبطت درجات السلم • لم يكن في الدور السفلي غير الحارس الليلي • وارتقيت بالمصعد منفردا ، ووضعت حقيبة كاثرين فيه • وولجتهُ كاثرين ، وهبطنا الى الدور السفلي • وفتح الحارس الليلي لنا الباب • وجلسنا على قطع الحجارة العريضة المستوية المجاورة للسلّم المؤدية الى المجاز الخاص بالسيارات ، وانتظرنا سيارة الاجرة • كانت السماء صافية الاديم ، وكانت النجوم تتلألأ في ارجائها • وكانت كاثرين متوفزة الاعصاب الى حد بعيد •

وقالت :

ـ « انا سعيدة جدا بمجيء المخاض • فما هي الا فترة يسيرة حتى ينتهي كل شيء • »

ـ « انك فتاة طيبة شجاعة • »

ـ « لستُ خائفة • ومع ذلك فأتمنى لو اقبلتِ السيارة • »

وسمعناها تصعّد في الشارع ، ورأينا اضواءها الامامية • وانعطفتْ نحو المجاز الخاص بالسيارات ، وساعدتُ كاثرين على امتطاء متنها ، ووضع السائق الحقيبة الى جانبه •

وقلت :

ـ « انطلقْ بنا الى المستشفى • »

وفارقنا مجاز السيارات ، وشرعت السيارة الصغيرة تصعّد في الهضبة • ودخلنا الى المستشفى ، وحملتُ انا الحقيبة • كانت تجلس الى المكتب أمرأة دوّنت اسم كاثرين ، وعمرها ، وعنوانها ، واسماء انسبائها ، ودينها ، في سجلّ خاص • لقد قالت انها لا دين لها ، فرسمت المرأة خطا في الفراغ الذي يلي تلك الكلمة • وكانت كاثرين قد قالت للمرأة ان اسمها كاثرين هنري •

وقالت المرأة :

ـ « سوف اقودك الى غرفتكِ • »

وركبنا مصعدا • ثم ان المرأة اوقفته ، فغادرناه ، وتبعناها وهي تتقدمنا في الرواق • وضغطت كاثرين على ذراعي في احكام •

ـ « هذه هي الغرفة • هل لكِ ان تنتزعي ملابسكِ وتأوى الى السرير ؟ دونك هذه المنامة فارتديها • »

فقالت كاثرين : « عندي منامة • »

فقالت المرأة : « من الافضل لك ان تلبسي هذه المنامة • »

وغادرتُ الغرفة ، وجلست على كرسيٍ في الرواق •

وبعد لحظة ، قالت لي المرأة من على عتبة الباب :

ـ « في استطاعتك الان ان تدخل • »

كانت كاثرين مستلقية في السرير الضيق ، وقد ارتَدتْ منامة بسيطة ذات طوق مربَّع يكشف عن اعلى الصدر ، منامة بدا وكأنها قد فُصِّلت من قماش غليظ • وابتسمتْ لي •

وقالت : « اني اقاسي الان آلاما عظيمة • »

كانت المرأة ممسكة بمعصمها تقيس قوة الطَّلْق بواسطة ساعة في يدها •

وقالت كاثرين :

ـ « كانت هذه طلقة قوية • »

لقد رأيت أثرَ ذلك على وجهها •

سألتُ المرأة :

ـ « أين الطبيب ؟ »

ـ « انه نائم في الدور السفلي • ولسوف يقبل الى هنـا عندمـا تمسّ الحاجة اليه • »

وقالت المرأة :

ـ « يتعيَّن عليّ ان اقوم بعمل ما للسيدة • هل لك ان تغادر الغرفة كرة اخرى ؟ »

وخرجتُ الى الرواق • كان رواقا عاريا تتخلَّله نافذتان اثنتان ، وتنهض على مداه كله أبواب موصدة • كان عبق المستشفيات يفوح منه • وجلستُ على الكرسي ، واطرقت برأسي الى الارض ، وصلَّيت من اجل كاثرين •

وقالت الممرضة :

ـ « في امكانك ان تدخل • »

ودخلتُ • وقالت كاثرين :

ـ « هالو ، أيها الحبيب ! »

ـ « كيف حالك ؟ »

ـ « الطلقات تتعاقب في غير انقطاع تقريبا • »

وتقلّص وجهها . ثم ابتسمت .

ـ « لقد كانت هذه طلقة حقيقية . هل لكِ ان تضعي يدك على ظهري ، كرة اخرى ، أيتها المرضة ؟ »

فقالت المرضة :

ـ « اذا كان هذا يساعدك . »

فقالت كاثرين :

ـ « اذهبْ من هنا ، أيها الحبيب . اذهب وكُل شيئا ما . المرضة تقول ان هذا قد يستمرّ فترة طويلة . »

وقالت المرضة :

ـ « ان الولادة الاولى تستغرق ، في العادة ، مدة طويلة . »

وأضافت كاثرين :

ـ « ارجوك ان تخرج وتأكل شيئا ما . انا في حال جيدة فعلا . »

فقلت :

ـ « سوف أبقى هنا برهة قصيرة . »

وتعاقب الطلق في اطّراد ، ثم هدأ بعض الشيء . كانت كاثرين متوترة الاعصاب الى حد بعيد . وكانت كلما ألمّ بها طلق قويّ قالت : لقد كانت هذه طلقة جيدة . وكانت كلما خمَدَ الطلق اغتمّت وخجلت .

وقالت كاثرين :

ـ « اخرج ، أيها الحبيب . يخيّل الي ان وجودك يورثني خجلا شديدا . » وتقلّص وجهها . « ها ! لقد كانت هذه أفضل . ما اشدّ رغبتي في ان اكون زوجة صالحة وفي ان أنجب هذا المولود من غير ما حماقة . ارجو ان تذهب أيها الحبيب ، وتتناول الفطور ، وبعد ذلك عُدْ الي انا لن افتقـدك . ان المرضة تُعنى بي عناية فائقة . »

وقالت المرضة :

ـ « في ميسورك ان تتناول طعام الصباح في تؤدة . ان لديك متسعا من الوقت . »

فقلت :

ـ « سوف اذهب اذن . الى اللقاء ، يا حبيبتي ! »

فقالت كاثرين :

ـ « الى اللقاء . وتناولْ عني فطورا شهيا ايضا . »

وسألت المرضة :

ـ « اين استطيع ان أتناول طعام الصباح ؟ »

فقالت :

ـ « هناك ، عند أقصى الشارع ، مقهى قائم في الساحة العامة . ولا ريب في انه قد فتح ابوابه الان . »

كان الضحى قد ارتفع . فهبطتُ الشارع المقفر ، متجها نحو المقهى . كان ثمة ضياء ينبعث من النافذة . ودخلت المقهى ، ووقفتُ أمام المشرب المصنوع من الزنك ، فقدَّم الي رجل عجوز كأسا من الخمر البيضاء وقطعة من « البريوش » ※ . وكانت قطعة « البريوش » قد خُبِزت امس . وغمستُها في الخمر ، ثم شربت فنجانا من القهوة .

وسألني العجوز :

ـ « ما الذي تفعله في هذه الساعة ؟ »

ـ « ان زوجتي على وشك ان تلد في المستشفى . »

ـ « هكذا اذن . أتمنى لك حظا سعيدا . »

ـ « أعطني كأسا أخرى من الخمر . »

وصبَّ الخمر من الزجاجة ، مُميلا اياها بعض الشيء حتى لقد جرى بعض الخمر على الزنك .واحتسيت هذه الكأس ، ودفعتُ ، وغادرت المقهى . وفي الخارج ، وعلى طول الشارع ، كانت صفائح القاذورات تنتظر عامل التنظيفات عند ابواب البيوت . وكان كلب يستروح واحدة من تلك الصفائح .

وسألتهُ :

ـ « ماذا تريد ؟ »

ونظرتُ الى الصفيحة لارى ما اذا كان ثمة شيء أستطيع ان اخرجه له . لم يكن في أعلى الصفيحة غير رواسب القهوة ، والرماد ، وبعض الازهار الذاوية .

وقلت :

ـ « لا يوجد شيء أيها الكلب . »

واجتاز الكلب الشارع . وارتقيت انا سلّم المستشفى الى الدور الذى كانت كاثرين فيه ، واجتزتُ الرواق الى حجرتها . وقرعتُ الباب . لم يكن ثمة جواب . وفتحتُ الباب . كانت الحجرة فارغة ، الا من حقيبة كاثرين مرفوعة على كرسي ، ومبذلها ※※ متدليا من مسمار على الجدار . وخرجتُ

※ نوع من الحلوى مصنوع بالدقيق والسمن والبيض .

※※ المبذل : الروب دو شامبر .

واندفعت في الرواق باحثا عن شخص ما • ووجدتُ ممرضة •
ـ « أين مدام هنري ؟ »
ـ « منذ لحظة أُدْخِلَتْ سيدة الى حجرة التوليد • »
ـ « أين هي ؟ »
ـ « أقودك اليها • »
وقادتني الى أقصى الرواق • كان باب الغرفة مفتوحا على نحو جزئي • وكان في امكاني ان ارى كاثرين مستلقية على مائدة ، يعلوها غطاء أبيض • كانت الممرضة واقفة عند جانب من جانبي المائدة ، وكان الطبيب واقفا عند الجانب الاخر على مقربة من بعض الادوات الاسطوانية ، وقد حمل في يده قناعا مطاطيا متصلا بأحد الانابيب •
وقالت الممرضة : « سوف اعطيك رداء ، وعندئذ يصبح في امكانك ان تدخل • تعال الى هنا ، ارجوك • »
وألبستني رداء أبيض ، وأحكمت شدَّه عند مؤخر عنقي بدبوس واقٍ •
وقالت : « في استطاعتك الان ان تدخل • »
ودخلت الى الغرفة •
وقالت كاثرين فيصوت مُجْهَد :
ـ « هالو ، أيها الحبيب ! انا لا احقق تقدما كبيرا • »
وسألني الطبيب : « أأنت مستر هنري ؟ »
ـ « نعم • كيف حالها ، أيها الطبيب ؟ »
فقال الطبيب : « كل شيء يجري على احسن ما يرام • لقد انتقلنا الى هنا ليسهل علينا اعطاؤها البنج في لحظات الطلق • »
وقالت كاثرين : « انا اريد ذلك الان • »
فوضع الطبيب القناع المطاطي على وجهها ، وادار قرصا وانشأ يراقب كاثرين وهي تتنفس تنفسا عميقا وسريعا • ثم انه نزع القناع عن وجهها ، وأغلق الحنفية •
ـ « لم تكن هذه الطلقة قوية جدا • لقد عانَيْتُ منذ فترة يسيرة طلقة قوية جدا • ولقد عملَ الطبيب على التخفيف من شدَّتها ، أليس كذلك يا دكتور ؟ »
كان صوتها غريبا • ولقد ارتفع عند لفظة « دكتور • »
وابتسم الطبيب •
وقالت كاثرين : « أعطني مقدارا اضافيا من البنج • »

وضغطت انقناع المطاطي على وجهها وأنشأت تلهث . لقد سمعتها تئن بعض الشيء . ثم انها ازاحت القناع جانبا وابتسمت .

وقالت : « لقد كانت هذه الطلقة قوية . لقد كانت قوية جدا . لا تقلق ، ايها الحبيب ! اذهب . اذهب وتناول فطورا جديدا . »

فقلت : سوف ابقى . »

***

كنا قد ذهبنا الى المستشفى حوالي الساعة الثالثة صباحا . وعند الظهيرة كانت كاثرين لا تزال في غرفة التوليد . كان الطلق قد وَهَنَ من جديد ، وكانت تبدو ، الان ، منهوكة القوى ، ولكنها كانت لا تزال مبتهجة الفؤاد . وقالت :

– « لقد اعجزني ذلك ، ايها الحبيب . انا آسفة جدا . لقد حسبتُ انـي سأنجزه في سهولة بالغة . والان ، ها قد بدأ الطلق من جديد ... »

وبسطت يدها التماسا للقناع ، ووضعته على وجهها . وادار الطبيب القرص وراقبها . وما هي الا لحظة حتى انحسر الطلق .

وقالت كاثرين :

– « انها لم تكن قوية . »

وابتسَمتْ ثم أضافت :

– « انا متيَّمة بالبنج . انه رائع . »

فقلت :

– « سوف نزوّد بيتنا بشيء منه . »

فسارعت كاثرين الى القول :

– « **لقد عاد الطلق** ... »

وادار الطبيب القرص ، ونظر الى ساعته .

وسألتُه :

– « ما هي الفترة الفاصلة الان ؟ »

– « حوالي دقيقة . »

– « الا تريد ان تتناول طعام الغداء ؟ »

فقال :

– « سوف اتبلّغ بشيء عمّا قريب . »

وقالت كاثرين :

– « ينبغي ان تأكل شيئا ، يا دكتور . انا آسفة لاستمرار ذلك حتى

الان • اليس في استطاعة زوجي ان يعطيني البنج ؟ »
فقال الطبيب :
ـ « اذا شئتِ • ليس عليك الا ان تدير القرص الى رقم اثنين • »
فقلت :
ـ « فهمت • »
لقد كان على القرص ابرة تدار بمقبض •
وقالت كاثرين :
ـ « **أريد البنج الان** • »
واحكمتُ وضع القناع على وجهها • وادرتُ القرص الى رقم اثنين ، وحين أزاحت كاثرين القناع اوقفتُ مجرى البنج بان اعدت القرص الى وضعه السابق • لقد كان الطبيب لطيفا جدا حين اجاز لي ان اقوم بعمل ما •
وسألتني كاثرين :
ـ « أأنت الذي قمتَ بذلك ، ايها الحبيب ؟ »
قالت ذلك وأمرّت يدها على معصمي ملاطفةً •
فأجبتها :
ـ « من غير ريب • »
ـ « ما اشد لطفك • »

كانت ثملةً بعض الشيء بسبب من البنج •
فقال الطبيب :
ـ « سوف اتناول طعامي من على صينية في الغرفة المجاورة • في استطاعتك ان تستدعيني في كل لحظة • »
وفيما كان الوقت ينقضي ، راقبتُه وهو يأكل ، ثم رأيت بعد فترة قصيرة انه قد استلقى على ظهره وراح يدخن سيجارة • كانت كاثرين قد امست في حال من التعب شديدة •
وتساءلَتْ :
ـ « هل تعتقد اني سأكحل عينيَّ برؤية هذا الطفل في يوم من الايام ؟ »
ـ « أجل ، من غير ريب • »
ـ « انا ابذل غاية جهدي • انا احاول ان انزله ، ولكن محاولاتي كلها تذهب ادراج الرياح • **ها قد أقبل الطلق • اعطني البنج** • »
وعند الساعة الثانية غادرت المستشفى وتناولت طعام الغداء• كان في المقهى عدد قليل من الناس وامامهم فناجين القهوة وكؤوس ماء الكرز او كؤوس ال

« مارك » . وجلست الى احدى الموائد ، وسألت النادل :

- « هل استطيع ان اتناول طعاما ما ؟ »

- « لقد فات اوان الغداء . »

- « ألا تقدّمون ايما شيء في غير المواعيد المحدّدة ؟ »

- « في استطاعتك ان تتناول « الشوكروت » .

- « اعطني شيئا من الشوكروت والجعة . »

- « وكيف تريد الجعة ؟ »

- « هاتها جعةً خفيفة ، غير قوية . »

وجاءني النادل بطبق من الكرنب المخمّر وقد علّته شريحة من لحم الخنزير ودفنت في جوفه قطعة من النقانق . والتهمت الطبق ، وشربتُ الجعة . فقد كنت جائعا جدا . وراقبت الناس الجالسين الى موائد المقهى . كانت اوراق اللعب منثورة على احدى الموائد . وعند المائدة المحاذية لي ، كان رجلان يتحدثان ويدخنان . كان المقهى غاصا بالدخان . وكان خلف المشرب التوتيائي ، الذي وفدتُ عليه من قبل لتناول طعام الصباح ، ثلاثة رجال الان : الرجل العجوز ، وامرأة بدينة ذات ثوب اسود جالسة الى منضدة تراقب كل ما يقدّم الى الزبائن ، وغلام يرتدي مئزرا . وتساءلت في ما بيني وبين نفسي كم ولدا كان لهذه المرأة وكيف وُفّقت الى ذلك .

وحين اتيت على طبق الشوكروت انقلبتُ الى المستشفى . كان الشارع نظيفا جدا الان . ولم يكن ثمة صفائح قاذورات على ابواب البيوت . كان النهار غائما ، ولكن الشمس كانت تحاول ان تبرز من وراء السحب . وامتطيت المصعد ، ثم غادرته واجتزت الرواق الى غرفة كاثرين حيث كنت قد تركت ردائي الابيض . وارتديت هذا الرداء واحكمت شدّه عند مؤخر العنق . ونظرت في المرآة ، فرأيت نفسي اشبه شيء بطبيب دجال ذي لحية . ثم اني اتخذت سبيلي في الرواق ، الى حجرة التوليد . كان الباب موصدا ، فقرَعْتُه . ولم يُجبني احد ، فأدرت مقبض الباب ودخلت . كان الطبيب جالسا على مقربة من كاثرين . وكانت الممرضة تعمل شيئا ما في الطرف الاخر من الغرفة .

وقال الطبيب : « هوذا زوجك . »

فقالت كاثرين في صوت غريب جدا :

- « اوه ، ايها الحبيب ، ان طبيبي هذا رائع الى ابعد الحدود . لقد قصّ عليَّ حكاية ليس ابدع منها ولا اجمل ، وحين تشتد علي وطأة الالم يسارع

الى انقاذي منه في الحال · انه رائع · انت رائع ايها الطبيب · »
فقلت :
ــ « انت نشوى · »
فقالت كاثرين :
ــ « ادري· ولكن ليس ينبغي لك ان تقول ذلك · »
وصمتت لحظة ثم اضافت :
ــ « **اعطني اياه · اعطني اياه !** »

وتشبّثت بالقناع ، وانشأت تتنفّس انفاسا قصيرة وعميقة ، وهي تلهث مما جعل اداة التنفّس تطلق اصواتا دقيقة ، ثم انها ارسلت تنهّدة طويلة ، فبسط الطبيب يده اليسرى ورفع القناع عن وجهها ·

وقالت كاثرين :

ــ « لقد كانت هذه طلقة قوية جدا · » كان صوتها غريبا جدا · « انا لن اموت الان ، ايها الحبيب · لقد اجتزت المرحلة التي يموت فيها الانسان · لقد كنت على وشك ان اموت · ألستَ سعيدا ؟ »

ــ « حذار ان ترجعي الى تلك المرحلة مرة اخرى · »

ــ « لن ارجع · ومع ذلك فانا لست خائفة منها · اني لن اموت ، ايها الحبيب · »

فقال الطبيب : « انك لن ترتكبي مثل هذه الحماقة · انك لن تموتي وتتركي زوجك وحيدا · »

ــ « اوه ، لا · انا لن اموت · انا لا اريد ان اموت · من السخف ان يموت الانسان · ها قد اقبل الطلق · **اعطني اياه** · »

وبعد برهة قصيرة قال الطبيب :

ــ « ارجوك ان تخرج بضع لحظات ، يا مستر هنري ، ريثما اجري لها فحصا · »

فقالت كاثرين :

ــ « انه يريد معرفة مدى التقدم الذي احرزته · في استطاعتك ان ترجع بعد ذلك ، ايها الحبيب · أليس في استطاعته ان يفعل ، ايها الطبيب ؟ »

فقال الدكتور :

ــ « بلى · سوف اعلمه حالما يصبح في ميسوره ان يعود · »

وغادرت الحجرة ، واجتزت الرواق الى الغرفة التى كان من المتوقع ان تنقل كاثرين اليها بعد ان تضع جنينها · وارتميت على كرسي هناك وأجلت

بصري في الغرفة . وكنت احمل في جيبي الصحيفة التي اشتريتها عندما خرجت نتناول طعام الغداء ، فرحت اقرأها . كان الليل قد شرع يهبط ، فأضأت النور استعين به على القراءة . وبعد برهة يسيرة ، كففت عن القراءة ، واطفأت النور ، وراقبت الظلام وهو يحلولك في الخارج ، وتساءلت لماذا لم يستدعني الطبيب . لعله كان من الافضل ان اظل بعيدا . لعله اراد ان اظل بعيدا ، فترة قصيرة من الزمان . ونظرت الى ساعتي . وقلت في ذات نفسي : اذا لم يستدعني خلال عشر دقائق ذهبت على اية حال .

مسكينة ، مسكينة انت يا كاث الحبيبة ! لقد كان هذا هو الثمن الذي دفعته لليالينا السالفة . لقد كانت هذه هي نهاية الشرك . كان هذا هو ما يكسبه الناس من الغرام . شكرا لله على البنج ، على اية حال . تخيل ما الذي كان يحدث قبل اكتشاف المخدر ! فما ان بدأت آلام الوضع حتى برز المخدر الى الميدان . لقد عرفت كاثرين اياما ماتعة في فترة الحمل . ان تلك الفترة لم تكن رديئة . وكاثرين لم تكد تعاني فيها اية وعكة صحية . وهي لم تقاس شيئا من الانزعاج المروع الا في نهاية المطاف . وهكذا ادركتها الآلام اخر الامر . ان المرء اعجز من ان يتخلص من اي شيء . يتخلص ؟! يا للجحيم ! فالامر ما كان ليختلف مثقال ذرة ولو تزوجنا خمسين مرة . وماذا لو ماتت ! انها لن تموت . ان النساء لا يمتن بسبب من الولادة في هذه الايام . ذلك ما يعتقد به جميع الازواج . اجل ، ولكن ماذا لو ماتت ؟ انها لن تموت . كل ما في الامر انها تجتاز مرحلة صعبة . ان الولادة الاولى تكون عسيرة عادة . وبعد ذلك سنذكر كاثرين بالمرحلة الصعبة التي اجتازتها ، ولسوف تقول هي ان تلك المرحلة لم تكن بالغة الصعوبة . ولكن ماذا لو ماتت ؟ انها لا تستطيع ، اقول لك . لا تكن احمق . كل ما في الامر انها تجتاز مرحلة صعبة . كل ما في الامر ان الطبيعة تزعجها ازعاجا بالغا . ان الولادة الاولى تكون عسيرة في جميع الحالات تقريبا . اجل ، ولكن ماذا لو ماتت ؟ انها لا تستطيع ان تموت . ولكن ما الذى يجعلها تموت ؟ كل ما هنالك طفل ينبغي ان يولد ، طفل" هو حصيلة" ثانية" لليالينا الملاح في ميلانو . انه يزعج امه الان ، ثم يرى النور ، وبعد ذلك نعنى به ، وقد ننتهي بان نحبه حبا جما . ولكن ماذا لو ماتت ؟ انها لن تموت . ولكن ماذا لو ماتت ؟ انها لا تستطيع ان تموت . ولكن ماذا لو ماتت ؟ هاي ، ما رأيك في هذا ، ماذا لو ماتت ؟ »

ووفد الطبيب على الغرفة .

ـ « كيف حالها الان يا دكتور ؟ »

فقال : « على غير ما يرام • »

ـ « ماذا تعني ؟ »

ـ « انا اعني ما قلته تماما • لقد اجريت لها فحصا • »

وقدّم اليّ نتيجة الفحص في تفصيل ، ثم اضاف :

ـ « لقد تريّثت' لكي ارى ، ولكن الامور لا تجرى كما ينبغي • »

ـ « وبماذا تنصح ؟ »

ـ « هناك حلان : اما ان نلجأ الى توليدها بالكُلابة وهي وسيلة قد تمزّق اللحم وتعرّض الام للخطر • بالاضافة الى انها قد تؤذي الجنين • واما ان نلجأ الى العملية القيصرية • »

ـ « وما هي مخاطر العملية القيصرية ؟ وماذا لو ماتت ؟ »

ـ « ان مخاطرها لا يمكن ان تكون اعظم من مخاطر اي ولادة طبيعية • »

ـ « وهل ستجرى العملية بنفسك ؟ »

ـ « اجل • ولربما احتجت الى ساعة واحدة من اجل اعداد كـل شـيء ولدعوة المساعدين الذين احتاج اليهم • وقد يستغرق ذلك كله فترة اقصر • »

ـ « ما رأيك ؟ »

ـ « انا اؤثر اجراء العملية القيصرية • ولو كانت زوجتي لاجريت لها تلك العملية • »

ـ « وما هي عواقبها ؟! »

ـ أليس ثمة خطر من حدوث تلوثٍ ما ؟ »

ـ « أليس ثمة خطر من حدوث تلوثٍ ما ؟ »

ـ « ان خطر التلوث في هذه الحال اقلّ من خطره في حال اللجوء الـى سحب الجنين بالكلابة • »

ـ « وما قولك اذا تريّثت من غير ان تعمل شيئا ؟ »

ـ « يتعين علينا ان نفعل شيئا ما ، في آخر الامر • ان مسز هنرى قـد فقدت حتى الان كثيرا من قواها • وكلما اسرعنا في اجراء العملية الجراحية كان ذلك اسلم • »

فقلت :

ـ « أجرِ العملية بأسرع ما تستطيع • »

ـ « سوف اذهب واعطي التعليمات الضرورية • »

ودخلت' حجرة التوليد • كانت المرضة مع كاثرين المستلقية على المائدة ، وقد بدت ضخمة تحت الغطاء الابيض وامارات الشحوب والارهاق الشديدين

* الندبة : اثر الجرح اذا لـم يرتفع عن الجلد •

ظاهرة على وجهها ٠

وسألتني كاثرين :

ــ « هل قلت له ان في استطاعته اجراءها ؟ »

ــ « نعم ٠ »

ــ « أليس هذا عظيما ؟ ان المسألة كلها سوف تنتهي الان خلال ساعة واحدة ٠ لقد اشرفت على الهلاك ، ايها الحبيب ٠ ان جسمي يتهدم شيئا فشيئا ٠ **ارجو ان تعطيني ذلك البنج ٠ انه لم يَعُد يعمل ٠ أوه ، انه لم يعد يعمل ٠** »

ــ « خذي نفسا عميقا ٠ »

ــ « ذلك ما افعله ٠ أوه ، انه لم يعد يعمل ٠ انه لا يعمل ٠ »

فقلت للمرضة : « هات اسطوانة اخرى ٠ »

ــ « هي ذي اسطوانة جديدة ٠ »

وقالت كاثرين :

ــ « انا مجنونة حقا ، أيها الحبيب ٠ ولكنه لم يعد يعمل ٠ » وشرعت تبكي ٠ « اوه ، لقد اردت ان اضع هذا الطفل من غير ان ازعج احدا ، وها اني قد هلكت الان ، وتهدمتُ ، وهذا البنج لم يعد يعمل ٠ أوه أيها الحبيب ، انه لم يعد يعمل على الاطلاق ٠ انا لا ابالي بالموت شرط ان ينقضي هذا الالم ٠ اوه ، ارجوك ايها الحبيب ، ارجوك ان توقفه ٠ ٠ **ها قد اقبل الطلق ، اوه ! اوه ! اوه !** وتنفَّست وهي تنتحب تحت القناع ٠ انه لا يعمل ٠ انه لا يعمل ٠ لا تؤاخذني ، ايها الحبيب ٠ ارجوك ان لا تبكي ٠ لا تؤاخذني ٠ لقد خارت قواي ، هذا كل ما هنالك ٠ مسكين انت ايها الحبيب ٠ اني احبك حبا عظيما، ولسوف استعيد نشاطي من جديد ٠ اني سوف اوفّق هذه المرة ٠ **ألا يستطيعون ان يعطوني شيئا؟ اوه** ، ليتهم فقط يستطيعون ان يعطوني شيئا! »

ــ « سوف أجعله يعمل ٠ سوف افتحه الى النهاية ٠ »

وادرت القرص الى النهاية ٠ وفيما هي تتنفس تنفسا عميقا استرخت يدها على القناع ٠ وأغلقتُ الحنفية ، ورفعتُ القناع عن وجهها ٠ لقد بدت وكأنها عادت من مكان بعيد ٠

ــ « هذا رائع ايها الحبيب ، اوه ، انت رفيق" بي الى حد بعيد ٠ »

ــ « كوني شجاعة لاني لا استطيع ان افعل ذلك طوال الوقت ٠ انه قد يقضي عليك ٠ »

ــ « انا لم اعد شجاعة ، أيها الحبيب ٠ لقد تهدَّمت ٠ لقد هدَّموني ٠ انا

اعرف ذلك الان • »

— « ذلك ما يحدث لكل امرأة حين تضع ولدها • »

ولكنه شيء مروّع • انهم يتركونك تناضل حتى تتحطّم • »

— « سوف ينتهي ذلك كله في مدى ساعة ليس غير • »

— « أليس هذا جميلا ؟ ايها الحبيب ، انا لن اموت أليس كذلك ؟ »

— « لا • انا اؤكد لك انك لن تموتي • »

— « لاني لا اريد ان أموت وافارقك • ولكنني سئمت هذه الحال الى أبعد الحدود ، وانا استشعر اني سوف اموت • »

— « هراء • كل امرىء يستشعر ذلك • »

— « انا ادرك في بعض الاحيان اني سأموت • »

— « لا • لن تموتي • انت لا تستطيعين ان تموتي • »

— « ولكن ماذا لو قُدّر لي ان اموت ؟ »

— « لن ادعك تموتين • »

— « اعطني اياه في سرعة • اعطني اياه ! »

ثم اضاف بعد ذلك : « لن اموت • انا لن ادع نفسي اموت • »

— « طبعا لن تدعي نفسك تموتين • »

— « هل ستبقى معي ؟ »

— « لا لكي اراقب ذلك • »

— « لا • ولكن لكي تكون هناك الى جانبي ليس غير • »

— « طبعا • سوف اكون الى جانبك ابد الدهر • »

— « انت رفيق بي الى حدٍّ بعيد • ارجوك ، اعطني اياه ، اعطني مقدارا اضافيا • **انه لا يعمل !** »

وأدرت القرص الى رقم ثلاثة ثم الى رقم اربعة• وتمنّيت لو يعود الطبيب• فقد كنت خائفا من الارقام التي تتجاوز رقم اثنين •

* * *

واخيرا اقبل طبيب جديد ترافقه ممرضتان ، فرفعوا كاثرين ووضعوها على نقالة ذات عجلات ، ورحنا نجتاز الرواق • وكرّت النقالة في الرواق كرا سريعا ثم أدخِلت الى المصعد حيث كان على كل امرىء ان يلزم الجدار لكي يفسح لها مجالا • ثم ان المصعد ارتفع ، وفُتح الباب ، واخرِجت النقالة من المصعد واندفعت على عجلاتها المطاطية في الرواق ، حتى انتهت الى حجرة العمليات • ولم اتبيّن الطبيب وقد اعتمر قلنوسة وتقنّع بقناع • وكان ثمة

طبيب اخر وممرضات اخريات .
وقالت كاثرين :
ـ « **يجب ان يعطوني شيئا . يجب ان يعطوني شيئا .** اوه ، ارجوك ، يا دكتور ، أعطني مقدارا كافيا للتخفيف عني بعض الشيء ! »
ووضع احد الاطباء قناعا على وجهها ، ونظرتُ من خلال الباب ، فرأيت مدرّج غرفة العمليات الصغير الساطع .
وقالت احدى الممرضات لي :
ـ « في استطاعتك ان تذهب وتجلس على مقربة من الباب الاخر . »
كان ثمة درابزون خلفه مقاعد خشبية تشرف على المائدة والاضواء. ونظرت الى كاثرين . كان القناع على وجهها ، وكانت الان هادئة مطمئنة . وكروا النقالة الى امام. واستدرتُ وفزعتُ الى الرواق . كانت ممرضتان قد هرعتا الى مدخل الشرفة .
وقالت احداهما :
ـ « انها عملية قيصرية . انهم يجرون عملية قيصرية . »
فضحكت الاخرى وقالت :
ـ « لقد وصلنا في الوقت المناسب . السنا محظوظتين ؟ »
واجتازتا الباب الذي يؤدي الى الشرفة .
واقبلت ممرضة اخرى كانت تنطلق في سرعة ايضا .
وقالت :
ـ « ادخل من هناك . ادخل . »
ـ « لا . سوف ابقى في الخارج . »
وانطلقَتْ مسرعة . ورحتُ انا اذرع الرواق جيئة وذهوبا . وأطلَلْتُ من النافذة . كان الليل قد هبط ، ولكني استطعت ان ارى ـ بفضل النور المنبعث من النافذة ـ ان المطر كان يهطل . ودخلت احدى الغرف القائمة في اقصى الرواق ، ونظرت الى الرقع الملصقة على الزجاجات في أحد الصناديق الزجاجية . ثم اني خرجت ووقفت في الرواق الفارغ وراقبت باب حجرة العمليات .
وغادر الحجرة طبيب تتبعه ممرضة . كان يرفع بيديه الاثنتين شيئا بدا وكأنه ارنب سُلخ جلده منذ قريب ، واسرع يجتاز به الرواق ليدخل بعد ذلك غرفة اخرى . ومضيتُ الى الباب الذي اجتازه الطبيب ، فوجدتهم في الغرفة يفعلون شيئا ما لطفل ابصر النور منذ لحظات . ورفعه الطبيب لي حتى اراه .

لقد رفعه من عَقِبَيْه وصفعه .
ـ « هل هو بخير ؟ »
ـ « انه رائع . انه سيزن خمسة كيلوغرامات . »
ولم استشعر ايما عاطفة نحوه . لقد بدا وكأنه لا صلة له بي على الاطلاق.
ولم احس بمشاعر الابوة قط .
وسألتني الممرضة :
ـ « ألست فخورا بولدك ؟ »
كانوا يغسّلونه ويلفّونه في شيء ما . وبصرتُ بالوجه الصغير القاتم وباليد القاتمة ولكنني لم أره يتحرك ، ولم اسمعه يبكي . وكرّر الطبيب ما كان قد فعله له من قبل . لقد بدا الطبيب قلقا مضطربا .
وقلت :
ـ « لا . لقد كاد يقضي على امه . »
ـ « انها ليست غلطته . ألم تكن تريد غلاما ؟ »
فقلت :
ـ « لا . »
كان الطبيب مشغولا به . لقد رفعه من عقبيه وصفعه كرة اخرى . ولم انتظر لارى ذلك . فقد خرجتُ مندفعا نحو الرواق . كان في استطاعتي الان ان ادخل وارى . واجتزتُ الباب وجزءا من الشرفة . وأومأت اليَّ الممرضات الجالسات عند الدرابزون بأن انزل الى حيث كن يجلسن . وهززت برأسي . لقد كان في ميسوري ان ارى كل شيء في وضوح من موضعي ذاك .
وخيل الي ان كاثرين قد ماتت . لقد بدت ميتة . كان وجهها او الجانب الذي استطعت ان اراه منه ، رماديا . وهناك ، تحت المصباح ، كان الطبيب يخيط الجرح الضخم ، الطويل ، الغليظ الحافتين ، الذي كانت الكلابة قد زادته اتساعا . وكان طبيب اخر متقنع بقناع يقدّم البنج الى كاثرين . وكانت ممرضتان مقنّعتان ايضا تناولان الطبيب ما قد يحتاج اليه من ادوات. ولقد بدا ذلك اشبه بصورة من صور ديوان التفتيش . ولقد ادركتُ وانا أراقب، ان في استطاعتي ان اصبر على متابعة المشهد كله، ولكني كنت سعيدا لاني لم افعل . ولست اظن انه كان في ميسوري ان اراقبهم وهم يُعملون المشراط في جسمها ، ولكني راقبت تلك الربوة العالية التي تكوَّنت حول الجرح ، والتي راح الطبيب يوصدها ، في براعة ، بمثل قطبات الاسكاف العريضة ، وكنت سعيدا بذلك . وحين تم ايصاد الجرح خرجتُ الى الرواق

وشرعت اذرعه من جديد جيئة وذهوبا . وبعد برهة يسيرة خرج الطبيب ايضا .

ـ « كيف حالها ؟ »

ـ « انها في خير . هل راقبتَ العملية ؟ »

لقد بدا مُرهقا .

ـ « لقد رأيتك وانت تخيط الجرح . لقد بدا ذلك الجرح طويلا جدا . »

ـ « أتظن ذلك ؟ »

ـ « نعم . وهل تعتقد ان تلك الندبة سوف تتسطّح ؟ »

ـ « أوه ، طبعا . »

وبعد لحظات اخرجوا النقالة ذات العجلات . واجتازوا بها الرواق مسرعين الى المصعد . ومشيتُ انا في محاذاتها . كانت كاثرين تئنُّ . حتى اذا انتهوا بها الى غرفتها في الدور السفلي ، مدّدوها على السرير . وجلستُ على كرسي عند مقدّم السرير . كان في الغرفة ممرضة . ونهضتُ ووقفت على مقربة من السرير .

كان الظلام قد ران على الغرفة . وبسطت كاثرين يدها وقالت :

ـ « هالو ، ايها الحبيب ! »

كان صوتها ضعيفا جدا ، متعبا جدا .

ـ « هالو ، أيتها الحبيبة ! »

ـ « من أي نوع كان ذلك الوليد ؟ »

فقالت الممرضة :

ـ « هش ! لا تتكلمي . »

ـ « صبي . انه طويل ، عريض ، اسمر . »

ـ « أهو بخير ؟ »

فقلت :

ـ « نعم . انه في حالة ممتازة . »

ورأيت الممرضة تنظر الي وعلى وجهها انطباعة غريبة .

وقالت كاثرين :

ـ « انا متعبة الى حد مخيف . ان الآلام تمزقني تمزيقا . هل انت بخير ايها الحبيب ؟ »

ـ « بخير كثير . لا تتكلمي . »

ـ « لقد كنت رفيقا بي . أوه ايها الحبيب ، اني اتوجع توجّعا رهيبا . كيف شكله ؟ »

ـ « انه يبدو اشبه شيء بأرنب مسلوخ الجلد ذي وجه متغضن كوجوه العجائز ٠ »

فقالت الممرضة :

ـ « يجب ان تغادر الغرفة ٠ فليس ينبغي لمدام هنري ان تتكلم ٠ »

فقلت :

ـ « سوف اخرج ٠ »

ـ « أخرُجْ وتبلّغ بشيء من الطعام ٠ »

ـ « لا ٠ سوف أقف بالباب ٠ »

وقبّلتُ كاثرين ٠ كانت شديدة الشحوب ، ضعيفة ، مرهقة ٠

وقلت للمرضة :

ـ « هل استطيع ان أقول لك كلمة ؟ »

فخرجت معي الى الرواق ٠ ومشيتُ بضع خطوات ٠

وسألتها :

ـ « ما علة الطفل ؟ »

ـ « الم تعرف ؟ »

ـ « لا ٠ »

ـ « انه لم يكن حيا ٠ »

ـ « لقد وُلد ميتا ؟ »

ـ « لقد عجزوا عن حمله على التنفس ٠ كان الحبل السري يطوّق عنقه او شيء من هذا القبيل ٠ »

ـ « واذن فهو ميت ٠ »

ـ « نعم ، و أسفاه ! لقد كان غلاما ضخما رائعا ٠ ظننتُ انك عرفْت ٠ »

فقلت :

ـ « لا ، لم اعرف ٠ من الافضل ان ترجعي وتبقي الى جانب السيدة ؛ »

وجلست على كرسي تجاه طاولة تدلت من جانبها تقارير الممرضات المعلقة بأبازيم ، وأطللت من النافذة ٠ لم يكن في ميسوري ان ارى غير الظلام والمطر المنهمر عبر الضوء المنبعث من النافذة ٠ هكذا اذن ! لقد مات الطفل ٠ هذا هو السبب الذي من أجله بدا الطبيب مرهقا الى ذلك الحد ٠ ولكن لماذا تصرّفوا معه على النحو الذي فعلوه في الغرفة ؟ لقد ظنوا انه قد يسترد وعيه ويشرع في التنفّس في اغلب الرأي ٠ ولم اكن ذا دين ، ولكنني كنت اعلم انه كان علينا ان نعمّده ٠ ولكن ماذا لو لم يتنفّس قط ؟ انه لم يتنفّس ٠ انه لم يعشْ ٠

قط الا في أحشاء كاترين . لقد أحسست به يرفس بقدميه هناك في أحيان كثيرة . ولكني لم أحس بذلك منذ اسبوع . لعله كان مختنقا طوال هذه الفترة . يا للطفل الصغير البائس ! شد ما تمنيت لو اني اختنقت على هذه الشاكلة ! لا . انا لم اتمنَّ هذا . ومع ذلك فلا داعي لان نتعجل الموت . ان كاثرين تشرف على الموت الان . تلك هي القصة دائما . اننا نموت . اننا لا نتعلم شيئا . اننا لا نجد متسعا من الوقت لكي نتعلم . ان الايام تدفعنا الى الملعب، وتلقّننا قواعد اللعبة ، حتى اذا ارتكبنا الغلطة الاولى اغتالتنا. اغتالتنا من غير سبب مثل ايمو . او أعطتنا السفلس مثل رينالدي . ولكنها لا بد ان تغتالنا اخر الامر . في استطاعتك ان تتأكد من ذلك . انتظر قليلا تجد ان دورك قد حان .

ذات يوم ، وكنت في المعسكر ، أذكيتُ النار بقطعة ضخمة من الحطب يغطيها النمل من أطرافها جميعا . وما ان شرعتْ في الاشتعال حتى اندفعت النملات ، اولا ، نحو المركز حيث كانت النار ، ثم ارتدَّت على اعقابها وهرعت نحو الطرف الاخر . حتى اذا اصبح هذا الطرف مغطًى كله بالنمل تساقطت النملات في النار . لقد خرج بعضها من النار ، وقد احترقت اجسادها وتسطّحت ، ونجت بأنفسها غير دارية الى أين كانت تذهب . ولكن الكثرة العظمى منها اندفعت نحو النار ، ثم انكفأت نحو الطرف البارد حيث احتشدت لتسقط اخر الامر في النار . واذكر اني فكرت آنذاك ان نهاية العالم قد دنت، وانه قد اتيحت لي فرصة رائعة لكي اكون مسيحيا مخلصا فأرفع قطعة الحطب من النار والقي بها الى حيث تستطيع النملات ان يغادرنها الى الارض. ولكني لم أفعل شيئا غير قَذْف الحطبة بملء كوب صفيحيٍّ من الماء ، لكي افرغ ذلك الكوب فأصبَّ فيه الويسكي قبل ان اضيف الماء اليها . واحسب ان قذف الحطبة المشتعلة بكوب الماء هذا لم يزد النملات الا احتراقا .

وهكذا كنت الان جالسا في الرواق ، أنتظر ان أسمع كيف كانت حال كاثرين . ولم تخرج المرضة ، فما كان مني الا ان اتجهت ، بعد برهة قصيرة، نحو الباب ، ففتحته في كثير من الرفق ، وألقيت نظرة على الغرفة . ولم أستطع ان ارى بادىء الامر ، لان الرواق كان مضاء بنور ساطع ، ولان الغرفة كانت مظلمة . ثم اني رأيت المرضة جالسة على مقربة من السرير ، ورأس كاثرين على الوسادة ، وقد استوى بطنها استواء كاملا تحت الغطاء الابيض . ووضعت المرضة اصبعها على شفتيها ، ثم نهضت ومضت الى الباب . وسألتها :

ـ « كيف حالها ؟ »

فقالت الممرضة :

ـ « انها بخير · يتعيّن عليك ان تذهب وتتنـاول طعـام العشاء ، وفي استطاعتك ان ترجع بعد ذلك اذا شئت · »

ورحت أخطو في الرواق ، ثم هبطتُ السلـم ، وغادرت المستشفـى الى الشارع المظلم ، وتقدّمتُ ، تحت المطر ، نحو المقهى · كانت الانوار ساطعة في المقهى ، وكان كثير من الناس جالسين الى الموائد · ولم أجد مكانا شاغرا، فأقبل أحد النُدل نحوي ، وتناول سترتي وقبعتي المبللتين ودلني على مكان عند مائدة مواجهة لرجل عجوز كان يحتسي الجعة ويطالع صحيفة المسـاء · وجلست وسألت النادل :

ـ « ما هو صحن اليوم ؟ »

ـ « يخنة بلحم العجل ، ولكن لم يبق منها بقية · »

ـ « ما الذي أستطيع ان أتناوله ؟ »

ـ « لحم خنزير بالبيض ، او بيض مع الجبن ، او شوكروت · »

فقلت :

ـ « لقد أكلت صحنا من الشوكروت ظهيرة هذا اليوم · »

فقال :

ـ « هذا صحيح · هذا صحيح · لقد أكلتَ صحنا من الشوكروت ظهيرة هذا اليوم · »

كان رجلا في خريف العمر ، ذا صلعة تناثرت على صفحتها الملساء شعرات متفرقة · وكان ذا وجه رفيق ·

ـ « ماذا تريد ؟ لحم خنزير بالبيض ام بيضا مع الجبن ؟ »

ـ « لحم خنزير بالبيض ، وشيئا من الجعة · »

ـ « جعة خفيفة غير قوية ؟ »

فقلت :

ـ « نعم · »

فقال :

ـ « لقد تذكرتُ · لقد احتسيتَ جعة خفيفة ظهيرة هذا اليوم · »

وأكلت لحم الخنزير بالبيض ، وشربت الجعة · كان لحم الخنزير بالبيض في طبق مستدير ـ لحم الخنزير تحت ، والبيض فوقه · وكان ساخنا جدا ، فما ان وضعت اول لقمة في فمي حتى تعيّن علي ان آخذ جرعة من الجعة لكي

أبرِّد فمي . لقد كنت جائعا . فسألـــت النادل ان يقدّم الي طبقـــا اخر . واحتسيت عدة كؤوس من الجعة . ولم أكن افكر في شيء على الاطلاق ،ولكني طالعتُ صحيفة الرجل الجالس قبالتي . وكان الموضوع يدور على الثغرة التي أحدثت في الجبهة البريطانية . وحين ادرك اني كنت اقرأ قفا جريدته سارع الى طيّها .. وفكّرت في ان اطلب الى النادل ان يأتيني بجريدة ، ولكني كنت عاجزا عن تركيز تفكيري . كان جو المقهى حارا ، وكان الهواء فيه فاسدا . وكان كثير من رواد المقهى يعرفون بعضهم بعضا ، وكان ورق اللعـب دائرا على بضع موائد . وكان النُدل منهمكين في حمل الاشربـة من المشرب الى الموائد . ودخل رجلان ، ولم يستطيعا ان يجدا مكانا يجلسان فيه . لقد وقفا تجاه المائدة التي كنت أجلس اليها . وطلبتُ زجاجة جعة أخرى . ولم أكن مستعدا لمغادرة المقهى . ذلك ان أوان العودة الى المستشفى لم يكن قـد حان بعد . وحاولت ان لا افكر ، وان التزم الهدوء الكامل . ووقف الرجلان حولي، ولكن احدا من الزبائن لم يغادر مقعده ، وهكذا انصرفا . واحتسيت كأس جعة اخرى . وكانت الصحون قد تراكمت الان أمامي ، على المائدة . وكان الرجل الجالس قبالتي قد نزع نظارتيـه ، ووضعهما في علبتهما ، وطوى صحيفتـه ودسّها في جيبه ورفع كأس شرابه وأنشأ يجيل طرفه في الغرفة . وفجـأة استشعرت ان علي ان ارجع . وناديت النادل ، ودفعت الحساب ، وارتديت سترتي ، واعتمرت بقبعتي واندفعت نحو الشارع ، ورحت امشي مصعّدا نحو المستشفى ، تحت وابل من المطر .

وفي الدور العلوي التقيت المرضة تجتاز الرواق .

وقالت :

ـ « لقد تلفنت لك منذ لحظة ، على رقم فندقك . »

وغار شيء ما في صدري .

ـ « ما المسألة ؟ »

ـ « لقد اصيبت مسز هنري بنزف الدم . »

ـ « هل استطيع ان ادخل ؟ »

ـ لا . ليس الان . ان الطبيب عندها . »

ـ « وهل النزف خطر ؟ »

ـ « انه خطر جدا . »

ودخلت الممرضة الغرفة ، وأوصدت الباب . وجلستُ انا في الرواق. كان كل شيء قد اضمحلّ في باطني . ولم افكر . كنت عاجزا عن التفكير . لقد

عرفتُ انها ستموت ، ولقد صليت لكي يمدَّ الله في اجلها • لا تدعها تموت• أوه ، أيها الرب ، أرجوك ان لا تدعها تموت • سوف افعـــل كـــل شيء في سبيلك اذا لم تدعْها تموت • ارجوك ، ارجوك ، ارجوك ، ايها الرب العزيز، لا تدعها تموت • أيها الرب العزيز ، لا تدعها تموت • ارجوك ، ارجوك ، لا تدعها تموت • ارجوك ، يا الهي ، ان تحول بينها وبين الموت • انا على استعداد لان افعل كل ما تأمرني به اذا حلْتَ بينها وبين الموت • لقد اخذت الطفل ، ولكن لا تدعها تموت • لم يكن في ذلك بأس ، ولكن لا تدعها تموت • ارجوك، ارجوك ، أيها الرب العزيز ، لا تدعها تموت •

وفتحت الممرضة الباب ، واومأت الي باصبعهـا داعيـة اياي ان ادخـل • وتبعتها الى الغرفة • ولم ترفع كاثرين بصرها عندما دخلت • ومضيت الى جانب الفراش • كان الطبيب واقفا قرب السرير من الناحية المقابلة • ونظرت كاثرين الي وابتسمت • وانحنيت فوق السرير ، وشرعتُ انتحب •

وقالت كاثرين في رقة بالغة :

ـ « أيها الحبيب المسكين ! »

لقد بدت رمادية •

وقلت :

ـ « انت بخير ، يا كاث • انك تستردين عافيتك • »

فقالت : « اني سأموت • »

وتمهَّلت لحظة ثم أضافت :

ـ « انا اكره ذلك • »

وأمسكت بيدها •

فقالت : « لا تمسَّني • »

فأفلتُّ يدها • وابتسمتْ • وقالت :

ـ « أيها الحبيب المسكين • لا بأس ، بامكانك ان تمسَّني ما شئت • »

ـ « سوف تستردين عافيتك ، يا كاث • انا أعلم انك سوف تستردين عافيتك • »

ـ « كنت أعتزم ان أكتب لكَ رسالة خشية ان يحدث شيء ، ولكني لم أفعل • »

ـ « هل تودين ان أستدعي كاهنا او أي امرىء اخر لكي يراكِ ؟ »

فقالت : « لا اريد غيرك • »

ثم أردفت بعد صمت :

ـ « انا لست خائفة . كل ما في الامر اني اكره ذلك . »
فقال الطبيب : « يجب ان لا تسرفي في الكلام على هذا النحو . »
فقالت كاثرين : « حسن . »
ـ « هل تريدين مني ان افعل ايما شيء ، يا كات ؟ هل استطيع ان آتيك بأي شيء ؟ »
فابتسمت كاثرين وقالت : « لا . »
ثم أضافت بعد لحظة :
ـ « انك لن تقول لاية فتاة اخرى ما كنت تقوله لي ، او تفعل معها ما كنا نفعله معا ، أليس كذلك ؟ »
ـ « لا ، على الاطلاق . »
ـ « ومع ذلك ، فأنا اريد ان تعاشر فتيات اخريات . »
ـ « انا لا اريد شيئا من هذا . »
فقال الطبيب :
ـ « انت تسرفين في الكلام . مستر هنري يجب ان يخرج . في استطاعته ان يرجع في ما بعد . انك لن تموتي . ينبغي ان لا تكوني غبيّة . »
وقالت كاثرين :
ـ « حسن . سوف أعود عما قريب فأقضي الى جانبك ليالي بكاملها . »
لقد كان عسيرا جدا عليها ان تتحدّث .
وقال الطبيب :
ـ « أرجوك ان تغادر الغرفة . انك لا تستطيعين ان تتكلمي . »
وغمزتني كاثرين بعينها . كان وجهها رماديا .
وقلت : « سوف اغادر الغرفة . »
وقالت كاثرين : « لا تقلق ايها الحبيب . انا لست خائفة البتة . انها دعابة قذرة ليس غير . »
ـ « يا حبيبتي العزيزة الشجاعة ! »
وانتظرت في الرواق . انتظرت دهرا طويلا . ثم ان الممرضة فتحت الباب، وتقدمت نحوي .
وقالت : « انا اخشى ان تكون مسز هنري في حالة سيئة جدا . اني خائفة عليها . »
ـ « هل ماتت ؟ »
ـ « لا . ولكنها فقدت الوعي . »

والذي يبدو انها اصيبت بنزف دموى اثر نزف دموي . لقد عجزوا عن وضع حد لذلك . ودخلتُ الغرفة ومكثت الى جانب كاثرين حتى قضت نحبها . كانت فاقدة وعيها طوال الوقت . وما ان انقضت برهة يسيرة حتى اسلمت الروح .

وخارج الغرفة في الرواق ، تحدثتُ الى الطبيب :

ـ « هل ثمة شيء ان افعله هذه الليلة ؟ »

ـ « لا . ليس ثمة ما تفعله . هل استطيع ان اوصلك الى فندقك ؟ »

ـ « لا . شكرا . سوف أبقى هنا فترة قصيرة . »

ـ « انا ادري انه ليس ثمة ما يقال . انا لا استطيع ان اقول لك ... »

فقلت : « لا . ليس ثمة ما يقال . »

وقال : « الى اللقاء . ألا استطيع ان أوصلك فندقك ؟ »

ـ « لا . شكرا . »

وقال :

ـ « لم يكن ثمة وسيلة غيرها . لقد برهنت العملية الجراحية ... »

فقلت : « انا لا اريد ان اتحدث عن ذلك . »

ـ « اني مستعدٌ لايصالك الى فندقك . »

ـ « لا . شكرا . »

ومضى لسبيله مجتازا الرواق . ومضيت انا نحو باب الغرفة .

وقالت احدى الممرضات :

ـ « انت لا تستطيع ان تدخل الان . »

ـ « ولكني اريد ان ادخل ... »

ـ « ليس في استطاعتك ان تدخل الان . »

ـ « أخرجي انتِ من هنا . ولتخرج الممرضة الاخرى ايضا . »

ولكني بعد ان اخرجتُهما وأغلقتُ الباب واطفأت النور ، عرفتُ ان لا فائدة من ذلك كله . كنت اشبه شيء برجل يودّع تمثالا . وبعد لحظة ، خرجت وغادرت المستشفى . وانقلبتُ عائدا الى الفندق ، تحت المطر .

انتهى

مطبعة العلوم
حارة حريك . لبنان